

الْبُؤْسَاءُ

الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ
فِي خَمْسَةِ جُلْدَات



دار العلم للملايين



البُؤْسَاءُ

لشاعر فرنسيّة العظم
فيكتور هيجو

المجلد الخامس

نقله إلى العربيّة
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين
بيروت

ABDEEN

البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القِسْمُ الْخَامِسُ

جَانُ ثَقَالِجَانُ

الكتاب الأول

الحرب بين أربعة جدران

١

« كارييد » • ضاحية سان انطوان
و « سيلا » ضاحية التامبل

إن المتراسين الأشد رسوخاً في الذاكرة ، واللذين قد يشبر اليهما مراقب الأمراض الاجتماعية ، لا ينتسبان إلى العهد الذي تقع فيه أحداث هذا الكتاب . فهذان المتراسان — وكل منهما رمز ، ذو شكل مختلف ،

• كارييد Charybde و Scylla تيارات مائية وصفور شهيرة في مضيق مسينا كان الملاحون للقضاء يخافونها اعظم الخوف فيحاولون اجتنابها فلا يكادون ينجون من بعضها حتى يرقوا في بلاد الآخر .

الحالة رهية - إنما انبثقا من الأرض أيام ثورة حزيران ١٨٤٨ المشؤومة ،
أكبر حرب شوارع شهدتها التاريخ .

ولكن يتفق في بعض الأحيان ان ذلك القانط الكبير - الرعاع -
يحتج ، حتى على المباديء ، حتى على الحرية ، والمساواة ، والاخاء ،
حتى على الاقتراع العام ، حتى على حكومة الجميع بواسطة الجميع .
من اعماق آلامه المريرة ، من خيانتها ، من ضروب حرمانها ، من
حمايتها ، من شذائدها . من أنجرتها الويثة ، من جهالاتها . من
ظلماتها . وعندئذ يشن السوق الحرب على الشعب .
إن الصعاليك يهاجمون الحق العام ؛ ان حكومة الدهماء تنمرّد على
الشعب .

تلك أيام فاجعة . ذلك بان ثمة دائماً مقداراً ما من الحق في هذا
الجنون . إن ثمة انتحاراً في تلك المبارزة . وهذه الكلمات ، التي
يُقصد بها إلى الاهانة ، الصعاليك ، الرعاع ، حكومة الدهماء ، السوق ،
ثبتت - وأأسفاه - خطيئة اولئك الذين يحكمون أكثر مما تثبت خطيئة
اولئك الذين يتألمون . تثبت خطيئة اصحاب الامتيازات أكثر مما تثبت
خطيئة المنبوذين .

اما نحن فلسنا نلفظ هذه الكلمات ، ابدأ ، إلا في أسى وفي
احترام . لأنه حين تسبر الفلسفة الحقائق التي تتصل بها ، فإنها كثيراً ما
تجد فيها ضروباً من العظمة عديدة إلى جانب مظاهر البؤس والشقاء .
لقد كانت اثينا خاضعة لحكم الدهماء . والصعاليك هم الذين صنعوا
هولندية . والسوق أنقذت رومة غير مرة . والرعاع اتبعوا يسوع المسيح .
ليس ثمة مفكر لم يتأمل في وقت ما عظمة الطبقة الوضيعة .

ولا ريب في ان القديس جيروم كان يفكر في هؤلاء الرعاع ، وفي
جميع هؤلاء الفقراء ، وفي جميع اولئك الصعاليك ، وفي جميع
هؤلاء البؤساء الذين انبثق منهم الرسل والشهداء ، عندما اطلق هذه

إن حفاظ هذه الجمهرة التي تتألم والتي تدمى ، إن عنفها في تحريف المبادئ التي هي حياتها ، ومقاومتها الفعالة للقانون ، كلها انقلابات شعبية ، وينبغي أن تُكبت . إن الرجل المخلص ليتفانى من أجل ذلك ، وهو يقاوم هذه النزعات بسبب من حبه نفسه لتلك الجمهرة . ولكن ما أكثر ما يستشعر أنها معنورة ، حتى وهو يعارضها ، وما أكثر ما يجلبها حتى وهو يقاومها ! أنها واحدة من تلك اللحظات النادرة التي نحس خلالها ، ونحن نعمل ما يجب أن نعمله ، شيئاً يحبط تدابيرنا وينصحننا بعدم الذهاب إلى أبعد . نحن نصر ونثابر ، إننا مكرهون على ذلك . ولكن الضمير ، على الرغم من ارتياحه ، محزون : واداء الواجب بشوهِه انقباض في الفؤاد .

ولنسارع إلى القول إن حزيران عام ١٨٤٨ كان حادثاً خارقاً للعادة ، وأنه يكاد يكون من المتعذر على المرء أن يصنفه في فلسفة التاريخ . وكل ما قلناه اللحظة ينبغي أن يوضع جانباً عندما ننظر في تلك الفتنة القريضة التي نستشعر فيها قلق العمل المقدس يطالب بحقوقه . كان ينبغي أن تُقمع . كان هذا هو الواجب . ذلك لأنها هاجمت الجمهورية . ولكن ، أي شيء كان حزيران ١٨٤٨ في الحقيقة ؟ ثورة الشعب على نفسه .

وحين يظل الموضوع نصب العين لا يكون ثمة استطراد . فليسمع لنا إذن أن نلفت نظر القاريء إلى المتراسين القريدين إلى أبعد الحدود ، اللذين تحدثنا عنهما اللحظة ، واللذين ميزا تلك الثورة :

لقد سد أحدهما ضاحية مان انطوان ، وحمل الآخر منافذ ضاحية التامل . واولئك الذين نهضت أمامهم ، تحت سماء حزيران الزرقاء النيرة ، هاتان الرائعتان الرهيتان من روائع الحرب الاهلية ، لن ينسوها أبداً الدهر .

كان مئراس سان انطوان هائلا مخيفاً ، كان يتألف من ثلاثة ادوار ، وكان طوله سبعمئة قدم . لقد سد فم الضاحية العريض من اقصاه إلى اقصاه ، يعني ثلاثة شوارع . ولقد نهض مخدداً ، ممزقاً ، مسنناً ، مجزأً ، مثلماً بشق هائل ، مستنداً إلى أكوام من الحجارة كانت هي نفسها بروجاً بارزة ، دافعاً روئوساً هنا وهناك ، متكئاً في قوة على أكمي بيوت الضاحية الضخمتين — نهض مثل سد سيكلوبيّ ، في اعماق تلك الساحة الرهيبة التي شهدت اليوم الرابع عشر من تموز . وتدرّج تسعة عشر مئراساً على طول الشوارع ، خلف ذلك المئراس الرئيسي . ولوقد نظرت إليه مجرد نظر اذن لأحسست في الضاحية بذلك الألم الهائل المحتضر الذي بلغ تلك اللحظة الاخيرة التي تتحول فيها الشدة إلى كارثة . من اي شيء شُيد ذلك المئراس ؟ من انقاض ثلاثة بيوت ، كل منها ذو ستة ادوار ، سوّيت بالارض لهذا الغرض ، — كذلك قال بعضهم . ومن اعاجيب الاحقاد جميعاً ، — كذلك قال بعضهم الآخر . كان له ذلك المظهر المبكي الذي تتخذه جميع اعمال البغض : الخراب . وقد تقول : من الذي أقام ذلك ؟ وقد تقول ايضاً ومن الذي دمره ؟ كان ارتجال الفورة . انظر ! هذا الباب ! هذا الحاجز المشبك ! هذا الافريز ! اطار النافذة هذا ! هذا الكانون المكسور ! هذا الرجل المصدوع ! إيتوا بكل شيء ! اطرحوا كل شيء ! إدفعوا ، دخرجوا ، إحفروا ، خربوا ، إهدموا كل شيء ! كان تعاون الرصيف ، والحصاة ، ولوح الخشب ، والقضيب الحديدي ، والخرقة ، واللوح الزجاجي المحطم ، والكرسي المجرد من قشه ، وبقايا الملفوف ، والمزقة ، والثوب البالي ، واللعنة . كان عظيماً وكان صغيراً . كان الحفرة التي لا قرار لها زيتفها الاختلاط والعماء في

• نسبة الى جماعة السيكلوب الاسطورية ، وقد سبق لتعريف بها . والمقصود مثل سدّ جبار .

الحال . الكتلة قرب النرة ؛ شقة الحائط المهذومة والصحن المكسور .
تأخ متوعد بين جميع الفضلات . كان ميسيف ه قد طرح صخرته
هناك ، وكان يعقوب قد طرح كسرة قدره . وعلى الجملة فقد كان
شيئاً فظيلاً . كان آكروبوليس الحفاة . كانت عربات مقلوبة توعّسر
المنحدر . وكانت عجلة نقل قائمة هناك ، بالعرض ، ومجورها مسدد
إلى السماء ، فكأنه ندبة فوق تلك الواجهة الصاخبة . وكانت عربسة
عمومية مرفوعة في إبتهاج ، بقوة الايدي ليس غير ، فوق قمسة
للركام ، وكأنما أراد مهندسو تلك الوحشية ان يضيفوا الطيش إلى الرعب—
نقول كانت تلك العربة تقدم مجرّها المجرد عن دابته إلى خيول الهواء
المجهولة . كانت تلك الكتلة اللججارة ، طمي الفتنة ، تمثل للعقل صورة
اوسا فوق بيليون . في كل الثورات . عام ٩٣ فوق عام ٨٩ ، التاسع من
تيرميدور فوق العاشر من آب ، الثامن عشر من برومير فوق الحادي
والعشرين من يناير ، قانديمير فوق بريربال ، و١٨٤٨ فوق ١٨٣٠ .
وكان المكان يستحق تلك المشقة ، وكان ذلك المتراس خليقاً بأن يبرز في
نفس المكان الذي اختفى منه الباستيل . ولو ان الاوقيانوس استطاع
ان ينشئ سدوداً اذن لبناها على هذا النحو . وكانت سورة الفيضسان
منطبعة على ذلك السد الشامه . أيّ فيضان ؟ الجمهور . كان خليقاً بالمرء
ان يحسب انه يرى اللغظ متحجراً . كان خليقاً به ان يظن انه سمع
فوق ذلك المتراس ، وكأنما كانت هناك فوق قفبرها نخلات التفسد

• Styrpho ابن ليول ملك كورنث ، وقد افنهر بقسوته الفظيمة ، وتقول الاسطورة انه
حكم عليه بعد موته بأن يهجر في جهنم سفرة ضخمة فوق قمة جبل حيث كانت تلك للصخرة
تعاود السقوط من غير انقطاع .

• Pélion جبلي في تسالية مجاور لجبل أوسا Ossa . وتقول الاساطير انه يوم اراد
« الهالقة » ان يصعدوا الى السماء ، به ان ثاروا على جوبيتر ، وضمو بيليون فوق
اوسا . ومن هنا نشأ قولهم : « ركم بيليون فوق أوسا » . يعني بذلك المستحيل الوصول
الى غاية ما .

بالقوة ، تلك النحلات السوداء الهائلة الناشطة في الظلام . اكان دغلا ؟
أكان عيداً من اعياد باخوس ؟ أكان معقلاً ؟ لقد بدا وكأن الدوار قد
شيده بحقق الجناح . كان ثمة شيء من المستنقع في ذلك المتراس ، وشيء
من اوليمبوس في تلك الفوضى . كنت ترى ، في عماء مليء باليأس ،
عوارض سقوف ، وقطعاً من علالي بورق جدرانها ، وأطر نوافذ
بزجاجها كله مزروعاً في الانقراض ، تنتظر المدفعية ، ومداخن مقتلعة ،
وخزائن ، وطاولات ، ومقاعد ، في تقوض نابح ، وألفاً من تلك
الاشياء الحقيمة ، التي يأبأها الشحاذ نفسه ، والتي تنطوي في آن معا
على هيجان وعدم . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنها كانت حطام شعب ،
حطاماً من خشب ، من حديد ، من برونز ، من حجارة ، وان ضاحية
سان انطوان قد جرفتها هناك إلى بابها ، بضربة هائلة من مكنتة ،
مشيدة متراسها من بؤسها . ثم ان بعض قُرم الحطب الشبيهة بقطع
الخشب الغليظة القصيرة ، والسلاسل المفككة ، والهياكل الخشبية ذوات
المساند الخاصة بالرفوف المتخذة شكل المشائق ، والدواليب النائثة أقبياً
من بين الانقراض - إن هذه كلها دغمت بصرح الفوضى ذاك صورة
النكال القديم الذي تحمّله الشعب . لقد اتخذ متراس سان انطوان من كل
شيء سلاحاً . لقد انبثق من هناك كل ما كان في ميسور الحرب
الاهلية ان تقذف به رأس المجتمع . انها لم تكن معركة . كانت داء
بلغ غاية استفحاله ، فالبنادق القصيرة الخفيفة التي دافعت عن ذلك المعقل
والتي كان بينها بعض البنادق العادية ، نثرت فتاتاً من الخزف المطلي ،
وعظّميات ، وأزرار سترات ، وحتى دواليب طاولات صغيرة -
فدائف خطرة بسبب من الرصاص . كان ذلك المتراس مجنوناً ؛ لقد
أطلق نحو السحب ضجيجاً يمتنع على الوصف . وفي بعض الاحيان كان
يتحدى الجيش فيغطي نفسه بالحشود وبالعاصفة . لقد توجهت جمهرة من
الروؤوس اللامعة ، وملاءه تألب متراس . كانت قمته شائكة بالبنادق ،

والسيوف ، والعصي ، والفؤوس ، والحراش ، وكان علم احمر كبير
يخفق مع الريح ، وكان في ميسور المرء ان يسمع صيحات القيادة ،
واناشيد الهجوم ، وقرع الطبول ، وتنهيدات النسوة ، وضحكات الجائعين
المظلمة الضارية . كان ضخماً مواراً بالحياة . وانطلق منه هزيم رعود
يحيّل اليك انه منطلق من ظهر بهيمة كهربائية . لقد حجبت روح الثورة
بسحابها تلك القمة التي زجر فيها صوت الشعب الشبيه بصوت الله .
وانبعث جلال عجيب من ذلك العملاق المليء بالنفائات . كان كومة من
الاقذار ، وكان جبل سيناء .

وكما قلنا من قبل لقد هاجم باسم الثورة ، ماذا ؟ الثورة . كان
هذا المتراس - المصادفة ، القوضى ، الانشده ، سوء التفاهم ،
المجهول - يواجه الجمعية التأسيسية ، وسيادة الشعب ، والاقتراع العام ،
والامة ، والجمهورية . وكان هو الكارمانبول = متحدياً المارسييز .
نحده مجنوناً ولكنه باسل ، ذلك بأن هذه الضاحية العتيقة بظلة .

وتبادلت كل من الضاحية ومتراسها المعونة . لقد عضدت الضاحية
المتراس ، وقوى المتراس الضاحية . وامتد المتراس الضخم مثل جرف
تخطمت عليه سنراتيجية جنرالات افريقيا . إن كهوفه ، ونواميه الغريبة ،
وثنائيله ، وحداثه قد كشرت ، إذا جاز التعبير ، وضحكت صاخرة
تحت الدخان . وتلاشت القذائف هناك في الاشكال . وغاصت القنابل
للصغيرة هناك ، والتهمت ، وغارت . ولم توفق كرات المدافع إلا إلى
إحداث الحفر ، فأى فائدة من تسديد القذائف إلى السماء ؟ وأخذت
للكتائب ، المتعودة اشد مشاهد الحرب وحشية ، تنظر بعين قلقة إلى
هذا المتراس البهيمي الضاري ، الشبيه في تشوكه بالختيز البري ، وفي
ضخامته بالجبل .

وعلى ربيع فرسخ من هناك ، عند زاوية شارع التامل الذي يصب

• فوغ من الرقص الفنتائي شاع عام ١٧٩٣ أثناء الثورة الفرنسية وقد سبق التعريف به .

في الجادة قرب « شاتو دو » ، إذا أتلفت عنقك في جسارة وراء النقطة التي تشكلها واجهة مخزن دالماني ، تلمح في المدى البعيد ، خلف القناة ، في الشارع الذي يرتقي منحدرات الـ « بيغل » ، عند قنـة الكتيب ، جداراً غريباً يصل إلى الدور الثاني من واجهات المنازل ، ضرباً من صلة الوصل بين البيوت القائمة إلى اليمين والبيوت القائمة إلى اليسار ، وكأن الشارع طوى بنفسه ، كرة ثانية ، جداره الأعلى لكي يحتجب على نحو مفاجيء . كان ذلك الجدار مبنيّاً من حجارة الارصفة . كان مستقيماً ، صحيحاً ، عابساً ، عمودياً ، مسوّى بالزاوية المثلثة ، مشيداً بخيط البناء ، مقوّماً بالفادن . لم يكن فيه اسمنت البتة . من غير شك ، ولكن ذلك لم يوهن من معماريته الخشنة ، شأنه في هذا شأن بعض الاسوار الرومانية . ومن ارتفاعه كان في ميسور المرء ان يحزر عمقه . كان أعلى السور متوازياً ، رياضياً ، مع قاعدته . وههنا وهناك كان في استطاعتك ان تتبين ، على السطح الرمادي ، كوى تكاد لا تُلحظ ، تشبه خيوطاً سوداء . وكانت مسافات متساوية تفصل ما بين هذه الكوى . وكان الشارع مقفراً على مرمى النظر . وكانت النوافذ كلها والابواب كلها موصدة . وفي الخلفية ، نهض ذلك السد الذي جعل الشارع زقاقاً غير نافذ . جدار جامد هاديء . لم يكن في ميسورك أن ترى احداً ، أو أن تسمع شيئاً . لا صيحة ، لا صوت ، لا نفّس . قبر من القبور .

وغمرت شمس حزيران الباهرة هذا الشيء الزهيب بالضياء ،
ذلك كان متراس صاحبة التامبل .

حتى إذا بلغ المرء الارض ورآها ، كان من المتعذر عليه ولو كان اكثر الناس جرأة ، ان لا يقلق أمام هذا الشبح الخفي . كان محكماً متداخلاً ، متراكباً ، مستقيماً ، متناسقاً ، وفاجعاً . كان المرء يستشعر ان رئيس هذا المتراس كان عالماً بالهندسة ، أو شبحاً . كان المرء يراه ،

وكان يتكلم بهمس . حتى إذا غامر احد بين الفينة والفينة - جندي أو ضابط أو ممثل للشعب - وحاول ان يعبر الشارع المهجور ، سُمعت صفرة حادة وخفيضة ، وسقط عابر السبيل جريحاً أو صريعاً . أما إذا نجح فعندئذ كانت كرة من كرات المدافع تُرى غائبة في احد المصاريع الموصدة ، في فسحة بين حجري بناء ، في جص جدار من الجدران . وكانت تلك الكرة كبيرة في بعض الاحيان . ذلك ان رجال المتراس كانوا قد صنعوا من قطعتين من انبوب غاز حديدي مصبوب ، سُد احد طرفيه بالأسر . وطين المواقد ، مدفعين صغيرين . وهكذا لم يبق ثمة هدر للبارود لا طائل تحته . كانت كل طلقة فعالة تقريباً . وكانت ههنا وههناك بضعة جثث ، وبرك دم على الرصيف . وانا اذكر كيف راحت فراشة بيضاء تطوف في الشارع جيئة وذهوباً . إن الصيف لا يتنازل عن عرشه .

وفي الجوار كانت ارضية ابواب العربات مغطاة بالجرحى . كنت تحس نفسك منظوراً من شخص لم تره ، وان الشارع بطوله كان معرضاً لنيران البنادق .

وإذا احتشدوا خلف صهوة الجواد التي يشبهها مدخل ضاحية التامبل ، راح الجنود المهاجمون ينظرون ، في هدوء ورباطة جأش ، إلى هذا المتراس الحداثي ، إلى هذا السكون ، إلى هذا اللاتأثر ، الذي انبثق منه الموت . لقد زحف بعضهم على الارض حتى باغوا أعلى منحني للجسر ، محاذرين ان تبدو قلائسهم بأية حال .

وابدى الكولونيل مونتينار الباسل إعجابه بهذا المتراس بهزة من كتفيه . وقال لأحد المندوبين :

« ما اعظم بناءه ! إنك لا ترى فيه حجراً يتقدم حجراً . إنه مصنوع من خزف صيني ! »

• اللمار étoupe خيط من ليف تشد به الراح السفينة ، ج . دسر .

وفي تلك اللحظة ، كسرت قذيفة الصليب الذي كان على صدره ،
وخرّ الكولونيل على الارض .
وقيل :

« يا لهم من جناء ! ولكن دعهم يبرزون ! دعنا نراهم ! لأنهم
لا يجراؤن ! لأنهم يختبئون ! » لقد صمد متراس ضاحية التامبل ،
يدافع عنه ثمانون رجلا ويهاجمه عشرة آلاف ، صمد ثلاثة أيام .
وفي اليوم الرابع فعلوا مثل ما فعل في زاتشا . وفي قسنطينة . . . لقد
تقبوا البيوت ، ونفذوا من السقوف ، واستولوا على المتراس . إن احداً
من الثمانين جباناً لم يفكر في الفرار . لقد قتلوا جميعاً ، ما عدا رئيسهم
بارتيليمي ، الذي ستنحدث عنه اللحظة .

كان متراس سان انطوان صخّب الرعود ، أما متراس التامبل فكان
الصمت . كان بين هذين المتراسين فرق ما بين القطيع والمشووم . لقد
بدا احدهما اشبه بالقم القافر ، وبدا الثاني وكأنه قناع .
وإذ سلمنا بأن ثورة حزيران المظلمة العملاقة كانت مؤلفة من غضب
وأحجية ، فقد كان في استطاعتنا ان نستشعر التين ، في المتراس الأول ،
وان نستشعر أبا الهول في المتراس الثاني .

وقد بنى هذين المتراسين رجلان ، احدهما كورنيه ، والآخـر
بارتيليمي . فأما كورنيه فقد اقام متراس سان انطوان ، وأما بارتيليمي
فقد اقام متراس التامبل . وكان كل من المتراسين صورة عـسن
الذي بناه .

كان كورنيه رجلاً طويل القامة ، كان ذا منكبين عريضين . ووجه

• واحة مجاورة لبمسكره في مقاطعة قسنطينة بالجزائر وقد صمدت في وجه الحصار
الفرنسي عام ١٨٤٩ صموداً باسلاً . ثم ان الفرنسيين شنوا عليها هجومًا عنيفاً فسقطت .
• قسنطينة ، من اعمال الجزائر ايضاً وقد قاومت الفرنسيين مقاومة بطولية
عام ١٨٣٦ - ١٨٣٧

أحمر ، وقبضة ساحقة ، وقلب جريء ، ونفس وفية ، وعن سليمة الطوية فظيعة . كان بأسلاً ، هماماً ، سريع الغضب ، عاصفاً ، وكان أكثر الناس وداءً ، وأشد المقاتلين هولاً . كانت الحرب ، والصراع ، والقتال هي الهواء الذي يحيا عليه ، والذي يجعله انيساً طلق المحيا . كان في ما مضى ضابطاً بحرياً ، ومن حركاته ومن صوته كان في ميسورك ان تحس انه انبثق من الاوقيانوس ، وانه جاء من العاصفة ، لقد واصل الاعصار في المعركة . وفي ما عدا العبقرية كان في كورنيه شيء من دانتون ، كما كان في دانتون - في ما عدا الألوهية - شيء من هرقل . أما بارتيليمي ، الهزيل ، القميء ، الشاحب ، السكتيت فكان ضرباً من « المتشرد » الفاجع ، الذي لطمه احد رجال الشرطة ذات يوم ، فأنشأ يراقبه ، ويترصده ، حتى قتله ، فأدخل سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وهو في السابعة عشرة . ثم انه خرج من هناك ، وأقام ذلك المتراس .

وفي ما بعد - وذلك شيء فظيع - قتل بارتيليمي كورنيه ، وكانا كلاهما لاجئين في لندن . كانت مبارزة فاجعة . وبعد فترة يسيرة ، وقع بارتيليمي في شرك واحدة من تلك المجازفات التي تتمرج فيها العاطفة ، تلك الكوارث التي ترى فيها العدالة الفرنسية اسباباً تخفيفية ، ولا ترى العدالة الانكليزية فيها غير الموت ، ثم شئت بارتيليمي . إن الصرح الاجتماعي المظلم مركب على نحو جعل هذا الكائن البائس الذي انطوى على ذكاء ، راسخ من غير شك ، وربما كان عظيماً ، نقول جعل هذا الكائن البائس يبدأ - بفضل الحرمان المادي ، والظلمة الاخلاقية - في سجن الاشغال الشاقة بفرنسة ، وينتهي بالمشقة في انكلترا . ان بارتيليمي لم يرفع ، في جميع الاحوال ، غير راية واحدة ، هي الزاية السوداء .

ما الذي يمكن ان 'يصنع في الهوة غير الكلام ؟

إن للسته عشر عاماً اثرها البعيد في التربية السرية للثورة ، ولقد فهمها حزيران عام ١٨٤٨ خيراً مما فهمها حزيران عام ١٨٣٢ . وهكذا فإن متراس شارع ال « شانفريري » لم يكن غير رسم تقريبي خفيف ، وغير جنين بالقياس إلى هذين المتراسين الجبارين اللذين صورناهما منذ لحظة ، ولكنه كان بالنسبة إلى ذلك العهد شيئاً رهيباً .

وافاد المتوردون - تحت بصر آنجولزاس ، ذلك لأن ماريوس ما عاد ينظر إلى شيء - افادوا من الليل . لأنهم لم يرموا المتراس فحسب ، ولكنهم كبروه أيضاً . لقد رفعوه قدامين اثنين . وكانت القضبان الحديدية المغروزة في حجارة الأرصفة تشبه رماحاً في معتقل . وكانت مختلف ضروب النفايات المضافة والمنقولة من كل ناحية قد ضاعفت التعقد الخارجي . لقد حوّل المتراس ، في براعة ، إلى جدار من الداخل ، وإلى دغل من الخارج .

لقد اعدوا بناء السلم المصنوع من حجارة الارصفة ، ذلك السلم الذي كان يمكن المرء من الصعود مثل سور حصن من الحصون . لقد نظموا المتراس ، ونزعوا الردم من الحجرة السفلى ، واتخذوا من المطبخ مستشفى ، وأتموا تضييد الجراح ، وجمعوا البارود المتناثر على الارض والطاولات ، وسبكوا كرات القنابل ، وصنعوا الخراطيش ، وحلجوا النسالة ، ووزعوا اسلحة الصرعى . وتفتقوا داخل المتراس ، والتقطوا الحطام ، وحملوا الجثث .

وركموا الموتى بعضهم فوق بعض في زقاق مونديتور ، وكانوا لا يزالون سادته . وظل الرصيف أحمر ، فترة طويلة ، في تلك البقعة . وبين القتلى كان اربعة من رجال حرس الضواحي الوطني . وكان آنجولراس قد رغب في ان توضع ملابسهم العسكرية جانباً . ونصح آنجولراس القوم بأن يرقلوا ساعتين . وكانت النصيحة من آنجولراس أمراً . ومع ذلك فإن ثلاثة نفر أو اربعة أفادوا منها . واصطنع فوبي هاتين الساعتين لحفر هاتين الكلمتين على الجدار المواجه للخمارة :

« فلتحي الشعوب ! »

والواقع أن هاتين الكلمتين ، اللتين نقشنا في الحجر بواسطة مسمار ، كانتا لا تزالان مقروءتين على ذلك الجدار في عام ١٨٤٨ . وأفادت النسوة الثلاث من استراحة الليل ، فاختفين نهائياً ، مما جعل المتمردين يتنفسون في حرية أعظم . لقد وجدن ملجأً لهن في احد البيوت المجاورة . وكان معظم الجرحى قادرين على متابعة القتال . راغبين في ذلك . كان ثمة ، فوق فراش للدواجن وبعض حزم القش ، في المطبخ الذي أمسى الآن مستشفى . خمسة رجال ذوي جراح خطيرة ، اثنان منهم كانا من الحرس البلدي . لقد ضمدت جراحات الحرس البلدي اولاً . لم يكن قد بقي في الحجرة السفلى غير مابوف ، تحت غطاءه الاسود ، وجافير موثقاً إلى الوند . وقال آنجولراس :

« هذه غرفة الاموات . »

وفي داخل هذه الحجرة ، المضادة على نحو باهت بشمعة . وعند الطرف الاقصى نفسه ، وقد نهضت المائدة الجنائزية خلف الوند مثل قضيب حديدي أفقي ، كان ضرب من صليب ضخّم قائم قد تكون من

جافير واقفاً ، ومابوف ممدداً .

كان عريش العربية العمومية ، رغم أن وابل القلائف قد ذهب بجزء منه ، لا يزال عالياً إلى درجة تمكنهم من أن يرفضوا عليه إحدى الرايات .

وعلق آنجولراس ، الذي كان يتمتع بصغمة الزعيم هذه ، وهي ان يعمل دائماً ما يقوله . علق سترة العجوز القليل . المخزوقة الدامية ، بهذا العريش .

ولم يكن في ميسورهم الآن ان يتناولوا اياماً وجبة من وجبات الطعام . فلم يكن ثمة لا خبز ولا لحم . كان رجال المتراس الخمسون قد استهلكوا وشيكاً . خلال الست عشرة ساعة التي قضوها هناك ، مؤن الحانة الهزيلة . وبعد مدة بعينها . لا بد لكل متراس صامد من ان ينتهي إلى ما انتهت اليه « ميدوز » . إن عليهم ان يستسلموا للمجاعة . كانوا في الساعات الاولى من يوم ٦ حزيران الاسبارطي حين طسوق المتمردون « جان » ، في متراس سان ميرتي ، وراحوا يسألونها خبزاً صائحين : « نريد شيئاً نأكله ! » فما كان منها إلا ان اجابت جميع اولئك المتقاتلين بقولها : « ولماذا ؟ الساعة الآن الثالثة . وعند الساعة الرابعة سنموت ! »

ولاذ لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، فقد حظر آنجولراس الشراب . لقد حرّم الخمر ، وقنّن العرق .

ووجدوا في القبونحواً من خمسين زجاجة ملأى ، ومختومة ختماً محكماً . وفحصها آنجولراس وكومبوفير . وفيها هما يغادران القبو قال كومبوفير :

• Méduse باخرة غرقت على الساحل الغربي من افريقيا ، في ٢ تموز سنة ١٨١٦ وقد لجأ ١٤٩ من ركبها الى طوف انشئ على عجل . واخذت الامواج تعث به في هرض البحر . وبعد اثني عشر يوماً عثر على هذا الطوف ، وعلى جثث خمسة عشر شخصاً ممن كانوا على متن الـ « ميدوز » . اما الباقون فكانوا قد امسوا طاماً للاسماك .

« انها من المخزونات العتيقة التي خلفها هوشلو الاب الذي بدأ حياته بقالا . »

ولاحظ بوسوويه :

— « ينبغي ان تكون خمرأ أصلية . من حسن الحظ أن غرائبر ناثم: ولو قد كان قائماً على رجله اذن لكان علينا ان نبذل جهداً كبيراً لانقاذ هذه الزجاجات . »

وعلى الرغم من الحمسات ، وضع آنجولراس « الفيتو » على الزجاجات الخمس عشرة . ولكي لا يمسها احد ، ولكي تبدو وكأنها مقدسة ، امر بأن توضع تحت المائدة التي سجي عليها الأب مابوف . وحوالى الساعة الثانية صباحاً احصوا انفسهم . كان قد بقي منهم سبعة وثلاثون .

كان الصبح قد آذن بالانبلاج . وكانوا قد اطفأوا ، منذ لحظات ، تلك الشعلة التي أعيدت إلى مغرزها ، في حجارة الارصفة . وكان الجزء الداخلي من المتراس غارقاً في الظلمة ، وبدا من خلال الذعر الغسقي الغامض شبيهاً بسطح سفينة متروعة الصواري والقلوع . وفي غدوهم ورواحهم ، تحرك المقاتلون فيه مثل اشكال سوداء . وفوق وكر الظلام الرهيب هذا ، كانت طوابق البيوت الخرساء ترتسم على نحو شاحب . وفي القمة برزت المداخلن المحزونة . وكانت السماء مصطبغة بذلك اللون الفاتق المتردد الذي قد يكون أبيض ، وقد يكون أزرق . كانت بعض الطيور ترسل ، فيما هي تنطلق في الجو ، اغاني بهيجة . وكان على سطح المنزل العالي ، الذي يشكل خلفية المتراس ، بوصفه متجهاً نحو الشرق ، انعكاس نور أزهر . وعند كوة الدور الثالث ، عبثت ريح الصباح بشعرات رأس الرجل الميت . البيضاء .

وقال كورفيراك لفويبي :

— « انا سعيد لأطفائهم الشعلة . فتلك الشعلة المشددة وسط الريح ،

كانت ترعجني . لقد بدت وكأنها خائفة . إن ضوء الشعلة يشبه حكمة
الجبان . انه غير واضح ، لأنه يرتجف . »
الفجر يوقظ العقول كما يوقظ الطيور . كان كل امرء يتحدث .
واستوحى جرلي الفلسفة من هزة كانت تطوف حول احد الميازيب
وهتف :

— « ما هي الهزة ؟ إنها تصحيح . ذلك ان الله بعد ان خلق الفأرة
قال : « ولكن ، لقد ارتكبتُ حماقة . » ثم خلق الهرة . الهرة هي
تصويب الفأرة . والفأرة ، زائد الهرة ، هي مسودة الخليقة منقحة
مصححة . »

وانشأ كومبوفير ، وقد احاط به الطلاب والعمال ، يتحدث عن
الموتى ، عن جان بروفير ، عن باهوريل ، عن مابوف ، وحتى عن
« لو كابوك » ، وعن حزن آنجلوراس الكالنج . قال :

— « هارموديوس . وأريستوجيتون ، بزوتوس ، كبرياس . . . ،
كرومويل ، شارلوت كورداي . . . ، صاند — كلهم عرفوا ،
بعد الطعنة ، لحظات من الألم النفسي المريع . ان فؤادنا لشديد الارتعاش ،
وان الحياة الانسانية هي من الغرابة بحيث انه في الاغتيال المدني نفسه ،
وحتى في الاغتيال المحرر ، إذا كان ثمة اغتيال محرر ، نجد الندم على
قتلنا رجلا ، يفوق البهجة بخدمتنا الجنس البشري . »

• Harmodius اثني تأمر مع صديقه أريستوجيتون Aristogiton ضد ولدي بيسمترات :
هيارك وهيباس (٥٣٤ ق.م) .

• Chéréas هو الخطيب الشعبي الروماني الذي قتل الامبراطور الروماني الظالم كاليغولا ،
عام ٤١ م .

• Charlotte Corday هي الفتاة الشابة التي طعنت « مارا » ، في الحمام ، بخنجر ،
انتقاماً للجيرونديين . وقد اعدمت في ١٧ تموز عام ١٧٩٣ وليس لها من العمر غير خمس
وعشرين سنة .

•••• Louis Sand وطني الماني اغتال الوزير كوتزيو Kotzebue (١٧٩٥ - ١٨٢٠)

وبعد لحظة - فذلك هو مسرى المحادثة - ومن طريق الانتقال من قصائد جان بروفير ، راح كومبوفير يقارن ما بين مترجمي « الجييورجيك » ، بين « رو » و « كورنان » ، وبين « كورنان » و « دوليل » ، مشيراً إلى بعض المقاطع التي ترجمها مالفيلتر ، وبخاصة العجائب المتصلة بموت قيصر . ومن هذه الكلمة ، قيصر ، ارتد الحديث إلى بروتوس .

وقال كومبوفير :

- « لقد صرع قيصر بحق . كان شيشرون قاسياً على قيصر ، وكان مصيباً . إن هذه القسوة ليست ذمّاً . فحين يتصدى زولوس .. لاهانة هوميروس ، وحين يتصدى ميفيوس لاهانة فيرجيل ، وحين يتصدى فيزيه لاهانة مولير ، وحين يتصدى البابا لاهانة شيكسبير ، وحين يتصدى فرينون ... لاهانة فولتير ، نجد أنفسنا أمام قانون قديم من قوانين الحسد والكراهية مطبقاً نافذاً . إن العبقرية تجتذب الالهانة ؛ وكبار الرجال يُنبح دائماً في وجوههم ، قليلاً أو كثيراً . ولكن زولوس شيء ، وشيشرون شيء آخر . كان شيشرون قاضياً بالروح كما كان بروتوس قاضياً بالسيف . انا أنكر ، من ناحيتي ، تلك العدالة النهائية : السيف ؛ ولكن العصور القديمة رضيت بها . إن قيصر ، الذي انتهك حرمة الروبيكون .. » ، والذي كان يخلع الرتب المنبثقة من الشعب وكأنها منبثقة

• Géorgiques ، او اعمال الارض ، قصيدة تعليمية ذات موضوع زراعي من نظم الشاعر فيرجيل .

• • Zoilus ناقد من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ، تهجم على هوميروس تهجماً مضحكاً

(١٧١٨ - ١٧٧٦)

• • • Frénon ناقد شهير كان خصماً لفولتير وغيره من « الفلاسفة » الذين هياؤا الجو

لثورة الفرنسية .

• • • • • نهر صغير يفصل إيطاليا عن غالة (فرنسة) ، وكان مجلس الشيوخ الروماني قد حظر اجتيازه على الرومان وقاية لرومة من عدوان القوات الفرنسية . ولكن قيصر هزى بهذا الحظر واجتاز النهر .

من ذات نفسه ، والذي أبى ان يقف عند دخول الشيوخ - ان قبصر
هذا قد مثل ، كما قال اوتروبيوس * ، دور الملك ، بل دور
الطاغية تقريباً *regia ac poenē tyrannica* . كان رجلاً عظيماً ، لا فرق .
الدرس أعظم . لقد أثرت جراحاته الثلاث والعشرون في أقل مما أثر
في البصاق على وجه يسوع المسيح . لقد طعن قبصر بأيدي الشيوخ ، أما
المسيح فقد لطمه الخدم . وكلما عظمت الاهانة ، نستشعر
وجود الله . »

وهتف بوسوويه ، وهو يطل على المتحدثين من أعلى ركام الحجارة ،
وبندقيته القصيرة الخفيفة في يده :
- « ايه سيداتينيوم ، ايه ميرهينوس ، ايه بروباليث ، ايه يا مني
ايتيد ! اوه ! من ذا الذي يهب لي القلعة على ان الفظ شعر هوميروس
مثل اثيني من لوريوم أو من ليدابتيون ! »

٣

نور وظلام

كان آنجولراس قد مضى للقيام باستكشاف . لقد سلك زقاق شارع
مونديتور ، زاحفاً في حذاء البيوت .

وينبغي ان نقول ان المتعربين كانوا مفعمين بالأمل . فالطريقة التي
صدوا بها الهجوم اثناء الليل ، كانت قد قادتهم تقريباً إلى ان يزدروا ،
مقدماً ، هجوم الفجر . لقد انتظروه ، ولقد ابتسموا له . لم يعد لديهم
شك في نجاحهم ، كما لم يكن لديهم شك في قضيتهم . وفوق هذا ،

* Eutrope مؤرخ لاتيني من اهل القرن الرابع الميلادي وضع كتاباً مفيداً يعرف
به « مختصر التاريخ الروماني » .

فقد كان واضحاً ان النجدة توشك ان تُقبل . لقد اعتمدوا عليها . وفي سهولة التنبؤ المظفر ذاك ، الذي هو جزء من قوة الفرنسي المقاتل ، قسموا النهار الذي كان قد آذن بالانبلاج إلى ثلاث مراحل متميزة . ففي الساعة السادسة صباحاً سوف تقبل كتيبة « كانت قد عولجت » ، وعند الظهر يعم العصيان باريس ، وعند المغيب : الثورة .

لقد سمعوا ناقوس سان ميرّي الذي لم يسكت لحظة منذ المساء « وكان ذلك دليلاً على أن المتراس الآخر ، المتراس الكبير ، متراس جان » ، لا يزال صامداً .

وتناقلوا هذه الآمال كلها في ضرب من الهمس البهيج ، الرهيب في وقت معاً ، همس كان شبيهاً بأزيز قفير من النحل في حالة حرب .

وظهر آنجلوراس من جديد . لقد رجع من جولته السرية القائمة في الظلمة الخارجية . واصغى لحظة إلى هذا الابتهاج كله وهو متصالب الذراعين ، واحدى يديه على فمه . ثم إنه قال ، نضراً متورداً في بياض النهار النامي :

« إن جيش باريس كله يقاتل . إن ثلث ذلك الجيش يضغط على المتراس الذي انتم فيه . وإلى جانب الحرس الوطني ، لاحظت قلانس كتيبة المشاة الخامسة . وراية الفرقة السادسة . سوف يُشن عليكم الهجوم خلال ساعة . أما الشعب ، فقد كان امس يغلي على نار ، ولكنه لا يتحرك هذا الصباح . ليس ثمة ما نتوقعه ، وليس ثمة ما نرجوه . ولن نفوز من احدى الضواحي بعد الآن باكثر مما سنفوز من احدى الكتائب . لقد تخلى القوم عنكم . »

وسقطت هذه الكلمات على ازيز الجموع ، فأحدثت مثل ذلك الأثر الذي تحدثه في النحل قطرات العاصفة الاولى . لقد اعتصموا كلهم بالصمت . كانت لحظة من لحظات ذلك السكوت الذي لا سبيل إلى وصفه

حين يكون في ميسور المرء ان يسمع حفيف اجنحة الموت .
وكانت تلك اللحظة قصيرة ٥

وصاح من اعماق الجموع الاشد إظلاماً ، صوت يخاطب آنجلوراس :
- « ليكن ذلك . فلنجعل ارتفاع المتراس عشرين قدماً ، ولنبق
كلنا فيه . ايها المواطنون ، دعونا نقدم احتجاج الجثث . فلنظهر للملأ
انه إذا ما تخلى الشعب عن الجمهوريين فأن الجمهوريين لا يتخلون عن
الشعب . »

وحزرت هذه الكلمات اذهان الجميع من سحابة القلق الشخصي الأليمة .
لقد استقبلت بهتاف حماسي ٥

ولم يعرف قط اسم الرجل الذي تكلم هكذا . كان رجلاً مغموراً
من لابسى الدُرَاعَات ، رجلاً مجهولاً ، منسياً ، بطلاً عابراً ، ذلك الغفل
العظيم الذي تقع عليه دائماً في الازمات الانسانية والولادات الاجتماعية ،
والذي ينطق في اللحظة المناسبة ، وعلى نحو سامٍ ، بالكلمة الحاسمة ،
والذي يتلاشى في الظلام بعد ان يمثل ، لحظة من زمان ، على وميض
البرق ، الشعب والله .

كان هذا العزم الصارم قد ملأ جو اليوم السادس من حزيران ١٨٣٢
إلى درجة جعلت المتمردين في متراس سان ميرتي يطلقون في الساعة
نفسها تقريباً هذه الصيحة التي امست تاريخية والتي أوردت في المحاكمة :
« سيان أجاجوا لمساعدتنا ام لم يجيئوا . فلنمت هنا حتى الرجل الأخير ! »
وهكذا نرى ان كلا من المتراسين اتصل بالآخر على الرغم من انهما
كانا منفصلين مادياً .

نقص خمسة وزيادة واحد

بعد ان تكلم الرجل المجهول الذي رسم « احتجاج الجثث » وبعد ان أعطى صيغة النفس المشتركة ، ارتفعت من جميع الشفاه صيحة راضية ورهية على نحو غريب ، صيحة حدادية المعنى ، مظفرة الجرس :

— « فليحي الموت ! فليبق كلنا هنا ! »

فقال آنجولراس :

— « ولماذا كلنا ؟ »

— « كلنا ! كلنا ! »

وأضاف آنجولراس :

— « المركز منيع . والمتراس جيد . ثلاثون رجلاً يكفون . لماذا

نضحي بأربعين ؟ »

فأجابوا :

— « لأن أياً منا لا يريد ان يغادر المكان . »

فصاح آنجولراس ، وكان في صوته ارتجاج يكاد يكون غاضباً :

— « ايها المواطنون ، الجمهورية ليست غنية بالرجال حتى تتحمل

النفقات على غير طائل . الزهو اسراف . وإذا كان من واجب بعضنا

أن يمضي لسبيله فإن هذا الواجب ينبغي ان يؤدي كأي واجب آخر . »

وكان لآنجولراس ، رجل المبدأ ، على اخوانه في المذهب ، ضرب

من السلطان الكلبي الذي ينبثق من المطلق . ومع ذلك ، وبرغم هذا السلطان

الكلبي ، فقد كان ثمة دممة .

ولاذ رأى آنجولراس ، وكان زعيماً حتى رؤوس اصابعه ، إلى القوم

يدمدون ، أصر على رأيه . ثم عاد إلى القول في شموخ :

« على كل من يخشى ان لا نكون اكثر من ثلاثين أن يعبر
عن رأيه . »
وتضاعفت الدممة .

ولاحظ صوتٌ منطلق من احد الجموع :
« وإلى هذا ، فمن اليسر جداً ان نطالب المراء بالانصراف »
المراس محاصر .
وقال آنجولراس :

« ليس من ناحية الاسواق . إن شارع مونديتور سالك . ومن
طريق الـ « بريشور » يستطيع المراء ان يصل إلى الـ « مارشيه
ديزينوسانت » .

واضاف صوت آخر من بين الجمع :
« وهناك سوف يلقون القبض عليه : انه سوف يقع هناك على
جماعة من الحرس الحربي أو من جند الضواحي . انهم سوف
يرون رجلاً يمضي وقد ارتدى دُرّاعة واعتمر بقلنسوة . فيسألونه : « من
اين اقبلت ، يا هذا ؟ انت من جماعة المراس ، اليس كذلك ؟ »
وينظرون إلى يديك . ان رائحة البارود تعبق منك . ويعدمونك رمياً
بالرصااص . »

ومن غير ان يجيب ، مس آنجولراس كتف كومبوفير ، وذهبا معاً
إلى الحجرة السفلى .

ثم انهما رجعا بعد لحظة . كان آنجولراس يحمل بين يديه
البذلات العسكرية الأربع التي كان محتفظاً بها . وتبعه كومبوفير ،
حاملاً الاحزمة المصنوعة من جلد الجاموس ، والقلائس العسكرية :
وقال آنجولراس :

« بهذه الملابس العسكرية يستطيع احدكم ان يختلط بالجنود
ويهرب . إن معي ما يكفي أربعة »

وطرح البذلات العسكرية الاربع على الارض غير المرصوفة :
 ولم تستبد بالحشد الباسل هزة ما . وتولى كومبوفير الكلام فقال :
 - « اسمعوا ، ينبغي ان يكون عندنا قليل من الرحمة . أتعلمون
 ما المسألة التي تواجهنا هنا ؟ إنها مسألة نساء . فلنرى . هل نمة زوجات ،
 نعم أم لا ؟ هل هناك اطفال ، نعم أم لا ؟ هل يوجد أم لا يوجد
 امهات بهزن المهدي باقداهمن ويتراكم من حولهن عدد من الصغار ؟ إذا
 كان بينكم من لم ير قط ثدي امرأة مرضعة فليرفع يده : آه . انتم
 تريدون ان تموتوا . انا اريد ذلك ايضاً ، أنا الذي يخاطبكم . ولكني
 لا اريد ان امسحز اشباح النساء تلف اذرعها من حولي . تريدون ان
 تموتوا ، ليكن لكم ذلك ، ولكن لا تميتوا الآخرين . ان انتحارات مثل
 هذه التي سوف تتم هنا لسامية رفيعة : ولكن الانتحار ضيق . وهو
 لا يزيد توسيعاً . ولحظة يمسه أولئك المجاورين لك . يصبح الانتحار
 قتلاً : فكروا في الرؤوس الصغيرة الشقراء . وفكروا في الشعور البيضاء :
 اسمعوا ، منذ لحظة ليس غير ، وقد اخبرني آنجولراس بذلك الآن ،
 رأى عند زاوية شارع الد سيني ، شاباً مضاعاً ، شمعة في نافذة
 حقيرة ، في الطابق الخامس ، وعلى زجاج النافذة رأى خيالا مرتعشاً
 لرأس امرأة عجوز يبدو انها سلخت الليل كله في الانتظار . إنها قد
 تكون ام واحد منكم . حسناً ، فليذهب هذا الرجل . وليهرع إلى أمه
 قائلاً : « أماه ، ها انا ذا ! » وليطمئن فؤاده ، فأن العمل هنا سوف
 يظل سائراً على ما يرام ، وحين يعيل امرواً اقرباءه بعمله ، فليس له
 الحق في ان يضحي بنفسه : إن معنى ذلك تخليه عن أسرته . وأولئك
 الذين لهم بنات ، وأولئك الذين لهم اخوات ! هل تفكزون في ذلك ؟
 إنكم تريدون أن تُقتلوا ، ولنفرض انكم قد متم . هذا حسن ، والغد ؟
 فتيات صغيرات ليس عندهن خبز ، ذلك شيء فظيع . الرجل يشحذ ،
 والمزاة تيسع . آه ، أولئك المخلوقات القاتنات ، المليحات جسداً ،

الناعمات جداً ، المعتمرات بقلانس من الازهار ، اللواتي يغنين ، اللواتي
يثرثن ، اللواتي يملأن البيت بالعفة ، اللواتي يشبهن عطراً حياً ، اللواتي
يثبتن وجود الملائكة في الجنة بطهر العذارى على الأرض ، جانّ تلك ،
ليزا تلك ، ميمي تلك ، هاته الكائنات المعبودة الثبيلة اللواتي هن نعمتاك
وموضع فخرك ، آه ايها الرب ، سوف يجعن ! ما الذي تريدون ان
اقوله لكم ؟ إن ثمة سوقاً للأجساد البشرية ، وليس بأيديكم الشبحية
المرتعشة من حولهن تستطيعون ان تحولوا بينهن وبين الدخول إلى تلك السوق !
فكروا في الشارع ، فكروا في الرصيف المغطى بالسالكين ، فكروا في
الدكاكين التي تغدو النسوة امامها ويرحن عاريات الاكتاف ، عسبر
الوحد . هاته النسوة ايضاً كن طاهرات . فكروا بأخواتكم ، اعنسي
اولئك الذين لهم منكم اخوات . الشقاء ، البغاء ، الشرطة ، سان لازار .
— ذلك ما سوف تسقط فيه تلك الفتيات الجميلات الناعمات ، تلك
المعجزات الواهناات اللواتي ابدعهن الحياء والطف والجمال ، الأشد
نضرة من زنبق شهر نوار ! آه ! لقد قُتلتُم ! آه ، انتم لم تعودوا إلى
جانبيهم ! حسن جداً ، لقد رغبتُم في انقاذ الشعب من الملكية ، فأسلمتم
فتياتكم إلى البوليس . ايها الاصدقاء ، خذوا حذرکم ، ليكن عندكم
شيء من الرأفة . ان النساء ، النساء البائسات ، ليس من عادتهن أن
يفكرن طويلاً . نحن نعتر بأن النساء لم يتلقين ثقافة الرجال ، نحن نحظر
عليهن القراءة ، نحن نحظر عليهن التفكير ، نحن نحظر عليهن الانهماك
في السياسة . فهل نحظرون عليهن ، الليلة ، ان يذهبن إلى معرض
الجثث المجهولة للتعرف إلى جثثكم ؟ اسمعوا ، إن اولئك الذين لهم
عائلات يجب ان يكونوا اولاداً طيبين ، فيصافحونا ويمضوا لسيلهم ،
تاركين لنا مهمة العمل ، هنا ، وحدنا . أنا اعلم جيداً ان الانصراف
يقتضي شجاعة ؛ إنه عسير . ولكن كلما ازداد الشيء عسراً كان اجدر

• سجن النساء واصلاحيتهن في ذلك العهد .

بالثناء والتقدير . قد يقول أحدكم : « إن عندي بندقية ، أنا فسي
المتراس ، ليكن ما يكون ، سوف ابقى . » ليكن ما يكون ، هذه
عبارة قد قيلت باكراً جداً . ايها الاصدقاء ، هنالك غد ؛ انتم لسن
تكونوا هنا في ذلك الغد ، ولكن أسركم سوف تكون . ويا لها من
آلام ! انتبهوا ، طفل جميل ، يمور بالصحة ، طفل ذو وجنتين
مثل التفاح ، طفل يهذر ، ويثرثر ، ويلغو ، ويضحك ، ويعبق بالعبر
تحت القبلة ، هل تعلمون ما الذي يحل به حين نتخلى عنه ؟ لقد رأيته
واحداً ، صغيراً جداً ، لا يزيد طوله عن هذا المقدار . كان ابوه قد
مات . وكان بعض الناس الفقراء قد تلقفوه بدافع الشفقة ، ولكن لم
يكن عندهم خبز يأكلونه . كان الطفل جائعاً دائماً . وكانت الدنيسا
شتاء . ولم يبك البتة . لقد رأوه يحوم حول الموقد الذي لم ينطو على نار
قط ، والذي كانت مدخته ، كما تعرفون ، مخصصة بالطين الاصفر .
ونزع الطفل باصابعه الصغيرة شيئاً من ذلك الطين ، وأكله . كان يتنفس
في عسر ، وكان وجهه شديد الشحوب ، وكانت رجلاه رخوتين ،
وكان بطنه منتفخاً . إنه لم يقل شيئاً . وخاطبوه ، فلم يجب . لقد
مات . لقد حُمل إلى « مستشفى نيكير » ليموت ، وهناك رأيته . كنت
جراحاً في ذلك المستشفى . والآن ، إذا كان بينكم آباء ، آباء يبهج
نفوسهم أن يتنزهوا يوم الاحد ممسكين بأيديهم الكبيرة القوية ايدي
اطفالهم الصغيرة ، فليتخيل كل منهم ان ذلك الطفل كان ولده . هذا
الطفل البائس ، وانا اتذكره جيداً ، يبدو لي اني اراه الآن ، وهو
مدد عارياً فوق مائدة التشريح ، وقد نأت عظامه تحت جلده مثل
القبور تحت أعشاب مقبرة . لقد وجدنا ضرباً من الوحل في معدته .
وكان ثمة رماد في اسنانه . والآن ، دعونا نراجع ضمائرنا ونستشر
قلوبنا . الاحصاءات تظهر ان نسبة الوفيات بين الاطفال الذين تخلى
عنهم آباؤهم تبلغ خمسة وخمسين بالمئة . أنا اعود فأكرر : المسألة

مسألة زوجات ، انها مسألة امهات ، انها مسألة فتيات صغيرات ، انها مسألة أطفال . هل اخاطبكم من اجلكم انتم ؟ نحن نعرف جيداً من انتم . نحن نعرف جيداً انكم كلكم شجعان ، وحق الاله ! نحن نعرف جيداً ان في نفوسكم جميعاً بهجة افتداء القضية العظمى بأرواحكم وفخر ذلك الافتداء . نحن نعرف جيداً انكم تحسون بان كلا منكم قد اختير لكي يموت موتاً نافعاً رائعاً ، وان كلا منكم يعرض بالنواجذ على نصيبه من النصر . حسن جداً . ولكنكم لستم وحدكم في هذا العالم . هناك كائنات اخرى يجب عليكم ان تفكروا فيها . ينبغي ان لا نكون انانيين .

وحنوا رؤوسهم جميعاً وقصد طغت على وجوههم سحابة قائمة :
يا لمتناقضات القلب البشري الغريبة في اسمى لحظاته ! إن كومبوفير ،
الذي تكلم هكذا ، لم يكن يتيماً . لقد تذكر امهات الآخرين ، ونسي
امه ، كان قد اختار الموت . كان « أنانيا » .

وكان ماريوس الصائم ، المحموم ، المسلوب آماله واحداً بعد آخر ،
الجانح إلى الامسى ، اشد انواع الفرق قتاماً ، المشبع بالعواطف العنيفة ،
المستشعر ان النهاية تقترب — كان ماريوس يسترسل اكثر فأكثر في ذلك
الذهول الخيالي الذي يسبق ساعة الهلاك ، دائماً ، حين تختارها
بارادتنا .

كان خليقاً بالعالم الفيسيولوجي ان يدرس فيه الاعراض النامية لذلك
الاستغراق الحمي . المصنف والمعروف عند العلماء ، والذي هو بالنسبة
إلى الألم اشبه بالانخطاف بالنسبة إلى اللذة . إن لليأس ايضاً انخطافه .
وكان ماريوس قد انتهى إلى تلك النقطة . لقد شهد كل شيء وكأنا
كان يفعل ذلك من خارج . وكما قلنا من قبل ، فقد بدت الاشياء ،
الجارية امامه ، وكأنها نائية . لقد رأى الكل . ولكنه لم يتبين التفاصيل

• نسبة الحمى .

لقد رأى الغادين والرائحين من خلال وهج مذهب . وسمع الاصوات تتكلم وكأنما تنبعث من أعماق هوة .

ومع ذلك ، فقد هزه هذا . كان في ذلك المشهد حد مسنون نفذ اليه ، وأيقظه . وكانت تطوف في ذهنه الآن فكرة واحدة ليس غير : أن يموت ، ولم يكن راغباً في الانحراف عنها . ولكنه فكر ، في سرتمته الفاجعة ، انه ليس من المحظر على المرء ، فيما هو يهلك نفسه ، ان ينقذ شخصاً آخر .

ورفع عقيرته قائلاً :

— « أنجولراس وكومبوفير على حق . لا توضحيات على غير طائل : أنا اضم صوتي إلى صوتهما ، وينبغي ان نسرع . ولقد قال لكم كومبوفير الاشياء الحاسمة . ان بينكم نفراً لهم امّ ، لهم امهات ، لهم اخوات ، لهم زوجات ، لهم اطفال . فليغادر هؤلاء صفوفنا ! » ولم يتحرك أحد .

وأعاد ماريوس :

— « على المتزوجين ومعيلى الأسر ان يغادروا الصفوف ! » كانت سلطته عظيمة . صحيح ان أنجولراس كان زعيم المتراس ، ولكن ماريوس كان مخلصه .

وصاح أنجولراس :

— « أنا آمركم بذلك . »

وقال ماريوس :

— « انا اناشدكم ذلك ! »

وعندئذ ، وبعد أن اثارهم كلمات كومبوفير ، وهزم أمر أنجولراس ، وحركتهم صلاة ماريوس ، راح هؤلاء الرجال الابطال يسعى بعضهم ببعض . فقال فتي منهم لرجل في منتصف العمر : « هذا صحيح .

• somnambulisme أو السير اثناء الرقاد .

انت والد أسرة . إذ هب ! فأجابه الرجل : « انت اولى بالذهاب
ان لك اخين تعيلهما . » ونشب نزاع لم يُسمع بمثله من قبل . كما ان
يبدور حول من منهما ينبغي ان لا يسمح لنفسه بأن يوضع عند
باب القبر .

وقال كومبوفير :

« عجلوا ! بعد ربع ساعة يكون الاوان قد فات . »

وواصل آنجولراس :

« ايها المواطنون ، هذه هي الجمهورية ، والاقتراع العام هو

الذي يحكم . عبنوا بانفسكم من الذي ينبغي ان ينصرف . »

وأطاعوا . وما هي إلا بضع دقائق حتى كان خمسة منهم قد عينوا
بالاجماع ، فغادروا صفوف المقاتلين .

وهتف ماريوس :

« لهنم خمسة ! »

ولم يكن ثمة غير اربع بذلات عسكرية .

فاندفع الخمسة يقولون :

« حسن ان واحداً منا يجب ان يبقى . »

وكانت المسألة الآن : من الذي يجب ان يبقى ، ومن الذي

سوف يجد اسباباً تبرر عدم بقاء الآخرين . ونشب النزاع الكبير
كرة اخرى .

« انت ، انت لك زوجة تحبك . » - « أما انت فان عندك

امك العجوز . » - « انت ليس لك لا أب ولا ام ، فما الذي سيحل

بأخوتك الثلاثة الصغار ؟ » - « أنت أب لخمس اطفال . » - « إن

لك الحق في ان تعيش . انك في السابعة عشرة . لم يشن الاوان بعد . »

كانت هذه المتاريس الثورية الضخمة مواعيد بطولات . كان غير

ممکن الوقوع سهلاً هناك . ولم يدهش بعض هؤلاء الرجال من بعض .

وكرر كومبوفير :

« عجلوا ! »

وصاح صوت من بين الجمع يخاطب ماريوس :

« عين انت بنفسك من الذي يجب ان يبقى . »

فقال الخمسة :

« اجل . اختر . سوف نطيعك . »

واعتقد ماريوس الآن أن ليس ثمة مكان لعاطفة ما . ومع ذلك فلم تكذب تراوده هذه الفكرة ، فكرة اختيار رجل للموت ، حتى ارتد دمه كله إلى قلبه . وكان جديراً بلونه ان يشحب لو كان في ميسوره ان يزداد شحوباً .

وتقدم نحو الخمسة ، الذين ابتسموا له . وصاح كل منهم وقد امتلأت عينه بتلك الشعلة الشريفة التي نراها في أعماق التاريخ على
لد « تيرموپيل » :

« انا ! انا ! انا ! »

وعدهم ماريوس في ذهول . كانوا لا يزالون خمسة ! ثم وقعت عينه على البذلات العسكرية الأربع .

وفي تلك اللحظة سقطت بذلة خامسة ، وكأنما كان سقوطها من السماء ، فوق الاربع الآخر .
لقد انقذ الرجل الخامس .

ورفع ماريوس عينيه فرأى مسيو فوشلوفان .

كان جان فالجان قد دخل اللحظة إلى المتراس .

وسواء أكان ذلك بفضل توجيه من شخص ما ، أو بفضل الغريزة ، المصادفة فإنه كان قد اقبل من طريق شارع مونديتور . وبفضـل

• Thermopyles فجاء مشهورة في تسالية ، بين جبل انويه وخليج ماليك حيث حاول ليونيداس مع ثلاثة رجل اسبارطي زحف الفرس الغزاة مظهراً بطولة تكاد تكون اسطورية .

ملابسه الخاصة بالحرس الوطني ، استطاع ان يجتاز الطريق في سر .
ولم يطلق الحارس الذي اقامه المتمردون في شارع مونديتور اشارة الخطر
قط من أجل رجل مفرد من رجال الحرس الوطني : لقد اجاز له ان
يسلك الشارع قائلاً في ذات نفسه : « لعله ان يكون مدداً ، وفي أسوأ
الاحوال اسيراً . » كانت اللحظة بالغة الحرج فهي لا تسمح للحارس
بأن يُشغل عن واجبه وعن مركز مراقبته .

ولحظة دخل جان فالجان المراس لم يلحظه احد . كانت الاعين كلها
مركزة على الرجال الخمسة المختارين وعلى البذلات العسكرية الأربع .
ورأى جان فالجان ، وفهم . وفي صمت ، نزع ملابسه ، وطرحها على
ركام البذلات الاخرى .

وكان الانفعال ممتنعاً على الوصف .

وتساءل بوسوويه :

— « من هذا الرجل ؟ »

فأجابه كومبوفير :

— « إنه رجل ينقذ الآخرين . »

وقال ماريوس في صوت رصين :

— « أنا اعرفه . »

وكان هذا التوكيد كافياً للجميع .

والتفت آنجلولراس نحو جان فالجان وقال :

— « ايها المواطن ، اهلا بك . »

ثم اضاف :

— « انت تعلم انك سوف تموت . »

ومن غير ان يجيب ، ساعد جان فالجان المتمرّد الذي انقذه ، على ارتداء
ثوبه العسكري .

اي افق يرى من أعلى المتراس

كانت حال الجميع ، في ساعة الموت تلك ، وفي ذلك الوطن الذي لا يعرف الرحمة ، قد وجدت حاصلها وذروتها في كآبة آنجولراس العليا .

كان آنجولراس يجسد في ذات نفسه كمال الثورة . ومع ذلك ، فقد كان ناقصاً ، بقدر ما يمكن للمطلق ان يكون ناقصاً . لقد تعلق اكثر مما ينبغي بسان جوست * ، واقل مما ينبغي بـ « آناشارسيس كاوتز » * ، وبرغم ذلك فان عقله ، في جمعية « اصدقاء الالفباء » ، كان قد انتهى إلى ان يتلقى بعض الاستقطاب من أفكار كومبوفير . وكان قد شرع بطرح ، منذ مدة ، شيئاً فشيئاً ، شكل العقيدة الضيق ، واجاز لنفسه ان يمضي في طرق التقدم اللاحبة ، وارتنضي آخر الامر ، كنتطور نهائي ورائع ، تحول الجمهورية الفرنسية العظيمة إلى جمهورية انسانية ضخمة . أما في ما يتصل بالوسائل المباشرة ، في حالة من حالات العنف ، فكان يريد لهم ان يكونوا ذوي عنف . وهو في هذا لم يتغير ؛ وكان لا يزال من تلك المدرسة الملحمية الرهيبة التي تلخص في هذه الكلمة : ثلاث وتسعون

كان آنجولراس واقفاً على السلم المصنوعة من حجارة الارصفة ،

* Saint — Just (١٧٦٧ — ١٧٩٤) عضو المؤتمر الوطني زمن الثورة ، وعضو لجنة السلامة الوطنية ، وكان شديد التطرف في ثورته ، وقد مات على المقصلة مع روبسيير .
* Anacharsis Cloots عضو المؤتمر الوطني في عهد الثورة الفرنسية ، وكان احد مؤسسي « عبادة العقل » ، وقد لقب نفسه بـ « خطيب الجنس البشري » . وقضى نحبه على المقصلة مع الهيريرين (١٧٥٥ — ١٧٩٤)

*** يقصد عام ١٧٩٣ الذي ساد فيه الارهاب الثوري في فرنسا .

ومرفقه على انبوب بندقيته القصيرة الخفيفة . كان يفكر . واجفل
وكأنما كان في غمرة من عصفات ريح . ان للمواطن التي يحشم فيها
الموت مثل هذه الآثار ذوات القوائم الثلاث . وانبعثت من عينيه ،
المفعمتين بالبصر الباطني ، ضروب من النيران المطفأة . وفجأة رفع
رأسه ، وارتد شعره الاشقر إلى الوراء مثل شعر الملاك فوق مركبته
القائمة المصنوعة من النجوم . كان اشبه بعفرة الاسد المروع وسط هالة
من نور . وهتأ آنجولراس :

— « ايها المواطنون ، هل تتصورون المستقبل ؟ شوارع المدن
مغمورة بالضياء ؛ اغصان خضراء على عتبات المنازل ؛ الدول متآخية ؛
الناس متصفين بالعدل ؛ الشيوخ يباركون الاطفال ؛ الماضي
محباً للحاضر ؛ المفكرون يتمتعون بحرية كاملة ؛ المؤمنون ينعمون بالمساواة ؛
السموات للدين ، والرب كاهناً مباشراً ، وقد امسى الضمير مذمماً ؛
لا بغض ؛ الاخاء يجمع ما بين العمل والمدرسة ؛ الشهرة للمكافأة
وللعقوبة ؛ العمل للجميع ؛ القانون في خدمة الجميع ؛ السلام فوق الجميع ؛
لا دماء مسفوحة ؛ لا حزوب ؛ الامهات تغمرهن السعادة ! إن اخضاع
المادة هو الخطوة الأولى ، وتحقيق المثل الاعلى هو الخطوة الثانية . فكروا
في الذي صنعه التقدم حتى الان . ففي العهود القديمة كانت العروق
البشرية ترى في رعب إلى الافعوان الذي نفث فوق الماء ، والتنين الذي
تقيأ ناراً ، والعقاب — هولة السماء — الذي طار بجناحي نسر وبرائث
نمر ، حيوانات رهيبة كانت فوق الانسان . بيد ان الانسان كان قد
طرح أشراكه ، أشراك الذكاء المقدسة ، وكان قد اوقع بالهولاء آخر
الأمر .

لقد روضنا الافعوان ، وهو يدعى المركب البخاري ؛ لقد روضنا
التنين ، وهو يدعى القاطرة ؛ ونحن على وشك ترويض العقاب ، وقد

أمسينا اليوم نملكه ، وهو يدعى المنطاد . ويوم يتم هذا العمل البروميتي .
ويوم يوفق الانسان إلى ان يسخر لارادته تسخيراً نهائياً وهمّ القدماء
الثلاثي ، الافعوان ، والتنين ، والعقاب ، فعندئذ يصبح سيد الماء ،
والنار ، والهواء ، وعندئذ يصبح بالنسبة إلى سائر الخليقة الناشطة
ما كانت الآلهة القديمة بالنسبة اليه هو . الشجاعة ، وإلى الامام ! أيها
المواطنون ، إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى العلم وقد جعل حكومة ، إلى
قوة الاشياء وقد غدت وحدها القوة العامة الوحيدة ، إلى القسانون
الطبيعي الحامل جزاءه وعقوبته في ذات نفسه والمعلن رسمياً بالبرهان
الذاتي ، إلى فجر الحقيقة المطابق لفجر النهار . نحن ماضون نحو اتحاد
الشعوب ؛ نحن ماضون نحو وحدة الانسان . لا أوهام بعد اليوم ؛ لا
طفيليات بعد اليوم . الواقعي محكوماً بالحقيقي ، تلك هي الغاية . ان
الحضارة سوف تقيم محاكمها فوق قمة اوروبة ، وبعد ذلك في وسط
القارات ، في برلمان للذكاء كبير . لقد رثي شيء مثل ذلك من قبل .
ن مجالس اليونان التمثيلية القديمة المعروفة بالأمفيكتيونات
كانت تعقد جلسيتين في العام ، الأولى في دلفي ، مقر الآلهة ، والثانية
في تيرمويل ، مقر الأبطال . وسوف يكون لاوروبة أمفيكتيوناتها ،
وسوف يكون للكرة الارضية أمفيكتيوناتها . إن فرنسا لتحمل بين
جوانحها هذا المستقبل السامي . ذلكم هو حمل . القرن التاسع
عشر . فما رسمته بلاد الاغريق رسماً أولياً جدير بأن يتم على يد
فرنسة . أصغر إلى اذن ، يا فويبي ، أيها العامل الباسل ، يا رجل
الشعب ، يا رجل الشعوب . أنا أجلك . اجل ، انت ترى عصور
المستقبل في وضوح . اجل ، انت على صواب . انت لم يكن لك لا أب

• نبة الى بروميتوس الذي تروي الاساطير انه سرق النار من السماء ، وكان واضح
حجر الاساس في الحضارة الانسانية ..
• الحمل هنا بمعنى الحمل .

ولا ام . فويي . لقد اتخذت من الانسانية أمأ لك ، ومن الحق أبأ لك
إنك سوف تموت هنا ، يعني سوف تنتصر . ايها المواطنون ، مهما
يحدث اليوم ، وسواء انهزمتنا أم انتصرنا ، فأنا سنصنع ثورة . ومثلما
تضيء الحرائق المدينة بكاملها هكذا تنير الثورات الجنس البشري كله .
واي ثورة تلك التي سنصنعها ؟ لقد سبق لي ان قلت : إنها ثورة الحق
ومن وجهة النظر السياسية هناك مبدأ واحد ليس غير : سيادة الانسان
على نفسه . وهذه السيادة التي لنفسي على نفسي تدعى الحرية . وحيث
تشارك اثنتان من هذه السيادات أو اكثر تبدأ الدولة . ولكن ليس في
هذه المشاركة اي تنازل البتة . ان كل سيادة تتخلى عن جزء من ذاتها
لكي تشكل الحق العام . وهذا الجزء متساو بالنسبة إلى الجميع . وتماثل
المقادير التي تتخلى عنها هذه السيادات يدعى المساواة . والحق العام ليس
غير حماية الجميع مشعة على حق كل ، لا اكثر ولا اقل . وحماية
الجميع هذه لكل تدعى الاخاء . ونقطة التقاطع بين هذه السيادات المتآلفة
تدعى المجتمع . ولما كان هذا التقاطع التقاء ، فإن تلك النقطة هي عقدة :
ومن هنا ما ندعوه الرابطة الاجتماعية . وبعضهم يقول العقد الاجتماعي ،
وليس من فرق بين التعبيرين ، لأن لفظة العقد قد صيغت ، اشتقاقياً ،
من فكرة الرابطة . فلفنتفاهم في ما يتصل بالمساواة . لانه إذا كانت الحرية
هي القمة فان المساواة هي القاعدة . المساواة لا تعني ، ايها المواطنون ،
نهوض النبات كله على مستوى واحد ، مجتمعاً من اعشاب ضخمة
وسنديانات صغيرة ؛ جواراً من ضروب الحسد ينحني بعضها بعضاً :
إنه ، مدنياً ، تكافؤ الفرص أمام الكفايات كلها ؛ وسياسياً تساوي
الاصوات جميعاً في القيمة ؛ ودينياً ، تساوي جميع الضمائر فسي
الحقوق . إن للمساواة وسيلة : التعليم المجاني الاكاديمي الحق في
الوصول إلى الالفباء ؛ يجب ان نبدأ بهذا . المدرسة الاولى الزامية
للجميع ، والمدرسة الثانوية متاحة للجميع ؛ ذلك هو القانون . ومن

المدرسة المتماثلة ينبثق المجتمع المتساوي . اجل ، التعليم ! الضياء ! الضياء ! كل شيء ينبعث من الضياء ، وكل شيء يرتد اليه . ايها المواطنون ، ان القرن التاسع عشر عظيم ، ولكن القرن العشرين سوف يكون سعيداً . وعندئذ لن يبقى بعد شيء مما يشبه التاريخ القديم . ولن يتعين على الناس بعد ان يخشوا ، شأنهم اليوم ، فتحاً ، أو غزوا ، أو اغتصاباً ، أو تنافساً بين الشعوب بالاسلحة ، أو اعتراضاً للحضارة متصلاً بزواج ملك ، أو ولادة في انظمة الطغيان الوراثية ، أو تمزيقاً للشعوب بموتمر ، أو تجريئاً ناشئاً عن سقوط اسرة مالكة ، أو صراعاً بين دينين يلتقيان وجهاً لوجه ، مثل تيسين من تيوس الظلام ، فوق جسر اللانهاية . لن يتعين على الناس بعد ان يخشوا الجوع ، والاستغلال ، والبغاء بسبب من العوز ، والبؤس بسبب من انعدام العمل ، وان يخشوا المشقة ، والسيف ، والمعارك ، وجميع لصوصيات المصادفة في غابة المصائب . بل ان في استطاعتنا أن نذهب إلى حد القول : لن تبقى بعد مصائب . ان الناس سوف يكونون سعداء . والجنس البشري سوف ينفذ قانونه كما تنفذ الكرة الارضية قانونها . ولسوف يقام التناغم من جديد بين النفس والنجم . إن النفس سوف تنجذب حول الحقيقة كما ينجذب النجم حول الضياء . ايها الاصدقاء ، إن الساعة التي نعيش فيها ، والتي اخاطبكم فيها ، هي ساعة مظلمة ، ولكن ثمن المستقبل يكون فظيلاً دائماً . الثورة باب ، تؤدي عنده المكوس . اوه ، ان الجنس البشري سوف ينقذ ، وتقال عثرته ، ويوقع في قلبه العزاء . اتنا نوكد ذلك هنا في هذا المتراس . من اين ترتفع صيحة الحب إذا لم ترتفع من قمة التضحية ؟ ايه ايها الاخوة ، هذا مكان الاتصال بين اولئك الذين يفكرون واولئك الذين يتألمون . إن هذا المتراس ليس مصنوعاً من حجارة ارصفة ، أو من ألواح خشب ، أو من حديد ؛ إنه مصنوع من ركامين ، ركام افكار وركام آلام . إن البؤس ، هنا ، يلتقي بالمثل الاعلى . هنا يعانق النهار الليل ،

ويقول له : « سوف اموت معك ، وانت سوف تولد من جديد معي . »
ومن ضغط ضروب الحزن كلها ينبثق الايمان . إن الآلام لتحمل
حشرجتها هنا ، وإن الافكار لتحمل خلودها . وهذه الحشرجة وذاك
الخلود سوف يمتزجان ويشكلان موتنا . ايها الاخوة ، إن ذلك الذي
يموت هنا يموت تحت اشعاع المستقبل ، وإننا لداخلون إلى قبر مضاء
بالفجر . »

وقاطع آنجلوراس نفسه مقاطعة ، ولا نقول انتهى ، وراحت شفتاه
تتحركان في صمت وكأنهما كان لا يزال يخاطب نفسه . ونظروا اليه
في انتباه ، محاولين ان يسمعوا شيئاً اضافياً . لم يكن ثمة تصفيق ، ولكنهم
تهامسوا فترة طويلة . وإذا كان الكلام نفثاً ، فإن ارتجاف العقول يشبه
ارتجاف اوراق الاشجار .

٦

ماريوس تائهاً ، جافير موجزاً

فلنرو ما كان يدور في خلد ماريوس .
ينبغي ان نتذكر حالته الذهنية . فكما ذكرنا منذ لحظة ، كان كل
شيء عنده ، الآن ، حلماً من الاحلام . وكان إدراكه مشوشاً . ويجب
ان نؤكد أن ماريوس كان في ظل الاجنحة الكبيرة السوداء التي تنبسط
فوق المحتضرين من الناس . لقد استشرع انه دخل القبر ، وبدا له انه
قد انتهى إلى الجانب الاخر من الجدار ، ولم يعد يرى وجوه الاحياء
إلا بعيني ميت .

كيف ظهر مسيو فوشلوفان هناك ؟ لماذا كان هناك ؟ ما الذي كان
يبتغي ؟ إن ماريوس لم يطرح ايّاً من هذه الاسئلة . وإلى هذا ، فبسبب

من ان ليأسنا تلك الخاصة التي تجعله يلف الآخرين كما يلفنا ، فقد بدا له ان من المنطقي ان يقبل كل امرئ على الموت .

كل ما في الأمر أنه فكر بكوزيت منقبض الفؤاد .

وفوق هذا ، فان مسيو فوشلوفان لم يتحدث اليه ، ولم ينظر اليه ، بل انه لم يبد انه سمع شيئاً حين رفع ماريوس صوته لكي يقول :
« أنا اعرفه . »

أما ماريوس ، فقد كان في مسلك مسيو فوشلوفان هذا راحة له ، واذا جاز لنا ان نصطنع مثل هذه الكلمة لمثل تلك الانطباعات فيتعين علينا ان نقول ان ذلك المسلك قد سره . فلقد طالما استشعر ان من المستحيل عليه بائماً حال من الاحوال ان يوجه كلمة إلى ذلك الرجل اللغز الذي كان في نظره مبهماً ومهييماً في آن واحد . وكان قد انقضى زمن طويل ايضاً على رؤيته اياه آخر مرة ، مما زاد في قوة تلك الامتحالة ، بالنسبة إلى ماريوس ذي الطبيعة الحية المتحفظة .

وغادر الرجال الخمسة المعينون المتراس سالكين زقاق مونديتور . كانوا يشبهون رجال الحرس الوطني كل الشبه . ولقد غادر واحد منهم المتراس وهو ييكي . وقبل ان يمضوا لسبيلهم عانقوا اولئك الذين مكثوا .

حتى إذا انصرف الرجال الخمسة الذي أرسلوا إلى الحياة ، فكسر آنجلوراس في ذلك الذي حكم عليه بالموت . ومضى إلى الحجرة السفلية . كان جافير ، المشدود وثاقه إلى العمود ، مستغرقاً في التفكير .

وسأله آنجلوراس :

- هل تحتاج إلى شيء ؟ -

فأجاب جافير :

— « متى ستقتلونني ؟ »

— « انتظر . نحن في حاجة إلى كل خرطوشة من خراطيشنا في هذه اللحظة . »

فقال جافير :

— « اذن ، فاعطوني ما اشربه . »

وقدم آنجولراس بنفسه كأساً من الماء اليه . واذا كان جافير مشدود الوثاق فقد ساعده على ان يشربه .

وعاد آنجولراس إلى الكلام :

— « اهذا كل شيء ؟ »

فأجاب جافير :

— « إن شدي إلى هذا الوند يوذيبي . ولم يكن رفيقاً منكم ان تركوني اقضي الليل هنا . شدوا وثاقي كما تريدون ، ولكن في استطاعتكم من غير ريب أن تمددوني على طاولة . مثل الرجل الآخر . »

وبحركة من رأسه ، أشار إلى جثمان مسيو مابوف .

كان في اقصى الغرفة ، كما نذكر ، مائدة عريضة كانوا قد صبوا فوقها القذائف وصنعوا الخراطيش . وإذا كانت الخراطيش كلها قد صنعت ، وإذا كان البارود كله قد استعمل ، فقد أمست تلك المائدة شاغرة .

ونزولاً عند أمر آنجولراس ، فك أربعة متمزدين وثاق جافير ، وفيما كانوا يفكون وثاقه كان خامس يسدد إلى صدره حربة . لقد تركوا يديه موثقتين خلف ظهره . واحاطوا قدميه بحبل قصير ولكنه قوي كان يسمح له بأن يخطو خطوات طولها خمس عشرة بوصة مثل خطوات اولئك الصاعدين إلى المشنقة . وقادوه إلى المائدة في اقصى الغرفة ، فمددوه فوقها ، وشدوا جذعه إليها شداً محكماً .

وزيادة في الحيلة ، وبواسطة حبل مشدود إلى عنقه ، اضافوا إلى

مجموعة الاربطة التي جعلت كل هرب مستحيلا - اضافوا ذلك النوع من الرباط الذي يدعونه في السجون حكمة * ، والذي ينطاق من مؤخر العنق ثم ينفصل فوق المعدة ، ويُشد إلى اليدين بعد ان يُمرّر بين الرجلين . وفيما كانوا يوثقون جافير حلق اليه رجل ، عند عتبة الباب ، في انتباه فريد . وكان في الظل الذي أحدثه ذلك الرجل ما جعل جافير يدير رأسه . لقد رفع عينيه ، وعزف جان فالجان . ولم يجفل مجرد إجفال . لقد غص طرفه في صلف ، واكتفى بالقول : « ذلك طبعي جداً . »

٧

الوضع يصبح خطراً

وتنفس الصبح في سرعة . ولكن اياً من النوافذ لم تفتح ، واياً من الابواب لم يُفتح فتحاً يسيراً . لقد ارتفع الضجى ، أما ساعة اليقظة فلم تكن قد حانت . وكانت الجيوش قد أخلت اقصى شارع الـ « شانفريري » تجاه المراس ، كما ذكرنا . لقد بدا سالكاً ، منفتحاً للعابرين في هدوء مشووم . وكان شارع سان دينيز أخرس مثل جادة ابي الهول في ثيبة . لم يكن ثمة كائن حي عند مفارق الطرق التي كانت تبيض تحت أشعة الشمس . إن شيئاً ليس اكثر حداثية من اشراق الشوارع المهجورة ذلك .

ولم يكن في ميسور المرء ان يرى شيئاً ، ولكنه كان في ميسوره ان يسمع . كانت حركة خفية تجري على مسافة ما . وكان واضحاً ان اللحظة

* الحكمة ، بالتحريك ، حديدة في اللجام تكون على انف الفرس وحنكه تمنه عن مخالفة رايه . وصيبت بذلك لانها تمنه من الجري الشديد . وهي ترجمة لكلمة martingale التي في الأصل .

الخرجة قد حانت : وانسحب الحرس ، شأنهم في المساء . ولكنهم انسحبوا كلهم هذه المرة .

كان المتراس أقوى منه لحظة الهجوم الأول - لقد سموا به ، أعلى فأعلى ، بعد انسحاب الرجال الخمسة .

وما إن سمع آنجولراس إخطار الحرس الذي كان يراقب منطقة الأسواق ، حتى اتخذ قراراً خطيراً خشية ان تؤخذ قواته على حين غرة من خلاف . كان قد سد المجاز الصغير المؤدي إلى زقاق مونديتور الذي كان حتى ذلك الحين سالكاً . ولقد نزعوا ، من اجل ذلك ، حجارة الارصفة على محاذاة بضعة بيوت اخرى . وهكذا كان المتراس المحصن بثلاثة شوارع - من أمام ، بشارع ال « شانفريري » وعن يسار ، بشارع دو سيني ، و « لا بيتيت تروواندري » ، وعن يمين بشارع مونديتور - قد أمسى امنع من عقاب الجو أو يكاد . صحيح انهم كانوا مطوقين على نحو مشؤوم . كانت للمتراس ثلاث جبهات ، ولكن لم يبق له مخرج . وقال كورفيراك ضاحكاً :

- « معقل ، ولكنه مصيدة . »

وكان آنجولراس قد ركم قرب باب الحانة نحواً من ثلاثين حجراً من حجارة الارصفة « اقتلعت على غير طائل » كما قال بوسويه . وكان الصمت قد غدا ، الآن ، عميقاً في الناحية التي ينتظر ان يشنّ منها الهجوم بحيث أمر آنجولراس كل رجل من رجاله بالعودة إلى موقعه المحدد له .

ووزعت على القوم جميعاً أنصبه من العرق .

وليس شيء اكثر غرابة من متراس يستعد للغارة . إن كل رجل يختار مكانه ، كالذي يقع في المسارح . انهم يتكئون على جوانبهم ، وعلى مرافقهم ، وعلى مناكبهم . وثمة نفر يتخذون لانفسهم من حجارة الارصفة كراسي ودككاً . وقد تكون ههنا زاوية حجارة مزعجة ، فهم

يبتعدون عنها ، وقد يكون هناك حائط ذو زوايا يستطيع المرء ان يحتمي به فهم يفزعون اليه . والأعسرون من المقاتلين هم اطلاق نفيسة ؛ أنهم يتخذون المواقع التي لا تلائم سائر الجماعة . وكثير من المقاتلين يعملون إلى ترتيبات تمكنهم من القتال وهم قعود . إنهم يريدون أن يقتلوا في غير ما انزعاج ، وان يموتوا في رفاهية . ففي حرب حزيران ١٨٤٨ المشؤومة كان متمرّد ذو اصابة رهيبة ، متمرّد قاتل من اعلى سطيحة ، فوق سطح ، قد حمل كرسياً ذا ذراعين من نوع فولتير إلى هناك . إن وابلا من القذائف قد وجده فيه .

وما يكاد الزعيم يأمر بالاستعداد للقتال حتى تنقطع جميع الحركات المشوشة . لا تبقى ثمة مناوشات بين متمرّد ومتمرّد ؛ لا تبقى ثمة تجهيزات ودية ، لا تبقى ثمة احاديث تدور بين كل شخصين على حدة ، لا يبقى ثمة اعتزال . إن كل ما في الاذهان يتحول ، ويتغير في انتظار المهاجم . المتراس قبل الخطر فوضى ، ولكنه عند الخطر ضبط . ان الخطر يولد النظام .

ولم يكّد آنجولراس يحمل بندقيته القصيرة الخفيفة ذات الاسطوانة المزدوجة ، ويرتقي ضرباً من المرتفع كان قد احتفظ به لنفسه ، حتى ران الصمت على الجميع . وُسِّمت على طول الجدار المشيد من حجارة الارصفة ضجة صغيرة جافة . غير واضحة . كانوا يشحنون بنادقهم .

وفوق هذا ، فقد كانت مسالكهم اكثر اعتزازاً واحفل بالثقة من ذي قبل . إن فرط التضحية توطيد . لم يعد عندهم أمل ، ولكنّ يأس . اليأس ، السلاح الاخير ، الذي يهب النصر في بعض الاحيان . ذلك ما قاله فيرجيل . إن الأمداد العليا لتنبثق من العزائم المتطرفة . ان التخويض في الموت قد يكون الوسيلة إلى النجاة من الغرق . وهكذا يصبح غطاء التابوت لوح الخلاص .

وكما حدث في الليلة الفائتة ، كان انتباه الجميع قد تحول ، بل نكاد نستطيع ان نقول انه كان مستنداً ، إلى اقصى الشارع ، الذي غدا الآن مضاعفاً ومنظوراً .

ولم يطل انتظارهم . واستؤنف النشاط استئنافاً ملحوظاً في ناحية سان لو ، ولكن ذلك لم يشبه حركة الهجوم الأول . لقد كان في جلجلة السلاسل ، وارتجاج الجمع المحتشد ارتجاجاً مهدداً ، وصليل النحاس المقصدر الواثب فوق حجارة الرصيف ، وفي ضرب من القعقة الاحتفالية - كان في هذا كله ما يؤذن بأن جسماً مشوئماً من حديد يتقدم ويقرب . وسرت رعدة في احشاء تلك الشوارع العتيقة الآمنة المشقوقة والمبنية لسير المصالح والافكار على نحو مشعر ، والتي لم تجعل لدوران دواليب الحرب الزهيب .

وكان تحديق المقاتلين جميعاً إلى اقصى الشارع قد غدا ضارياً . وبدا مدفع .

ودفع الجند ذلك المدفع . كان على استعداد لاطلاق النار . كانت الدواليب الامامية قد مُنزعَت ، وكان مدفعيان يسندان العربة ، واربعة عند الدواليب ، وآخرون يتبعونهم بعربة العتاد . لقد رثي دخان الفتيلة المشتعلة .

وصاح آنجلوراس :

« النار ! »

واطلق المتراس كله النار ، وكان الانفجار رهيباً . وغطت سحابة دخان المدفع والمدفعيين ومحتهم . وما هي إلا ثوان معدودات حتى تبددت السحابة ، وعاد المدفع والمدفعيون إلى الظهور . وعمد المكلفون بالمدفع إلى وضعه تجاه المتراس ، في تودة ، وفي ضبط ، وفي غير ما سرعة . إن رجلاً ما لم يمس . ثم ان رئيس المدفعيين ، القى بثقله على مؤخر المدفع لكي يرفع خط النومي ، وراح يسدد المدفع بوقار فلكي .

يصوب تلسكوباً .

وصاح بوسوويه :

« مرحى للمدفعين ! »

وصفق المتراس كله .

وبعد لحظة ، كان المدفع قد وُضع بحزم في منتصف الشارع ،
منفرج الساقين فوق الساقية ، مستعداً لإطلاق النار . كان شدة مروع
قد فُتح على المتراس .

وقال كورفيراك :

« هيا ، كونوا ناشطين ، ! هو ذا القظ . بعد الضربة بطرف

السبابة يجيء دور اللكمة . إن الجيش يبسط بزئته الكبير نحونا . إن
المتراس سوف يزعزع على نحو جدي . البنادق تجسّس ، والمدافع
تشتعل . »

ثم اضاف :

« إنه مدفع برونزي تزن قذيفته ثمانية ارطال ، وهو يمثل
نموذجاً جديداً . وهذه المدافع ، برغم انها لا تزيد على نسبة عشرة
اجزاء من الصفيح إلى مئة من التحاس إلا زيادة طفيفة ، تظل عرضة
للانفجار . إن فرط الصفيح فيها يجعلها رقيقة باكثر مما ينبغي . وفي
هذه الحال ، تنشأ فجوات وتجاويف في ثقب إشعال البارود . ولكي
يتفادوا هذا الخطر ، ويكونوا قادرين على إطلاق النار عنوة ، فقد
يتعين عليهم أن يرجعوا إلى طريقة القرن الرابع عشر ، التطويق بأُطر
مستديرة ، وإلى تدعيم المدفع خارجياً بسلسلة من الحلقات الفولاذية بدون
إلحام ، من مؤخره إلى محوره . وفي غضون ذلك يعالجون العلة جهد
طاقتهم . ويكتشفون اين تقع الثقوب والفجوات في ثقب الأشعال بواسطة

سابر ما . ولكن ثمة طريقة افضل . هي نجمة غريوفال .
المتحركة . »

ولاحظ بوسوويه :

— « في القرن السادس عشر ، كانوا يفرضون الجزء الداخلي
من المدفع . »
فأجاب كومبوفير :

— « نعم ، ذلك يزيد في القوة على رمي القذائف ، ولكنه يضعف
من حسن الاصابة . وإلى هذا ، ففي المدى القصير لا يكون لمسار
القذيفة ذلك العنف المطلوب . إن الخط العدسي ليبالغ فيه ، وإن سبيل
القذائف لا يكون من الاستقامة بحيث يمكنها من اصابة جميع الاشياء
المعرضة . ولكنه على اية حال ضرورة من ضرورات القتال تتعاضد
أهميتها كلما اقرب العدو وتسارع إطلاق النار . وضعف التوتر هذا في
خط القذيفة المنحني ، في مدافع القرن السادس عشر المفرضة ، مزده
إلى ضعف الشحنة . والشحنات الواهنة المصطنعة في هذا الضرب من
السلاح تفرضها ضرورات علم القذائف ، من مثل صيانة سند المدفع
مثلا . وعلى الجملة فالمدفعية ، ذلك الطاغية المستبد ، لا تستطيع ان
تفعل كل ما تشاء ؛ القوة ضعف ضخم . إن كرة المدفع لا تزيد سرعتها
على ستمئة فرسخ في الساعة . اما الضوء فتبلغ سرعته سبعين الف فرسخ
في الثانية . تلك هي أفضلية يسوع المسيح على نابوليون . »
فقال آنجولراس :

— « أعيّدوا شحن الاسلحة ! »

ما الذي سيحدث لغطاء المتراس حين تنصبّ عليه النار ؟ هل تحدث
فيه النار ثغرة ؟ ذلك كان هو السؤال . وفيما كان المتمردون يعيدون شحن

* Gribenauval قائد مدفعية فرنسي مشهور ابتدع نظاماً مدفعياً جعل من مدفعية فرنسة
اقوى مدفعية اوروبية عند فجر الثورة (١٧١٥ - ١٧٨٩) .

نادقهم ، شحن المدفعيون المدفع .

واستبد بالتراس قلق بالغ .

لقد انطلقت النار . ودوى الانفجار .

وصاح صوت مبتهج :

« حاضر ! »

ومع انطلاق القذيفة انقض غافروش على المتراس .

لقد أقبل من طريق شارع دو سيني . وكان قد تخطى ، برشاقة ،

المتراس الثانوي الذي كان يشكل واجهة تبه الـ « بيتيت

تروواندري » .

وأحدث غافروش في المتراس اثراً أعظم من اثر القذيفة .

وضاعت القذيفة في فوضى الانقضاض . لقد كسرت ، على الأكثر ،

دولاب العربة العامة ، وأجهزت على كارة آنسو العتيقة . ولذا رأى

رجال المتراس إلى ذلك شرعوا يضحكون .

وصاح بوسوويه مخاطباً المدفعين :

« تابعوا ! »

٨

المدفعيون يتركون انطباعاً جديدة

وأحاطوا بغافروش .

ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت لينبئهم بشيء . وانتحى به ماريوس ،

وهو يرتعد ، جانباً .

« ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »

« اسكت ! وأنت ما الذي جاء بك ؟ »

وحدق إلى ماريوس بوقاحته الملحمية . واتسعت عيناه بالضياء الفخور
الذي كان يَمُور فيهما .

وتابع ماريوس كلامه في جرس صارم :

« من قال لك ان تعود ؟ هل أوصلت رسالتي على الاقل إلى
عنوانها ؟ »

ولم ينج غافروش من شيء من وخز الضمير في ما يتصل بتلك
الرسالة . فبحكم رغبته في العودة العاجلة إلى المتراس ، كان قد تخلص
منها تخلصاً بدلاً من ان يسلمها تسليماً . لقد اضطر إلى ان يعترف لنفسه
بأنه عهد بها في شيء من الطيش إلى ذلك الرجل الغريب الذي لم
يتبين ، هو غافروش ، وجهه مجرد تبيين . صحيح ان ذلك الرجل
كان حاسر الرأس ، ولكن هذا غير كاف . وعلى الجملة فقد عانى
بعض التبكيت الباطني على ذلك ، وخشي ان يوجه غافروش إليه
ضروب التأنيب . وسلك ، لكي ينجو من البلاء ، الطريق الأبسط . لقد
كذب على نحو مقبت .

« ايها المواطن ، لقد أسلمتُ الرسالة إلى البواب . كانت السيدة
نائمة . ولسوف تتلقى الرسالة ساعة تستيقظ . »

كان لماريوس في ارسال ذلك الكتاب هدفان : أن يودع كوزيت ،
وان ينقذ غافروش . ولقد اضطر إلى أن يقنع بنصف ما ابتغاه .

ومثلت أمام ذهنه هذه المطابقة : إرساله الكتاب ووجود مسيو
فوشلوفان في المتراس . ولفت نظر غافروش إلى مسيو فوشلوفان :

« هل تعرف هذا الرجل ؟ »

فقال غافروش :

« لا . »

والواقع ان غافروش ، ، كما اشرنا للحظة ، لم يكن قد رأى جان
فالجان إلا في الظلام .

وتبددت الأحداث المقلقة السقيمة التي كانت قد نشأت في ذهن ماريوس . هل كان يعرف آراء مسيو فوشلوفان ؟ لعل مسيو فوشلوفان كان جمهورياً . ومن هنا وجوده الطبيعي في هذا المعترك . وفي غضون ذلك كان غافروش قد انتهى إلى الطرف الآخر من المتراس ، صائحاً :

« بندقيتي ! »

واصلى كورفيراك أمره باعطائه إياها .

وحذر غافروش « رفاقه » ، كما كان يدعوهم ، قائلاً ان المتراس مطوق . لقد وجد صعوبة كبيرة في الوصول إليه . كانت كتيبة من المشاة ، كدست بنادقها في شارع ال « البيت تروواندري » ، تراقب ناحية شارع دو سيني . وفي الناحية المقابلة ، كان الحرس البلدي يحتل شارع ال « بريشور » . وفي الخط الامامي كان القسم الاكبر من الجيش .

حتى إذا قدم غافروش هذه المعلومات اضاف قائلاً :

« أنا افوضكم أن تعطوهم حبة دواء كريهة . »

وفي غضون ذلك كان آنجولراس فوق مرتفعه يراقب ويصغي فسي انتباه بالغ .

وكان المهاجمون قد احجموا عن اطلاق النار ككرة اخرى ، بعد ان خيبت محاولتهم الأولى آمالهم .

كانت سرية من المشاة قد أقبلت واحتلت اقصى الشارع ، خلف المدفع . واقتلع الجند حجارة الرصيف ، وأقاموا منها جداراً صغيراً منخفضاً ، ضرباً من الدريئة ، لم يكدر يرتفع إلى أكثر من ثماني عشرة بوصة ، تجاه المتراس . وعند زاوية هذه الدريئة وإلى يسارها رأوا طلّاع فوج الضواحي المتراس في شارع سان دونيز .

وحسب آنجولراس ، القوائم بالمرصاد ، انه تبين الضججة الفريدة

التي تحدث عندما تُخرج صناديق القذائف من عربة العتاد ، ورأى رئيس المدفعين يغير الهدف ويميل فوهة المدفع إمالة طفيفة نحو اليسار . ثم ان المدفعين راحوا يشحنون المدفع بالقذائف . وامسك رئيسهم بنفسه القضيب ذا الفتيلة المشعنة ، وقربه من ثقب الاشعال .

وصاح آنجولراس :

« اخفضوا رؤوسكم ، إلزموا الجدار ! واركعوا على ركبكم جميعاً على طول المتراس ! »

وكيفما اتفق اندفعت نحو المتراس جموع المتمردين الذين كانوا متناثرين تجاه الحانة ، والذين كانوا قد تركوا مواقعهم عند وصول غافروث ، ولكن قبل أن يتخذ امر آنجولراس أطلقت النار مثل فواق الكرات المدفعية الرهيب . ولقد كانت النار منطلقة من المدافع فعلا . كانت النار مصوبة إلى مدخل المتراس ، ولقد ارتدت عن الجدار . وهذا الارتداد الفظيع قتل رجلين وجرح ثلاثة .

ولو تواصل هذا اذن لما كان في الامكان الدفاع عن المتراس . لقد كان غير ممتنع على القذائف المدفعية . وُسِّمعت ضجة حزن شديد .

وقال آنجولراس :

« فلنمنع الطلقة الثانية على الأقل . »

وخفض بندقيته القصيرة الخفيفة ، وسددها إلى رئيس المدفعين الذي كان في تلك اللحظة منحنيًا فوق مؤخر المدفع محاولاً إحكام تسديده إلى الهدف .

كان هذا الرئيس رقيقاً مدفعياً وصيماً ، غض الشباب ، اشقر ، عذب المحيا ، تطفو على وجهه تلك السيمة الذكية الخاصة بذلك السلاح المختار الرهيب الذي ينبغي ، بحكم تكامله في الهول ، ان ينتهي بقتل الخرب . ونظر كومبوفير ، الواقف قرب آنجولراس ، إلى هذا الشاب .

وقال كومبوفير :

« وأسفاه ! ما أبشع هذه المذابح ! عندما لا يبقى ثمة ملوك
لن يبقى ثمة حرب . آنجولراس ، انت تسدد النار إلى ذلك الرقيب ،
انت لا تنظر إليه . فكر في أنه شاب فاتن ، إنه شجاع . انت ترى
انه مفكر . إن هؤلاء المدفعين الشباب يتمتعون بثقافة جيدة . إن له أباً ،
وأماً ، وأسرة . ولعله ان يكون عاشقاً . إن عمره خمسة وعشرون ربيعاً
على الأكثر . ولعله ان يكون أخاك . »

وقال آنجولراس :

« إنه لكذلك . »

فقال كومبوفير :

« اجل ، وأخي ايضاً . حسناً . فلنحقق دمه ! »

« دعني وشأني . يجب ان نفعل ما يجب ان يُفعل . »

وفي ببطء تحدثت عبرة على خد آنجولراس الرخامي .

وفي الوقت نفسه ، ضغط على زناد بندقيته القصيرة الخفيفة . وانطلقت

النار . ودار المدفعي على نفسه مرتين ، باسطاً ذراعيه امامه ، رافعاً
رأسه وكأنه كان يريد أن يستنشق الهواء ، ثم خزر على جانبه فوق المدفع
وانطرح هناك جثة هامدة . كان في امكان المزم ان يزي ظهره وقسد
انيجس منه على نحو عمودي سبل من الدماء . كانت القذيفة قد دخلت
صدره واخترقت ظهره . لقد مات .

وتعيّن عليهم ان ينقلوه من هناك ويعهدوا في عمله إلى شخص آخر .

والحق ان ذلك اكسب المقاتلين بضع دقائق .

فائدة تلك البراعة القديمة في الصيد المحظور ، وتلك الطلقة

النارية المعصومة التي اثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦

وتعارضت الآراء في المراس . كان المدفع على وشك ان يطلق ناره من جديد . وما كان في مقدور المتمردين ان يصمدوا ربع ساعة تحت وابل من تلك النيران . كان ضرورياً أن يوهنوا تلك للضربات . وأصدر آنجولراس أمره :

« يجب ان نضع حشيتة هناك . »

فقال كومبوفير :

« ليس عندنا شيء من ذلك . إن الجرحى ممددون فوقها . »

ولم يكن جان فالجان — الجالس على حدة فوق احد المعالم ، عند زاوية الحانة ، واضعاً بندقيته بين فخذه — لم يكن حتى تلك اللحظة قد اشترك في الاحداث الجارية . لقد بدا له وكأنه يسمع المقاتلين يقولون من حوله : « هي ذي بندقية لا تقوم بأيما عمل . »

حتى إذا سمع أمر آنجولراس انتصب واقفاً .

والقاريء يذكر أنه عند وصول الكتيبة إلى شارع الـ « شانفريري » وضعت امرأة عجوز فراشها أمام نافذتها ، بعد ان توقعت اطلاق القذائف . وهذه النافذة ، نافذة عليّة من العلالي ، كانت على سطح منزل ذي ستة أدوار قائم على مسافة يسيرة من المراس . وكان الفراش الموضوع بالعرض ، قد أسند أدناه إلى وتدين من أوتاد الغسيل ، وشد أعلاه بحبلين بدواً من بعيد وكأنهما خيطان رُبطا إلى مسمارين دُقسا في إطار الكوة . وكان هذان الحبلان يشاهدان على صفحة السماء مثلي

شعرتين .

وقال جان فالبجان :

- « هل يستطيع احد منكم ان يعبرني بندقية خفيفة ذات اسطوانة مزدوجة ؟ »

وقدم اليه آنجولراس بندقيته الخفيفة القصيرة ، وكان قد شحنها منذ لحظة .

وسدد جان فالبجان البندقية إلى النافذة ، واطلق النار .

وُقطع واحد من جبلي الفراش .

وتدلى الفراش من خيط واحد ليس غير .

واطلق جان فالبجان الطلقة الثانية . وأصاب الحبل الثاني زجاج النافذة .

وانزلق الفراش بين الوتدين وسقط في الشارع .

وصفق المتراس .

وصاح الجميع :

- « هي ذي حشبة . »

فقال كومبوفير :

- « اجل ، ولكن من الذي سوف يذهب التماساً لها ؟ »

كانت الحشبة قد سقطت ، في الواقع ، خارج المتراس ، بين المحاصرين والمحاصرين . وكان موت المدفعي قد اسخط الجيش ، فظل الجند يضع لحظات مستلقين على وجوههم خلف خط حجارة الارصفة الذي اقاموه . ولكي يعوضوا عن صمت المدفع الالزامي ، هذا المدفع الذي خرس ريثما يعاد تنظيم استخدامه ، فتحوا النار على المتراس . ولم يجب المتمردون على رصاص البنادق هذا ، توفيراً لذخيرتهم . وتحطم وابل الرصاص على صخرة المتراس ، ولكن الشارع الذي ملأه ذلك الوابل بالقذائف ، كان رهيباً .

وخرج جان فالبجان من فرجة المتراس ، وولج الشارع ، واجتاز

عاصفة القذائف ، ومضى إلى الحشية ، فرفعها ، ووضعها على ظهره ، ورجع إلى المراس .

ووضع الحشية بنفسه في الفرجة . وركزها على الجدار تركيزاً جعل رجال المدفعية لا يرونها .

حتى إذا تم له ذلك انتظر المتمرّدون أن تنصبّ عليهم نيران المدفعية . ولم يطل انتظارهم .

لقد تقيأ المدفع ، في تهادر ، مشحونه من الرصاص الضخم . ولكن لم يكن ثمة ارتداد . ان القذيفة قد اجهضت على الحشية . لقد فساز المتمردون بمبتغاهم . ولقد أنقذ المراس .

وقال آنجولراس لجان فالجان :

— « ايها المواطن ، الجمهورية تشكرك . »

وأخذ العجب بوسوويه وضحك . وهتف :

— « من غير الاخلاقي ان يكون لحشية هذه القوة كلها . انتصار ذلك

الذي يخضع على ذلك الذي يصعق . ولكن سيان . المجد للحشية التي تنسخ مدفعاً . »

١٠

الفجر

في تلك اللحظة استيقظت كوزيت .

كانت غرفتها صغيرة ، نظيفة ، منعزلة ، ذات نافذة طويلة قائمة إلى ناحية الشرق ، تطل على فناء البيت الخلفي .

ولم تعرف كوزيت شيئاً مما كان يجري في باريس . إنها لم تفساد غرفتها قط خلال الليل ، وكانت قد آوت إليها عندما قالت توسين :

« يبدو ان هناك صخباً . »

كانت كوزيت قد نامت بضع ساعات ، ولكن نوماً عميقاً . لقد رأت في ما يرى النائم احلاماً عذاباً ، ولعل ذلك راجع - جزئياً - إلى ان فراشها الصغير كان ناصع البياض . لقد رأت شخصاً هو ماريوس وكأنه مطوق بهالة . واستيقظت والشمس في عينيها ، مما احدث باديء الامر مثل أثر استمرار الحلم .

وكان انفعالها الأول ، لدن خروجها من هذا الحلم ، بهيجاً . واستشعرت كوزيت الطمأنينة كاملة . كانت تمر ، شأن جان فالجان قبل بضع ساعات ، برجع الروح التي لا تريد الشقاء . لقد بدأت ترجو بكامل قواها من غير ان تدري لماذا ؟ ثم استبد بها انقباض الفؤاد . « ها قد انقضت ثلاثة ايام لم تر فيها ماريوس . ولكنها قالت في ذات نفسها انه لا بد قد تلقى رسالتها ، وانه يعرف اين كانت ، وانه كان عظيم الفطنة ، وانه سوف يجد وسيلة للوصول اليها . » وهذا سوف يتم اليوم من غير شك ، وربما هذا الصباح بالذات . « كانت الشمس قد اشرقت ، ولكن أشعتها كانت أفقية جداً . ولقد فكرت ان الوقت مبكر جداً . وان عليها ان تنهض ، برغم ذلك ، لكي تستقبل ماريوس . »

لقد استشعرت انها لا تستطيع أن تحيا بدون ماريوس ، وان هذا بالتالي كان كافياً ، وان ماريوس سوف يجيء . ولم يكن أيما اعتراض ممكن القبول . كان ذلك كله ثابتاً . ولقد كان رهيباً إلى حد كاف أن تقاسي الآلام ثلاثة ايام موصولة حتى الآن . ماريوس يغيب ثلاثة ايام ، - إن ذلك لفظيع وحق الآلهة . والآن كانت مناكدة السماء القاسية تجربة انتهت اجلها . كان ماريوس آتياً ، وسوف يحمل اليها انباء طيبة . على هذا النحو خلق الشباب ، إنه يكفكف دموعه على عجل ، إنه يعتقد ان الحزن لا طائل تحته ، وهو لا يقبله . الشباب بسمه

المستقبل امام كائن مجهول هو المستقبل نفسه . إن من الطبيعي ان يكون سعيداً . إنه يبدو وكأنه يتنفس الأمل تنفساً .

وإلى هذا ، فان كوزيت لم توفق إلى تذكر ما كان ماريوس قد قاله لها حول مسألة هذا الغياب الذي ما كان ينبغي ان يطول أكثر منه يوم واحد ، أو تذكر ما كان قد قدمه إليها من تفسير لهذا الغياب . إن كلا منا قد لاحظ بأية رشاقة تجري القطعة النقدية الساقطة على الأرض وتختفي ، وبأي فن تجعل من المتعذر على المرء أن يكتشف مكانها . إن ثمة افكاراً تخالطنا مثل هذه المخاتلة عينها . إنها تختفي في زاوية من دماغنا . لقد قضي الامر . لقد ضاعت . ومن المستحيل علينا بعد أن نتذكرها . واغتاظت كوزيت ، بعض الشيء ، لذلك الجهد الصغير الذي بذلته ذاكرتها على غير طائل . لقد قالت لنفسها ان نسيانها كلمات نطق بها ماريوس كان عملاً شريعراً جداً اقدمت عليه ، بل عملاً مجرمياً جداً .

ونفضت ، وتوضأت الوضوءين ، وضوء النفس وضوء الجسد ، صلاتها وزينة وجهها .

اننا قد ندخل القاريء ، عند الضرورة ، إلى غرفة زواجية ، لا إلى غرفة بتولية . إن الشعر ليجرؤ على ذلك بشق النفس ، أما الشر فينبغي ان لا يفعل .

إنها باطن زهرة لما تفتح بعد . إنها بياض في الظل ؛ إنها الخلية الجوهرية لزنبقة مغلقة يجب أن لا ينظر إليها الانسان ما دامت الشمس لما تنظر إليها بعد . إن المرأة في كمها مقدسة . إن هذا السرير البريء الذي ينكشف ؛ ونصف العري الزائع ذاك الخائف من نفسه ؛ وتلك القدم البيضاء التي تلجأ إلى مشاية ؛ وذلك الصدر الذي يحتجب أمام امرأة وكأن تلك المرأة عين ترى ؛ وذلك القميص الذي يسارع إلى الارتفاع وإخفاء الكتف لدن طقطقة قطعة من اثاث أو لدن مرور عربة ،

وهذه العصائب المعقودة ، والأبازيم المنشبة ، والأشرطة المشدودة ، وهذه الارتعادات ، وارتعاشات البرد والحياء ، وذلك الخجل اللذيذ في كل حركة ، وذلك القلق الذي يكاد يكون مجتّحاً حيث لا سبب للخوف ، وأطوار الملابس المتعاقبة ، الفاتنة كسُحب الضحى - إن هذا كله ليس من المناسب ان يوصف ، وانه لمن الكثير ، حقاً ، ان يشار اليه .

بل إن عين الرجل يجب ان تكون أنقى أمام بزوغ فتاة صغيرة منها أمام بزوغ نجم من النجوم . إن إمكانية اللمس يجب ان تزيد الاحترام . فزغب الدراق ، وغبار الخوخ ، وبلور الثلج المشع ، وجناح الفراشة المذرور بالريش - كل اولئك اشياء غليظة بالقياس إلى ذلك الطهر الذي لا يعترف حتى مجرد انه طاهر . ان الفتاة الصغيرة ليست غير بارقة حلم ، وهي لمّا تصبح بعد تمثالا . إن مخدع نومها مخبوء في ظلال المثل الاعلى . ولمس النظرة غير الرصين يشوه شبه الظل القائم هذا . فلأن تنظر هنا يعني ان تدنس .

إننا لن نُنظر ، اذن ، شيئاً من كل ذلك التشوش الطفيف العذب الذي اتسم بها استيقاظ كوزيت .

تروي حكاية شرقية ، ان الله خلق الوردة بيضاء ، ولكن آدم نظر اليها لحظة شرعت في التفتح ، فاستحييت واحمر وجهها . إننا من اولئك الذين يستشعرون انهم قاصرون أمام الفتيات الصغيرات والازهار لأننا نجدهن جديرات بالاحترام .

وارتدت كوزيت ملابسها في عجل بالغ ، ورجلت شعرها وسوته ، ذلك الشعر الذي كان شيئاً بسيطاً جداً ، عندما كان النساء لا يورثن خصلهن وجدائلهن بوسائد ولفائف ، ولا يضعن نسيجاً صفيقاً في شعرهن . ثم فتحت النافذة ، واجالت طرفها في ما حولها راجية ان تكتشف شيئاً من الشارع ، زاوية منزله ، ناحية من رصيف ، وان توفق إلى ترقب ماريوس هناك . ولكنها لم تستطع ان ترى شيئاً من الشارع .

كان الفناء الخلفي مطوقاً بأسوار عالية ، وكانت بضع جنائن ليس غير تبدو للعيان . وتراءت هذه الحداثق بشعة في عيني كوزيت ، وللمرة الأولى في حياتها وجدت الازهار قبيحة . ولقد كان خليقاً بأحقر جزء من ساقية من سواقي الشوارع أن يترأى لها وكأنه اهم من ذلك كله . واخيراً ، شرعت تنظر إلى السماء ، إذ خيل اليها ان ماريوس قد يجيء من تلك الطريق ايضاً .

وفجأة اغرورقت عيناها بالدمع . لم يكن ذلك خفة منها . ولكن الضنى كان قد عطل آمالها . واستشعرت على نحو غير واضح ذعراً لا سبيل إلى تحديده . لقد طافت الاشياء في الهواء حقاً . وقالت في ذات نفسها انها غير واثقة من شيء . وان احتجاب المرء عن البصر يعني فقدانه . إن الفكرة القائلة بان ماريوس قد يعود اليها ، فعلاً ، من السماء لم تعد تبدو فاتنة . بل امست مشؤومة .

ثم ان الهدوء عاودها ، فتلك هي طبيعة هذه الغيوم ، كما عاودها الامل وضرب من الابتسام غير الواعي ، ولكن الواثق بالله .

كان كل امريء لا يزال نائماً في ذلك المنزل . لقد خيم ثمة صمت ريفي . ولم يكن اي من مصاريع النوافذ قد فتح . كان كوخ البواب موصداً . ولم تكن توسين قد افاقت بعد . وكان من الطبيعي جداً ان تحسب كوزيت ان أباهما كان نائماً . ولا ريب في انها قد تأملت كثيراً . وفي أنها كانت لا تزال تتألم ؛ ذلك انها قالت في ذات نفسها ان اباهما كان غير كريم ، ولكنها كانت تعتمد على ماريوس . كان إلام الضعف يمثل ذلك الضياء امراً مستحيلاً بالكلية . وبين الفينة والفينة كانت تسمع على مسافة ما ضرباً من الارتجاجات الخرساء . وقالت : « من العجيب ان الناس يفتحون ابواب العربات ويغلقونها في هذه الساعة المبكرة جداً » . كان المدفع يقصف المراس بقذائفه .

وعلى اقدام معدودات تحت نافذة كوزيت ، في افريز الجدار العتيق

الاسود ، كان عش سنونو ، وكان ذلك العش يحدث نتوءاً صغيراً خلف
الافريز ، بحيث كان في ميسور المرء ان يرى إلى الجزء الداخلي من هذا
الفردوس من عل . كانت الأم ، هناك ، باسطة جناحيها مثل مروحة
فوق صغارها . وطوّف الاب في الفضاء ، لقد انطلق لسبيله ، ثم رجع
حاملًا بمنقاره الطعام والقبليات . وذَهَبَ الضحى المرتفع هذا الشيء السعيد .
كان القانون العظيم ، « تكاثروا » هناك باسم الوجه جليلا ، وكانت
هذه الغامضة العذبة تفتح اكمامها في ظل مجد الصباح . وانحنت كوزيت ،
وشعرها تحت أشعة الشمس ، وروحها مستغرقة في الأحلام ، وقد
اضاءها الحب من داخل والضحى من خارج - انحنت على نحو شبه
ميكانيكى . ومن غير ان تعترف بانها كانت تفكر في ماريوس فسي
الوقت نفسه . شرعت تنظر إلى هذه الاطيّار ، إلى هذه الاسرة ، إلى
ذلك الذكر وتلك الانثى ، إلى تلك الام وإلى هذه الصغار ، بمثل القلق
العميق الذي يورثه العش احدى العذارى .

١١

الطلقة التي لا تخطئ أحداً

ولا تقتل أحداً

وتواصل إطلاق النار من جانب المهاجمين . كانت البنادق تعمل
حيناً ، والمدافع تعمل حيناً ، من غير ان تحدث - في الحق - اذى
كبيراً . لقد أصيب الجزء الاعلى من واجهة كوزيت ليس غير بأضرار .
وتشوّهت شيئاً فشيئاً نافذة الطابق الاول وكوى السطح التي مزقتها رصاص
البنادق وقذائف المدافع تمزيقاً . وكان على المقاتلين المتمركزين هناك

ان ينسحبوا . وإلى هذا ، فذلك هو فن مهاجمة المتاريس : ان تطلق النار بتواتر ، فترة طويلة من الزمن ، ابتغاء استنفاد ذخيرة المتمردين ، إذا ما ارتكبوا خطيئة الرد . حتى إذا لوحظ ، من فتور نيرانهم ، انه لم يبق عندهم لارصاص ولا بارود فعندئذ تُشن الغارة . ولم يقع آنجولراس في هذا الشرك . إن المتراس لم يردّ البتة .

وكلما اطلقت مفرزة من الجند نارها كان غافروش يورّم خده بلسانه ، علامة الازدراء المتشامخ .

وقال :

« هذا صحيح . مزقوا القماش . نحن في حاجة إلى نسالة . »
واستجوب كورفيراك القذائف عن السبب في انعدام تأثيرها ، وقال للمدفع :

« لقد بدأت تصبح مسهباً ، ايها الرجل الطيب . »
في المعركة يشغل احد الفريقين بال الفريق الآخر ، كالذي يحدث في الحفلات الزاقصة . ومن المحتمل ان يكون ذلك الصمت الذي ران على المتراس قد شرع يقلق المغيرين ، ويجعلهم يخافون حادثة ما ، غير متوقعة ، وان يكونوا قد استشعروا الحاجة إلى اختلاس النظر من خلال ركام حجارة الارصفة ، ومعرفة ما كان يجري خلف ذلك السور الممتنع على التأثير ، والذي كان يتلقى نيرانهم من غير أن يرد عليها . وفجأة لمح المتمردون خوذة تلمع في الشمس فوق سطح مجاور . كان إطفائي يسند ظهره إلى المدخنة الطويلة ، وبدا وكأنه يقوم ب مهمة الحراسة . كانت عيناه مصوبتين إلى المتراس .

وقال آنجولراس :

« هناك حارس مزعج . »

وكان جان فالجان قد اعاد البندقية القصيرة الخفيفة إلى آنجولراس ، ولكنه كان يحمل بندقيته .

ومن غير ان يقول كلمة ، سدد بندقيته إلى الاطفائي . وما هي
إلا ثانية حتى اصابت الخوذة رصاصة اطاحت بها في صخب فوق ارض
الشارع . وسارع الجندي المروّع إلى الاختفاء .

وحل محله حارس جديد . وكان هذا الحارس ضابطاً . وسدد
جان فالبان بندقيته ، بعد ان جدد شحنها ، إلى القادم الجديد ، وأطاح
بخوذة الضابط فالتحقت بخوذة الجندي . ولم يكن الضابط عنيداً ،
فانسحب في سرعة بالغة . وهذه المرة فهم الاخطار . ولم يعاود احد
الظهور فوق السطح ، وأقلع المغيرون عن التجسس على المتراس .
وسأل بوسوويه جان فالبان :

— « لماذا لم تقتل الرجل ؟ »

فلم يجب جان فالبان .

١٢

الفوضى نصير للنظام

وهمس بوسوويه في اذن كومبوفير :

— « إنه لم يجب عن سؤالي . »

فقال كومبوفير :

— « إنه رجل يتلطف في طلقات البندقية . »

إن اولئك الذين يحتفظون بشيء من ذكرى تلك الحقبة التي امست
الآن قصة يعرفون ان حرس الضواحي الوطني كان باسلا في مقاومة
الانتفاضات . ولقد كان ضارياً ومقدماً في ايام حزيران ١٨٣٢ بحاصة .
إن كثيراً من اصحاب الخمارات الطيبين في « باتنين » ، و « فيرتوس »
أو « لاكونيت » ، الذين خلت « مؤسساتهم » من الزبائن بسبب من

الثقنة ، قد استأسدوا عند رؤيتهم صالات رقصهم وقد أفقرت من روادها . وماتوا لكي يُقروا النظام الممثل بحانة الضاحية . وفي تلك الأيام ، البورجوازية والبطولية في آن معاً . وفي حضرة افكار كان لها فرسانها ، كان للمصالح مغامروها . والدافع الذي يعوزه السمو لم يُفقد العمل شيئاً من بطولته . إن تناقص ركام من الريالات جعل اصحاب المصارف يندشون المارسييز . لقد سفحوا دماءهم على نحو حماسي في سبيل منضدة المحاسبة . وفي اندفاع اسبارطي دافعوا عن الدكان . ذلك المصغر الهائل للوطن .

وفي الواقع — وهذا ما ينبغي ان نقوله — انه لم يكن في ذلك كله شيء غير جدي إلى أبعد الحدود . كانت العناصر الاجتماعية تتصارع في انتظار ذلك اليوم التي تنتهي فيه إلى توازن .

وعلاوة اخرى من علامات ذلك العصر تلك الفوضى المترتبة بالحكومية (اسم بربري للحزب الصحيح) . كان الناس انصاراً للنظام مع عدم الانقياد . لقد قرع الطبل على حين غرة ، بأمر من احد زعماء الحرس الوطني ، بالناداة ع..... إلى الاسماء على نحو اشتعائي . وكثير من الضباط مضوا إلى النار بدافع من الوحي . وكثير من رجال الحرس الوطني قاتلوا بسائق « الوهم » ، ولحسابهم الخاص . ففي اللحظات الحرجة ، في « الأيام » ، كان المرء يستشير رؤسائه اقل مما يستشير غرائزه . كان ثمة في الجيش النظامي عصابات حقيقية ، بعضها عصابات سيف مثل فانيقو ، وبعضها الآخر عصابات قلم ، مثل هنري فونفريد .

كانت الحضارة ، المثلة في تلك الحقبة مع الاسف بحشد من المصالح باكثر مما مُثلت بحشد من المبادئ — كانت الحضارة في خطر ، أو خيل اليها انها في خطر . لقد اطلقت صيحة الخطر . وجعل كل امرئ نفسه مركزاً ، وراح يدافع عنها ، ويسعفها ، ويحميها ، على طريقته

الخاصة . واخذ كل امرئ على عاتقه مهمة إنقاذ المجتمع .
 إن الاندفاع يذهب في بعض الاحيان إلى حد الابادة . وهكذا فان
 بعض فصائل الحرس الوطني اقامت بنفسها . وبقوة سلطانها الخاص ،
 مجلساً حربياً ، واصدرت حكمها على اسير من المتمردين ونفذته ، في
 فترة لا تزيد على خمس دقائق . ولقد كان مثل هذا الارتجال
 مسؤولاً عن مصرع جان بروفيير . قانون « للنش » * ضار ، لا يحق
 لاي حزب ان يعير به الاحزاب الاخرى . إذ انه مطبق على يد الجمهورية
 في اميركة وعلى يد الملكية في اوروبة سواء بسواء . وقانون « للنش »
 هذا عرضة للاخطاء . فذات يوم من ايام الفتن طورد شاعر شاب ،
 يدعى بول ايميه غارنييه ، في القصر الملكي . ورأس الحربة في ظهره ،
 ولم ينج إلا بالاتجاه تحت باب العربات من رقم ٦ . وكانت الصيحة :
 « هوذا واحد آخر من اولئك السان سيمونيين » * وكانوا يريدون
 ان يقتلوه . ذلك انه كان يتأبط مجلداً من مذكرات الدوق سان سيمون * *
 وقرأ احمد رجاء الحرس الوطني على هذا الكتاب اسم **سان سيمون**
 فصاح : « اقتلوه ! »

وفي السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، ارتضت مفرزة من مفارز
 الحرس الوطني . يقودها الكابتن فانبغو المذكور آنفاً ، ارتضت هذه
 المفرزة ان يقتل منها خلق كثير في شارع ال « شانفريري » لمجرد
 الهوس وبكامل الارادة المطلقة . وقد أقيم البرهان على هذه الحقيقة ،
 برغم غرابتها الظاهرية ، في التحقيق القضائي الذي أجري بعد ثورة

* كلمة انكليزية الاصل (Lynch) تفيد معنى محاكمة المرء وماتته اعتباراً من
 غير قانون ، وهو ما كان يصنعه البيض بالزنج الاميركيين وما يزالون حتى اليوم .
 * * نسبة الى كلود هنري سان سيمون ، المفكر الاشتراكي المشهور (١٧٦٠ -
 ١٨٢٥) .

* * * وهو كاتب فرنسي اشتهر بمذكراته (١٦٩١ - ١٧٢٣) .

١٨٣٢ . وتفصيل ذلك ان الكابتن فانيقو - وكان بورجوازيًا جريئاً قليل الصبر ، ضرباً من جندي النظام المرتق الذي وصفناه اللحظة ، حكومياً متعصباً جامحاً - لم يستطع ان يقاوم الرغبة في فتح النار قبل الموعد المحدد ، والطموح إلى الاستيلاء على المتراس بنفسه هو وحده ، يعني مع جنود مفرزته . لقد أثار سخطه تكرر ظهور الراية الحمراء والسترة العتيقة التي حسبها الراية السوداء ، فلام جميع القادة وزعماء القوات المقاتلة ، الذين كانوا يتشاورون في الموقف ، والذين لم يروا ان ساعة الهجوم الحاسم قد حانت ، فتركوا الثورة - وفقاً للتعبير المشهور الذي اصطنعه واحد منهم - « تنضج في عصيرها نفسه . » أما هو فقد حسب ان المتراس ناضج ، واذ كان يتعين على كل ناضج ان يسقط ، فقد قام بالمحاولة .

لقد قاد رجالا جسورين مثله ، رجالا « مسعورين » كما قال احد الشهود . وكانت مفرزته ، وهي نفسها التي كانت قد قتلت الشاعر جان بروفير ، أولى مفارز الكتيبة التي رابطت عند زاوية الشارع . ولحظة كان القوم اقل ما يكونون توقفاً لذلك ، قذف الكابتن المتراس بمجنوده . وهذه الحركة ، التي نفذت في حماسة اكثر مما نفذت في فن حربي ، كلفت مفرزة فانيقو غالياً . وقبل ان تتجاز اكثر من ثلثي الشارع ، استقبلت بوابل عام من رصاص المتراس . ولقد صرع اربعة منهم ، كانوا اكثرهم جرأة ، وكانوا يندفعون في المقدمة - صرعوا بملامسة السلاح الناري للرمي ، عند عتبة المتراس نفسها ، وهكذا تعين على هذا الجمع الباسل من الحرس الوطني - وهم رجال اولو شجاعة بالغة ، ولكن تعوزهم الصلابة العسكرية - ان ينكصوا على اعقابهم ، بعد شيء من التردد ، تاركين خمس عشرة جثة على ارض الشارع . وفسحت لحظة التردد هذه المجال امام المتمردين فأعادوا شحن اسلحتهم ، وانصب وابل ثان من رصاص - وابل مهلك جداً - على المفرزة قبل

ان تبلغ زاوية الشارع ، مَفْرَعُهَا . وفي لحظة واحدة سقطت بين وابلين منه نار ، وانهاالت عليها طلقات المدافع من المدفعية التي لم تلتق اي امر ، فلم تكف عن إطلاق نارها . وكان فانيقو ، القليل التبصر ، واحداً من الذين صرعتهم تلك النيران . لقد قُتل بالمدفع ، يعني بالنظام . وهذا الهجوم ، الذي كان ضارياً أكثر منه جدياً ، اثار آنجولراس . وقال :

— « يا لهم من مجانين ! إنهم يلقون برجالهم إلى الموت ويستهلكون ذخيرتهم على غير طائل . »

لقد تكلم آنجولراس مثل قائد الفتنة الحقيقي الذي كانه . ان الثورة والقمع لا يتقاتلان البتة بأسلحة متساوية . فالثورة ، النافذة في سرعة ، لا تملك غير عدد محدود من الرصاصات تطلقها ، وغير عدد محدود من المقاتلين تستهلكهم . فاذا ما فرغ صندوق خرطوش من صناديقها ، أو صرع رجل من رجالها لم يكن ثمة سبيل إلى التعويض عنها . أما القمع فإنه ، بسبب من كونه مالكا للجيش ، لا يعدّ الرجال ، وبسبب من كونه مالكا لـ « فينسين » ، لا يعدّ الطلقات النارية . والقمع يملك من الكتائب قدرأ موازياً لما يملكه المتراس من الرجال ، ويملك من معامل السلاح قدرأ موازياً لما يملكه المتراس من صناديق الخرطوش . وهكذا فنحن هناك أمام صراع بنسبة واحد إلى مئة ، صراع ينتهي دائماً بتدمير المتراس . إلا إذا استطاعت الثورة ، وقد انفجرت فجأة ، ان تلقي في الميزان بسيفها الملهب الشبيه بسيف كبير الملائكة . وهذا قد يقع . وعندئذ يهب كل شيء ، وتبدأ الارصفة في الغليان ، وتتسكاثر متاريس الشعب ، وتختلج باريس على نحو مفعم بالسلطان ، ويطلق سراح الـ *quid divinum* ، وتملأ الفضاء نُدُرُ يوم كيوم العاشر من آب ، ويلوح شبح يوم كيوم التاسع والعشرين من تموز في كل مكان ، ويبدو ضياء أعجوبي ، وينكفي شدة القوة الفاعل ، ويزي الجيش ، ذلك

الأسد . أمامه . منتصباً هادئاً ذلك النبي . فرنسة .

١٣

ومضات تخبو

في عماء العواطف والاهواء التي تدافع عن متراس من المتاريس يوجد شيء من كل شيء . هناك الشجاعة . والشباب . والشرف . والحماسة . والمثل الأعلى . واليقين . وانهماك المقامر . وفوق ذلك كله فترات الأمل .

إن احدى تلك الفترات . احدى رعشات الأمل الغامضة تلك ، مرت فجأة ، لحظة لم يكن يتوقعها أحد ، بمتراس شارع الـ «شانفريري» . وعلى حين غرة . صاح آنجولراس الذي كان دائماً بالمرصاد :

— « اسمعوا ! يبدو لي ان باريس تستيقظ . »

من الثابت أنه في صباح السادس من حزيران ، عرفت الثورة ، طوال ساعة أو ساعتين ، انتعاشاً جديداً . لقد أحيا عنادُ ناقوس سان ميرتي بعض الآمال الخاية . ففي شارع بوارييه ، وفي شارع غرافيه ارتسمت بعض المتاريس . وتجاه باب سان مارتين ، هاجم شاب مسلح ببندقية قصيرة خفيفة كتيبةً من الفرسان بمفرده . ومن غير ما ستر ، في وضوح الجادة . ركع على احدى ركبتيه ، وتنكب سلاحه ، واطلقت النار ، فصرع قائد الكتيبة ، واستدار قائلاً : « هوذا شخص آخر لن يُنزل بنا اذى اضافياً . » وطعنوه بحمد السيف . وفي شارع سان دونيز ، اطلقت امرأة النار على الحرس البلدي من وراء شعيرة نافذة مسدلة . ورثيت وصلات الشعيرة الخشبية ترتجف عند كل طلقة . وفي شارع الكوسونيري ، ألقي القبض على غلام في الرابعة عشرة وجيوبه مملأ

بالخراطيش . وهو جم عدد من مراكز الجند . وعند مدخل شارع
بيرتين بواريه استقبال وابل من رصاص البنادق حاد جداً وغير متوقع
البته كتيبة من الدارعين كان يسير على رأسها الجنرال كافينيك دو باراني .
وفي شارع بلانش ميري ألقوا على الجند ، من السطوح ، كسراً عتيقة
من الآنية والادوات المنزلية . علامة سيئة . وحين رويت هذه الحقيقة
للمارشال سولت ، استغرق مساعد نابوليون العجوز ، وقصد تذكر
كلمة سوشيه « في سرقسطة : » نحن نهلك حين تُفرغ النسوة
العجائز مباولهن على رؤوسنا » .

هذه الاعراض العامة التي تكشفت لحظة اعتقد الناس ان الفتنه قد
حصرت في موقع ما ، حتى الحقد هذه التي تمت لها الكلمة العليا كره
اخرى ، هذه الشرارات التي انطلقت هنا وهناك فوق تلك الاكوام
العبيقة من المواد المشتعلة التي تدعى ضواحي باريس - هذه كلها مجتمعة
أثارت القلق في نفوس الزعماء العسكريين . لقد أرجأوا ، حتى تنظف
تلك الشرارات ، الهجوم على متاريس موبيه ، والشانفريري ، وسان ميري ،
لكي لا تصطدم إلا بها ، ولكي يكون في ميسورهم ان يقضوا على كل شيء
بضربة واحدة . لقد قذفوا بفصائل الجند إلى الشوارع الهائجة ، مكتسحة
كبراها ، سابرة صغراها ، عن يمين ، وعن شمال ، حيناً في حذر
وعلى مهل ، وحيناً في سير خاطف كسير الحملة . وحطم الجند ابواب
البيوت التي سبق أن انطلقت منها النار ، وفي الوقت نفسه فرقست
مناورات سلاح الفرسان الحشود المجتمعة في الشوارع الواسعة . وهذا
القمع لم يتم من غير ضجة ، أو من غير تلك القرقة الصاخبة التي
تلازم الاصطدامات الواقعة بين الجيش والشعب . ذلك ما أدركه
آنجلوراس في الفترات الفاصلة ما بين طلقات المدافع وطلقات البنادق .

• Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ - ١٨٢٦) أبلى بلاء حسناً في اسبانية ، وبخاصة
في معركة جرت قرب ساغونت .

وإلى هذا ، فقد كان قد رأى بعض الجرحى يجتازون أقصى الشارع على محامل ، وقال لكورفيراك :

« هؤلاء الجرحى لا يأتون من عندنا . »

ولم يعمّر الأمل طويلاً . وخبا الوميض في سرعة . وفي أقل من نصف ساعة تلاشى ذلك الرجاء الذي كان يملأ الفضاء . كان أشبه ببرق خلب ، واستشعر المتمردون وكأنما سقط عليهم ذلك الضرب من غطاء النعش الرصاصي الذي تلقى لا مبالاة الشعب على أصحاب الرأي الصليب المتخلى عنهم .

كانت الحركة العامة التي بدت وكأنها رُسِمَتْ على نحو غامض - كانت هذه الحركة قد اجهضت . وأصبح في ميسور اهتمام وزير الحرب واستراتيجية القادة العسكريين ان يركّزوا على المتاريس الثلاثة أو الاربعة التي كانت ما تزال قائمة .

وارتفعت الشمس فوق الأفق .

وخطب احد المتمردين آنجولراس :

« نحن جائعون هنا . هل سنموت هنا ، فعلاً ، من غير ان نأكل ؟ »

وهز آنجولراس رأسه ، وكان لا يزال مستنداً إلى شرفته ، من غير ان يزيح عينيه عن أقصى الشارع .

١٤

حيث نقرأ اسم خليعة آنجولراس

وواصل كورفيراك ، الجالس على حجر من حجارة الارصفة قرب آنجولراس ، اهاناته للمدفع . وكلما انطلقت السحابات القائمة من

القذائف التي ندعوها كرات المدافع ، بدويها الهائل ، تلقاها بغفورة من
السخرية .

— « انت ترهق رئيتك ، ايها البهيمة العجوز المسكينة : إنك تقلقي ؛
إنسك تفقد ضوءك . هذا ليس رعداً . لا ، إنه سعال . »
وضحك الذين كانوا من حوله .

وشرع كورفيراك وبوسويو ، اللذان كانت بشاشتهما تزداد في ساعات
الخطر ، يستغيضان ، مثل مدام سكارون ، عن الطعام بالدعابة . وإذ لم
يكن عندهما خمر فقد صبأ البشر للجميع .
وقال بوسويو :

— « أنا معجب بأنجولراس . ان جرائته الممتنعة على التأثير لتدهشي .
إنه يحيا وحيداً ، وهذا ما قد يجعله حزينا بعض الشيء . إن آنجولراس
يتألم من عظمته ، التي تشده إلى الرمل . اما نحن الباقين فان لنا جميعاً ،
قليلاً أو كثيراً ، خيليات تجعل منا مجانين ، يغني شجعاناً . فحين يكون
المرء عاشقاً كالنمر ، فأقل ما يُنتظر منه ان يقاتل كالاسد . إنها وسيلة
نتضم بها لانفسنا من الحيل التي تدبرها لنا سيداتنا الفتيات المغناجات . إن
رولان * يلقي بنفسه إلى الموت لكي يغيظ آنجيليكا * . جميع بطولاتنا
تنبثق من نسائنا . الرجل من غير امرأة غدارة من غير زناد . إن المرأة
هي التي تجعل الرجل ينطلق . والآن ، إن آنجولراس لا امرأة له . إنه
ليس عاشقاً ، وهو يجد الوسيلة إلى ان يكون باسلاً . وانه لمن المعجز
ان يستطيع المرء ان يكون بارداً كالثلج ، ومقدماً كالنار . »
ولم يبد أن آنجولراس كان يسمع . ولكن لو ان ايما امريء كان قربه
اذن لسمعه يغمغم في همس : *Patria* **

وكان بوسويو لا يزال يضحك عندما صاح كورفيراك :

* بطل « انشودة رولان » و « رولان الهائج » . وآنجيليكا زوجته .

** اللفظة اللاتينية التي تفيد معنى الوطن .

- « شيء جديد ! »

وفي صوت حاجب يعلن نبأ وصول شخص ما . اضاف :

- « اسمي المدفع ذو القذيفة البالغ وزنها ثمانية اربطال . »

والواقع ان شخصية جديدة كانت قد دخلت المسرح . كان مدفعاً
ثانياً .

وفي سرعة ، نفذ رجال المدفعية المناورة ، ووضعوا المدفع الثاني قرب
المدفع الاول .

لقد اوحى ذلك بأن النهاية باتت قريبة .

وبعد بضع لحظات . شرع المدفعان - وقد حشيا على عجل -
بإطلاق نيرانهما على المتراس مباشرة وكانت نار قوات المشاة وجمند
للمضواحي تدعم المدفعية .

وعلى مسافة ما ، سمع ددوي وابل آخر من طلقات المدافع . وفيما
كان مدفعان اثنان يقذفان بنيرانهما ، متراس شارع الـ « شانفريري » كان
مدفعان آخران مصوبان ، احدهما في شارع سان دونيز والآخر في
شارع اوبري لو بوشيه يمتطوان متراس سان ميرتي بوابل من قذائفهما.
وتبادلت المدافع الاربعة أصدااء كثيفة .

لقد تجاوب نباح كلاب الحرب المشؤومة .

ومن احد المدفعين اللذين كانا يقذفان بنارهما متراس شارع الـ
« شانفريري » ، انطلقت قذائف ، على حين انطلقت من الآخر كرات
حديدية .

كان المدفع المطلق لكرات مرتفعاً بعض الشيء ، وكان خط الرمي
محبوباً بحيث تصيب الكرة الحافة القصوى من زاوية المتراس الناتئة العليا
تقطع رأسها ، وفتت حجارة الارصفة فوق رؤوس المتمردين وكأنها ،
وابل من قذائف .

وكان هذا الرمي الخاص مقصوداً به ان يقصي المقاتلين عن قما

المتراس ، وان يكرههم على الاحتشاد في الداخل ؛ يعني ان ذلك قد أعلن الهجوم .

حتى إذا أقصي المقاتلون عن قمة المتراس بالكُرّات ، وعن نوافذ الحانة بالقذائف ، أصبح في ميسور القوات المهاجمة ان تغامر في الدخول إلى الشارع من غير ان تراقب ، بل ومن غير ان تكون تحت النار ، كما أصبح في ميسورها ان تتسلق المتراس فجأة ، كفعلها الليلة البارحة وان تستولي عليه - فمن يدري ؟ - بغتة .

وقال آنجولراس :

« يجب على اية حال ان نخفض من إزعاج هذه المدافع . »

ثم صاح :

« اطلقوا النار على المدفعين ! »

كانوا كلهم مستعدين . واطلق المتراس - الذي صمت فترة طويلة - النار في يأس . وتعاقت سبع إطلاقات أو ثماني إطلاقات في ضرب من الغضب والبشر. وافعِم الشارع بدخان معمم . وبعد بضعة دقائق ، ومن خلال هذا الضباب الذي اخترقه اللهب ، استطاعوا ان يتبينوا ، على نحو غير واضح ، ثلثي رجال المدفعية منطرحين تحت دواليب المدفعين . أما أولئك الذين ظلوا واقفين فقد واصاوا حشوا المدفعين في هدوء صارم ، ولكن النار كانت قد تباطأت .

وقال بوسوويه لآنجولراس :

« الامور تجزي على ما يرام . نجاح . »

فهز آنجولراس رأسه وأجاب :

« ربع ساعة اخرى من هذا النجاح ، ولن تبقى في المتراس عشر

خراطيش . »

والذي يبدو ان غافروش قد سمع هذه الملاحظة .

غافروش في الخارج

وفجأة لمح كورفيراك شخصاً ما ، عند ادنى المتراس ، في الخارج ، وسط الشارع ، تحت وابل الكرات المدفعية .
كان غافروش قد اخذ سلة من الحانة ، وانطلق من فرجة المتراس ، وراح يفرغ في سلته ويهدوء ، صناديق الخرطوش الملائى تلك ، التي خطفها رجال الحرس الوطني الذين صرعوا على منحدر المتراس .
وقال كومبوفير :

« ماذا تفعل هناك ؟ »

ورفع غافروش انفه .

« ايها المواطن ، انني املاً سلتني . »

« ولكن ، ألا ترى القذائف المدفعية ؟ »

فأجاب غافروش :

« حسناً ، انها تمطر . ثم ماذا ؟ »

فصاح كورفيراك :

« إرجع ! »

فقال غافروش :

« في الحال . »

وبوثة انطلق إلى الشارع .

ويذكر القاريء أن فضيل فانيقو كان قد ترك وراءه ، وهو ينسحب ، خطاً طويلاً من الجثث .

كان نحو من عشرين قتيلاً مثورين فوق الرصيف ، على طول الشارع . وكان ثمة عشرون صندوق خرطوش لغافروش . ذخيرة من

الخرطوش للمتراس .

كان الدخان في الشارع كالضباب . وكل من قَدَّر له ان يرى سحابة تسقط في فج من فجاج الجبال بين منحدرين وعرين يستطيع ان يتخيل هذا الدخان محتشداً ، وان يتخيله وكأنه يُكشَّف بخطين مظلمين من بيوت شاهقة . لقد ارتفع في بطاء ، وكان يتجدد على نحو موصول . ومن هنا تلك الظلمة التدريجية التي جعلت وضوح النهار نفسه شاحباً . وأسى المقاتلون لا يلمح بعضهم بعضاً ، إلا في عسر ، من اقصى الشارع إلى اقصاه ، على الرغم من انه كان قصيراً جداً .

هذه الظلمة ، ولعلها كانت مدبرة ومرغوباً فيها من جانب الزعماء الذين عُهد اليهم في قيادة الهجوم على المتراس ، كانت ذات فائدة لغافروش .

فتحت ثنايا حجاب الدخان هذا ، وبفضل ضآلة جسمه ، استطاع أن يُبعد في الشارع من غير ان يراه احد . لقد افرغ صناديق الخرطوش السبعة أو الثمانية الاولى دونما كبير خطر .

لقد زحف على بطنه ، وراح يعدو على يديه ورجليه ، حساملاً سلته بين أسنانه ، وتلوّتى ، وانزلقى ، وتموّج ، وتمعج من جثة إلى جثة ، وأفرغ احد صناديق الخرطوش كما يفتح قرد جوزة .

ولم يحرو المتحصنون في المتراس — وكان لا يزال على مدى السمع منه — على أن يدعوه إلى العودة ، خشية ان يلفتوا الانظار اليه .

وفوق احدى الجثث ، وكأنه جثة عريف ، وجد وعاء بارود . وقال وهو يضعه في جيبه :

« من اجل العطش . »

وبفضل التقدم المتعاقب بلغ نقطة كان ضباب الطلقات النارية قد امسى فيها شفافاً .

وكانت هذه الشفافية شديدة بحيث ان مطلق النار من المشاة ، المبأين

المرصدين خلف جدارهم المقام من حجارة الارصفة ، وبحيث ان
مطلق النار من جند الضواحي المحتشدين في زاوية الشارع اكتشفوا فجأة
شيئاً يتحرك في الدخان .

ولحظة كان غافروش يجرد رقيباً قرب معلّم الطريق من خراطيشه ،
أصابته الجثة كرة من كرات المدافع .
وقال غافروش :

— « يا للشيطان ! إنهم يقتلون أمواتي ! »
وفتنت كرة اخرى الرصيف الذي إلى جانبه . وقلبت ثالثة سلته رأساً
على عقب .

ونظر غافروش ، ورأى انها اقبلت من جند الضواحي .
ونهض منتصباً على قدميه وقد عبث الريح بشعره ، واضعاً يديه
على خاصرتيه ، مسدداً بصره نحو رجال الحرس الوطني المطلقين النار .
وراح يغني :

ان المرء ليكون بشعاً في نانثير ،
وتلك خطيئة فولتير ،
واحقق في باليسو ،
وتلك خطيئة روسو .

ثم تناول سلته ، ووضع فيها الخراطيش التي سقطت منها من غير
ان يضيع أياً منها ، وتقدم نحو وابل الرصاص ، وشرع يفرغ صندوقه
خرطوش آخر . وهناك أخطأته قذيفة رابعة ايضاً ، وما كادت . وغنى
غافروش :

انا لست كاتباً عدلاً ،
وتلك خطيئة فولتير

أنا عصفور صغير
وتلك خطيئة روسو

ولم توفى قذيفة خامسة إلى أكثر من انتزاع دور ثالث . من
غافروش :

البهجة شيتي
وتلك خطيئة فولتير
والبؤس جهاز عربي
وتلك خطيئة روسو

واستمر ذلك على هذا النحو فترة ما .
كان المشهد راعياً وفانناً . كان غافروش . وقد صُوب إليه الرصاص ،
يسخر من الرصاص . لقد بدا وكأنه مبتهج جداً . كان هو السنونو
يضرب الجنود القناصة بمنقاره . ولقد اجاب على كل إطلاقه رصاصي
بدور من ادوار الغناء . وسددوا النار اليه على نحو موصول ، ولكنهم
اخطأوه دائماً . وضحك الجند ورجال الحرس الوطني وهم يصوبون
الرصاص اليه . لقد انطرح على الأرض . ثم نهض . واختبأ عند
زاوية باب ، ثم قفز ، واختفى . وعاود الظهور . وفر . وأجاب
على طلقات النار بالسخر ، ونهب في الوقت نفسه الخراطيش ، وافزع
صناديق الخرطوش ، وملأ سائه . وأتبعه المتمردون عيونهم . وقد
تقطعت انفاسهم قلقاً . كان المتراحم يرتجف ، وكان هو يغني . لم يكن
ذلك طفلاً ، ولم يكن ذلك رجلاً ، لقد كان « متشرداً » جنيئاً غريباً .
ولقد كان خليقاً بمن يراه ان يقول إنه قرم المعترك المعصوم عن الجراح .
كانت القذائف تعدو خلفه . وكان هو أرشق منها . كان يلعب مع
الموت لعبة « اختبئي » والتمس » على نحو رهيب إلى حد لا يوصف .

وكلمما اقترب وجه الشبح الافطس . فرقع « المتشرد » اصابعه .
 بيد ان رصاصة ، أشد غدراً أو مصوبة على نحو افضل من سابقتها .
 بلغت الطفل الشبيه بالشهاب الغازي . لقد رأوا غافروش يترنج ، ثم يقع .
 واطلق المتراس كله صيحة . ولكن كان ثمة آنتيوس . في هذا القزم .
 لأن مسـ « المتشرد » الرصيف اشبه شيء بمس العملاق الارض . فلم يقع
 غافروش إلا لينهض من جديد . وظل قاعداً على مؤخرته ، وقد جرى
 على وجهه خط من الدم طويل ، ورفع ذراعيه في الهواء . ونظر إلى
 الناحية التي اقبلت منها الرصاصة . وبدأ يغني :

لقد سقطت على الارض
 هذه خطيئة فولتير
 وانفي في الساقية
 هذه خطيئة ...

ولم يكمل . لقد حالت بينه وبين ذلك قذيفة ثانية من القناص نفسه .
 وهذه المرة خر على الرصيف مكباً على وجهه . ولم يتحرك بعد قط .
 كانت تلك الروح العظيمة الصغيرة قد فاضت .

١٦

كيف يصبح الاخ اباً

كان في تلك اللحظة ذاتها في حديقة اللوكسومبورغ - ذلك ان عين
 المأسة يجب ان تكون ماثلة في كل مكان - طفلان يمسك احدهما بيد
 الآخر . واغلب الظن ان احدهما كان في السابعة من عمره . والآخر

* عملاق من عمالقة الميثولوجيا القديمة ، ابن « نبتون » و « الارض » وقد خنقه هرقل
 (هيركول) بين ذراعيه ، واذا وجد البطل في صراعه ضد آنتيوس ان هذا العملاق كان
 ينعم بقوة جديدة كل مسـ الارض فقد رفعه عنها ، فوفق بذلك الى ان يسلب الحياة .

في الخامسة . وإذ نُتقعا بالمطر ، فقد كانا يمشيان في مجازات الحديقة في الناحية المشمسة . كان الكبير يقود الصغير . وكانا شاحبين تعلق جسداهما اسمال بالية . لقد بدت عليهما سيما طائرین برين : وقال اصغرهما :
- « أنا جائع جداً . »

وساق الأكبر ، وكان قد أصبح وصياً وحامياً ، اخاه بيده اليسرى ، حاملاً باليد اليمنى قضيباً طويلاً .

كانا وحدهما في الحديقة . وكانت الحديقة خالية . بعد أن أوصدت الابواب بأمر الشرطة بسبب من الثورة . وكان الجنود الذين عسكروا فيها قد طلب اليهم مغادرتها سداً لحاجات المعركة .

كيف وصل الطفلان إلى هناك ؟ هل هربا من باب مخفر نصف مفتوح ؟ هل اتفق ان كان ثمة في الجوار ، عند « باب الجحيم » ، أو « ساحة الاوبزر فاتوار » ، أو في الميدان المجاور الذي تشرف عليه تلك

القوصرة . المكتوب عليها : *invenerunt parvulum pannis involutum* : هل اتفق ان كان ثمة كوخ من اكواخ المشعوذين فرا منه ؟ هل قدّر لهما ، الليلة البارحة أن يغافلا عين حراس الحديقة ساعة الاقفال ، فملحنا ساعات الليل في واحد من تلك الاكشاك التي يقرأ الناس فيها الصحف ؟ الواقع انهما كانا تائهيْن ، وانهما كانا حرّين في ما يبدو . ولأن يكون المرء تائهاً ولأن يبدو حرّاً يعني أنه هالك . ولقد كان هذان الصغيران البائسان هالكين حقاً .

هذان الطفلان كانا عين ذينك اللذين قلق غافروش عليهما ، واللذين يذكرهما القاريء . ولدني تينارديه ، المؤجرين لـ « مانيون » ، المنسوين إلى مسيو جيلنورمان ، واللذين أمسيا الآن ورقتين سقطتا من جميع هذه الأغصان التي تعوزها الجذور ، وعصفت بهما الريح مطوّفة فوق الارض .

• القوصرة : مثلث يقام على واجهة بناء .

كانت ملابسهما النظيفة في عهد مانيون ، والتي كانت لها بمثابة
البيان في مسيو جيلنورمان ، نقول كانت ملابسهما قد اُست
مزعاً خلقة .

لقد أصبح هذان المخلوقان ، منذ اليوم ، في عداد « الاطفال
المهجورين » الذين يُبلغ البوليس عنهم ، ويجمعهم ، وينثرهم ، ثم يجدهم
كرة اخري في شوارع باريس .

كان لا بد من قلق نهار كهذا حتى يمسي هذان الصغيران المسكينان
في تلك الحديقة . ولو قد رآهما الحرس ، اذن لطردها هذه الاسمال .
فالاطفال الفقراء لا يستطيعون ان يدخلوا إلى الحدائق العامة . ومع ذلك
فينبغي للمرء ان يفكر ان لهم ، كأطفال ، حقاً في الازهار .

لقد كانا هناك ، بفضل الابواب الموصدة . كانا هناك خارقين القانون .
لقد انسلنا إلى الحديقة ، وبقينا هناك . إن الابواب الموصدة لا تشرح
الحرس المراقبين ، فمن المفروض ان تستمر المراقبة ، ولكنها تسترخي
وتستريح . وهكذا فان الحرس ، المثارين هم ايضاً بالقلق العام المنشغلين
بالمسائل الخارجية اكثر من انشغالهم بالمسائل الداخلية ، لم يعودوا يلقون بالآ
إلى الحديقة ، ومن ثم لم يروا المذنبين الصغيرين .

كانت السماء قد أمطرت في الليلة البارحة ، بل كانت قد امطرت
بعض الشيء ذلك الصباح . ولكن الامطار في حزيران لا اهمية لها .
فليس يدرك المرء ، إلا في صعوبة ، بعد ساعة من العاصفة ، ان ذلك
النهار الاشقر الجميل كان ماطراً . ان الارض في الصيف لتجف وشيكاً
كما تجف وجنة طفل .

في لحظة انقلاب الشمس هذه يكون ضياء القمر ، إذا جاز التعبير ،
ثاقباً . إنه يستبد بكل شيء . إنه يدأب وينشر نفسه فوق الارض في
ضرب من الامتصاص . وإنه لخليق بالمرء أن يقول ان الشمس كانت
ظمأى . إن الوابل كأس من الماء . وان المطر ليُعبّ في الخال . في

الصباح يكون كل شيء راشحاً ، وبعد الظهر يكون كل شيء مغبراً .
وليس شيء أروع من اخضرار غسلة المطر ومسحته اشعة الشمس .
تلك هي البرودة الحارة . إن الحداثق والمروج ، وقد أفعمت جذورها
بالماء وحفلت ازهارها باشعة الشمس ، تنقلب الى مجامر بخور ، وتنفت
عطورها كلها دفعة واحدة . إن كل هذه لتضحك ، وتغني ،
وتعرض نفسها . نحن نستشعر ثملاً عذباً . الربيع جنة موقته . وأشعة
الشمس تساعد على اغراء المرء بالصبر .

هناك اناس لا يطلبون شيئاً أكثر من ذلك ؛ وكائنات حية ما ان يروا
السماء اللازوردية حتى يقولوا « هذا حسبنا ! » ؛ وحالمون مستغرقون
في الاعجوبة ، يغترفون من وثنية الطبيعة لا مبالاة بالخير والشر ؛
ومتأملون في الكون منصرفون عن الانسان على نحو مشرق لا يفهمون
كيف يستطيع اي امرئ ان يشغل نفسه بجوع هؤلاء ، وظمأ أولئك ،
وبعري الفقير في الشتاء ، والانحناء اللمفاوي في عمود فقري صغير ،
بالفراش الحقيق ، بالعلية ، بالحبس المظلم ، بأسمال الفتيات الصغيرات
المرتجفات ، حين يكون في ميسوره ان يحلم تحت الأشجار ؛ نفوس
مسالمة وفظيعة ، راضية على نحو لا يعرف الرحمة . شيء غريب ؛ ان
اللانهاشي يكفيهم . أما حاجة الانسان العظمى ، النهائية . الذي يميز
العناق ، فهم ينكرونها . النهائية الذي يسلم بالتقدم ، والكدح السني لا
يفكرون فيه . ان اللامحدود ، الذي يولد من امتزاج اللانهاشي والنهاشي
امتزاجاً انسانياً وإلهياً ، ليفوتهم . إنهم يتسمون . شرط ان يكونوا
وجهاً لوجه مع السعة التي لا نهاية لها . لا ابتهاج البتة ، ولكن انخفاف
دائماً . قوام حياتهم أن يتلفوا . وتاريخ الإنسانية عندهم ليس غير رسم
تقسيمي . إن « الكل » ليس هناك ؛ إن « الكل » الصحيح لا يزال في
الخارج . أي فائدة في أن نشغل انفسنا بهذا العرض : الانسان ؟ الانسان
يتألم ، هذا جائز . ولكن انظر إلى الدبتر أن البازغ هناك ! الأم قد جف

ثديها . والوليد الصغير يموت . أنا لا ادري شيئاً عن ذلك ، ولكن
أنظر إلى شكل الوردة المذهل الذي تولفه حلقة من حلقات لحاء الصنوبر
تحت المجهر . قابل ذلك بأجمل ضروب الوشي الدقيق ! هؤلاء المفكرون
ينسون ان يحبوا . إن فلك البروج ليهيمن عليهم بحيث يمنعهم من رؤية
الطفل الذي يبكي . إن الله يكشف روحهم . وهناك اسرة من هذه
النفوس ، الصغيرة العظيمة في آن واحد . من هذه الاسرة كان هوراس
ومنها كان غوته . ولعل لافونتين كان منها ايضاً . انانيو اللانهاشي
الرائعون ، شهود الألم المادئون . الذين لا يرون نيرون إذا كان الجو
جميلاً . والذين تخفي الشمس عن اعينهم كومة الحطب المعدة لاحتراق
المجرم . والذين يرون إلى المقصلة تعمل باحثين عن اثر من آثار الضياء .
والذين لا يسمعون لا الصيحة ، ولا الزفرة ، ولا الحشجة . ولا ناقوس
الخطر . والذين يرون كل شيء حسناً ما دام ثمة شهر يدعى شهر
نوار . والذين يعلنون ، ما دام فوق رؤوسهم سحائب ارجوان وذهب .
انهم سعداء . والذين عقدوا العزم على ان يكونوا سعداء إلى ان ينفد
ضياء النجوم ونشيد الطيور .

إنهم ذوو إشراق قائم . وهم لا يشكّون في انهم ينبغي ان يرثي لهم .
وليس من ريب في انهم بذلك جديرون . إن من لا يبكي لا يرى . ان
علينا أن نعجب بهم ونرثي لهم ، كما نرثي ونعجب بكائن هو نور
وظلام في آن معاً . كائن لا عينين تحت حاجبيه . ولكن في وسط
جبينه نجمة .

وفي لا مبالاة هؤلاء المفكرين . كما يعتقد بعضهم ، تكمن فلسفة
متفوقة . ليكن ذلك . ولكن في هذا التفوق بعض الوهن . فقد يكون
المرء خالداً واعرج . نخذ فولكان مثلاً على ذلك . وقد يكون المرء
أكثر من رجل وأقل من رجل . واللاكامل الذي لا حد له موجود في

* الله النار والمعادن عند الرومان .

الطبيعة . ومن ذا الذي يستطيع ان يزعم ان الشمس ليست عمياء ؟
ولكن ثم ماذا ؟ بمن نتق ؟
Solea quis dicere falsum audeat ؟
وهكذا فان بعض العباقرة انفسهم ، وبعض البشر الاكثر رفعة . الرجال
الكواكب . قد يُخدعون ! إن أولئك الواقفين فوق . في الذروة ، في
القمة ، عند سمت الرأس ، والذين يرسلون إلى الارض هذا الضياء كله ،
قد يزون قليلا ، قد يرون في عسر ، قد لا يرون شيئاً ! أليس في
ذلك ما يوقع اليأس في النفس ؟ لا . ولكن ، اي شيء فوق الشمس
اذن ؟ الله .

في السادس من حزيران . عام ١٨٣٢ ، حوالى الساعة الحادية عشرة
صباحاً ، كانت حديقة اللوكسومبورغ ، المنعزلة المهجورة ، فاتنة . كانت
مربعات الاشجار ومساكن الازهار تُبرز نفسها نحو الضياء في الراتينج
العطر وجَهَر البصر . لقد بدت الاغصان مدله بأشراق الظهر . وكأن
بعضها يسعى إلى معانقة بعض . كان في شجرات الجديز جلبة دُخَلات ،
وتهللت الطيور الجواثم ، وتساقطت الطيور ثقاباتُ الخشب شجيرات
الكستناء . ناقرة بمناقيرها ثقب ثقب اللحاء . وتقبلت مساكن الزهور ملكية
الزنابق الشرعية . فأفخم العطور هو ذلك الذي ينبثق من البياض . كان
المرء يستنشق ريا القرنفل الملفلة . وكانت زيان ماري دي مديتشي المعجائر
صريعة العشق في الاشجار الضخام . وذهبت الشمس الخزامى وأشعلتها
وسفحت عليها لون الارجوان ، الخزامى التي لم تكن غير
مختلف ضروب اللهب حُولت إلى ازهار . وحول مساكن الخزامى طوفت
جماعات النحل ، شرارات من هذه « الازهار - اللهب » . كان كل شيء
يمور بالملاحة والبهجة ، حتى المطر الوشيك . وهذا المجرم العتيق ،
الذي كان جديراً بزهرات العسل وزنابق الوادي ان تفيد منه ، لم يحدث
شيئاً من الانزعاج . وطارت جماعات السنونو على ارتفاع منخفض ،
وكان ذلك بعيداً فاتناً . لقد استنشق من كان هناك ربح السعادة .

كانت الحياة حلوة . وكانت تلك الطبيعة كلها تنفس سلامة النية ،
والغوث ، والمساعدة ، والابوة ، والملاطفة ، والفجر . وكانت الأفكار
التي هبطت من السماء ناعمة مثل يد الطفل الصغيرة التي نقبلها .
وكانت التهايل القائمة تحت الاشجار ، غارية بيضاء . مجلية بأثواب
من الظل مزقها الضياء . لقد أبلت أشعة الشمس اثواب هذه الآلات .
لقد تدلت منها إرباً إرباً من الجهات جميعاً . وحوالى الحوض الكبير ،
كانت الارض قد جفت إلى حد أصبحت معه مخبوزة تقريباً . وكان ثمة
رياح قوية إلى درجة تتمكن من اثاره فتن رملية صغيرة هنا وهناك .
وطاردت بعض الاوراق الصفراء ، بقايا الخريف الماضي ، بعضها الآخر
في مرج ، وبدت وكأنها تلعب لعبة « المتشردين » .

كانت وفرة الضياء تبعث الطمأنينة في النفوس على نحو لا سبيل إلى
وصفه . لقد فاضت الحياة ، وفاض النسخ ، والدفع ، والمعبر . كنت
تشر تحت الخليقة بضخامة مصدرها . وفي جميع هذه النسائم المشبعة
بالحب ، وفي تذبذب انعكاسات النور وارتداداته هذه ، وفي هذا
الانفاق الاعجوبي للأشعة ، وفي هذا التدفق اللامحدود للذهب المائع ،
كنت تشعر بتبذير ما لا ينضب . ووراء هذا البهاء ، شأنك وراء حجاب
من الذهب ، كنت تلمح الله ، مليونير النجوم .

وبفضل الرمل لم يكن ثمة أثارة من وحل . وبفضل المطر لم يكن
ثمة ذرة من غبار . كانت الباقات قد غسلت منذ لحظة . كانت المخمليات
كلها ، والاطلسيات كلها ، والمينائيات كلها ، والذهبيات كلها التي
تنبت من الأرض في شكل ازهار - كانت هذه كلها خلواً من العيب .
وكان هذا البهاء نقياً . لقد ملأ الحديقة صمت الطبيعة السعيدة الكبير .
صمت سماوي متساوق مع آلاف الألحان ، وهددات الاعشاش ،
ودندنات النحل ، وخفقات الريح . كان تناغم الموسم كله قد تحقق
في كل واحد لطيف . وانخذت مداخل الريح ومخارجه اماكنها في

النظام الملائم . لقد انتهت الزنابق ، وأهل الياسمين . كانت بعض
الازهار قد تأخرت ، وكانت بعض الحشرات قد أقبلت قبل إبانها . ولقد
تآخت طليعة فراشات حزيران الحمراء مع ساقه فراشات نوار البيضاء .
وكانت شجرات الدلب ترتدي جلدًا جديدًا . وكان النسيم يخفسر
تموجات في شجرات الكستناء ذات الضخامة الرائعة . كان ذلك متألقًا .
ولقد نظر جندي عريق من عساكر الثكنات المجاورة عبر البساط
الحديدي وقال :

— « هوذا الربيع تحت السلاح ، وفي كامل اللباس الرسمي . »
كانت الطبيعة كلها تتناول طعام الصباح ؛ كانت الخليقة جالسة إلى
المائدة ؛ لقد حانت الساعة ، ولقد نشر غطاء المائدة الكبير الأخضر فوق
الأرض ، واشرقت الشمس ساطعة . وكان الرب يقدم الوجبة الكونية :
ونال كل كائن طعامه أو علفه . لقد وجدت اليمامة بزر قنب ، ووجد
البرقش ذرة بيضاء ، ووجد الحسون رتمًا ، ووجد أبو الحناء ديدانًا ،
ووجدت النحلة أزهارًا ، ووجدت الذبابة نَفْعِيَّات ، ووجد المخروطي
المنقار ذبابًا . لقد أكل بعضها بعضًا ، شيئًا ما من غير شك ، وذلك
هو لغز الشر ممتزجًا بالخير ، ولكن أيًا من الحيوانات لم يكن
فارغ المعدة .

كان المخلوقان الصغيران البائسان قرب الحوض الكبير . وإذا اقلقهما
ذلك الضياء كله بعض الشيء ، فقد حاولا ان يحتبنا — وتلك غريزة
البائس والضعيف أمام البهاء وان يكن مجهولا — وظلا خلف كوخ
الأوز العراقي .

وهنا وهناك ، بين الفينة والفينة ، كلما همدت الريح ، سمعا
على نحو غامض صيحات ، وجلبة ، وضرباً من الحشرات الصاخبة التي
كانت طلقات بنادق ، وصنوفاً من الصرير الابكم التي كانت طلقات
مدافع . كان ثمة دخان فوق السطوح في اتجاه الاسواق . ورن جرس

كان يبدو وكأنه يُقَرع ، في المدى البعيد .
وتراءى هذان الطفلان وكأنهما لم يسمعا هذه الاصوات . وكزرا صغرها
بين الفينة والفينة ، في همس :
- « أنا جائع . »

وفي وقت واحد مع الطفلين تقريباً ، تقدم زوج آخر نحسو
الكبير . كان رجلاً في الخمسين يقود بيده رجلاً في السادسة . أب وابنه
من غير شك . وكان الرجل البالغ السادسة من العمر يحمل في يده قطعة
كبيرة من حلوى مصنوعة بالدقيق والسمن والبيض .

في ذلك العهد ، كانت لبعض البيوت المجاورة ، في « شارع السيدة »
« وشارع الجحيم » ، مفاتيح لـ حـديقة اللوكسومبورغ كان نزلاء
تلك البيوت يستعملونها حين تكون الابواب موصدة ، وهو
تساهل ألغى منذ ذلك الحين . ولعل هذا الاب وهذا الابن اقبلا من احد
هذه الأبواب .

ورأى الصغيران البائسان إلى « هذا السيد » يتقدم ، وأحكما اختاءهما
أكثر بعض الشيء .

كان بورجوازيّاً . ولعله عين ذلك الذي كان ماريوس قد سمعه
ذات يوم ، رغم حمّى حبه ، قرب هذا الحوض الكبير نفسه ، ينصح
أبنته بأن « يحذر التطرف » . كانت تزين على وجهه سيما أنيسة متغطّرة
وكان فمه الذي لم يطبق قط يبتسم ابداً . وهذه الابتسامة الميكانيكية ،
الناشئة عن فك هو من الكبير باكثر مما ينبغي وجلد هو من الضالة باكثر
مما ينبغي ، إنما تكشف عن الاسنان اكثر مما تكشف عن الروح . وبدا
الطفل . بقطعة حلواه المقضومة التي لم يُنْهها ، وكأنه متخوم . وكان الطفل
يرتدي بزة جندي من جنود الحرس الوطني ، بسبب من الفتنة ، وكان
الاب قد احتفظ بملابس المواطن المدنية ، بسبب من الفطنة •
ووقف الاب والابن قرب الحوض الذي كانت الاوزتان العراقيتان

تسليان فيه . لقد بدا وكأن هذا البورجوازي معجب إعجاباً
خاصاً بالاوزتين العراقيتين : وكان يُشبههما من هذه الناحية : أنه كان
يمشي مثلهما .

في تلك اللحظة كانت الاوزتان تسبحان ، وتلك هي موهبتها الرئيسية ،
وكانتا بهيتين .

ولو قد أصغى الصغيران البائسان ، ولو قد كانا في سن تمكنهما من
الفهم ، إذن لاستطاعا أن يتلقفا كلمات رجل رزين . لقد قال
الأب لابنه :

— « العاقل يحيا قانعاً بالقليل . انظر إلي ، يا بني . انا لا أحسب
الآهية . إن أحداً لم يرني قط في ثياب مزينة بالذهب والجواهر : انا
اترك هذا المجد الزائف لذوي العقول الرديئة التنظيم . »

وهنا انفجرت الاصوات العميقة ، المنطلقة من ناحية الاسواق ، في
قرع اجراس متضاعف وضوضاء متعظمة .

وتساءل الطفل :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب الأب :

— « إنها أعياد فوضى ودعارة . »

وفجأة بصُرَّ بالغلامين ذوي الاسمال البالية واقفين في غير حراك خلف
كوخ الاوز العراقي الأخضر :
وقال :

— « هذه هي البداية : »

وبعد لحظة ، أضاف :

— « لقد شرعت الفوضى تدخل إلى هذه الحديقة . »

وفي غضون ذلك قضم الطفل قطعة الحلوى ، وانشأ يصرخ فجأة :
وسأله الأب :

— « لماذا تبكي ؟ »

فقال الطفل :

— « أنا لم أعد جائعاً . »

وغدت ابتسامة الوالد عريضة .

— « ليس من الضروري أن تكون جائعاً حتى تأكل قطعة حلوى ؟ »

— « إن هذه القطعة ترعجني . إنها بائنة : »

— « ألم تعد لك رغبة فيها ؟ »

— « لا : »

ودله الأب على الاوزتين .

— « ألقها إلى هذين الطائرین ذوي الاقدام الكفّية : »

وتردد الطفل . فرغبة المرء عن قطعة حلواه ليست سبباً كافياً للتبرع بها .

وتابع الأب :

— « كن انسانياً . يجب أن تأخذنا الشفقة على الحيوانات : »

وأخذ قطعة الحلوى من ابنه وقذف بها إلى الحوض :

وسقطت الكعكة قرب الحافة .

كانت الاوزتان بعيدتين ، في وسط الحوض ، منهنكيتين في فريسة ما . لهنما لم تريا أياً من البورجوازي أو قطعة الحلوى :

ولاذ شعر البورجوازي أن قطعة الحلوى كانت مهددة بخطر الضياع ،

ولاذ أثاره هذا الفرق غير المجدي ، نذر نفسه لاهتياج تلغرافي لفت آخز

الأمر انتباه الأوزتين .

لقد لمحتا شيئاً يطفو ، واستدارتا مثل السفن — وهل كانتا غير

سفينتين ؟ — واتجهتا في تودة نحو قطعة الحلوى ، بذلك الجلال الصافي

الذي يلائم الحيوانات البيضاء .

وقال البورجوازي ، وقد أبهجه ذكاؤه :

— « الأوز (Cygnes) يفهم الاشارات (Signes) .
وفي تلك اللحظة تعاظمت من جديد ، وعلى نحو مفاجيء ، تلك
الضجة القصية المنبعثة من المدينة . إن ثمة رياحاً تنطق بوضوح يفوق ذلك
الذي تنطق به الرياح الأخرى . والواقع ان تلك التي هبت في تلك اللحظة
نقلت ، في وضوح ، قرع الطبول ، والصيحات ، ونيران فصائل الجند ،
وأجوبة الناقوس والمسدع المشوومة . ووافق ذلك انتشارُ سحابة سوداء
حجبت الشمس فجأة .

ولم تكن الاوزتان قد وصلتا إلى قطعة الحلوى .
وقال الأب :

— « فلنرجع إلى البيت . إنهم يهاجمون التويلري . »
وأمسك بيد ابنه من جديد . ثم تابع :
— « من التويلري إلى اللوكسومبورغ ، ليس ثمة غير المسافة التي تفصل
الملوكية عن الأشرافية . وهي ليست شاسعة . إن رصاص البنادق سوف
ينهمر . »
ونظر إلى السحابة .

— « ولعل المطر نفسه أيضاً سوف ينهمر . إن السماء لتتدخل . ولقد
صدر الحكم على الغصن الأصغر . فلنرجع على عجل . »
وقال الطفل :

— « اود أن أرى الأوزتين تأكلان قطعة الحلوى . »
فأجاب الأب :

— « ذلك خليك به أن يكون تهوراً . »
وقاد بوجوازيه الصغير .
وآدار الابن رأسه ، آسفاً على الاوزتين ، نحو الحوض ، حتى حجبه
عنه منعطف من صفوف الاشجار .
وفي غصون ذلك ، كان التائهان الصغيران قد اقتربا نحو قطعة الحلوى

لحظة اقتربت الاوزتان منها . كانت تطفو على سطح الماء . كان أصغر الطفلين ينظر إلى قطعة الحلوى ، وكان اكبرهما ينظر إلى البورجوازي وهو ينصرف .

ودخل الاب والابن في تيه الممرات الذي يقود إلى مرقاة مجموع الشجر الكبيرة ، ناحية شارع السيدة .

وما إن غابا عن النظر ، حتى سارع أكبر الطفلين إلى التمدد على بطنه فوق حافة الحوض المدورة . وتشبث بها بيده اليسرى ، متديلاً فوق الماء ، وقد أشرف على السقوط . وبسط يده اليمنى بعصاه نحو قطعة الحلوى . وحثت الاوزتان . بعد ان رأنا العذوة ، خطاهما ، وهكذا احداثا بصدرهما أثراً كان مفيداً للصيد الصغير : لقد ارتدت المياه امام الاوزتين ، ودفعت احدى هذه التموجات الرقيقة المشتركة المركز قطعة الحلوى في رفق نحو عصا الطفل . حتى إذا وصلت الاوزتان مست العصا قطعة الحلوى . وقام الطفل بحركة سريعة ، وسحب قطعة الحلوى ، مروعاً الأوزتين ، وتناول قطعة الحلوى ، وانتصب واقفاً . كانت الكعكة مشبعة بالماء ، ولكنهما كانا جائعين ظمئين . وقسم الطفل الاكبر قطعة الحلوى قسمين ، احدهما كبيرة والاخرى صغيرة . واحتفظ بالقطعة للصغيرة لنفسه ، وقدم الكبيرة إلى اخيه الصغير ، وقال له :

« ألقى هذه إلى بندقيتك . »

١٧

« الأب الميت يرثه ابنه حسب الشريعة »

كان ماريوس قد وثب إلى خارج المراس . وكان كومبوفير قد تبعه . ولكن كان الاوان قد فات . لقد مات غافروش :

ورجع كومبوفير حاملاً سلة الخرطوش . ورجع ماريوس حاملاً الطفل .

وفكر : « وأسفاه ، إن ما عمله أبوه من أجل أبي أردّه أنا اليوم للابن . مع فارق واحد هو أن تينارديه عاد بأبي حياً ، على حين انسي اعود بالطفل ميتاً . »

وحين انقلب ماريوس إلى المتراس وغافروش بين ذراعيه ، كان وجهه مثل وجه الطفل : مخضباً بالدم .

فلحظة انحنى لكي ينتشل غافروش كانت رصاصة قد مست جمجمته مساً رقيقاً . إنه لم ينتبه إليها .

ونزع كورفيراك رباط رقبتة وعصب به جبين ماريوس . وسُجّي غافروش على الطاولة نفسها التي سُجّي عليها مابوف ، ونُشر الشال الاسود فوق الجشائين جميعاً . كان من الاتساع بحيث يغطي العجوز والطفل .

ووزع كومبوفير الخراطيش من السلة التي كان قد رجع بها . وهكذا نال كل مقاتل خمس عشرة رصاصة .

وكان جان فالجان لا يزال في المكان نفسه ، جامداً فوق معَلَمه .

وحين قدّم اليه كومبوفير خراطيشه الخمسة عشر : هز رأسه . وقال كومبوفير لآنجلوراس في صوت خفيض :

— « هوذا رجل نادر غريب الاطوار . إنه يجد وسيلة إلى ان لا

يقاتل في هذا المتراس . »

فأجاب آنجلوراس :

— « الأبرز الذي لا يحول بينه وبين الدفاع عنه . »

وعاد كومبوفير إلى القول :

— « إن للبطولة رجالها الغريبين الاطوار . »

وأضاف كورفيراك . الذي كان قد سمع الحديث :

— « إنه من ضرب آخر مختلف عن الاب مابوف : »
ومن الحقائق الجديرة بالذكر ، ان النار التي كان المتراس يُقذف بها لم تقلق الجزء الداخلي منه إلا بشق النفس : واولئك الذين لم يجتازوا قط بزوبعة هذا النوع من الحرب لا يستطيعون ان يتصوروا لحظات الهدوء الفريدة التي تمتزج بهذه الاضطرابات . فالرجال يروحون ويغدون ؛ إنهم يتجاذبون أطراف الحديث ، وإنهم يتبادلون النكات ، وإنهم يتبلدون ويتكاسلون . ولقد سمع احد معارفنا مقاتلا يقول له تحت وابل من قذائف المدافع : « هذا شيء اشبه بطعام العزب الصباحي . »
إن متراس شارع الـ « شانفريري » — ونحن نكرر ذلك — قد بدا هادئاً جداً من داخل . كان كل تحول وكل وجه من وجوه الحظ قد استهلك أو على وشك ان يُستهلك . وكان الموقف قد انقلب من حرج إلى متوعد ، ومن متوعد كان قد انقلب في أغلب الظن إلى يائس . وكلما بدت الاوضاع أشد قتاماً خضب الوميض البطولي ذلك المتراس بالارجوان أكثر فأكثر . وفي رصانة ، نهض آنجولراس بعبء قيادته وكأنه اسبارطي شاب نذر سيفه المسلول لعبقرية أييدوتاس الكالحة .
وكان كومبوفير يضمّد جراح الجرحى وقد ارتدى مثرراً : وكاف بوسوويه وفويبي يصنعان الخراطيش بوعاء البارود الذي اخذه غافروش من العريف الصريع ، وقال بوسوويه لفويبي : « عما قليل سوف نركب العربة العمامة إلى كوكب آخر . » وكان كورفيراك ، فوق حجارة الارصفة القليلة التي احتفظ بها لنفسه قرب آنجولراس ، يرتب وينظم مصنع سلاح كاملا ، عصاه المسيّفة ، وبندقيته ، وغدارتسي قربوس ، وغدارة جيب ، بمثل عناية فتاة ترتب صندوقاً صغيراً من صناديق أشغال الابرّة . كان جان فالجان ينظر ، في صمت ، إلى الجدار المقابل . وكان أحد العمال يثبت على رأسه ، بواسطة خيط من خيوط القنب ، قبة ضخمة من قش كانت ملكاً للام هوشلو « خوفاً من ضربة

« الشمس » كما قال : كان شبان الـ « كوغورد ديكس » يتجاذبون أطراف الحديث ، في مرح ، وكأنما كانوا يتعجلون الكلام باللهجة الأقليمية للمرة الأخيرة . وكان جولي ، الذي نزع مزاة الأرملة ، يفحص لسانه بها . وإذا كان بعض المقاتلين قد اكتشفوا بضع كسرات الخبز ، العفنة أو تسكاد ، في احد الأدراج ، فقد راحوا يلتهمونها في شره . وكان ماريوس مضطرب البال متسائلاً اي سوف يقوله والده له .

١٨

العقاب يصبح فريسة

إن علينا أن نفصل القول في ظاهرة سيكولوجية خاصة بالمتاريس : فليس ينبغي ان يهمل شيء مما يميز حرب الشوارع العجيبة هذه . وأياً ما كانت تلك السكينة الداخلية الغريبة التي تحدثنا عنها اللحظة ، فان المتراس يظل - في نظر الذين انطوى عليهم - رويأ من الزوي .

إن في الحرب الأهلية لرويا اشبه برويا القديس يوحنا . فكل ضباب المجهول يمتزج بهذه الشعلة الوحشية - والثورات آباء هول . . وإمما امزئ اجتاز بمتراس من المتاريس يعتقد أنه اجتاز بحلم من الاحلام . إن ما يستشعره المرء في هذه المواطن ، كما اشرنا في كلامنا على ماريوس وكما سنرى في ما سوف يلي ، هو اكثر من الحياة وأقل من الحياة . فما إن يغادر المقاتل المتراس حتى ينسى اي شيء رآه فيه : لقد كان فظيلاً ، وهو لا يعرف ذلك . كان محوطاً بأفكار مقاتلة كانت ذات وجوه بشرية ، وكان رأسه مغموراً بضياء المستقبل . كانت

* جمع « ابو الهول » .

هنالك جثث مطروحة ، وأطياف منتصبه . وكانت الساعات طويلة إلى حد هائل ، ولقد بدت وكأنها ساعات الابدية . لقد عاش في الموت : ومزت ظلال . أي شيء كانت ؟ لقد رأى أيدياً مخضبة بالدم ، كان هديرأ مروعا ، وكان صمّاً رهيباً أيضاً . كانت ثمة أفواه فاغرة تصيح ، أفواه فاغرة أخرى تعتصم بالصمت . كان في غمرة من الدخان ، أو ربما في غمرة من الليل . وهو يحسب انه قد مس رشحاً مشوئماً مسن عماق مجهولة . إنه لا يرى شيئاً أحمر في أظافره . انسه لم يعد يذكر شيئاً .

ولنعد إلى شارع الـ « شانفريري » .
وفجأة ، بين وابلين من رصاص ، سمعوا صوت ساعة نائية تدق .
وقال كومبوفير :
— « إنه الظهز . »

ولم تكن الدقات الاثنتا عشرة قد اكتملت عندما انتصب آنجولراس واقفاً وقذف من أعلى المتراس بهذه الصيحة الراعدة :
— « انقلوا بعض حجارة الارصفة إلى المنزل . حصنوا النوافذ بها ؛ ليتسلح نصف الرجال بالبنادق ، ونصفهم الاخر بالحجارة . حذار ان تضيعوا دقيقة واحدة . »

كانت مفرزة من الجند ، المتنكبين فؤوسهم ، قد برزت منذ لحظة . على قدم الاستعداد للقتال ، عند نهاية الشارع .
ولا يمكن أن يكون ذلك غير طليعة جند ؛ وأي جند ؟ جنسد الهجوم ، من غير شك . إن الطلائع ، المكلفين تقويض المتراس ، ينبغي ان يتقدموا دائماً العساكر ، المكلفين بتساقه .
لقد وضح انهم كانوا يكادون يمسّون تلك اللحظة التي دعاها مسبو دو كلرمون تونير ، عام ١٨٢٢ ، « الجهد الجهيد » .
ونفذ أمر آنجولراس بالسرعة المضبوطة المعيزة للسفن والمتاريس ،

وهي مواطن القتال الوحيدة التي يتعذر فيها الفرار . وفي أقل من دقيقة ، كان ثلثا الحجارة التي ركمها آنجولراس عند باب كورنث قد حُمِلت إلى الدور الأول وإلى العلية . وقبل ان تنصرم دقيقة اخرى كانت هذه الحجارة : المنضد أحدها فوق الآخر في فن . قد سدت نصف ارتفاع نافذة الدور الأول وكوى العلية . وكانت بضع فتحات . أعدها فويبي . البناء الرئيسي . في عناية ، تمكن انايبب البنادق من النفاذ خلالها . وكان تحصين النوافذ هذا ممكناً على نحو أيسر بعد أن كفت المدافع عن إطلاق النيران . كان المدفعان يسددان كُرَاتهما ، الآن ، إلى منتصف الجدار لكي يحدثا فيه ثقباً ، أو لكي يحدثا ، إذا كان ذلك ممكناً ، ثغرة للهجوم . حتى إذا اتخذت حجارة الأرصفة ، المعدة للدفاع الأخير ، مواطنها أمر آنجولراس رجاله بأن يحملوا إلى الطابق الأول تلك الزجاجات التي كان قد وضعها تحت المائدة المسددة عليها جثمانُ مابوف .

وسأله بوسوويه :

- « من الذي سيشرّب هذا ؟ »

فأجابه آنجولراس :

- « هم . »

ثم إنهم مرسوا نافذة الحجرة السفلية ، وهبأوا على مقربة منهم العوارض الحديدية التي كانت تساعد على إحصاء باب الحانة ، من الداخل ، أثناء الليل .

كانت القلعة كاملة . كان المتراس هو السور ، وكانت الحانة هي البرج .

وبحجارة الأرصفة الباقية . سدوا الفتحة .

وإذ كان يتعين على حماة المتاريس دائماً أن يقتصدوا في إنفاق ذخيرتهم ، وإذ كان المحاصرون يعرفون ذلك ، فإن المحاصرين ينظمون

أعمالهم في ضرب من التمهّل المثير ، معرضين انفسهم للنار قبل الأوان ، ولكن في الظاهر لا في الحقيقة ، وينعمون بالراحة . إن الاستعدادات للهجوم تُتخذ دائماً في شيء من البطء المنهجي ، وبعد ذلك تنقض الصاعقة .

وهذا البطء مكن آنجولراس من ان يراجع كل شيء . وان يخلص مساحة من الكمال على كل شيء . لقد استشعر انه ما دام مقدراً لهؤلاء الرجال ان يموتوا فينبغي ان يكون موتهم رائعة من الروائع . وقال للماريوس :

« نحن الزعيمان . سوف اصدر الأوامر الأخيرة في الداخل : ولسوف تبقى انت في الخارج ، وتراقب . »
واتخذ ماريوس من ذروة المتراس مقراً للمراقبة .
وأمر آنجولراس بتسمير باب المطبخ الذي كان ، كما نذكر ، بمثابة المستشفى المتنقل .
وقال :

« لا وحل على الجرحى . »
واصدر تعليماته الأخيرة في الحجرة السفلى ، في صوت موجز ، ولكنه عميق وهادئ . واصغى فويبي ، وأجاب باسم الجميع .
« في الطابق الأول : استعدوا لأن تقطعوا السلم بفؤوسكم . هل تحملونها ؟ »

فقال فويبي :

« نعم . »

« كم ؟ »

« فأسان ، وفأس لشق الخشب . »

« حسن . بقي عندنا ستة وعشرون مقاتلاً . كم بندقية عندنا ؟ »

« أربع وثلاثون . »

— « اي بزيادة ثماني بنادق . أبقوا هذه الثماني مشحونة كغيرها
وفي متناول أيديكم . تمنطقوا بالسيوف والغدارات . عشرون رجلا إلى
التراس . ستة يكمنون عند الكوى وعند نافذة الطابق الاول لكي يطلقوا
النار على المغيرين من خلال المرامي التي بين حجارة الارصفة . حذار
ان تقوموا بأي عمل لا طائل تحته هنا . وحالما يقرع الطبل إشارة
الانطلاق يتعين على العشرين رجلا ، القائمين تحت ، ان يندفعوا إلى
التراس . والذين يصلون إلى هناك قبل غيرهم سوف يفوزون بالمواقع
الفضلى . »

حتى إذا تمت هذه التدابير ، انفتحت إلى جافير وقال له :

— « انا لن أنساك . »

ووضع غدارة على الطاولة ، وأضاف :

— « ان آخر رجل يغادر هذه الغرفة سوف يحطم جمجمة هذا

الجاسوس . »

وتساءل صوت :

— « هنا ؟ »

— « لا ، لا تركوا هذه الجثة مع جثتنا . في استطاعتكم ان تسوروا

التراس الصغير في زقاق مونديتور . إن ارتفاعه لا يزيد على اربعة
أقدام . سوف تأخذونه إلى هناك ، وتعدمونه في ذلك المكان . »

كان ثمة ، في تلك اللحظة ، رجل واحد أكثر امتناعاً على التأثر ،
من آنجولراس . وكان ذلك الرجل جافير .

وهنا برز جان فالجان .

كان في حشد المتمردين . وتقدم إلى أمام وقال لآنجولراس :

— « انت القائد ؟ »

— « نعم . »

— « لقد وجهت إليّ الشكر منذ لحظة . »

« باسم الجمهورية . ان للمراس منقذَيْن : ماريوس بونميرسي وأنت : »

« هل تظن اني استحق مكافأة ؟ »

« طبعاً . »

« حسناً ، انا اسألك مكافأة . »

« وما هي ؟ »

« أن احرق انا دماغ هذا الرجل . »

ورفع جافير رأسه ، ورأى جان فالجان ، واتى بحركة غير ملحوظة ، وقال :

« هذا شيء ملائم . »

أما آنجولراس فكان قد شرع يشحن بندقيته القصيرة الخفيفة مسنٍ جديد : وأجال بصره في ما حوله :

« لا اعتراض ؟ »

والتفت نحو جان فالجان وقال :

« خذ الجاسوس . »

واستولى جان فالجان ، فعلاً ، على جافير بأن جلس على اقصى المائدة : وأمسك بالغدارة ، وأعلن صليلاً وأمن انه قد رد انبوتها إلى الوراء استعداداً لاطلاق النار .

وفي اللحظة نفسها تقريباً سُمعت أبواق :

وصاح ماريوس من أعلى المراس :

« احذروا ! »

وشرع جافير يضحك تلك الضحكة الصامتة الخاصة به . وسدد

بصره إلى المتمردين وقال لهم :

« لستم احسن حالا مني . »

وصاح آنجولراس :

- « إلى الخارج جميعاً ! »
ووثب المتمردون ، في صخب ، إلى أمام . وفيما هم يخرجون تلقوا
في ظهورهم . وليُسمح لنا باصطناع هذا التعبير . هذه الكلمة
من جافير :
- « إلى اللقاء القريب ! »

١٩

جان فالجان يثار لنفسه

وحين خلا جان فالجان بجافير فك الحبل الذي كان يوثق الأسير
من خصره . والذي كانت عقسده تحت المائدة . ثم أوعز إليه بأن
ينهض .
وامثل جافير الأمر . بتلك الابتسامة التي تمتنع على الوصف ، والتي
تُكشَف فيها رفعة السلطة المصفدة .
وأمسك جان فالجان بجافير من سيره الجلدي كما يمسك المرء بأحدى
دواب الاثقال من لببها ، وجره خلفه ، وغادر الحانة في تودة ، لأن جافير
المكبّل القدمين ، لم يكن قادراً على ان يخطو غير خطوات قصار :
وكان جان فالجان يحمل الغدارة بيده .
وهكذا اجتازا مرتبّع المتراس الداخلي المنحرف . وكان المتمردون ،
المرقبون الهجوم الوشيك ، قد اداروا ظهورهم .
كان ماريوس ، القائم إلى جانب الطرف الأسير من الجدار ، هو
وحده الذي رآهما يمران . واستعار اجتماع الضحية والجلاد هذا ضوءاً
من الوميض القبري الذي كان في نفسيهما :
وساعد جان فالجان أسيره ، المكبل بالاغلال ، على تسوّر متراس

زقاق مونديتور الصغير ، في شيء من العسر ، ولكن من غير ان يفلته لحظة .

حتى إذا تسلقا الجدار ، وجدا نفسيهما وحيدين في الزقاق . ولم يرها الآن احد . لقد حجبتهما زاوية المنزل عن أعين المتمردين . وكانت العجش المنقولة من المراس قد شيدت ركائماً هائلاً على بضع خطوات منهما .

وفي ركاب الموتى كان في ميسور المرء ان يتبين وجهاً شديداً الشحوب ، وشعراً محلول العقدة ، ويداً مثقوبة ، وصدر امرأة نصف عار . كانت هي ابيونين .

ونظر جافير في انحراف إلى هذه الميتة ، وقال في همس ، وهو على أكثر ما يكون من الهدوء :

« بخيل إلي اني اعرف هذه الفتاة . »

ثم التفت نحو جان فالجان .

ووضع جان فالجان الغدارة تحت ذراعه ، وسدد إلى جافير نظرة لم تكن في حاجة إلى كلمات لكي تقول : « جافير ، هذا انا . »

واجاب جافير :

« خذ بئارك . »

واخرج جان فالجان من جيبه سكيناً ، وفتحها .

وصاح جافير :

« مدية ! أنت على حق . هذا يلائمك أكثر . »

وقطع جان فالجان السير الجلدي المطوق لعنق جافير ، ثم قطع الحبال المطوقة لمعصميه ، ثم انحنى ، وقطع الحبل المكبل لقدميه . ثم انتصب وقال له :

« انت طليق السراح . »

ولم يذهل جافير في يسر . ومع ذلك ، وبرغم سيطرته الكاملة على

نفسه ، فانه لم يستطع ان ينجو من بعض الانفعال . لقد ظل فاغر القم
جامداً لا حراك فيه .

وتابع جان فالجان :

— « انا لا اتوقع ان اغادر هذا المكان . ومع ذلك فاذا اتفق لي ،
بالمصادفة ، ان افعل — فاني أعيش ، تحت اسم فوشلوفان . في
شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

وغصن جافير وجهه مثل نمر يفتح فمه نصف فتحة ، وغمغم من
بين اسنانه :

— « خذ حذرك . »

وقال جان فالجان :

— « اذهب . »

واستأنف جافير :

— « قلت فوشلوفان ، اشارع الرجل المسلح ؟ »

— « رقم ٧ . »

وكرر جافير في همس :

— « رقم ٧ . »

وزرر سترته ، واعاد الصلابة العسكرية ما بين كتفيه ، واستدار
نصف استدارة ، ووطى ذراعيه ، مستنداً ذقنه باحدى يديه ، ومضى
لسيله في اتجاه الاسواق . وأتبعه جان فالجان بصره . وبعد بضع خطوات
التفت جافير وصاح مخاطباً جان فالجان :

— « انت توقع السأم في نفسي . ليتك قتلتي . »

ولم يلاحظ جافير انه لم يعد يخاطب جان فالجان بضمير المفرد .
وقال جان فالجان :

— « امض لسيلك . »

وابتعد جافير في خطى بطيئة . وبعد لحظة ، انعطف حول زاوية شارع

ال « بريشور » :

وحين توارى جافير عن العيان ، أطلق جان فالجان نثار الغدارة في الهواء .

ثم عاود الدخول إلى المتراس ، وقال :

« لقد قضي الامر . »

وفي غضبون ذلك كان الذي حدث هو هذا :

لم يكن ماريوس ، المنشغل بالشارع أكثر من انهماكه بالحانة ، قد نظر حتى ذلك الحين ، في انتباه ، إلى الجاسوس الذي كان موثقاً في مؤخرة الحجرة السفلى المظلمة .

حتى إذا رآه في وضوح النهار يتسلق المتراس في سبيله إلى الموت ، تبينه وعرفه . وتمثلت في ذهنه ذكرى مفاجئة . لقد ذكر مفتش شرطة شارع بونتواز ، والغدارتين اللتين كان قد قدمهما إليه ، واللتين استعملهما — هو ، ماريوس — في هذا المتراس نفسه . ولم يتذكر الوجه فحسب ، بل لقد تذكر الاسم ايضاً .

بيد ان هذه الذكرى كانت ضبابية غير واضحة ، مثل افكاره جميعها ان ما وجهه إلى نفسه لم يكن توكيداً ، وإنما كان سؤالاً : « أليس هذا هو مفتش البوليس الذي قال لي ان اسمه هو جافير ؟ »

لعله كان لا يزال ثمة متسع للتدخل من اجل هذا الرجل ؟ ولكن يتعين عليه ان يعرف ، أولاً ، ما إذا كان هو جافير حقاً .

واستوضح ماريوس آنجولراس الذي كان قد اتخذ مكانه ، منذ لحظة ، في الطرف الآخر من المتراس :

« آنجولراس ! »

« ماذا ؟ »

« ما اسم هذا الرجل ؟ »

« من ؟ »

- « مفوض الشرطة . هل تعرف اسمه ؟ »
- « من غير ريب . لقد أخبرنا . »
- « ما اسمه ؟ »
- « جافير . »
- وتصدّر ماريوس .
- وفي تلك اللحظة سُمع طلق الغدادة الناري . وبرز جان فالجان من جديد وصاح :
- « قضي الأمر . »
- وسرت رعشة كثيفة في فؤاد ماريوس .

٢٠

الموتى مصيبون والاحياء

غير مخطئين

كانت حشيرة المتراس على وشك ان تبدأ . وتلاقت الاشياء كلها في جلال تلك اللحظة العليا التراجيدي . الف قرقة غريبة في الهواء ، وأنفاس الجماعات المسلحة المندفعة في الشوارع التي لم يكونوا قادرين على رؤيتها ، وخبب الفرسان المتقطع ، وزلزلة المشاة الثقيلة وهم يزحفون ، وتقاطع نيران المفارز ونيران المدافع في تيه باريس ، ودخان المعركة مرتفعاً على نحوٍ مذهب خالص فوق السطوح ، وصيحات خفية قصية فظيعة على نحوٍ غامض ، وبروق الخطر في كل مكان ، وناقوس سان ميرتي الذي غلب عليه الآن جرس التنهد ، وعذوبة الفصل ، وبهاء السماء الحافلة بأشعة الشمس والسحب ، وجمال النهار ،

وصمت البيوت الرهيب .

ذلك بأنه ، منذ المساء ، كان صفّاً البيوت في شارع الـ « شانفريري »
قد امسيا جدارين ضارين . كانت الابواب موصدة ، والنوافذ موصدة ،
والمصاريع موصدة .

ففي تلك الايام ، الشديدة الاختلاف عن الايام التي نعيش فيها ،
حين كانت تحين الساعة التي يرغب فيها الشعب في لإنهاء وضعٍ دامّ
أكثر مما ينبغي ، أو دستور ممنوح أو بلد دستوري ، وحين كان
الغضب الشامل ينتشر في الفضاء ، وحين كانت المدينة توافق على اقتلاع
حجارة ارضيتها ، وحين كانت الانتفاضة تجعل البورجوازية تبتسم بان
تهمس بكلمتها السرية في أذنها ، فعندئذ كان ساكن المنزل المشبع بالفتنة ،
إذا جاز التعبير ، يصبح نصيراً للمقاتل ، ويتأخى المنزل مع القلعة
المرتجلة التي استندت اليه . وحين كانت الاحوال غير ناضجة ، وحين
كانت الانتفاضة غير مقبولة في حزم ، وحين كانت الجماهير تنكر
الحركة ، فعندئذ كان يُقضى الامر مع المقاتلين ، وعندئذ كانت المدينة
تتحول إلى صحراء تحيط بالثورة ، والنفوس تتلجج ، والملاجيء توصل
ابوابها ، والشارع ينقلب إلى ثغرة لمساعدة الجيش في الاستيلاء على
المراس .

إننا لانستطيع ان نحمل الشعب على ان يسير في معارج التقدم بأسرع
مما ينبغي . والويل لمن يكرهه على ذلك إكراهاً ! الشعب لا ينقاد .
وعندئذ يترك الانتفاضة وشأنها ، ويصبح المتمرّدون مصابين بالطاعون .
وعندئذ يصبح كل منزل منحدرًا وعرًا ، وكل باب رفضًا ، وكل
واجهة بناء جدارًا . وهذا الجدار يرى ، ويسمع ، ويأبى . إنه قد
ينفتح وينقذك . لا . إن هذا الجدر قاضٍ . إنه ينفلق عليك ويدينك ،
ما أظلم هذه البيوت الموصدة ! إنها تبدو ميتة ، ولكنها حية . ان الحياة
شبه المعلقة في تلك البيوت ، لاتزال باقية . إن أحداً لم يخرج منها

منذ اربع وعشرين ساعة ، ولكن أحداً لم يُفقد . وفي داخل هذه الصخرة ، بروح الناس ويجيئون . إنهم يضطجعون ؛ وإنهم ينهضون ؛ وإنهم يشعرون أنهم بين أهلهم هناك . إنهم يأكلون ويشربون هناك ، وإنهم ليخافون هناك ، شيء فظيع ! الخوف يعذر سوء الوفاة الرهيب هذا . إنه يمزجه بالانشداه . وتلك اسباب تخفيفية . بل إن الخوف لينقلب في بعض الاحيان - وهذا امر مشاهد - إلى حمياً ، والدعر قد ينقلب إلى جِشَان ، كما ينقلب التبصر إلى غيظ ، ومن هنا هذه الكلمة البالغة العمق : مسعورو الاعتدال . إن ثمة تألقات دعر رفيع ينبثق منها الغضب مثل دخان كثيب . - « ما الذي يريده هؤلاء الناس ؟ ان الرضا لا يعرف سييلا إلى نفوسهم . إنهم يعرضون الرجال المسالمين للخطر . لكأننا لم يكفنا ما شهدنا من ثورات مشابهة ! ما الذي جاء بهم إلى هنا ؟ فلينجوا بأنفسهم- الآن . لأمتهم الهبل ! تلك خطيئتهم هم . إنهم ينالون الجزاء الذي يستحقون . ذلك ليس من شأننا . هوذا شارعنا المسكين وقد غربلته القذائف المدفعية . إنها حزمة من الأدنياء الخلاء . وفوق كل شيء ، لا تفتحوا الباب » . ويتخذ المنزل مظهر قبر . وامام ذلك الباب يكون المتورد في نزعه الاخير . إنه يرى كُرَات المدافع والسيوف المسكوبة مقبلة نحوه . فاذا ما نادى ، فهو يعرف أنهم سيسمعونه ، ولكنه يعرف ايضاً أنهم لن يلبوا ندائه . ان ثمة جدراناً قد تحميه ، وإن ثمة رجالا قد ينقذونه . وهذه الجدران لها آذان من لحم ، واولئك الرجال لهم احشاء من حجارة .

من نتم ؟

لا أحد ، وكل أحد .

العصر غير الكامل الذي نعيش فيه .

إن المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) لتحوّل نفسها دائماً ، مخاطرة بذاتها ، إلى انتفاضة ، ومن احتجاج فلسفي تصبح احتجاجاً مسلحاً ، ومن

« ميرفا » تنقلب إلى « بالآ » . والمدينة الفاضلة التي تفقد الصبر وتصبح
فتنة ، تعرف ما الذي ينتظرها . وهي تصل دائماً ، تقريباً ، بأسرع مما
ينبغي . وعندئذ ترضى بما كُتِب لها ، وتتقبل ، في بسالة ، الكارثة
بدلاً من النصر . إنها تخدم ، من غير أن تشكى ، أولئك الذين ينكرونها ،
بل أنها لتخدمهم وهي تبرىء ساحتهم ، وشهامتها قائمة على ارتضاءها
الجفاء والمهجر . إنها جَمُوح أمام العوائق ، لطيفة أمام انكار الجميل .
ولكن أهو إنكار للجميل ؟

نعم ، من وجهة نظر الجنس البشري .
لا . من وجهة نظر الفرد .

التقدم شيمة الانسان . وحياة الجنس البشري العامة تدعى التقدم .
وميرُ الجنس البشري الجماعي يدعى التقدم . التقدم يسير . إنه يقوم
بالرحلة الانسانية والأرضية الكبرى نحو السأوي والالهي . إن له
مواقفه حيث يجمع شمل القطيع المتخلف ، وإن له محطاته حيث يتأمل ،
في حضرة « كنعان » بهسي يكشف النقاب فجأة عن أفقه . إن له لياليه
التي يرقد فيها . وإن من أشد ضروب القلق مضاضة على المفكر أن يرى
الظل يلف النفس البشرية ، وإن يتلمس التقدم . في الظلام . مستسلماً
للرقاد ، من غير أن يكون قادراً على إيقاظه .

— « لعل الله قد مات » ، كذلك قال جيرار دو نيرفال ، ذات
يوم ، لكاتب هذه الأسطر . خالطاً ما بين التقدم والله ، وحاسباً انقطاع
الحركة موت الرب .

مخطئ ذلك الذي يئأس . إن التقدم ليستيقظ على نحو محتوم ، وعلى
الجملة فإن في ميسورنا أن نقول إنه يسير حتى في النوم ، لأنه قد
نما وكبر . وحين نراه منتصباً كرة أخرى نجده أطول قامة . إن التزوع
إلى المسألة دائماً ليس من شيمة التقدم إلا بمقدار ما هو من شيمة

* Gérard de Nerval كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٨ وتوفي عام ١٨٥٥

النهر . فعدم إقامة اي سدّ يعني عدم القاء أيّ صخر . إن العقبات تجعل الماء يُزبد ، وتجعل الانسانية تفور . ومن هنا القلاقل ؛ ولكن بعد هذه القلاقل ندرك ان ارضاً ما . قد كُسبت . وإلى ان يُقر النظام ، الذي لا يعدو ان يكون السلام الكوني ، وإلى ان يهيمن التناغم والوحدة فسيظل التقدم يتخذ من الثورات محطات له .
ما التقدم اذن ؟ لقد اجبنا عن ذلك منذ لحظة . انه حياة الشعوب السرمدية ؛

والآن . قد يتفق في بعض الاحيان ان تقاوم حياة الافراد الموقّنة حياة الجنس البشري الأبدية ؛

ولنعترف من غير اكتئاب ، بأن للفرد أشواقه المتميزة ، وأنه قد يعظم هذه الاشواق ، من غير ما خيانة ، ويدافع عنها . إن للحاضر نصيباً من الانانية قابلاً للمعذرة . وإن للحياة الموقّنة حقوقها . وهي ليست ملزمة بأن تضحي بنفسها ، على نحو موصول ، في سبيل المستقبل والجيل الذي حان الآن دوره في المرور فوق الارض ليس مضطراً إلى أن يختصره من أجل الاجيال - وهي أقرانه على اية حال - التي سوف يجيء دورها في ما بعد . - « انا موجود ، » كذلك يغمغم ذلك الكائن الذي يدعى « الكل » . - « انا شاب واني لعاشق ؛ انا عجزو واني لفي حاجة إلى الراحة ؛ انا رب اسرة ؛ انا اعمل ؛ انا موفق ؛ إن تجارتي لمزدهرة ؛ ان عندي بيوتاً ارغب في تأجيرها ؛ إن لي اموالا على الدولة ؛ انا سعيد . إن لي زوجة واولاداً ؛ انا أحبهم جميعاً ؛ إنني احب ان اعيش ، دعوني وشأني . » ومن هنا ذلك البرد الشديد الذي يصيب طليعة الجنس البشري الشهمة ، في بعض الاحيان .

وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نسلم بأن المدينة الفاضلة تنفصل عن فلكها المشع وهي تشن الحرب . إن حقيقة الغد لتستعير اسلوبها ، المعركة ، من اكلوبة الامس . إنه - المستقبل - ليعمل مثل الامس . وإنها

— الفكرة المحض — لتصبح وسيلة من وسائل العنف . إنها تعقّد بطولتها بعمل من اعمال العنف يكون من العدل ان تتحمل مسؤوليته ، عنفُ فرصة وانتهاز ، مناقضٌ للمبادئ ، فهي تعاقب عليه بقضاء محتوم . إن « المدينة الفاضلة — الانتفاضة » لتقاتل والقانون العسكري العتيق في يدها . إنها تطلق النار على الجواسيس ؛ إنها تنفذ حكم الموت في الخونة ؛ إنها تعطل كائنات حية وتقذف بها إلى الظلمات المجهولة . إنها تسخر الموت ، وذلك شيء خطير . ويبدو وكأن المدينة الفاضلة قد فقدت ايمانها باشعاع الضياء ، قوتها التي لا تقاوم والتي لا يعترها الفساد . إنها تضرب بالسيف . ولكن ليس ثمة ايما سيف بسيط . فلكل سيف حدان . ومن يجرح بأحدهما يجرح نفسه بالآخر .

حتى إذا قمنا بهذا التحفظ ، وفي قسوة بالغة ، يتعذر علينا ان لا نعجب ، سواء أنجحوا أم لم ينجحوا ، بمقاتلي المستقبل الماجدين ، بأساتذة المدينة الفاضلة . وحتى حين يحققون يكونون موضع الاحترام ، ولعلمهم إنما يتحققون في حال الاخفاق بالجلال الاعظم . إن النصر ، حين ينسجم مع التقدم ، ليستحق تصفيق الشعوب ، ولكن الهزيمة البطولية تستحق شفقتهم . احدهما بهي ، والآخر ستي . أما نحن ، فأنا نؤثر الاستشهاد على النجاح . إن جون براون اعظم من واشنطن ، وبيراكان اعظم من غاريبالدي .

إن امرءاً ما ، ينبغي ان يكون في جانب المهزوم من غير ريب . والناس غير منصفين لمجريبي المستقبل الكبار حين يسقطون . الثوريون متهمون بأنهم ينشرون الرعب . ان كل متراس ليدو اعتداء . ان الناس ليؤثّمون نظرياتهم ، ويرتابون بهدفهم ، ويخشون سريرتهم ، ويتهمون ضميرهم . انهم يغيّرونهم بأنهم إنما يرفعون ويكوتون ويركمون

• John Brown احد دعاة تحرير الرق في اميركا ، وقد شق في تشارلزتون (فرجينيا) لانه دعا الزنوج الى حمل السلاح .

في وجه الواقع الاجتماعي السائد كثيراً من ضروب البؤس ، من الآلام ، من الآثام ، من المظالم ، وباقتلاع كتل الظلام من الاعماق السفلى لكي يتمرسوا بها ، ويقاتلوا بواسطتها . ان الناس يصيحون في وجوههم : « إنكم تقتلون بلاط جهنم ! » وفي استطاعتهم ان يجيئوا بقولهم : « وهذا هو الذي يجعل متراسنا مشيداً من مقاصد خيرة . »

وخير الحلول هو ، من غير شك ، الحل السلمي . وعلى الجملة ، فلنعترف بأننا حين نرى حجارة الارصفة تفكر بالدب ، وهذا استعداد لا يرتاح اليه المجتمع . ولكن خلاص المجتمع رهن بالمجتمع نفسه : فالى ارادته الخيرة نوجه النداء . فليس ثمة حاجة إلى علاج عنيف : لندرس الشر في محبة ، ولنعيّنه ، ثم لتتقدم إلى معالجته . ذلك ما ندعو اليه في إلحاح .

وأياً ما كان ، فحتى في حال سقوطهم ، وبخاصة في حال سقوطهم ، تجلبب العظمة اولئك الرجال الذين يقاتلون - في ارجاء الكون كله ، بأعين مسمرة على فرنسة - من أجل العمل العظيم بمنطق المثل الأعلى الصلب الذي لا يلين . انهم يقدمون حياتهم هبة خالصة إلى التقدم . لانهم يحققون إرادة العناية الالهية . انهم يؤدون فرضاً دينياً . وفي الساعة المحددة ، وبمثل تجرد ممثل يصل إلى كلمته الاخيرة ، يدخلون إلى القبر طائعين السيناريو الالهي . وهم انما يرتضون هذا الكفاح اليأس وهذا الزوال البطولي لكي يقودوا إلى نتائجها الكونية البهية الرفيعة تلك الحركة الانسانية البديعة التي استهلكت على نحو لا يقاوم ، في الرابع عشر من تموز ، ١٧٨٩ . هؤلاء الجنود هم كهان . والثورة الفرنسية عمل من أعمال الله .

ومع ذلك فان ثمة - ومن الخير ان نضيف هذا الفرق إلى تلك الفروق التي أشرنا اليها - في فصل آخر - ان ثمة انتفاضات مقبولة ندعوها ثورات . وان ثمة انتفاضات مرفوضة ندعوها فتناً . إن

الانتفاضة التي تنفجر هي فكرة تُجرى امتحانها أمام الشعب . وإذا ما
رفض الشعب ان يعطيها صوته فعندئذ تصبح الفكرة فاكهة ذابلة . وعندئذ
تصبح الانتفاضة مغامرة خاسرة .

إن المضي إلى الحرب عند اول دعوة وكلما رغبت المدينة الفاضلة
في ذلك ليس من شيمة الشعوب . ان الامم لا تنعم دائماً ، وفي كل
لحظة ، بمزاج الأبطال والشهداء .

إنهم الجاويون . إن الانتفاضات لتثير اشترازم ابتداءً . اولاً ،
لأنها كثيراً ما تتمخض عن كارثة . وثانياً لأنها تتخذ من التجرد نقطة
انطلاق لها دائماً .

ذلك بأن اولئك الذين يضحون بأنفسهم إنما يضحون بأنفسهم - دائماً -
وهذا شيء جميل - من اجل المثل الاعلى ، ومن اجل المثل الاعلى
وحده . إن الانتفاضة حماسة . والحماسة قد يستبد بها الغضب ؛ ومن هنا
الالتجاء إلى السلاح . ولكن كل انتفاضة موجهة ضد حكومة من
الحكومات أو نظام من النظم تطمح إلى شيء اسمى . وهكذا ، مثلاً ،
يحسن بنا أن نكرر ان ما حاربه زعماء انتفاضة ١٨٣٢ ، وبخاصة
متحمسي شارع الـ « شانفريري » الشبان ، لم يكن لويس فيليب على
وجه الضبط . ان معظمهم - ولنقل ذلك في صراحة - كانوا يقرون
بجبايا هذا الملك الذي كان وسطاً بين الملكية والثورة . إن اياً منهم
لم يغضه . ولكنهم هاجموا الفرع الاصغر للحق الالهى في لويس
فيليب كما سبق ان هاجموا الفرع الاكبر للحق الالهى في شارل العاشر .
وكان الذي يريدون اسقاطه باسقاط الملكية ، كما أوضحنا ، هو اغتصاب
الامتياز للانسان ، واغتصاب الامتياز للحق ، في العالم أجمع . إن باريس
من غير ملك إنما ينتج عنه ان يصبح العالم من غير طغاة . على هذا
نحو كانوا يفكرون . كان هدفهم بعيداً من غير شك ، ولعله كان

غامضاً . متراجعاً في وجه الجهد . ولكنه عظيم .
ذلك هو الواقع . وإنما يصحح المرء بنفسه من اجل هذه الرؤى ،
التي هي في نظر الضحايا . دائماً تقريباً . أوهام . ولكنها أوهام
تتصل بها - على العموم - الحقيقة الانسانية كلها . انه يقذف بنفسه إلى
هذه الأشياء الفاجعة ، ثملاً بما يوشك أن يفعله . ومن يدري ؟ فقد
تُكتب الغلبة لهذه الفئة . إنها فئة قليلة . إنهم يواجهون جيشاً كاملاً . ولكنهم
يدافعون عن الحق ، عن القانون الدولي . عن سيادة كل امرئ على
نفسه - تلك السيادة التي لا يمكن التنازل عنها - . عن العدالة . عن
الحقيقة . وعند الحاجة يموتون مثل اولئك الاسبارطيين الثلاثة . إنهم
لا يفكرون في دون كيشوت . ولكن في ليونيداس . ويندفعون إلى أمام ،
وما ان يشرعوا في القتال . حتى يمتنعوا على النكوص . ويطوّحوا
بانفسهم قدماً ، آمليين في نصر لم يُسبق إلى مثله . وفي الثورة مُنْجِزَةً .
والتقدم مطلق السراح . وفي تكبير الجنس البشري . والخلاص العام .
واضعين نصب اعينهم . في أسوأ الأحوال . معركة كمعركة
تيرمويل .

هذا التسايف من اجل التقدم كثيراً ما يَخْفَق . ولقد سبق لنا ان قلنا
لماذا . ان الجمهور لجموح يستعصي توجيهه على الفرسان . وهذه الكتل
الثقيلة . هذه الجباهير . الهشة بسبب من ثقلها نفسه . تخشى المغامرة .
وان في المثل الاعلى للمغامرة .

وفوق هذا - وينبغي ان لا ننسى ذلك - فأن المصالح هناك ؛ وبين
المصالح وبين المثل الاعلى وكل ما هو عاطفي ود مفقود . إن المعدة تشل
القواد في بعض الاحيان .

وعظمة فرنسة وجمالها قائمان على أنها اقل عناية بالبطن من سائر

• هي معركة البطولية التي خاضها ليونيداس ، ملك اسبارطة ، مع قواته البالغة
لاثمئة ليد غير ، ضد الفرس ، ففُضى نحب مع رجاله جميعاً ، عام ٤٨٠ ق.م.

الشعوب . إنها تشد الحزام على خصرها بأيسر مما يشده غيرها . وهي أول من يفيق ، وآخر من يستسلم للرقاد . إنها تمضي في الطليعة : إنها رائدة .

وما ذلك إلا لأنها فنانة .

إن المثل الأعلى لا يعدو أن يكون أوج المنطق ، مثلما أن الجميل ليس شيئاً غير ذروة الحقيقي . والشعوب الفنانة هي أيضاً الشعوب التي لا تعرف التناقض المنطقي . إن حُبِّك الجمال يعني رؤيتك الضياء . وهذا ما جعل اليونان تحمل قبل غيرها شعلة أوروبة ، يعني شعلة الحضارة ، لتسلمها بعد إلى ايطالية ، ولتسلمها هذه بدورها إلى فرنسة . شعوب

الآهية رائدة ! *Vitaī lampada tradunt*

شيء رائع : إن شعر الشعب عنصر تقدمه . ومقدار الحضارة إنما يقاس بمقدار الخيال . والشعب الممدّن وحده يجب أن يظل شعباً فحلاً . كورنث * ، نعم . سيباريس * . لا . ومن يتخفّث يفسد ويفقد مزايا أصله . ينبغي أن لا نكون لا هواة ولا عابرة في الفن : ولكن ينبغي أن نكون فنانين . وفي موضوع الحضارة . يجب أن لا نفرط في الرقة ، ولكن يجب أن نصعد في معارج السمو . وعلى هذا الشرط نعطي الجنس البشري نموذج المثل الأعلى .

إن للمثل الأعلى المصري مثاله في الفن ، ووسيلته في العلم . وانسا من خلال العلم سوف نحقق رؤيا الشعراء الماجدة : الجمال الاجتماعي . سوف ننشئ جنة عدن كرة ثانية من طريق أ + ب . وفي هذه النقطة التي بلغت الحضارة أمسى المضبوط عنصراً أساسياً من عناصر

* كورنث إحدى مدن بلاد الإغريق القديمة الأكثر ازدهاراً ، وكانت تنافس أثينا وإسبارطة .

* Sybaris مستعمرة آخية دمرت عام (٥١٠ ق.م.) وكانت مشهورة برفق سكانها وتختهم .

البهي : والعاطفة الفنية لا تُخدم بالاداة العلمية فحسب . بل تُكمل أيضاً . إن على الحالم أن يحسب . والفن . الذي هو الفاتح . يجب ان يتخذ من العلم . الذي هو المحرك . نقطة ارتكاز له . إن صلابة المطية شيء هام . والروح الحديثة هي عبقرية اليونان متخذة من عبقرية الهند عربة لها . إنها الاسكندر على متن فيل .

ان الامم التي تحجرت في العقيدة أو التي افسدها الربح ليست اهلا لأن تقود الحضارة . والسجود للصنم أو للدنار يوقع الهزال في العضلة التي تمشي . والارادة التي تمضي . والاستغراق الكهنوتي أو التجاري ينقص من اشعاع الشعب . ويخفف من افقه من طريق خفض مستواه . ويحرمه ذكاء الهدف الشامل ذاك . الانساني والالهي في وقت معاً . الذي ينشئ الأمم المبشرة . إن بابل ليس لها مثل أعلى . وقرطاجنة ليس لها مثل أعلى . أما اثينا ورومة فأن لها : حتى خلال ظلام القرون الكثيف كله . هالات من الحضارة ؛ وانها لتحفظان بهذه الهالات .

وفرنسة تنتمي إلى نوع الشعوب نفسه الذي تنتمي اليه بلاد اليونان وايطالية . إنها أثينة بما هو جميل . ورومانية بما هو عظيم . وإلى هذا . فأنها خيرة . إنها تهب ذاتها . وهي أعلق بروح التفاني والتضحية من الشعوب الأخرى . بيد ان هذه الروح تستحوذ عليها وتتخلي عنها . وهنا يكمن الخطر العظيم على اولئك الذين يركضون حين ترغب في ان تمشي . أو الذين يمشون حين ترغب في أن تقف . إن لفرنسة نكساتها نحو النزعة المادية . وفي بعض اللحظات نرى الافكار التي تسد ذلك العقل الرفيع وقد فقدت كل ما يذكر بالعظمة الفرنسية . وان لها لمساحة كمساحة ميسوري أو كارولينا الجنوبية . ما الذي ينبغي أن يُصنع ؟ ان العملاقة لتمثل دور القزمة . إن لفرنسة اللانهاية أو هامها الاطغالية . هذا كل ما هنالك .

وليس ثمة ما يمكن أن يقال في هذا الصدد . فللشعب . كما

للكوكب . الحق في الكسوف . وكل شيء حسن . شرط ان يعسود الضياء . وان لا يفسد الكسوف وينقلب إلى ليل . إن الضحى والانتفاضة مترادفان . وعودة ظهور الضياء مماثلة لبقاء الأنا .

فلننصّ على هذه الوقائع في هدوء . إن الموت في المراس . أو الرمس في المنفى . بديلان مقبولان عن التفاني وبذل الذات . ان الامم الحقيقي للتفاني هو النزاهة . دع المتخلى عنهم يتقادون للتخلي . والمنفيين يخضعون للنفي . ولنقنع بان نتوسل إلى الشعوب الكبرى ان لا تراجع — حين تراجع — مسافات بعيدة جداً . يجب عليها ان لا توغل في الانحدار بحجة العودة إلى العقل .

المادة موجودة . واللحظة موجودة . والمصالح موجودة . والبطن موجود . ولكن البطن ينبغي ان لا يكون هو الحكمة الوحيدة . إن للحياة الموقته حقوقها . ونحن نسلّم بذلك . ولكن للحياة السرمديّة حقوقها ايضاً . وأسفاه ! إن الارتقاء لا يحول دون السقوط . نحن نرى ذلك في التاريخ أكثر مما نود . تتوشح أمة بالمجد ؛ وتتذوق المثل الأعلى ؛ ثم تتمرغ في الحمأة . وتجدها سائغة ؛ وإذا ما سألنا لمساذا تستبدل فالسناف . بسقراط اجابتنا : « لأنني أحب رجال السياسة . » بقي ان نقول كلمة قبل ان نعود إلى المعترك .

إن معركة مثل هذه التي نصفها الآن ليست غير حركة تشنجية نحو المثل الأعلى . والتقدم المصفّد عرضة للمرض . وان له ضروب الصرع الفاجعة هذه . وقد قدّر لنا ان نلتقي في طريقنا بداء التقدم هذا : الحرب الاهلية . انها وجه مشؤوم — وجه هو في آن معاً فصل وفترة بين فصلين — من وجوه هذه المأساة التي محورها منبؤ اجتماعي . والتي عنوانها : التقدم .

Falstaff ضابط وسياسي انكليزي جعل منه شكسبير في بعض مسرحياته نموذجاً للرجل الداعر الخالع الغدار (حوالى ١٣٧٨ - ١٤٥٩) .

التقدم !

هذه الصيحة التي كثيراً ما نطلقها هي تفكيرنا كله . وفي المرحلة الحاضرة من مأساتنا نحسب ان من الجائز لنا — ما دام في الفكرة السّتي تنطوي عليها أكثر من محنة ينبغي ان يُخضع لها — لا ان نرفع الحجاب عن وجهها ، بل ان نجعل النور يشرق ، في وضوح . من خلالها على الأقل .

ان الكتاب الواقع في هذه اللحظة تحت نظر القاريء هو — من ألفه إلى يائه ، في جملته وتفصيله ، مهما تكن التقطعات والاستثناءات ونواحي الضعف — الانتقال من الشر إلى الخير . من الظلم إلى العدل . من الباطل إلى الحق ، من الليل إلى النهار ، من الشهوة إلى الضمير . من العفونة إلى الحياة ، من البهيمية إلى الواجب ، من الجمحيم إلى الجنة ، من العدم إلى الله . نقطة الانطلاق : المادة . الهدف : النفس . افعى هيدرية في البداية : ملاك في النهاية .

٢١ الأبطال

وفجأة اعلنت الطبول بدء العمليات الحربية . كان الهجوم أشبه بالزوبعة . ففي المساء ، تحت جنح الظلام ، كانت القوات الحكومية قد اقتربت من المتراس . في صمت ، وكأنها البوّاء . أما الآن . في وضوح النهار ، وعلى قارعة الطريق العريضة ، فقد كانت المباغنة مستحيلة بالكلية . وفوق هذا ، فقد كانت القوى الفاعلة حاسرة قناعها ، وكان المدفع قد شرع في التهديد ، وكان الجيش قد هجم على المتراس . كان الهياج الآن هو البراعة . لقد اندفعت في

• هي الحية المعروفة بالغات الاجنبية بال *boa*

الشارع ، بخطى سريعة . فرقة من سلاح المشاة يفصل ما بين جنودها في فترات متساوية رجال من الحرس الوطني والحرس البلدي عاى أقدامهم . وتدعمها جماعات كثيفة تُسمع ولكنها لا تُرى . وقُرعت الطبول . وضجت الابواق . وسُددت الحراب . وسار الاطفائيون في المقدمة . وانقضت هذه القوات ، ثابتة الجنان . على المتراس بمثل ثقل عمود برونزي ينقض على جدار .
وصمد الجدار .

وأطلق المتمردون النار في حمية . وكان المتراس وقد تسوره المغيرون أشبه بعقرة من بروق . وكان الهجوم خاطفاً إلى درجة جعلت المتراس يغص لحظة بالمغيرين . ولكنه زلزل الجند كما يزلزل الاسد الكلاب . وغطي بالمحاصرين ولكن كما يُغطي الجُرف بالزبد لكي يعود بعد لحظة إلى الظهور شديد الانحدار . أسود ، رهيباً .

وإذا كانت فرقة المشاة قد اضطرت إلى التراجع إلا أنها ظلت متراسة في الشارع ، بلاستر أو غطاء ، ولكنها فظيعة ، وردت على المتراس بوابل مروّع من نيران البنادق . وكل من رأى الالعب النارية يوماً يذكر تلك الحزمة التي تتألف من تشيك بعض الصواعق ، والتي تدعى الباقة . تخيل الباقة ، وقد غدت الآن أفقية لا عمودية . حاملة كُرة مدفعية . أو رصاصة ضخمة ، أو قذيفة عند نهاية كل نفثة من نفثات نارها . وموزعة الموت بعناقيد رعوها . كان المتراس تحتها .

وفي كلتا الناحيتين كانت عزيمة متكافئة . كان ثمة بطولة تكاد تكون بربرية . وكانت ممتزجة بضرب من الضراوة البطولية التي بدأت بالتضحية بنفسها . تلك كانت الايام التي قاتل فيها رجال الحرس الوطني مثل الجنود الفرنسيين في الجزائر . كانت القوات الحكومية تريد ان تضع حداً للحركة الثورية ، وكانت الحركة الثورية تريد ان تناضل . إن قبول الموت في ريعان الشباب وفي أوج الصحة يجعل من البسالة خبالاً . لقد

استشعر كل امرئ في ذلك المعترك التضخيم الذي تحدثه الساعة الحاسمة .
كان الشارع مغطى بالجثث .
كان آنجولراس في طرف من المتراس . وكان ماريوس في الطرف الآخر . وكان آنجولراس . الذي حمل المتراس كله على رأسه . يدخر نفسه ويجنبها موارد التلف . ولقد سقط ثلاثة جنود . الواحد تلو الآخر ، تحت مرتفعه . ومن غير ان يلمحوه مجرد لمح . أما ماريوس فقاتل من غير ستر . لقد جعل من نفسه هدفاً . فقد وقف مبرزاً أكثر من نصف قامته فوق قمة المتراس . والواقع انه ليس ثمة مبذر أعنف من بخيسل يركب رأسه . وليس ثمة رجل أكثر ترويعاً عند العمل من حلم من الحالمين . ولقد كان ماريوس فظيلاً ومستغرقاً في التفكير . كان في المعركة وكأنه في حلم . ولو قد رآه المرء اذن لحسبه طيفاً يطلق النار من بندقية .

كانت خراطيش المحاصرين على وشك ان تنفذ ، ولكن سخراتهم لم تكن كذلك . ففي زوبعة الموت التي احاطت بهم كانوا يضحكون .
كان كورفيراك حاسر الرأس .

وسأله بوسوييه :

« ماذا فعلت بقبعتك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

« لقد أطاروها آخر الأمر بقذيفة من قذائف المدفعية . »

او كانوا يقولون اشياء متكبرة .

لقد هتف فوبيي في مرارة :

« هل يفهم احد هؤلاء الرجال (وذكّر اسماء ، اسماء معروفة ،

بل مشهورة . وبعضها من رجال الجيش القديم) الذين

وعدوا بالانضمام الينا . واخذوا على انفسهم عهداً بأن يساعدونا ، والذين

اقسموا على ذلك بشرفهم ، والذين هم قادتنا . والذين تخلوا عنا ! »

فأجابه كورفيراك في ابتسامة رصينة :
— « ان ثمة انساناً يراعون قواعد الشرف كما نراعي النجوم ، من
مكان بعيد جداً . »

كان الجزء الداخلي مزروعاً بالخراطيش الممزقة إلى درجة يحيل معها
إلى المرء ان السماء كانت تُثلج .

كان للمغربين تفوق في العدد ، وكان للمتمردين تفوق في الموقع :
كانوا عند أعلى الجدار يمتطرون الجنود بنيان من انايب بنادقهم ،
فيما كانوا يترنحون فوق القتلى والجرحى وقد سقطوا في الشراك عند
منحدر السور . كان هذا المتراس — على النحو الذي شُيد عليه ، وقد
سُنِّد تسليحاً رائعاً — واحداً من تلك المواقع التي تعطل فيها حفنة من
الرجال فرقة كاملة عن العمل . ومع ذلك ، فقد كان سلاح المشاة
المهاجم يزود دائماً بأمداد جديدة ويتضخم تحت وابل الرصاص ، وكان
يتقدم في غير ما رحمة . واخيراً هصر الجيش المتراس . شيئاً فشيئاً ،
وخطوة خطوة ، ولكن في نقسة ، كما يهصر الالواب معصرة
العنب .

وتبع الهجومُ الهجومَ . وتعاضم الهول على نحو موصول .
ثم نشب . فوق ركام حجارة الارصفة هذا ، في شارع الـ
« شانفريري » ذاك ، صراع جدير بأسوار طروادة . لقد غدا هؤلاء
الرجال الشاحبو الوجوه ، الممزقو الثياب ، المنهوكو القوى ، الذين لم
يأكلوا منذ اربع وعشرين ساعة . والذين لم يذوقوا طعم النوم ،
والذين لم يبق لديهم غير بضع رصاصات يطلقونها . والذين تحسسوا
جيوبهم الفارغة من الخراطيش . والذين كانوا كلهم جرحى تقريباً ، وقد
عُصبت رؤوسهم أو أذرعهم بقماش صديء مسود ، وتبدت الثقوب في
ستراتهم حيث كان الدم يتدفق ، والذين كانوا مسلحين بشق النفس بينادق
رديئة وسيوف عتقة مثلثة — لقد غدا هؤلاء الرجال عمالقة . لقد

هو جرم المتراس . وشئت عليه الغارة . وتُسور عشر مرات . ولكنه لم يسقط قط .

ولكي تكون فكرة عن هذا الصراع ، تخيل النار وقد أضرم بها ركام من البسالة القطيعة ، وتخيل انك تشهد الحريق . إنه لم يكن قتالا ، لقد كان باطن تنور . هناك تنفست الافواه لهبا ؛ هناك كانت الوجوه رائحة . هناك بدا الشكل الانساني مستحيلا ؛ هناك تلاً المقاتلون ، وكان من المتعذر عليك ان ترى سمندرات . المعترك هذه تروح ونجى في ذلك الدخان الأحمر . اما مشاهد هذه المذبحة العظيمة فتحجم عن تصويرها . إن للملحمة وحدها الحق في ان تملأ اثني عشر الف بيت من الشعر بوصف معركة واحدة .

كان خليقاً بالمرء ان يقول انها كانت جحيم البرهمية . أفضع الهوى السبع عشرة . التي يطلق عليها الـ « فيدا » اسم « غابة السيوف . »
لقد قاتلوا صدراً لصدر . وقدماً لقدم . بالغدارات . بالسيوف ، نجتمع الكف ، عن بعد ، وعن كذب . من فوق ، ومن تحت ، من كل مكان . من سطوح المنزل ، من نوافذ الحانة . من كوى الاقيسة التي كان بعضهم قد انزلت اليها . كانوا واحداً ضد ستين . وكانت واجهة كورنث . نصف المدمرة . رهبة جداً . كانت النافذة التي وشمتها القذائف قد فقدت الواحها الزجاجية وأطرها . فهي الآن لا تعدو ان تكون ثقباً شائهاً سدته حجارة الارصفة على نحو مشوش . كان بوسوويه قد قُتل ؛ وكان فويبي قد قتل ؛ وكان كورفيراك قد قتل ؛ وكان جولي قد قتل ؛ ولم يكن امام كومبوفير ، الذي اخترقت صدره طعنات حراب ثلاث لحظة كان يرفع جندياً جريحاً — لم يكن امام كومبوفير غير متسع من الوقت نظر فيه إلى السماء . ولفظ أنفاسه .

* جمع سمندر Salamandre وهو ضرب من الضفدعيات المذنبة ، يقال ان له القدرة على اجتياز النيران من غير ان يحترق ...

وكان ماريوس ، المقيم على القتال ، مشغولاً بالجراح . وبخاصة
حول رأسه . إلى درجة جعلت مجاه يضيع في الدم . وإلى درجسة
كانت تخيل إلى المرء ان وجهه قد غُطي بمندبل أحمر .

كان أنجولراس وحده سليماً لم يمس . وحين اعوزه السلاح بسط
يده يميناً وشمالاً ، وقد وضع احد المتمردين ايما سلاح وُفق اليه في
قبضته . لم يكن قد بقي لديه ، من أصل اربعة سيوف . (اكثر منه
فرانسوا الاول في مارينيان بواحد) غير فلذة من سيف .

يقول هوميروس : « ان ديوميدي يذبح آكسيلوس . ابن توثرانيس .
الذي يقطن في آريسبا السعيدة . ويهلك اوريالوس . ابن ميسسته .
دريوس وأوفيلتيوس . وايسيوس . وييداسوس ذاك الذي حبلت به
عروس الماء آبارباريه من بوكوليون الذي لا يقهر . ويوليسيس يخلص
بيديت دو بيركوس : وآنثيلوخوس يخلص آلبيروس : وبوليبيثيس يخلص
آستيالوس : وبوليداماس يخلص اوتوس دو سيلين ، وتوس يخلص آريتاؤن .
ويقضي ميغانتيوس تحت طعنات حربة يورييلوس . ويهزم آغامنون ، ملك
الابطال . ايلاتوس المولود في المدينة الوعرة المنحدرة التي يغسلها نهر ساتنيو
المرنان . » ففي قصائدنا الفخرية القديمة يهاجم اسلانديان بنار ذات حدين
المركز العمالق سوانتيبور فيما كان يدافع عن نفسه برجم الفارس بحجارة
ضخام كان يقتلعها من الابراج . ولوحاتنا الجدرانية القديمة ترينا دوقي
بروتاني وبوربون مسلحين ، دارعين ، موسومين بسمة الحرب ، ممتطين
قرسيهما . متواجهين . وفي يد كل منهما فأس حربية ، متفتحين
بالحديد . متعلنين بالحديد ، متفتزين بالحديد ، احدهما مجلل بفرو
السمور الابيض والآخر متشح باللازورد . بروتاني وقد تراءى أسده
بين قرني تاجه ، وبوربون وقد تبدت زنبقة هائلة على حافة خوذته :
ولكن ليس من الضروري لكي يكون المرء بهياً ان يعتمر مثل إيفون »

• Adolphe Yvon رسام عسكري فرنسي تصور لوحاته بالحركة . (١٨١٧ - ١٨٩٣)

بالخوذة الدوقية ، أو ان يقبض مثل ايسلانديان على شعلة حية . أو أن يجلب من ايفير : مثل فيليس . ابي بوليداماس . . درعاً رائعة هدية من ملك الرجال اوفيتيس . حسبهُ ان يبدل حياته في سبيل معتقد ما أو ولاء ما . وذلك الجندي الساذج الصغير . الذي كان بالامس فلاحاً من يوسيا أو ليموزين ، والذي يطوف بالليل ، ومدة الكرب إلى جانبه ، حول مريبات الاطفال في اللوكسومبورغ ، وذلك الطالب الفتي الشاحب الوجه المنحني فوق قطعة تشريحية أو كتاب ، المراهق الاشقر الذي يثذب لحيته بالمقص ، خذهما معاً ، وانفخ عليهما نفخة الواجب ، وضعهما على نحو متقابل في ساحة « بوشيرا » أو زقاق « بلانش ميبراي » غير النافذ . ودع احدهما يقاتل من أجل رايته ، والآخر من أجل مثله الأعلى ، ودعهما كليهما يتخيلا انهما يحاربان في سبيل الوطن . : ان الصراع سوف يكون جباراً ، والظل الذي سوف يلقي على ذلك الميدان الملحمي الكبير حيث تناضل الانسانية ، وقد تقاوت السترة الزرقاء والمتزر الطبي ، سوف يساوي الظل الذي يلقيه ميغاريون ، ملك ليسيا المليئة بالنمور ، المتصارع جسداً لجسد منيع آجاكس . . الهائل ، المساوي للآلهة .

٢٢ قديماً لتقديم

وحين لم يبق احد من الزعماء حياً ، باستثناء آنجولراس وماريوس ، ومن لشهر آثاره « المارشال ناي في تراجعه من روسيا » .
 • Polydamas رياضي تسالي ذو قوة اعجوبية . وقد توفي وهو يحلول ان يستد
 صخرة ضخمة تدحرجت من منارة فسحقته سحقاً .
 • Ajax احد الابطال اليونانيين في حرب طروادة .

اللذين كانا في طرفي المتراس ، تداعى الوسط الذي كان كورفيراك ، وجولي ، وبوسوويه ، وفوبيي ، وكومبوفير قد دافعوا عنه طويلاً . وكانت المدفعية قد جوفت . من غير ان تحدث ثغرة سالكة ، قلباً المتراس تجويفاً كبيراً . هناك . كانت قمة السور قد اختفت تحت القذائف ، وانهارت . وكانت الانقاض المنهارة ، في الداخل حيناً وفي الخارج حيناً . قد أحدثت آخر الأمر . بعد ان تراكمت على جانبي السور . شبه منحدرين . احدهما في الداخل والآخر في الخارج . وكان المنحدر الخارجي بمثابة سطح منحني يجعل الهجوم على المتراس يسيراً .

وقام المغيرون بهجوم أخير ، وتكلم ذلك الهجوم بالنجاح . لقد اندفعوا شاكين بالحراب . في خطوات خاطفة ، اندفاعاً لا يقاوم ، وبدأت جبهة المهاجمين الكثيفة وسط الدخان عند أعلى منحدر السور . لقد قضى الأمر ، هذه المرة . لقد تراجع جمع المتمردين المدافع عن الوسط تراجعاً فوضوياً .

ثم استيقظ حب الحياة الكالح في بعضهم . إن كثيراً منهم انتهوا الآن ، وقد سُدَّتْ اليهم غابة البنادق تلك ، إلى ان ينفروا من الموت . تلك لحظة تعوي فيها غريزة حفظ الذات . ويعاود الحيوان الظهور في الانسان . لقد حُجِّزوا عند المنزل العالي ذي الأدوار الستة الذي شكّل مؤخرة المتراس . ولعله كان في ذلك المنزل خلاصهم . فقد كان هذا المتراس ممتراً : شبه مسور من أعلى إلى أدنى . وقبل ان يصبح في ميسور الجند المهاجمين ان يبلغوا الجزء الداخلي من المتراس كان ثمة متسع من الوقت لانفتاح باب وانغلاقه . وكانت ومضة كافية لذلك ؛ ولقد كان باب ذلك المنزل المفتوح نصف فتحة والمغلق في الحال كرة اخرى . بمثابة الحياة بالنسبة إلى هؤلاء الرجال اليائسين . في مؤخرة ذلك المنزل كانت الشوارع ، والفرار الميسور . والقضاء . وشرعوا

يقرعون هذا الباب باعقاب بنادقهم ، وبرفسات أرجلهم ، منسادين .
صالحين ، متوسلين ، مشبكين أيديهم . ولم يفتح احد . ومن نافذة الدور
الثالث اطل عليهم رأس الموت .

ولكن آنجولراس وماريوس . وسبعة أو ثمانية متحلقين حولهما .
وثبوا إلى الامام وحمّوهم . وصاح آنجولراس في وجه الجنود :
« لا تتقدموا ! » حتى إذا امتنع أحد الضباط عن الاذعان . قتله
آنجولراس . كان الآن في فناء المتراس الداخلي الصغير . مولياً ظهره
بيت كورنث . شاهراً سيفه بأحدى يديه . مسدداً بندقيته القصيرة الخفيفة
بالاخرى . مبقياً باب الحانة مفتوحاً . ساداً إياه في الوقت نفسه في وجه
الغيرين . وصاح مخاطباً اليائسين : « ليس ثمة غير باب واحد مفتوح .
وهو هذا . » وغطاهم بجسده . مواجهاً بمفرده كتيبة بكاملها . ومكنهم
من المرور خلفه . واندفعوا كلهم إلى هناك . واختزل آنجولراس - فيما
هو ينفذ ببندقيته القصيرة الخفيفة ، التي استعملها الآن وكأنها عصاً . ما يدعوه
لاعبو النبايت « الوردة المغطاة » - اختزل الحراب من حوله وأمامه
وكان آخر الداخلين . وكانت لحظة رهيبة . فالجنود يحاولون ان
يدخلوا . والمتمردون يريدون أن يوصلوا الباب . لقد أغلق الباب في
كثير من العنف حتى إنسه حين ارتد إلى إبطاره ايسدى عن
أصابع خمس مقطوعة ملتصقة بالاطار - اصابع جندي كان قد
تشبث به .

وظل ماريوس في الخارج . كانت قذيفة قد كسرت ترقوته ، ولقد
استشعر انه على وشك الاغماء . وانه يشرف على السقوط . وفي تلك
اللحظة . وكانت عيناه قد أغمضتا - أحس - وكأن يداً قوية تمسك به .
ولم يبق له اغماؤه الذي افقده وعيه غير متسع من الوقت لهذه الفكرة .
ممزوجة بآخر ذكرى لكوزيت : « لقد وقعت في الاسر . سوف
يقتلونني رماً بالرصاص . »

وراودت الفكرة نفسها آنجولراس حين لم ير ماريوس بين اولئك الذين لجأوا إلى الحانة . ولكنهم كانوا قد انتهوا إلى تلك اللحظة التي لا يجد فيها كل منهم متسعاً لغير التفكير في ميته هو . وثبتت آنجولراس رتاج الباب ودعّمه بالحديد ، وأغلقة بأن أقفل الغلق والقفل على نحو مزدوج ، فيما كانوا يخفقونه في الخارج خفقا رهيباً - الجنود بإعقاب بنادقهم ، والطلائع بفضؤوسهم . لقد احتشد المغيرون عند هذا الباب . كان حصار الحانة قد بدأ الآن .

كان الجنود ، ولنقل ذلك ، مفعمين بالغضب . كانت وفاة رقيب المدفعية قد اثارت غيظهم . وفوق هذا - وذلك شيء اشد شؤماً - فقد كان قد سرى في أوساطهم ، خلال الساعات القليلة التي سبقت الهجوم ، ان المتمردين يمثلون بالاسرى ، وانه كانت في الحانة جثة جندي احتُز رأسه . وهذا الضرب من الاشاعات هو المرافق العادي للحروب الاهلية ، وان مثل هذه الاخبار الكاذبة هي التي سببت في ما بعد كارثة شارع ترانسنونين * .

وحين مُترس الباب . قال آنجولراس لرفاقه :

- « فلنبع أنفسنا بثمن غال . »

ثم تقدم نحو المائدة التي مسجي عليها مابوف وغافروش . كان في ميسور المرء ان يرى . تحت الغطاء الاسود ، شكلين مستقيمين متصلين ، احدهما كبير والآخر صغير . وقد ارتسم الوجهان على نحو غامض تحت شاي الكفن الكالحة . لقد نتأت يد من تحت الكفن . وتدلت نحو ارض

* مذابح شارع ترانسنونين Transnonain ، وقد وقعت في ١٤ نيسان ١٨٣٤ اثناء الثورة التي انفجرت في باريس في حي سان ميري . وتفصيل ذلك ان الجنود اقبلوا لتقويض مراس شارع ترانسنونين فاطلقت عليهم النار من المنزل رقم ١٢ في ذلك الشارع فجرحت ضابطاً . فما كان من الجند الفاضلين الا ان اجتاحوا ذلك البيت وذبحوا كل من فيه .

الغرفة . كانت يد الرجل العجوز .
وانحنى آنجلوراس وقبّل تلك اليد الجليلة . كما قد قبّل البارحة جبين
الرجل .

كانت هما القبلتين الوحيدتين اللتين طبعهما في حياته كلها .
فلنختصر . كان المتراس قد ناضل مثل باب من ابواب ثيبة . *
وناضلت الحانة مثل بيت من بيوت سرقسطة ** . ان هذه المقاومات
لضارية . لا صفح . لا تفاوض ممكناً . إنهم راغبون في الموت شرط ان
يقتلوا . وحين يقول سوشيه *** : « استسلموا ! » يجيبه بالافوكس ****
« بعد حرب المدفع حرب السكين ! » لم يكن ثمة ما يعوز اقتحام
حانة هوشلو . لا حجارة الارصفة المنهجرة من النافذة والسطح على
رؤوس المغيرين مثيرة حتى الجنود بما احدثت من سحق رهيب . ولا
طلقات الرصاص من الاقية ومن كوى العلية ، ولا احتدام الهجوم ،
ولا سّورة الدفاع ، ولا جنون الافناء المسعور . آخر الامر ، عندما
اقتحم الباب . وحين اندفع المغيرون إلى الحانة ، وقد تعثرت اقدامهم
بالواح الباب الخشبية المحطمة المتناثرة على الارض . لم يجدوا ايما مقاتل
هناك . كانت السلم اللولبية التي بثّرت بضربة فأس منطرحة وسط الغرفة
السفلى ، وكان بعض الجرحى قد لفظوا أنفاسهم منذ لحظة . وكان جميع
الذين لم يقتلوا معتصمين في الدور الاول . وهناك . من خلال الثقب

* Thèbes من مدن مصر القديمة ومن اشهر مدن العالم القديم ، وكانوا يطلقون
عليها لقب « المدينة ذات الابواب المثة »

** مدينة اسبانية معروفة ، وقد قاومت الفرنسيين في ضراوة فائقة وصمدت لحصارهم
من حزيران ١٨٠٨ إلى ١٩ شباط ١٨٠٩

*** Suchet مارشال فرنسة (١٧٧٢ - ١٨٢٦) وقد لمع نجمه في حروب اسبانية .

**** Palafox دوق سرقسطة ، وقد ابل بلاء حسناً في الدفاع عن هذه المدينة ضد
الفرنسيين عام ١٨٠٩ (١٧٨٠ - ١٨٤٧)

الذي في السقف والذي كان هو المدخل إلى السلم . انفجرت طلقات نار رهيبية . كانت البقية الباقية من الخراطيش . حتى إذا نفدت . وحتى إذا لم يبق لدى هؤلاء الرجال المحتضرين الراعبين لا بارود ولا رصاص . تناول كل منهم اثنين من تلك الزجاجات التي احتفظ بها آنجلولراس . والتي تحدثنا عنها من قبل . ودافعوا عن المطلاع بهذه النبايت السريعة الانكسار على نحو رهيب . كانت زجاجات ملأى بماء الفضة . ونحن إنما نروي وقائع هذه المجزرة كما هي . فقد اتخذ المحاصرون — وأأسفاه — سلاحاً من كل شيء . والنار الاغريقية لم تَشْنِ ارخميدس ، والقطران الفائر لم يشن بايار * . إن الحرب رعبٌ كلها . وليس ثمة ما يُختار فيها . إن نار المحاصرين . على الرغم من صعوبتها ومن صعودها من ادنى إلى أعلى . كانت مهلكة . وما هي إلا لحظات حتى أحيطت حافة الثقب الذي في السطح بروؤوس القتلى وقد سالت منها خطوط طويلة حمراء داخنة . كانت القرقة ممتعة على الوصف . وأحدث الدخان المحبوس المتقد شبه ليل فوق هذا الصراع . وإنما تعجز الكلمات عن الهول حين ينتهي إلى هذه الدرجة . لم يعد ثمة رجال في هذا الكفاح الذي غدا الآن جحيماً . لم يبق ثمة عمالقة ضد مرده . كان أشبه بميلتون ودانتي منه بهوميروس . لقد هاجمت ابالسة^١ . ودانجت اشباح . كانت بطولة الهولات .

* Bayard قائد فرنسي شهير سلع نجمه اثناء حروب شارل الثامن ، ولويس الثاني عشر ، وفرنسوا الاول (١٤٧٣ - ١٤٩٤)

أوريست * صائماً ويثلاًد * سكران

واخيراً شُنت الحملة على حجرة الدور الأول ، شنها نحو من عشرين
محاصراً - جنوداً ، وحرساً وطنياً ، وحرساً بلدياً - وثب بعضهم فوق
اكثاف بعض ، مستعينين بهيكل السلم ، متسورين الجدران ، متعلقين
بالسقف ، مقطعين آخر المقاومين إرباً إرباً ، متفرقين في هرج ومرج ،
مشوهاً أكثرهم بجرح في الوجه في هذا الصعود الرهيب ، مروعين أعماهم
الدم وانقلبوا إلى وحوش ضارية . لم يكن ثمة ، الآن ، غير رجل
واحد قائم على قدميه : آنجولراس . وإذا أعوزه الخرطوش ، وأعوزه
سيف يقاتل به ، فلم يبق في يده غير أنبوب بندقيته القصيرة الخفيفة التي
كان قد كسر القسم المعوج من خشبتها فوق رؤوس الداخلين . كان قد
وضع مائدة البليارد بينه وبين المغيرين . وكان قد ارتد إلى زاوية
الغرفة ؛ وهناك ، بعين فخور ، ورأس شامخ ، وفي قبضته تلك المشطية
من السلاح ، كان لا يزال رهيباً إلى درجة تركت من حوله فسحة
واسعة . وارتفعت صيحة :

- « هوذا الزعيم ! إنه هو الذي قتل المدفعي . وما دام قد وضع
نفسه هناك فلا ريب في أنه مكان جيد . فليبق هناك . ولنطلق عليه
الرصاص حيث هو . »
وقال آنجولراس :
- « اطلقوا النار علي ! »

• Oreste ابن آغاممنون وكليتمنستر . وقد قتل أمه بالاتفاق مع أخيه ايلكتر اخذاً
بشار أبيه ، ثم أمسى ملكاً على آرغوس ولاسيديمون . وكانت تربطه بـ « بيلاد »
Piledo صداقة لا تزال إلى اليوم مضرب المثل .

وطرح البقية الباقية من بندقيته الخفيفة القصيرة ، وطوى ذراعيه ،
وفتح لهم صدره .

إن الجسارة التي تحمل صاحبها على ان يموت عزيزاً تحرك لواعج
الرجال دائماً . فما ان طوى آنجولراس ذراعيه ، مرتضياً النهاية ،
حتى خفت هدير الصراع في الغرفة ، وهدأت الفوضى فجأة في ضرب
من الخشوع القبري . لقد بدا وكأن عظمة آنجولراس المتوقعة ،
آنجولراس الأعزل الذي لا حراك فيه ، قد رزحت فوق ذلك الصخب .
وبدا وكأن هذا الشاب الذي كان وحده خلواً من الجراح . بهيماً ،
مدمى ، فاتناً ، لا مبالياً وكأنه ممتنع على الجراح - بدا وكأنه استطاع
بسلطان عينه الهادئة وحده أن يكره هذا الجمع المشؤوم على ان يقتله
في احترام . إن جماله في تلك اللحظة ، وقد زادته كبرياؤه روعة ،
كان بهاء متألقاً . كان نضراً أزهر . وكأنما امتنع على التعب كما
امتنع على الجرح . بعد الساعات الأربع والعشرين المروعة التي
أوشكت ان تنقضي . ولعل ذلك الشاهد الذي تحدث بعد ذلك أمام
المجلس الحربي كان يقصده حين قال : « كان هناك نائر سمعتهم
ينادونه أبولو . » وخفض احد رجال الحرس الوطني المسدد بندقيته إلى
آنجولراس - خفض سلاحه قائلاً : « يبدو لي اني اطلق النار
على زهرة . »

وشكل اثنا عشر رجلاً مفرزة في الزاوية المقابلة لآنجولراس ، وأعدوا
بنادقهم في صمت .

وصاح رقيب :

- « سدّدوا بنادقكم ! »

وتدخل ضابط :

- « إنتظر ! »

ووجه الخطاب إلى آنجولراس فقال :

- « هل تريد ان تُعصب عيناك ؟ »

- « لا . »

- « هل صحيح أنك انت الذي صرعت رقيب المدفعية ؟ »

- « نعم . »

وكان غرانتير قد استفاق منذ بضع دقائق .

ويذكر القاريء ان غرانتير كان قد استسلم للرقاد منذ الليلة الماضية في الحجرة العليا من الحانة ، وانه كان جالساً على كرسي ، مكباً على وجهه فوق احدى الموائد .

لقد تمثلت فيه بكامل قوتها الصورةُ المجازية العتيقة : « سكران ميت » . كان الشراب الرهيب ، المؤلف من كحول وأفسنتين وستوت ، قد قذف به في سبات عميق . واذا كانت طاولته صغيرة لا حاجة للمتراس بها ، فقد تركوها له . وكان قد اقام على وضعه نفسه ، مطوي الصدر على الطاولة ، ملقى الرأس على ذراعيه . محاطاً بالكؤوس والأباريق والزجاجات . لقد نام ذلك النوم المالح الذي نعرفه من الدب الذي أقرسه البرد ومن العلكة المتخمة . إن شيئاً ما لم يكن قادراً على التأثير فيه . لا رصاص البنادق . ولا كرات المدافع ، ولا القذائف التي هزمت من خلال النافذة إلى الغرفة التي كان فيها . بل لقد عجزت ضوضاء الهجوم العجيبة عن ان تؤثر فيه . بيد انه كان يستجيب في بعض الاحيان لدوي المدافع بشجرة . لقد بدا وكأنه ينتظر هناك أن تُقبل قذيفة فتكفيه موثونة الاستيقاظ . كانت عدة جثث منطرحه حوله . ولاول وهلة لم يكن ثمة ما يميزه عن نائمي الموت المستغرقين هؤلاء .

إن الضجة لا توقظ السكران ، الصمت يوقظه . وهذه الفريدة قد لوحظت غير مرة . كان سقوط الاشياء كلها ، من حول غرانتير . يضاعف تلاشيهِ . كان الدمار يهدده . وكان ذلك الضرب من التوقف الذي ألمّ بالصخب أمام آنجولراس صدمةً لنومه العميق . لكأنه عربية

منطلقة حُمِلت على الوقوف فجأة . إن النائمين ليفيقون من جراء ذلك . ونهض غرانتير مجفلاً ، وبسط ذراعيه ، وفرك عينيه ، ونظر ، وتثاءب ، وفهم .

إن الثمَل الذي ينتهي أشبه بستار يمزق . اتنا نرى ، على نحو إجمالي وبمنظرة واحدة ، كل ما كان محجوباً . ويتمثل كل شيء ، فجأة ، في الذاكرة . وما إن يفتح السكير عينيه - السكير الذي لم يعرف شيئاً مما جرى طوال أربع وعشرين ساعة ، حتى يلمّ بكل ما حدث . إن افكاره لتعاوده في جلاء مفاجئ . وإن فناء الثمَل - وهو ضرب من البخار الذي يعمي الدماغ - ليتبدد ، وتحل محله انطباعات الواقع الواضحة الدقيقة .

واذ كان منغزلاً في إحدى الزوايا ، وشبه ملتجئ خلف مائدة البليارد ، فإن الجنود المصوبين أعينهم إلى آنجولراس لم يكونوا قد لمحوه مجرد لمح ، وكان الرقيب يستعد لتكرير الأمر : « سددوا بنادقكم ! » ، عندما سمعوا فجأة صوتاً قوياً يصيح إلى جانبهم :

« فلتحي الجمهورية ! أنا انتسب إليها . »

كان غرانتير قد نهض .

لقد بدا وهج المعركة كلها . وهج المعركة التي فاته والتي لم يشهدها ، في النظرات المومضة المنطلقة من عيني السكران المتقلب من حال إلى حال . وكرر : « فلتحي الجمهورية ! » واجتاز الغرفة في خطى ثابتة ، ووقف أمام البنادق إلى جانب آنجولراس .

وقال :

« اقتلوا اثنين بطلقة واحدة . »

والتفت إلى آنجولراس ، في رفق ، وقال له :

« هل تسمح بذلك ؟ »

وضغط آنجولراس على يده في ابتسامة .

ولم تكذ الانسامة تنتهي حتى سمع دوي الانفجار .
 وظل آنجولراس ، بعد ان مزقته ثماني رصاصات ، مستنداً إلى الجدار
 وكأن تلك الرصاصات قد سمرت هناك . كل ما في الأمر انه حتى رأسه .
 وصُق غرانتير ، وخر على قدميه .
 وبعد بضع لحظات عمد الجنود إلى اخراج آخر المتمردين الذين كانوا
 قد اعتصموا في أعلى المنزل . لقد اطلقوا النار من خلال شُباكة خشبية
 إلى العليّة . وتقاتلوا تحت سقف البناية الأعلى . وألقوا بالجنث من
 النوافذ ، وبعض اصحابها على قيد الحياة . وقُتل جنديان خفيفا السلاح
 - فيما كانا يحاولان رفع العربة العمومية المحطمة - برصاصتي بندقية
 قصيرة أطلقتهما من الكوى . وطُرح على أم رأسه رجل يرتدي درّاعة ،
 بطعنة حربة في بطنه ، وانشأ يحشرج على الارض . وانزل جندي ومتمرد
 معاً فوق منحدر السطح المقرمد ، وأبى كل منهما ان يفلت الآخر ،
 وسقطا ، وقد تعانقا عناقاً وحشياً . ودار صراع مماثل في القبو .
 صيحات ؛ طلقات نارية ؛ وطء اقدام ضارٍ . ثم ساد الصمت . لقد
 استولوا على المتراس .
 وشرع الجنود في تفتيش البيوت المجاورة ، وفي تعقب الهاربين .

٢٤ في الأسر

كان ماريوس اسيراً في الواقع . أسيرَ جان فالبجان .
 كانت اليد التي أمسكت به من خلاف لحظة منقط ، والتي امتشعر
 قبضتها وهو يفقد الوعي ، هي يد جان فالبجان .
 ولم يقم جان فالبجان بأيما دور في المعركة غير تعريض نفسه للخطر .

ولولاه . في تلك المعركة الحاسمة من لحظات الحشجة ، لما فكر احد بالجرحي . وبفضله ، وكان ماثلاً في كل مكان من المجزرة كالعناية الالهية ، تُلْقَفَ الذين سقطوا ، وحُمِلوا إلى الحجرة السفلى ، وُضِمَت جراحاتهم . وفيما بين الفترة والفترة كان يرمم المتراس . ولكن ايأ مما يشبه ضربة ، أو هجمة ، بل وحتى دفاعاً شخصياً . لم ينطلق من يديه . كان معتصماً بالصمت . وكان يسدي يد العون . وفوق هذا ، فلم يُصَب بغير خدوش طفيفة . كانت الرصاصات ترغب عنه . وإذا كان الانتحار جزءاً مما خطر له حين وفد إلى ذلك القبر فقد اخفق من هذه الناحية . ولكننا نشك في انه فكر بالانتحار ، وهو عمل مغاير للدين .

ولم يبد جان فالجان . في سحابة الصراع الكثيفة ، وكأنه رأى ماريوس ؛ ولكن الواقع انه لم يرفع عينيه عنه . حتى إذا طوَّح بماريوس طلق ناري ، وثب جان فالجان برشاقة نمر ، وانقض عليه كما ينقض وحش على فريسة ، وحمله إلى بعيد .

كانت زوبعة الهجوم قد تركزت في تلك اللحظة تركزاً ضارياً حول آنجولراس وباب الخانة حتى لقد غفل القوم جميعاً عن رؤية جان فالجان يجتاز حقل المتراس غير المعبد ، حاملاً ماريوس الفاقد رشده بين ذراعيه ، ويختفي خلف زاوية بيت كورنث .

ويذكر القراء أن هذه الزاوية كانت ضرباً من الرأس الجغرافي في الشارع . لقد حمت من الرصاص والقذائف المدفعية ، ومن النظر ايضاً ، بضعة اقدام مربعة من الارض . وهكذا فان في الحرائق ، بعض الأحيان ، فسحة تتمتع على النيران ، وان في اشد البحار ضراوة ، خلف احد الرؤوس أو عند نهاية درب من دروب الصخور غير النافذة ، زاوية صغيرة هادئة . وفي هذا الضرب من مطاوي المربع المنحرف الداخلي من المتراس توفيت ابيونين .

هناك وقف جان فالجان . لقد ترك ماريوس ينزلق إلى الأرض ،
واستند ظهره إلى الجدار ، وأجال بصره في ما حوله .
كان الوضع رهيباً .

وطوال لحظة ، أو ربما طوال دقيقتين أو ثلاث ، كانت شقة الحائط
تلك ملجأ وملاذاً . ولكن كيف السبيل إلى النجاة من هذه المجزرة ؟
لقد ذكر الالم النفسي المرير الذي ألمّ به في شارع بولونسو ، قبل ثماني
سنوات ، وكيف وُفق إلى الفرار . كان ذلك عسيراً آنذاك ، أما اليوم
فقد كان متعذراً . فأمامه كان ذلك المنزل الحقود الاصم ذو الطوابق
الثثة ، والذي بدا غير أهل إلا بذلك الرجل الميت المنحني على نافذته .
وإلى يمينه ، كان المتراس المنخفض الذي سد شارع ال « بيتيت
تروواندري » . لقد بدا اجتياز هذه العقبة يسيراً ، ولكن كان في ميسور
المرء أن يرى فوق قمة الجدار صفّاً من رؤوس الحراب . كانت سرية
من الجند متمركزة خلف ذلك المتراس ، مترصدة . وكان واضحاً أن
اجتياز المتراس معناه التعرض لنيران مفرزة من الجند ، وأن كل رأس
قد يغامر في الارتفاع فوق أعلى الجدار المشيد من حجارة الارصفة
سوف يكون هدفاً لستين بندقية . وإلى يساره ، كان ميدان المعركة .
كان الموت خلف زاوية الجدار .
ما الذي ينبغي أن يفعله ؟

كان في ميسور العصفور وحده أن يفلت من هناك .
وكان عليه أن يقرر في الحال ، وأن يجد وسيلة ما ، وأن يتخذ
موقفاً . كانوا يتقاتلون على بضع خطوات منه . ولحسن الطالع ، كان
الجميع ملتحمين تماماً ضارباً عند نقطة واحدة : باب الحانة . ولكن
لو خطر لجندي ما ، جندي واحد ، أن يستدير حول المنزل ، أو أن
يهاجمه على نحو جانبي ، إذن لانتهى كل شيء .
ونظر جان فالجان إلى المنزل المواجه له ، ونظر إلى المتراس القائم

إلى جانبه ، ثم نظر إلى الأرض ، في عنف الشدة الحاسمة ، وفي يأس ، وكأنما كان يريد أن يحدث فيها ، بعينه ، ثقباً .

وتحت هذه النظرة الموصولة تمثل شيء ملحوظ على نحو غامض في ألم الاحتضار ذاك ، وتشكّل عند قدميه وكأن ثمة قوة في العين قادرة على انشاء الشيء المطلوب . وعلى بضع خطوات منه ، عند ادنى الجدار الصغير المراقب والمحروس من الخارج على نحو لا يعرف الشفقة ، وتحت بعض حجارة الارصفة المنهارة التي كانت تحجبه جزئياً ، لمسح شبكة حديدية منطرحة على الأرض . وكانت مساحة هذه الشبكة ، المصنوعة من قضبان حديدية قوية مستعرضة ، تبلغ نحواً من قدمين مربعين . كان الاطار الحجري المحيط بها متزوعاً من مكانه ، وكأنما قد اقتلّع . ومن خلال القضبان كان في ميسور المرء ان يلمح فتحة غامضة ، شيئاً مثل انبوب مدخنة ، أو اسطوانة صهر يسج . ووثب جان فالفجان إلى أمام . وصعد علم الهروب القديم إلى دماغه مثل ومض البرق . ونزع الحجارة ، ورفع الشبكة الحديدية ، وحمل ماريوس - الذي كان هامداً مثل جثة باردة - على منكبيه ، وهبط - وذلك الحمل على ظهره - مستعيناً بمرفقه وركبتيه إلى ذلك الضرب من البثر ، غير العميقة لحسن الحظ ، وترك ذلك الباب الأسر القوي الذي رُدّت الحجارة فوقه إلى مكانها كرة أخرى - تركه يسقط على رأسه ، ووجد موطىء قدم فوق سطح مبلط يقع على عمق عشرة اقدام تحت الأرض . وانما تم ذلك كله ، كما تتم الأشياء في الهذيان ، بقوة عملاق وسرعة نسر . لقد اقتضى بضع لحظات ليس غير .

ووجد جان فالفجان نفسه ، وماريوس ما يزال غائباً عن الوعي ، في شبه مجاز نفقيّ طويل .

وهناك كان أمن عميق ، وصمت مطلق ، وليل .

وعاوده مثل الشعور الذي ألمّ به من قبل يوم هبط من الشارع إلى

الدير . إلا ان مسا كان يحمل الآن لم يكن كوزيت ، ولكن ماريوس .
وأسمى الآن يسمع فوقه ، مثل همس غامض - وما يكاد - صخب
الحانة الرهيب وقد اقتحمها الجند .

ABDEEN

الكتاب الثاني

مِضْرَان لَوِيَاثَان *

الارض وقد أفقرها البحر

كل سنة تقذف باريس بخمسة وعشرين مليوناً إلى البحر . وهذا من غير لجوء إلى المجاز . كيف ، وبأية طريقة ؟ ليلاً ونهاراً . لأي غرض ؟ لغبر ما غرض . بأية فكرة ؟ من غير تفكير البتة . مقابل ماذا ؟ لا شيء . من طريق أي عضو ؟ من طريق مَعْيَها . وما معها ؟ بالوعتها .

* لويathan Leviathan هولة ورد ذكره في التوراة ، في سفر ايوب ، ومن ثم أصبح علماً على كل شيء هائل راعب .

خمسة ملايين هو أكثر الأرقام التقريبية اعتدالا ، وفقاً لتقديرات العلم الخاص .

فالعلم يعرف اليوم ، بعد طول التجربة ، أن أكثر الاسمدة إخصاباً وفعالية سادُ الانسان . لقد عرف الصينيون ذلك - وينبغي أن نقولها ، ويا لعارنا - قبلنا نحن . ويخبرنا ايكبيرغ أن الفلاح الصيني لا يذهب البتة إلى المدينة من غير أن ينقلب ناقلاً ، عند طرفي عمود البوص الهندي الذي يحمله ، دلوين مليئين بما ندعوه الغائط . وبفضل التسميد البشري لا تزال الأرض في الصين فتية كما كانت في أيام ابراهيم . والقمح الصيني يغل مئة وعشرين ضعفاً . وليس ثمة ذرق يوازي في الخصب نقاية العاصمة . ان المدينة الكبيرة هي أقوى الحشرات التي تعيش وسط الغائط . واصطناع المدينة لاختصاب السهل خلق به أن يقترن بالنجاح الأكيد . واذا كان ذهبنا روئاً ، فأن روئنا هو ، بالمقابلة ، ذهب . ما الذي يُصنع بهذا الروث الذهب ؟ إنه يُجرف إلى الهاوية .

إننا نوجه ، متحملين أعظم التفقات ، قوافل من السفن لكي نجمع من القطب الجنوبي ذرق النورس والبطريق ، * على حين نقذف إلى البحر بعنصر الثروة الجسيم الذي في مثاولنا . ولو أن جميع الزبل البشري والحيواني الذي يخسره العالم قد أعيد إلى الأرض بدلاً من أن يلقي به في الماء اذن لكان كافياً لتغذية العالم .

هذه الاكوام من الاقدار عند زوايا العالم ، وهذه العجلات المحملة بالوحد الراجة خلال الشوارع في موهن من الليل ، وهذه العربات الرهيبة المخصصة لاقذار البلدة ، وهذه السيول الطينية التنتة الجارية تحت الأرض والتي تحجبها حصباء الطريق عنك ، أتدري ما هي كلها ؟ إنها المرج المنور ، إنها العشب المخضوضر ، إنها النمام والصعتر والمريمية ، إنها الطرائد ، إنها الماشية ، إنها الخوار الرضي تطلقه الثيران الضخام عند

* للنورس Pétrel والبطريق Pingouin طائران .

المساء ، إنها الصائرة العطرة ، إنها القمح المذهب ، أنها الخبز على مائدتك ، أنها الدم الحار في عروقك ، أنها الصحة ، إنها البهجة ، إنها الحياة . كذلك شاءت تلك الخليفة الخفية التي هي تحول على سطح الارض ، وتجل في السماء .

ضع هذا في البوتقة الكبيرة . إن خصبك سوف ينبثق من هناك . فغذاء السهول يولف قوت الناس .

إن لك القدرة على ان تطرح هذه الثروة . وان تجدني فضلا عن ذلك سخيفاً . وعندئذ تكون قد بلغت اوج جهالتك .

تظهر الاحصاءات ان فرنسة وحدها تقذف بنصف مليار كل عام ، من خلال أفواه أنهارها ، في المحيط الاطلسي . انته إلى هذا : الخمسة مليون نستطيع ان تدفع ربع نفقات الحكومة . والانسان من البراعة بحيث يفضل ان يلقي بهذه الملايين الخمسمئة في الساقية . إن مادة الناس نفسها هي التي تُجرف ، نقطة نقطة هنا ، وسيولا سيولا هناك ، من خلال تقيؤ بواليعنا البائس إلى الأنهار ، وتقيؤ أنهارنا الضخم في المحيط . إن كل شهقة من بواليعنا تكلفنا الف فرنك . ولهذا نتيجتان : إفقار الارض ، وتلوث الماء . الجوع طالماً من الثلم ، والمرض منبعثاً من النهر .

ومن المشهور . مثلاً ، ان نهر التيمس يسمم ، في هذه الساعة ، مدينة لندن .

أما في باريس ، فقد تعيّن على السلطة . في هذه السنوات الاخيرة ، ان تنقل معظم مصابّ البواليسع إلى سافلة النهر تحت الجسر الاخير .

إن جهازاً انبوبياً مزدوجاً ، مزوداً بالصمامات والمنافذ ، يستقبل ويردّ ، جهازاً تصريفٍ بدائياً ، بسيطاً كرفتي الانسان ، منتشر حالياً في كثير من قرى انكلترة ، خليق به ان يكفي لنقل مياه الحقول النقية إلى مدننا ولأعادة

مياه المدن الغنية إلى حقولنا . وهذا التحرك اليسير ذهاباً وإياباً ، الأكثر بساطة في العالم ، قادر على أن يعيد إلى حوزتنا الملايين الخمسمئة المطرحة. إننا نفكر في شيء آخر

إن الاسلوب الحالي يؤدي من حيث يحاول أن يفيد . القصد جيد ، ولكن النتيجة تعسة . ان الناس يحسبون أنهم يطهرون المدينة ، فساداً بهم يُسقمون السكان . بالوعة سوء فهم . وحين يستطيع جهاز التصريف في كل مكان ، بمهمته المزدوجة ، بحيث يعيد ما يأخذ ، أن يحل محل البالوعة - ذلك الغسل البسيط للمفقر - فعندئذ ، وبالإشتراك مع معطيات اقتصاد اجتماعي جديد ، يزداد إنتاج الارض عشرة أضعاف ، وتخف وطأة مشكلة الشقاء على نحو فريد . اصف قطع دابر التطفل ؛ ان مشكلته سوف تحل .

وفي غضون ذلك تندفع الثروة العامة إلى النهر ، ويستمر السيلان . السيلان هي الكلمة . إن اوروبية تدمر نفسها على هذا النحو من طريق الاستنزاف .

أما فرنسا فقد اشرنا منذ لحظة إلى الرقم الذي تخسره . والآن ، ولما كانت باريس تضم جزءاً من خمسة وعشرين من مجموع السكان الفرنسيين ، ولما كان الروث الباريسي اغنى انواع الروث ، فلسنا نعدو الصواب حين نقرر بخمسة وعشرين مليوناً نصيب باريس من خسارة نصف المليار التي تطرحها فرنسا سنوياً . ولو قد انفق هذه الملايين الخمسة والعشرون على الغوث والابهاج اذن لضاعفت بهاء باريس . ان المدينة تهدرها في البواليع . بحيث نستطيع ان نقول ان إسراف باريس العظيم ، وعيدها الرائع ، وحماقتها البوجونية * ، وافراطها في الاكل والسكر ، وسبول الذهب المتدفقة من راحتها المبسوطتين ، وأهنتها ، وبنخها ، وسخاءها البالغ -

* نسبة الى بوجون Beaujon وهو مالي فرنسي خلع اسمه على احد احياء باريس (١٧٠٨ - ١٧٨٦)

كل ذلك هو بالوعتها .

وهكذا ، بعمى اقتصاد سياسي فاسد ، تفرق رفاهية الجميع ونجهز للجة ان تبتلعها فتغيب في الاعماق . ينبغي ان تكون هناك شياك من سان كلو للرشاء العام واقتصادياً ، يمكن اختصار هذه الواقعة على النحو التالي : باريس سلة مثقوبة .

إن باريس . تلك المدينة النموذجية ، ذلك المثال للعواصم الراقصة الذي يحاول كل شعب ان يفوز بنسخة عنه ، حاضرة المثل الاعلى تلك ، ذلك الموطن الفخيم للمبادرة والحث والتجربة ، ذلك المركز والملاذ للعقل ، تلك المدينة الأمة ، خلية المستقبل تلك ، ذلك المركب العجيب من بابل وكورنث ، إن باريس هذه لخليق بها . من وجهة النظر التي أشرنا اليها اللحظة ، أن تحمل فلاحاً من « فو - كيان » على ان يهز كتفيه .

قلد باريس ، تتلف نفسك . وإلى هذا ، وبخاصة في ذلك الاسراف العريق الخاطل ، تعتمد باريس نفسها إلى التقليد .

وهذه الحماقات المذهلة ليست جديدة . فليس ثمة بلاهة غضة في هذا . لقد تصرف القدماء تصرف المحدثين . يقول ليبينغ : « كانت بواليع رومة تمتص كامل رفاهية الفلاح الروماني » . وحين دمرت البالوعة الرومانية السهل المنخفض المحيط برومة أنهكت رومة ايطالية ، وحين وضعت ايطالية في بالوعتها ، عادت فافرغت فيها صقلية ، ثم سردينية ، ثم إفريقية . إن البالوعة رومة قد ابتلعت العالم . لقد خلعت هذه البالوعة شراحتها على المدينة وعلى الكرة الارضية . *Urbi et orbi* * مدينة خالدة . بالوعة لا قرار لها

وفي هذه الاشياء ، شأنها في أشياء اخرى . تعتبر رومة قدوة .

« كلمتان لاتينيتان تعنيان المدينة والكون .

وهذه القلوة تقتدي باريس بها ، بكل البلاهة التي تتميز بها
المدن العبقريّة .

ولضرورات العملية التي شرحناها اللحظة تقوم تحت باريس - باريس*
اخرى . باريس بواليع ، لها شوارعها ، ومفارقها ، وساحاتها ،
ودروبها غير النافذة ، وشرائنها ، وحركة مواصلاتها . باريس بواليع
هي وحل ولكن ينقصه الشكل الانساني .

ذلك بأن علينا ان لا نتملق احداً ، حتى ولو كان شعباً عظيماً .
وحيث يوجد كل شيء تقع على الخزي إلى جانب الرفعة . واذا كانت
باريس تنطوي على اثينا مدينة الضياء ، وصور مدينة القوة ، واسبارطة
مدينة الفضيلة ، ونيوى مدينة الاعجوبة ، فانها تنطوي ايضاً على
« لوتيس » . مدينة الوحل .

وفوق هذا فإن خاتم قوتها هناك ايضاً ، وماخور باريس العملاق
يحقق ، بين البدائع الاخرى ، ذلك المثل الاعلى العجيب الذي تحققه
الانسانية من طريق رجال من مثل ميكافيلي ، وبيكون ، وميرابو :
عظمة الحقارة .

إن باريس التي تحت الارض ، إذا استطاعت العين ان تخترق السطح .
لأشبه شيء بعرق لؤلؤ هائل . وليس في الاسفنجة ثقب ومعاير أكثر
ما في مدرة يبلغ مدارها ستة فراسخ تقوم عليها المدينة العظيمة العتيقة .
وبصرف النظر عن الدياميس ، التي يفصل ما بين كل منها كهف ،
وبصرف النظر عن شبكات انابيب الغاز المعقدة ، ومن غير ان
نذكر الجهاز الأنبوبي الهائل الذي يوزع مياه الينابيع والذي ينتهي إلى
الصنابير الرئيسية ، فإن البواليع وحدها تشكل شبكة اعجوبة داكنة تحت
الضفتين . تبه مفتاحه انحداره .

هناك يرى ، في العتمة الرطبة . الجزد ، الذي يبدو وكأنه ثمرة
مخاض باريس .

* Lutèce اسم باريس القديم .

تاريخ البالوعة القديم

تحيل باريس وقد رُفعت مثل غطاء . وعندئذ تمثل شبكة البواليع تحت الارضية ، منظوراً إليها نظرة طائر ، عند كل من الضفتين ، شبه غصن ضخيم مطعماً على النهر . ففي الضفة اليمنى تكون « البالوعة المطرقة » جذع هذا الغصن ، والمجاري الثانوية أفنانه ، والدروب غير النافذة عساليجه .

وهذه الصورة ليست غير صورة عامة ونصف مضبوطة ، لأن الزاوية القائمة ، المألوفة عادة في مثل هذه الشبكات تحت الارضية ، نادرة جداً في النبات .

ولسوف تشكل صورة أكثر شبهاً بهذا المخطط الهندسي ، بأن نفترض اننا نرى ، مشورة على خلفية من الظلام . بعض إجديات الشرق العجيبة مشوشة مثل خليط ما ، وقد اتصلت بعض حروفها الشائهة ببعضها الآخر كيفما اتفق ، ظاهرياً ، وكأنما بفعل المصادفة ليس غير ، من زواياها حيناً ومن اطرافها القصوى حيناً آخر .

لقد لعبت المواخير والبواليع دوراً هاماً في القرون الوسطى ، وفي الامبراطورية البيزنطية والشرق القديم . فيها وُلد الطاعون ، وفيها مات الطغاة . وكانت الجماهير تنظر في رعب يكاد يكون تقوياً إلى سرر التن هذه ، مهود الموت الرهيبة . إن جب قمل بيناريس * ليس أقل إذهالاً من جب أسود بابل . ووفقاً للكتب التلمودية فإن تغلت فلاسر قد اقسام بماخور نينوى . ومن البالوعة مونستر أطلع جان الليدني ** قمره

* Benarès مدينة على نهر الغانج مقدسة عند الهندوس .

** Jean de Leyde زعيم القائلين بتجديد العباد في مونستر ، احلى مدن بروسيا ، وقد قُتل أثناء حملة التعذيب الرهيبة التي جرت عام ١٥٣٦

الكاذب ، ومن جب - بالوعة في بلدة كشر* أطلع شبيهه الشرقي « المقنع »
نبي خراسان المحجّب ، شمس الزائفة .

إن تاريخ الناس ينعكس في تاريخ البواليع . ومعرض جثث المذنبين
يروى قصة رومة . وانما كانت بالوعة باريس شيئاً فظيلاً في الزمن
الماضي . كانت قبراً ، وكانت ملجأ . ففي هذا الثقب اختبأت الجريمة ،
والذكاء ، والاحتجاج الاجتماعي ، وحرية المعتقد ، والفكر ،
واللصوصية ، وكل ما تلاحقه القوانين الانسانية أو قد لاحقه .
فالمطرقيون * في القرن الرابع عشر ، والنشالون المتجولون ليسلا في
القرن الخامس عشر ، والهوغونوت ** في القرن السادس عشر ،
ومستنيرو مورين في القرن السابع عشر ، والوقادون في القرن الثامن عشر .
ومنذ مئة سنة كانت طعنة الخنجر الليلية تنبثق من هناك ، وكان النشال
الذي يلم به الخطر يتزلزل إلى هناك . كان للغابة كهفها ، وكان لباريس
بالوعتها . وكان التشرّد ، ذلك البيكاريريا الغالي* ، يرتضي البالوعة شعبة
من « ساحة المعجزات » *** ، فكانوا يأوون في موهن من الليل ،
ماكرين شرين ، إلى مخرج موبوويه وكأنهم يأوون إلى مخدع .

وكان طبيعياً جداً أن الذين يعملون نهاراً في زقاق « فيد غوسيه »
غير النافذ ، أو شارع « كوب غورج » ان يتخذوا مقامهم الليلي في
جسر « الطريق الأخضر » أو قناة « هوربوا » . ومن هنا جمهرة من
الذكريات . ان مختلف ضروب الاشباح لتألف هذه الأروقة الطويلة
المنعزلة ، والعفن والابخرة الوبيثة في كل مكان . وههنا وههناك تجد منفذاً

* Maillottins اسم اطلق على الباريسيين المتمردين في عهد شارل السادس ، وقد دهموا

بذلك بسبب من المطارق الخشبية Maillots التي اخلوها من مصنع السلاح عام ١٣٨١

** بروتانتات فرنسة .

*** حي من احياء باريس القديمة ، وكان ملجأً للشاذين والمتشردين في القروص

الوسطى .

يتكلم فيون من داخله إلى رابليه في خارجه :

إن البالوعة ، في باريس القديمة ، هي ملتقى جميع القنوات وجميع التجارب . إن الاقتصاد السياسي ليرى فيها نفاية ، وإن الفلسفة الاجتماعية ليرى فيها ثُفلاً :

البالوعة ضمير المدينة . إن الأشياء كلها تتجه إليها ، وتتقابل فيها ، في ذلك الموطن المكفهر ظلمات ، ولكن ليس فيه أسرار . إن لكل شيء شكله الحقيقي ، أو على الأقل شكله الحاسم . فمن حسنات ركام الزبالة انه ليس كذاباً . لقد التجأت الصراحة اليه . انا نجد ثمة قناع باسيل . ، ولكننا نستطيع ان نرى الورق المقوى ، والخيوط ، والباطن والظاهر ، وإن وحلاً أميناً ليؤكدده . إن أنف سكانين * على مقربة منه . وجميع قذارات الحضارة تقع ، حالما يستغنى عنها ، في حفرة الحق هذه ، حيث يوضع حد للانزلاق الاجتماعي الهائل . إنها تُبتلع ، ولكنها تتجلى هناك . وهذا الاختلاط هو اعتراف . فهنا تنعدم المظاهر الكاذبة ، ويتعذر كل تجميع ، ويخلع القدر قميصه ؛ عري مطلق ، وانهمزام للاوهام وضروب السراب ؛ لا شيء غير ما هو كائن ، متخذاً صورة الشيء الأقل الكالحة . الحقيقة والزوال . هنا ، يعرف قصر الزجاجاة بالسُّكُر ، وتروي يد السلة قصة الحياة المنزلية . هنا ، يعود قلب التفاحة الذي كانت له آراء أدبية قلباً تفاحة من جديد ، وتغطى الصورة التي على الـ «سو» الكبير بالزنجار على نحو صريح ، وتلتقي بصقة قيافا ... قيء فالستاف ، وتصدم الليرة اللويسية الذهبية

• بطل « حلاق اشبيلية » Barbier de Séville ، كوميدية بومارشيه الشهيرة ، وهو يعتبر مثال المرائي المتصف بالملاطفة والحرص على المال .

• Scapin أحد أبطال موليير وهو مثال الخادم المخادع ، الخبيث ، الماكر .

• Calphe الكاهن اليهودي الذي حكم بالموت على يسوع المسيح .

••••• احدى شخصيات شكسبير ، وهو يمثل الرجل الداعر الوقع .

الخارجة من نادي القمار المسمار الذي يتلى منه جبل الانتحار القصير ،
ويتدحرج جنين ازرق ضارب إلى السواد مغلفاً بالترتر البراق الذي رقص
في الاوبرا يوم ثلاثاء المرفع الاخير ، وتتمرغ قلنسوة حاكمت الناس إلى
جانب نثانة كانت تنورة لمارغوتون . إنه أكثر من إخاء ؛ إنه غاية
الغايات في الألفة والود . إن كل ما تبرج يتسخ . إن الحجاب الاخير
ليُتزع . البالوعة بذئنة . إنها تروي كل شيء .

إن أمانة القذارة هذه لترضينا ، وإنها لتوقع الطمأنينة في النفس ،
فحين يقضي الانسان أيامه على الارض في احتمال سبب التظاهر والتكلف
التي تقتضيها ضرورات الحكم ، والقسم ، والحكمة السياسية ، والعدالة
الانسانية ، والنزاهة المهنية ، وحراجة الموقف ، والاثواب التي لا ميسيل
إلى إصلاحها ، يكون من الغزاء له أن يدخل إلى بالوعة ، ويرى الوحل
الذي يلائمها .

إنها لتلقي درساً في الوقت نفسه . فالتاريخ ، كما قلنا اللحظة ،
يمرّ من خلال البالوعة . إن المذابح الشبيهة بمذبحه القديس بارتليموس
لترشح هناك ، قطرة قطرة ، عبر حجارة الارصفة . والاغتيالات العمومية
الكبرى ، والمجازر السياسية والوطنية تجتاز قبو الحضارة هذا ، وتدفع
صرعاًها اليه . هناك يتبدى لعين المفكر جميع القتلة التاريخيين راكمين
في الظلمة الرهيبة ، وقد اتخذوا من اكفانهم مأزر لهم وراحوا ينظفون
فعالهم على نحو حدادي . إن لويس الحادي عشر ليقم هناك مع
تريستان . ؛ وإن فرنسوا الأول ليقم هناك مع دوبرا . ؛ وإن شارل
التاسع هناك مع أمه ؛ وإن ريشيليو هناك مع لويس الثالث عشر ؛ إن

• Tristan كبير مارشالات فرنسا في عهد شارل الثامن ولويس الحادي عشر .

• Duprat القاضي الأكبر في فرنسا أيام الملك فرنسوا الأول . كان كردينا لا ، وقد
عقد كونكورد بولونيا (١٥١٦) بين فرنسوا الأول والبابا ليو العاشر .

لوفوا * هناك ؛ وان لوتوليه ** وهيبير *** ومايار **** هناك ،
يكشطون الحجارة ويحاولون ان يحموا آثار أعمالهم . وتحت هذه الاقية
نسمع مكنسة هذه الاشباح . اننا نستروح هناك نثانة الكوارث الاجتماعية
الهائلة . اننا نرى انعكاسات ضاربة إلى الحمرة في الزوايا . هناك تجري
مياه فظيعة غُسلت فيها أيد دامية .

إن على المراقب الاجتماعي ان يدخل هذه الظلال . إنها جزء من مختبره .
الفلسفة مجهر الفكر . كل شيء يرغب في الفرار منها ، ولكن شيئاً لن
يفلت من بين ايديها . إن التردد غير مجد . ايّ وجه من وجوه شخصيتك
تجלוه بالتردد ؟ الوجه الشائن . إن الفلسفة تتعقب الشر بانظارها التريهة ،
ولا تجيز له ان يترلق إلى العدم . ففي انحاء الاشياء التي تخفي ، وفي
صغر الاشياء التي تتلاشى تدرك كل شيء . إنها تعيد انشاء الارجوان من
الخرقة ، والمرأة من المزقة . وبالبوايع تعيد تكوين المدينة ، وبالحل
تعيد تكوين عاداتها . إنها تستنتج من الكسرة القارورة أو الابريق . انها
تدرك من أثر قلامة الظفر على رق من الرقوق الفرق ما بين الحسي
اليهودي « الجودنفاس » والحسي اليهودي « الغيتو » . إنها تجد في الذي
تبقي ما كان : الخير ، والشر ، والباطل ، والحق ، ولطخة الدم في
القصر ، وبقعة الحبر في القبو ، ونقطة الشحم في الماخور ، والتجارب

* Louvois رجل دولة فرنسي ، اعاد تنظيم قوات الملك لويس الرابع عشر
(١٦٣٩ - ١٦٩١) .

** Le Tellier رجل دولة فرنسي ، والد لوفوا المذكور في الحاشية السابقة ، وقد
ساعد على إبطال براءة نانت (١٦٠٣ - ١٦٨٥) .

*** Hébert سياسي وصحفي فرنسي وافق على مذابح ايلول وكان له في مجلس
كومون باريس نفوذ طاغ ، وقد مات على المقصلة مع جدد من رفاقه « الهيبيريين »
(١٧٥٧ - ١٧٩٤) .

**** Maillard ثوري فرنسي ، حاول ان يخفف من وطأة مذابح ايلول
(١٧٦٣ - ١٧٩٤) .

المقتحمة ، والاغراءات المرحب بها ، والتخّم المتقيّة ، والتجاعيد التي تلقّتها
الشخصيات بالتضاع ، واثّر البغاء في نفوس جعلتها خشونتها الخاصة قادرة
عليه ، وتجدد على صُدرات حمّالي رومة سمة مرفق ميسالينا *

٣

برونيسو

كانت بالوعة باريس ، في القرون الوسطى ، اسطورية . وفي القرن
السادس عشر حاول هنري الثاني القيام بعملية سر ما لبثت ان اخفقت .
ومنذ أقل من مئتي عام ، بشهادة ميرسييه * ، تُركت وشأنها ، فاصبحت
ما كان في ميسورها أن تصبحه .

كذلك كانت باريس القديمة ، المسلّمة إلى المنازعات ، والتردد ،
والتحسس في الظلام . لقد انتمست في الحماقة دهرأ طويلا . وبعد ذلك
اظهرت سنة ٨٩ * كيف يلمّ الذكاء بالمدن . أما في الايام الخاليسة
الصالحة فقد كان للعاصمة رأس صغير ، كانت لا تستطيع ان تدبر شؤونها
لا معنوياً ولا مادياً ، ولم تكن تحسن كنس اقدارها إلا بمقدار ما تحسن
ازالة عاداتها السيئة . كان كل شيء عقبة ، وكان كل شيء يثير مشكلة .
كانت البالوعة ، مثلاً ، متمردة على كل دليل خاص بالسفر أو السياحة .
كان الناس عاجزين عن أن يعرفوا وجهتهم في طرقها كما عجزوا عن
ان يفهموا انفسهم في المدينة . المبهم ، فوق . والمعقد ، تحت . ونحت

• Messaline اول زوجات الامبراطور الروماني كلود الاول ، وكانت متغصنة في
الفسق والفجور .

• • Mercier اديب فرنسي (١٧٤٠ - ١٨١٤)

• • • يقصد سنة ١٧٨٩ ، عام للثورة الفرنسية .

اختلاط الالسن كان اختلاط الاقيسة . إن « ديدال » . قد
بطن بابل .

وفي بعض الأحيان كان يخطر بالوعة باريس ان تفيض ، فكان
هذا « النيل » المجحود فضله قد استبد به الغضب فجأة . كانت ثمة
— وهو شيء فاضح — فيضانات بالوعة . فبين الفينة والفينة كانت معدة
الحضارة هذه تهضم على نحو سيء ، فتفيض البواليع مرتدة إلى حنجرة
المدينة ، وتتذوق باريس خُلفَ « وحلها » . وهذه المشابه بين بالوعة
ووخز الضمير كانت لها حسناتها . كانت ضروباً من التحذير ، ولكنها
لم تكن تُستقبل إلا اسوأ استقبال . كانت المدينة تسخط إذ ترى إلى
وحلها وقد تكشف عن هذه الجراءة كلها ، ولم تكن ترضي عودة
الاقذار ، اطردها على نحو افضل :

إن ذكرى فيضان ١٨٠٢ لا تزال ماثلة في اذهان الباريسيين الذين
بلغوا الثمانين . لقد انتشر الوحل على شكل صليب في « ساحة
الانتصارات » حيث يقوم تمثال لويس الرابع عشر . ودخل إلى شارع
« سان هونوريه » من مصبِّي بالوعة الـ « شان زيليزيه » ، وإلى شارع
« سان فلورنتين » من بالوعة « سان فلورنتين » ، وشارع « بيسير
آبواسون » من بالوعة الـ « سونيري » ، وشارع « بوبينكور » من
بالوعة « الطريق الأخضر » ، وشارع الـ « روكيت » من بالوعة شارع
الـ « لاب » . لقد غطى قناة شارع الـ « شان زيليزيه » حتى ارتفاع
خمسة وثلاثين سنتيمراً . وفي الجنوب ، بواسطة مخرج الـ « سين »
المؤدي مهمته بطريق معكوسة ، نفذ إلى شارع « مازارين » ، وشارع
« ايشيديه » ، وشارع الـ « ماريه » ، حيث وقف بعد ان بلغ امتداده

« ميار يونساني أقام تيه كريت الذي تزمم الاسطورة ان المينوتور (الكائن
الخراقي الذي نصفه انسان ونصفه ثور) قد حبس فيه .

« الخلف ، بضم الخاء ، آخر طعم الطعام (arrière — goût)

مئة وتسعة مترات ، على بضع خطوات بالضغط من المنزل الذي كان راسين يسكنه ، محترماً - في القرن السابع عشر - الشاعر أكثر من الملك . ولقد بلغ عمقه الأعظم في شارع سان بيير حيث ارتفع ثلاثة أقدام فوق بلاطات الميزاب ، وبلغ امتداده الأقصى في شارع « سان سابين » ، حيث انتشر على رقعة طولها مئتان وثمانية وثلاثون متراً .

وفي مطلع هذا القرن ، كانت بالوعة باريس لا تزال موطناً خفياً . ان الوحل لا يمكن ان يكون حسن الصيت ، ولكن سوء السمعة انتهى هنا إلى حد الروع . لقد ادركت باريس ، ادراكاً غامضاً ، أن تحتها كهفاً فظيماً . ولقد تحدث الناس عنه كما يتحدثون عن مستنقع ثيصة الرهيب حيث احتشدت حرش طول الواحدة منها خمسة عشر قدماً ، والذي كان جديراً به ان يكون مغطساً لـ « بهيموت » . . . إن أحذية رجال البواليع الضخمة لم تغامر قط في الذهاب إلى أبعد من نقاط معينة . كان الناس لا يزالون قريبي عهد بذلك العصر الذي كانت عربات رافعي الوحل - حيث تأخى على قمته سانت فوا مع المركيز كريكي - تُفرغ فيه بكل بساطة في البالوعة . أما مهمة التنظيف فكان يُعهد بها إلى سيول المطر التي كانت تعوق أكثر مما تجرف . وتركت رومة ، مع ذلك ، شيئاً من الشعر لبواليعها ، فخلعت عليها اسم « جيموني » . . .

أما باريس فأهان بواليعها فدعتها « الثقب الثن » . وكان العلم والخرافة على اتفاق من حيث الرعب . فلم يكن « الثقب الثن » يناقض علم الصحة بأكثر مما يناقض الخرافة . كان « الراهب الشكس » تحت قوس « بالوعة موفتار » الآسن ، وكانت جثث الـ « مارموزيه »

• مفردتها حريش ، وهي أم أربعة وأربعين .

• Béhémot حيوان ذكر في التوراة ، ويظن أنه فرس البحر .

• Gemonise وهي سلم كان الرومان يعرضون عليها جثث المذنبين .

• Marmosets اسم أطلق على مستشاري شارل الخامس الذين استمروا في

للقيام بوظائفهم في عهد الملك شارل السادس (كليسون ، مونتافو ، لوميرسييه الخ .)

قد طُرحت في بالوعة باريليري . وكان فاغون . قد عزا حمى عام ١٦٨٥ الخبيثة الرهيبة إلى الثغرة الكبيرة التي في بالوعة الـ « ماريه » والتي ظلت فاغرة فاما حتى عام ١٨٣٣ ، في شارع سان لويس ، تجاه لافتة « الرسول الشهم » تقريباً . وكان مصب بالوعة شارع الـ « مورتيليري » شهيراً بالطواحين المنبثة منه . فبشبكة قضبان الحديدية المروسة التي بدت أشبه بصف من الاسنان ، برز هذا المصب في ذلك الشارع مثل شفق تنين تنفخ الجحيم على الناس . وتبل الخيال الشعبي البالوعة الباريسية الكالحة بمزيج من اللانهاية رهيب إلى حد يمنع على الوصف . كانت البالوعة عديمة القرار . كانت البالوعة هي البراتروم . . ولم تخطر فكرة ريادة هذه المناطق المجذومة حتى لرجال البوليس انفسهم . ومن ذا الذي كان يجرو على اقتحام ذلك المجهول ، وسبر تلك الظلمة ، والقيام برحلة استكشاف في تلك الهاوية ؟ كانت مروعة . ومع ذلك . فقد برز شخص ما . إن للبالوعة كولومبسها .

ذات يوم ، من عام ١٨٠٥ ، وخلال احدى الزيارات النادرة التي كان الامبراطور يقوم بها لباريس مثل وزير الداخلية ، رجل من مثل دوكريه أو كريتيه ، بين يدي السيد لدن نهوضه من الفراش . وفي ساحة الفوارس كان يُسمع صليل سيوف جميع الجنود الاستثنائيين الذين أطلعتهم الجمهورية العظيمة ، والامبراطورية العظيمة . كان ثمة جمهرة من الابطال عند باب نابوليون : رجال شهدوا الراين ، والأيسكو . . .

* Fagon (١٦٣٨ - ١٧١٨) الطبيب الاول للذكاء لويس الرابع عشر .

** Barathrum لفظ لاتيني يعني جهنم .

*** Escant نهر مشترك بين فرنسا والبلجيك وهولندا .

والآديج * والنيل . رفاق لجـوـير * ودوسيكس ***
 ومارسو **** وهوش ***** وكليبر ***** . منطـاديو
 فلوروس ، ورماة قنابل في ميبانس ، وبناء جسور في جنوا ، وفرسان
 نظرت اليهم الأهرام ، ومدفعيون لطاختهم قذيفة جونو ***** ، ودارعون
 أغاروا على الاسطول الملكي مراسيه في « زوديرزي » . كان هناك
 جماعة لحقت بونابرت عبر جسر لودي . وثانية كانت مع مورا ***** في
 خنادق مانتو ، وثالثة تقدمت لان ***** في طريق مونتيبيلو المقعرة .
 كان جيش ذلك العصر كله هناك ، في بلاط التويلري ، ممثلا بفرقة أو
 بمفرزة ، حارساً نابوليون المخلد إلى الراحة ؛ وكان ذلك في الفترة البهية
 يوم كانت مارنغو وراء « الجيش العظيم » ، واوسترليتز أمامه . وقال
 وزير الداخلية لنابليون : « مولاي ، لقد رأيت أمس أشجع رجل في
 امبراطوريتك » فقال الامبراطور على جناح السرعة : « من هذا

* Adige نهر في ايطالية .

** Joubert قائد فرنسي لمع نجمه في حملة ايطاليا (١٧٦٩ - ١٧٩٩)

*** Desaix جنرال فرنسي تبع نابوليون الى الشرق واحتل مصر العليا .

(١٧٦٨ - ١٨٠٠) .

**** Marceau جنرال فرنسي لمع نجمه في الفانديه و« فلوروس » (١٧٦٩ - ١٧٩٦)

***** Hoche جنرال فرنسي يعتبر من اعظم وجوه الثورة وانبلها (١٧٦٨ -

١٧٩٧) .

***** Kléber جنرال فرنسي أسهم في الحملة النابوليونية على مصر (١٧٥٣ -

١٨٠٠) .

***** Juno قائد فرنسي حارب في ايطالية ومصر ، واستولى على لشبونة عام

١٨٠٧ . (١٧٧١ - ١٨١٣) .

***** Murat اخو زوجة نابوليون ، وقد نصبه ملكاً على نابولي من عام

١٨٠٨ الى عام ١٨١٥

***** Lannes مارشال فرنسة ، لمع نجمه في معركتي مونتيبيلو ومارنغو .

(١٧٦٩ - ١٨٠٩) .

الرجل ، وما الذي فعله ؟ » - « إنه يريد ان يصنع شيئاً يا مولاي . »
- « ما هو ؟ » - « ان يزور بواليع باريس . »
كان ذلك الرجل حياً يرزق ، وكان يدعى برونيسو .

٤

تفاصيل مجهولة

ونمت الزيارة . كانت حملة رهيبة ، معركة ليلية ضد الطاعون والاختناق . وكانت في الوقت نفسه رحلة استكشاف . بل إن احد الذين خرجوا من هذه الريادة احياء ، وهو عامل ذكي كان آنذاك غض الشباب ، قد روى منذ بضع سنوات تفاصيل اعتبر برونيسو ان من واجبه ان يحذفها في تقريره إلى مدير البوليس ، بوصفها غير لائقة بلغة الدواوين . كانت العمليات التطهيرية بدائية جداً في ذلك العهد . فما إن اجتاز برونيسو أولى شعب الشبكة تحت الارضية حتى رفض ثمانية من العمال ان يذهبوا إلى أبعد من ذلك . وكانت العملية معقدة . وانطوت الزيارة على مهمة التنظيف . وهكذا كان على العمال ان ينظفوا ، وان يقيسوا الأبعاد في وقت معاً . كان عليهم ان يعينوا مدخل الماء ، وان يحصوا الشباك الحديدية والمصاب ، وان يضعوا بياناً مفصلاً بالشعب ، وان ينصوا على مجاري الماء عند نقاط الانفصال ، وان يفحصوا الحدود النسبية للاحواض المختلفة ، وان يسبروا البواليع الصغرى المفرعة فوق البالوعة الرئيسية ، وان يقيسوا ارتفاع كل ممر تحت الغلق ، والعرض أيضاً سواء عند مستهل العقد أو عند سطح الأرض ، وان يحددوا أخيراً نقاط تسوية الأرض على زاوية قائمة عند كل مدخل من مداخل الماء ، سواء من ارضية البالوعة أو من سطح الشارع . لقد تقدموا في عسر .

ولم يكن نادراً ان تغوص السلام في الوحل الى عمق ثلاثة أقدام وحشرجت الفوانيس في الأبخرة الوبيثة . وبين الفينة والفينة ، كانوا يخرجون عاملاً من عمال البواليع أغمسي عليه . وفي بعض المواطن كان العمال يقعون على هاوية . كانت الأرض قد غارت ، وكان بلاط الشارع قد انهار ، وكانت البالوعة قد تحولت إلى بئر ذات قعر رملي . لأنهم لم يعودوا يجدون أرضاً صلبة . وفجأة اختفى رجل ، ولم يوفقوا إلى انتشاله إلا بشق النفس . وبناء على نصيحة فوركروا اضاعوا ، بين مرحلة واخرى ، في المواطن المطهرة تطهيراً كافياً ، اقفاصاً كبيرة مملأة بمشاة الكتان ومشعة بصمغ الصنوبر . وكان الجدار مغطى ، في بعض الأماكن ، بقطريات شائثة ، بل لقد كان في وسع المرء ان يقول انه مغطى بالدمامل . لقد بدا الحجر نفسه مريضاً في هذا الوسط الذي لا يصلح للتنفس .

وتقدم برونيسو ، في ريادته تلك ، من عالية النهر إلى سافلتسه : وعند مفترق انبوتى مياه الـ « غرات هورلير » قرأ في عسر ، فوق حجر نائي ، هذا التاريخ : ١٥٥٠ . وكان هذا الحجر يشير إلى الحد الذي انتهى إليه فيليب دولورم الذي عهد اليه هنري الثاني بأن يزور قنوات باريس تحت الأرضية . كان ذلك الحجر هو طابع القرن السادس عشر على البالوعة . كذلك وجد برونيسو اثر يد القرن السابع عشر العاملة في قناة شارع « بونسو » وقناة شارع « فيي دو تامبل » اللتين بُنيتا ما بين عام ١٦٠٠ وعام ١٦٥٠ ، واثري يد القرن الثامن عشر العاملة في الجزء الغربي من القناة المجمعة ، التي جُسِّرت وقُنْطِرت عام ١٧٤٠ . وكان هذان العقدان ، وبخاصة العقد الاقل عتقاً ، عقد ١٧٤٠ ، أكثر تشفقاً وتهدماً من البالوعة المطوقة التي ترقى إلى عام ١٤١٢ ، يوم رُفعت مياه ينبوع ميغلمونتان إلى مقام بالوعة باريس العظمى ، وهو تقدم مماثل لتقدم فلاح

يصبح كبير فراشي الملك ، شيء من مثل « غرو جان » ، وقد نحول إلى « لوبيل » . . .

وحسبوا أنهم تبتّوا هنا وهناك ، وبخاصة تحت قصر العدل ، بعض حجيرات السجون الضيقة المظلمة المبنية في البالوعة نفسها . سجن ديريّ تحت ارضيّ رهيب . كان غل حديدي يتدلى في احدى تلك الحجيرات . لقد سُدت كلها بالجدران . ووجدوا ثمة اشياء غريبة ، من بينها هيكل عظمي لقرد من نوع « اورانغ - اوتانغ » كان قد اختفى من « حديقة النبات » عام ١٨٠٠ ، وهو اختفاء لعله ان يكون ذا صلة بظهور الشيطان ذلك الظهور الشهير الذي لا يقبل الجدل ، في شارع ال « بيرناردين » في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر . لقد انتهى الشيطان المسكين إلى الغرق في البالوعة .

وتحت الممر الطويل المقنطر الذي ينتهي عند « آرش ماريون » نالت اعجاب المعارضين سلة ملتقط خرق كانت لا تزال مصونة اتم الصون . وفي كل مكان كان الوحل - الذي كان العمال قد أخذوا بمسكون به في جسارة - حافلا بالاشياء النفيسة : بالحلى الذهبية والفضية ، والحجارة الكريمة ، والقطع النقدية . ولو قد صفى عملاق هذه البالوعة اذن لغاز في منخله بكنوز القرون . وعند مفترق شعبيّ شارع التامبل وشارع سانت آفوا التقطوا مدالية بروتستنتية نحاسية فريدة تحمل على احد وجهيها خنزيراً يعتمر بقبعة كاردينال ، وتحمل على وجهها الآخر ذئباً على رأسه التاج البسابوي .

وكان الكشف الأدعي إلى العجب هو مدخل البالوعة العظمي . كان هذا المدخل موصداً ، في ما مضى ، بشبكة حديدية لم يبق منها غير رزاتها . وكانت تتدلى من احدى تلك الرزات خرقة قدرة شائنة

• Gro - Jean اسم يطلق في اللهجة الفرنسية العامية على الأبله المتظاهر بالعلم .

• • Lebel ضابط فرنسي كانت له خبرة خاصة بصناعة البنادق (١٨٣٨ - ١٨٩١) .

علقت هناك في طريقها من غير شك ، فأنشأت تطفو في الظلام حتى
أمست آخر الامر مَزَقاً . وقرب برونيسو فانوسه إلى هذه الخرقسة ،
وفحصها . كانت من انفس القماش الكتاني الابيض الناعم ، ولقد تبين
عند احدى الزوايا الاقل بلىً تاجاً نسيئاً أو شعارياً طرز فوق هذه الحروف
السبعة « لافيسب » LAVBESP . وكان التاج تاج مركيز . وكانت الحروف
السبعة تعني لوبيسين Laubespine . وادركوا ان امام اعينهم قطعة من
كفن مارا . فقد كانت لمارا ، في صباه ، غراميات . وكان ذلك حين كان
يؤلف جزءاً من منزل الكونت دارتوا ، بوصفه طبيباً للاضطرابات . ومن
هذه الغراميات ، المثبتة تاريخياً ، مع سيدة نبيلة كبيرة لم يبق له غير
غطاء السرير هذا . لقبة أو ذكرى . حتى إذا قضى نحبه كفن به بوصفه
قطعة القماش ، الأبيض الناعم بعض الشيء ، التي لم يكن غيرها في منزله .
لقد جهزت بعض النسوة العجائز « صديق الشعب » الفاجع ، بجهاز القبر
هذا الذي كان ينطوي على لذة .

وتابع برونيسو تقدمه . لقد تركوا هذه الخرقة حيث كانت . لانهم لم
يجهزوا عليها . أكان ذلك ازدراء أم احتراماً ؟ كان مارا يستحق الاثنين
جميعاً . ثم إن القدر كان منطبقاً عليها إلى حد جعلهم يرددون في مسها .
وإلى هذا ، فيتعين علينا ان نترك أشياء القبر في الوطن الذي تختاره .
وعلى الجملة ، فقد كانت تلك الذخيرة غريبة . لقد نامت عليها مركيزة :
ولقد اتن عليها مارا . لقد اجتازت البانتيون لكي تصل آخر الأمر إلى
جوزان البالوعة . كانت خرقه المخدع تلك ، التي كان خليقاً بـ « واتو » .
في ما مضى أن يرسم كل طية من طياتها ، قد انتهت إلى أن تصبح
جديرة بنظرة من نظرات دانتي المحدث .

واستغرقت الزيارة الكاملة لشبكة البواليع الباريسية تحت الارضية سبع
سنوات ، من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨١٢ . وفيما كان برونيسو لا يزال

• Watcan رسام فرضي (١٦٨٤ - ١٧٢١)

يقوم بها ، عيّن كثيراً من الأعمال ، وادارها ، وانجزها . ففي سنة ١٨٠٨ خفض مستوى قناة بونسو ، واذ أنشأ خطوطاً جديدة في كل مكان ، مدّد البالوعة ، عام ١٨٠٩ ، تحت شارع سان دونيز ، حتى « ينبوع الابرياء » . وفي عام ١٨١٠ مددها تحت شارع « فروامانتو » وشارع الـ « سالبيريير » ، وفي عام ١٨١١ مددها تحت شارع « رو نوف دي بيتيت بير » ، وتحت شارع « ميل » وشارع الـ « ايشارب » ، وتحت القصر الملكي . وفي عام ١٨١٢ مددها تحت « شارع السلام » ، وتحت الـ « شوسيه دانتين » . وفي الوقت نفسه ، طهر وأصلح الشبكة كلها . ومنذ السنة الثانية ساعد برونيسو صهره نارغو .

وهكذا نظف المجتمع القديم ، منذ مطلع هذا القرن ، قعره المزدوج ، وقام بتجميل البالوعة . ولم يزد تنظيفها في يوم من الأيام عن ذلك المقدار . كانت البالوعة باريس القديمة ملتوية ، متصدعة ، مقتلعة البلاط ، متفلّعة ، معترضة بالمستنقعات ، محطمة بمنعطفات غريبة ، مرتفعة ومنخفضة على غير منطق ، آسنة ، وحشية ، ضارية ، غارقة في الظلمة الرهيبة ، تعلو الندوب حصباءها والجراح جدرانها . تفرعات في كل اتجاه ، خنادق مهجّنة ، تشعبات ، مفارق طرق ، صدوع كالتي تنشأ عن الالغام ، أزقة غير نافذة ، دروب مسدودة ، عقود مغطاة بملح البارود ، بواليع ننته ، ترشّح قوبي على الجدران ، قطرات ساقطة من السقف ، ظلام ؛ إن شيئاً لم يكن يعدّل هول هذا السرداب العتيق المفرّغ ، جهاز بسابل الهضمي ، الكهف ، القبر ، الهاوية التي تحترقها الشوارع ، التل الخلدّي العملاق الذي يترأى للعقل فيه وكأنه يرى ذلك الخلد الأعمى الهائل — الماضي — يتلمس سبيله وسط الظلام ، في القنذر الذي كان زهواً وسناء . تلك كانت — ونكرر ذلك — البالوعة العهود الماضية .

التقدم الحالي

أما اليوم فالبالوعة نظيفة ، باردة ، مستقيمة ، مضبوطة . إنها تكاد تحقق المثل الأعلى لما يفهم في انكثرة بكلمة « موقر » . إنها لاثقة رصينة ؛ مخططة بخيط البناء ، بل نكاد نستطيع ان نقول إنها مفرقة في التأنيق . إنها تشبه ملتزم مؤن أصبح مستشاراً للدولة . وفي استطاع المرء ان يرى فيها بوضوح ، أو يكاد . وسلك الوحل مسلماً لاثقاً . وللهولة الأولى لا بد ان نحسبها توأ أحد تلك المجازات تحت الارضية التي كانت في ما مضى شائعة جداً ومفيدة جداً لحرب الملوك والامراء في تلك العهود السالفة الصالحة يوم « كانت الشعوب تحب ملوكها » . البالوعة الحالية بالوعة جميلة ؛ ان الاسلوب الصافي ليهيمن هناك . ويبدو وكأن الوزن الالكسندري الكلاسيكي المستقيم . وقد طُرد من الشعر ، التجأ إلى فن العمارة ، وامتزج بكل حجر من حجارة ذلك العقد الطويل المظلم الضارب لونه إلى البياض . إن كل قناة مفرغة هي قنطرة . إن شارع ريفولي ليُتخذ قدوة حتى في البلايع . وعلى أية حال . فاذا كان للخط الهندسي ان يوجد في ايما مكان فليس من ريب في انه يوجد في الخنادق البرازية الخاصة بالمدن الكبيرة . هناك . يتعين على كل شيء أن يكون خاضعاً للطريق الأقصر . لقد اتخذت البالوعة الآن مظهراً رسمياً . وحتى تقارير البوليس التي تعالج في بعض الاحيان موضوعها ، لم تعد يعوزها الاحترام لها . ن الكلمات التي تميزها في لغة الدواوين قد ارتقت وشرُفت . فما كان يدعى ممراً ضيقاً أمسى يدعى دهليزاً . وما كان يدعى ثقباً أمسى يدعى عيناً . لقد أصبح من المتعذر على فييون * أن يعرف مأواه القديم عند

* شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

الحاجة . صحيح ان هذه الشبكة من الأقية كانت لا تزال محتفظة بسكانها العريقين من القواضم المتكاثرة أكثر من ذي قبل ؛ فبين الفينة والفينة كان احد الجرذان - شاربان عجوزان - يحاظر برأسه عند نافذة البالوعة ويتأمل الباريسيين . ولكن هذه الهوام نفسها كانت قد أمست أليفة ، راضية بحالها ذاك في قصرها القائم تحت الارض . لم يعد للبالوعة شيء من ضراوتها البدائية . ان المطر ، الذي كان يوسخ بالوعة العصور الماضية ، ليغسل بالوعة العصر الحاضر . ولكن حذار ان تثق بها أكثر مما ينبغي . إن الأشجرة الوبيئة لا تزال تقطنها . انها مرائية أكثر منها كاملة خلواً من العيب . فقد ذهبت جهود مديرية الشرطة ومفوضية الصحة أدراج الرياح . إنها على الرغم من جميع عمليات التطهير تطلق رائحة غامضة مرتابة مثل تارتوف ، بعد الاعتراف .

ولنسلم بأن تنظيف الشوارع ، إذا أخذنا جميع الأشياء بعين الاعتبار ، طاعة تقدمها البالوعة إلى الحضارة . ولما كان ضمير تارتوف ، من وجهة النظر هذه ، يمثل تقدماً على أصطبل أوغياس ، فما لا ريب فيه أن البالوعة باريس قد تحسنت .

إنه أكثر من تقدم . انه تحول . إن بين البالوعة القديمة والبالوعة الحاضرة ثورة ، من الذي قام بهذه الثورة ؟ الرجل الذي ينسأه الناس جميعاً . والذي ألمحنا اليه . برونيسو .

* بطل احلى ملاهي مولير ، وقد سبق التعريف به .

« Augias ملك ايليدا وكانت له اصاطب (اصطبلات) تضم ثلاثة آلاف ثور . وقد ظلت هذه الاصاطب ثلاثين عاماً من غير تنظيف فأرسل «أوريستيه» هرقل للقيام بهذه المهمة .

التقدم المقبل

إن شق بالوعة باريس لم يكن عملاً ضئيلاً . فقد اشغلت القرون العشرة الماضية في حفرها من غير أن تقدر على اتمامها إلا بمقدار ما أكملت باريس . والواقع أن البالوعة تستقبل جميع العواقب الناشئة عن نمو باريس . فهي ، في باطن الأرض ، شبه اختبوط مظلم ينمو تحت ، كلما نمت المدينة فوق . فما إن تشق المدينة شارعاً ، حتى تبسط البالوعة ذراعاً . وكانت الملكية القديمة قد انشأت ثلاثة وعشرين ألفاً وثلاثمائة متر من البواليع ليس غير . وكانت باريس آنذاك في مطلع كانون الثاني عام ١٨٠٦ . وابتداءً من ذلك العهد ، الذي سنتكلم عليه في الحال ، استوتف العمل وأكمل في جدوى ونشاط : فقد انشأ نابوليون - وهذه الأرقام ممتعة - أربعة آلاف وأربعمئة متر ؛ وانشأ لويس الثامن عشر خمسة آلاف وسبعمئة وتسعة أمتار ؛ وانشأ شارل العاشر عشرة آلاف وثمانمائة وستة وثلاثين متراً ؛ وانشأ لويس فيليب تسعة وثمانين متراً وعشرين متراً ؛ وانشأت جمهورية ١٨٤٨ ثلاثة وعشرين ألفاً وثلاثمائة وواحدًا وثمانين متراً ؛ وانشأ النظام الحالي سبعين ألفاً وخمسمئة متر . ومجموع ذلك كله ، في الساعة التي نحن فيها ، مئتان وستة وعشرون ألفاً وستة وعشرة أمتار ؛ ستون فرسخاً من البواليع . احشاء باريس الهائلة . تشعب مظلم هو ابدأ قائم على قدم وساق ؛ لإنشاء هائل وغير ملحوظ : وهكذا نرى أن تيه باريس تحت الأرضي هو اليوم عشرة أضعاف ما كانت عليه في مستهل القرن أو يزيد . ومن العسير على المرء أن يدرك في منبع من المواظبة والجهد كان ضرورياً لالتهاء بتلك البالوعة إلى نقطة تكفي لتسبي الذي بلغتها اليوم . فالادارة الملكية ، ثم الادارة البلدية

في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر لم تستطيعا إلا في صعوبة بالغة ان تشقا البواليع البالغ طولها خمسة فراسخ والتي كانت موجودة قبل عام ١٨٠٦ . إن جميع ضروب العقبات كانت تعوق هذا العمل ، بعضها خاص بطبيعة التربة ، وبعضها ملتحم باهواء سكان باريس المجديسين واوهمهم نفسها . إن باريس مشيدة على طبقات معدنية في باطن الأرض متمردة تمرداً فريداً على المعول ، والمسحاة ، والمسبار ، والسيطرة الانسانية . وليس ثمة ما هو أعسر من أن تشق وتنفذ إلى هذا التكون الجيولوجي الذي نُصِّد فوقه ذلك التكون التاريخي الرائع نسعو باريس . فما ان يبدأ العمل ، تحت أي شكل من الاشكال ، ويغامر في ذلك الشارع الغربي حتى تتعاطم المقاومة تحت الارضية . إن ثمة صلصالاً مائعاً ، وينابيع ماء ، وصخوراً قاسية ، وهذه الوحول الرخوة التي يدعوها العلم التقني « خردلا » . والمعول إنما يتقدم بعناء إلى هذه الطبقات الكلسية التي يتراوح خلالها عروق من الصلصال البالغ الرقة وطبقات مُنْضِدة ورقية مطعّمة بأصداف من محار عاصرت الاوقيانوسات السابقة لعهد آدم . وفي بعض الاحيان كان جدول يصدّع على نحو مفاجيء عقداً شُرِع في تشييده ، ويغمر العمال ، أو يتحرك ذائب من السَّجَّيل فيندفع ساقطاً بمثل جيشان شلال ، ساحقاً أعظم عوارض التدعيم الخشبية وكأنها زجاج . وفي فييت ، منذ عهد قريب جداً ، يوم تعيّن على القوم — من غير ان يوقفوا الملاحظة أو يُفرغوا القناة — ان يَمُرُّوا بالوعدة المجمّعة تحت قناة سان مارتين نشأ صدع في حوض القناة . وفاضت المياه فجأة في المشغل القائم تحت الأرض على نحو تجاوز طاقة مضخات الترح كلها . فاضطروا إلى التماس الصدع ، الذي كان في مدخل الحوض الكبير ، بواسطة غطاس ما ، ولم يُرَأَب إلا بشق النفس . وفي مكان آخر ، قرب « سين » ، بل وعلى مسافة ما من النهر ، كما في « بيلفيل » و « غرانند رو » و « ممر لويشير » مثلاً ، نجد رملاً ليناً تغوص فيه اقدامنا ، وقد

يغيب المرء وسطه عن العيان . أضف إلى ذلك الاختناق بالانخرة الوبيطة ،
والتكفن تحت الانربة المنهارة ، وانخساف القمر فجأة . أضف التيفوس ،
الذي يتشربه العمال في بطناء . وفي أيامنا هذه ، بعد أن شقوا « دهليز
كليشي » ، مع طريق جسر « لاستقبال انبوب مياه رئيسي من ال
« الأورك » . وهو عمل نُفِذَ في خندق يبلغ عمقه عشرة مترات ؛ وبعد
ان قنطروا ال « بيفر » من « جادة المستشفى » إلى ال « سين » ، على
الرغم من الانهيارات ، وبواسطة الحفريات التي كانت عفنة في كثير من
الاحيان ، وبواسطة الدعائم ؛ وبعد ان عمدوا . رغبة في انقاذ باريس
من مياه مونمارتر السيلية ولفتح منفذ لذلك المستنقع النهري البالغة مساحته
تسعة هكتارات والذي ركدت مياهه قرب « باب الشهداء » — نقول بعد
ان انشئ خط البواليع من « الباب الأبيض » إلى « طريق أوبرفيليه » ،
في اربعة أشهر ، بلياها ، على عمق احد عشر متراً ؛ بعد أن أتم—وهو
عمل لم تر له مثيلاً من قبل — شق بالوعة كاملة تحت الأرض ، في شارع
« بار دو بيك » ، من غير خندق ، على عمق ستة مترات تحت سطح
الأرض ، بعد ذلك كله قضى مراقب الأعمال ، مونو ، نجبه . وبعد أن
قنطر ثلاثة آلاف متر من البواليع فوق مختلف انحاء المدينة ، من شارع
« ترافرسير — سان — انطوان » إلى شارع لورسين ؛ وبعد ان انقذ مفرق
« سانسليه موفتار » ، بامتداد آرباليت الفرعي ، من فيضانات الأمطار ؛
وبعد ان بنى بالوعة سان جورج على حجارة مرصوفة واسمنت في
الرملي اللين ؛ وبعد ان اشرف على التخفيض الرهيب لسطح امتداد
« سيدة الناصرة » ، بعد ذلك كله قضى المهندس دولو نجبه . وليس ثمة
على اية حال سجل لاعمال البطولة هذه ، أكثر فائدة ، من سفك الدماء
في ميدان المعركة .

إن بواليع باريس كانت في عام ١٨٣٢ مختلفة جداً عما هي عليه اليوم .
كان برونيسو قد أثار المسألة ، ولكن الأمر احتاج إلى الكوليرا لسكي

تقرر السلطة إعادة إنشاء البوالبع على نحو واسع ، هذه الإعادة التي بدئ بها منذ ذلك الحين . ومن المثير للدهش أن نقول ، مثلاً ، أنه في عام ١٨٢١ كان جزء من البالوعة المطوَّقة ، المدعوة القناة العظمى ، شأنها في البندقية (فينيسيا) ، لا يزال منتناً راكداً ، مكشوفاً في وجه السماء ، في شارع الـ « غورد » . ولم تجد مدينة باريس في جيبها مئتين وستة وستين ألفاً وثمانين فرنكاً وستة سنتيات ، وهو المبلغ الضروري لتغطية هذا العار ، إلا في عام ١٨٢٣ . وآبار الـ « كوما » والـ « كوتيت » و « سان ماندييه » الممتصة ، بأفواهاها المصروفة ، واجهزتها ، وبوالبعها ، وامتداداتها المنقّبة لا ترقى إلى أبعد من عام ١٨٣٦ . لقد أعيد بناء قناة باريس المعوية من جديد ، وتعاضمت كما قلنا أكثر من عشرة أضعاف خلال ربع قرن .

منذ ثلاثين عاماً ، أيام ثورة الخامس والسادس من حزيران ، كانت البالوعة القديمة لا تزال في كثير من المواطن هي هي تقريباً . إن عدداً كبيراً من الشوارع ، المقنطرة اليوم ، كانت آنذاك طرقاً جسرية جوفاء . وكثيراً ما كنت ترى ، عند النقطة المنحدرة التي تنتهي فيها قنوات شارع أو مفرق طرق ، شباكاً مستطيلة كبيرة ذات أعمدة ضخام يلتصع حديدها وقد صقله وطء أقدام الجاهل ، شباكاً خطرة تزلق عليها العربات ، وتجعل الخيل تكبو . وكانت اللغة الرسمية الخاصة بالطرق والجسور تطلق على هذه المنحدرات والشباك لفظة *Cassis* = المعبرة . وفي سنة ١٨٣٢ ، في كثير من الشوارع — شارع النجمة . وشارع سان لويس . وشارع التامبل ، وشارع فيبي دو تامبل ، وشارع سسيديع الناصرة ، وشارع فولبي ميريكور ، وشارع الـ « كي أو فلور » ، الـ « بيتي موسك » ، وشارع نورماندي ، وشارع « بون أو بيش » وشارع الـ « ماريه » ، وضاحية سان مارتين ، وشارع سيدة الانتصارات ،

« وتعني قناة تعبّر طريقاً .

وضاحية مونتارتر ، وشارع غرانج باتولير في الشان زيليزيه ، وشارع جاكوب ، وشارع تورنون - كانت البوائع القوطية القديمة لا تزال تفتح شديقها في سخرية . كانت فجوات حجرية ضخمة متبلدة ، محاطة في بعض الأحيان بأنصاب حجرية ، ذات قحة بالغة .

كان لباريس ، عام ١٨٠٦ ، عدد البوائع نفسه تقريباً المحقق في نوار عام ١٦٦٣ : خمسة آلاف وثلاثمئة وثمانين وعشرين قامة * . وحسب ارقام برونيسو ، كان ثمة في مطلع كانون الثاني عام ١٨٣٢ اربعون ألفاً وثلاثمئة متر . ومن عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨٣١ بني سنوياً ، في المعدل الوسطي ، سبعمئة وخمسون متراً . ومنذ ذلك الحين انشيء في كل عام ثمانية آلاف بل عشرة آلاف متر من الدهاليز ، بمواد بنائية صغيرة ثبتت بكلس من ذلك الضرب الذي يتصلب في سرعة تحت الماء على اساس من الاسمنت .

وإذا اعتبرنا نفقات المتر الواحد مئتي فرنك تكون بوائع باريس الحالية البالغ طولها ستين فرسخاً قد كلفت ثمانية واربعين مليوناً . وإلى جانب التقدم الاقتصادي الذي اشرنا اليه في البداية ، تتصل بهذا الموضوع الهائل - بالوعة باريس - بعض قضايا « علم الصحة العامة » الخطيرة :

تقع باريس بين ملاعطين اثنتين : ملاعة ماء ، وملاعة هواء . فاما ملاعة الماء ، التي تنبسط على عمق غير يسير تحت الأرض ، والتي وفقنا إلى بلوغها من ثقبين ، فمزودة بطبقة من رمل أخضر قائمة بين الطباشيرا والكلس الجوراسي ، وفي ميسورنا أن نتصور هذه الطبقة على شكل قرص نصف قطره خمسة وعشرون فرسخاً . إن جمهرة من الانهار والجداول لتترشح فيها . فنحن نشرب الـ « سين » ، والـ « مارن » ، والـ « يون » ، والـ « واز » ، والـ « إين » ، والـ « شير » ، والـ « فين » والـ « لوار »

* القامة مقياس طوله ستة اقدام.

في كأس ماء من بئر غرونيل . إن ملاءة الماء نافعة للصحة ؛ لأنها تنبتق من السماء أولاً ومن الأرض بعد ذلك . أما ملاءة الهواء فغير صحية ؛ أنها تنبع من البالوعة . فجميع الابخرة الوبيئة المنبعثة من البواليع تمتزج بتنفس المدنية ، ومن هنا ذلك النفس الكريه . والهواء الذي ينتشقه المرء من فوق مزبلة - وهذا ثابت علمياً - أظهر من الهواء الذي ينتشقه من فوق باريس 2 وفي فترة من الزمن بعينها ، حين يسعف التقدم ، وتبلغ الآلية كمالها ، ويتعظم النور سوف يكون في ميسورنا ان نصطنع ملاءة الهواء . يعني لغسل البالوعة . ونحن نقصد بغسل البالوعة طبعاً : ارجاع الوحل الى الأرض ، واعادة الزبل الى التربة ، والقدر الى الحقول . ولسوف يفيد المجتمع كله ، من هذا العمل البسيط ، إنقاصاً للشقاء وزيادة في الصحة . وفي الساعة التي نحن فيها يمتد اشعاع امراض باريس الى خمسين فرسخاً حول اللوفر ، بوصفه مركز هذا الدولاب الوبائي .

وفي ميسورنا ان نقول ان البواليع كانت ، طوال عشرة قرون ، داء باريس . ان البالوعة هي الآفة التي تحملها المدينة في دمها . والغريزة الشعبية لا تخطيء ابداً . فقد كادت صناعة البواليع ان تكون في الأيام الماضية خطرة وكريهة إلى الناس كصناعة القصبات تقريباً ، هذه الصناعة التي ظلت مرهوبة زمناً والتي تُركت للجلاد . ولقد كانت السلطة تضطر إلى دفع راتب عال لكي تقنع ببناء ما ، بالاختفاء في هذا الخندق التني ؛ وكانت سلم حافر الآبار تتردد في الغوص فيه . وكان يقال في الامثال : نزول المرء إلى البالوعة كنزوله إلى القبر . وكانت جميع اضطرابات الخرافات الرهيبة تغطي بالذعر ، كما قلنا ، هذه البالوعة الهائلة ؛ بالوعة مروعة تحمل آثار ثورات الكرة الأرضية كما تحمل آثار ثورات الناس ، ونقع فيها على آثار للفيضانات العظمى كلها منذ محارة الطوفان حتى خرقعة مسارا .

الكتاب الثالث

وَحَسْبُ، وَلَكِنْ رُفِحَ

البالوعة ومفاجأتها

وفي بالوعة باريس بالذات وجد جان فالجان نفسه .
 وشبه آخر بين باريس والبحر . إن الغاطس يستطيع أن يغيب فيها
 كما يستطيع ان يغيب في الاوقيانوس .
 كان الانتقال خارقاً ، فمن وسط المدينة ذاته كان جان فالجان قد
 غادر المدينة ؛ وبطرفة عين ، الوقت الضروري لرفع غطاء واعادته إلى
 مكانه ، كان قد انتقل من وضع النهار إلى الظلمة الكاملة ، من الظهر
 إلى منتصف الليل ، من الضوضاء إلى الصمت ، من هزيم الرعد إلى

ركود القبر . وبحولٍ أكثرٍ إعجازاً من تحول شارع بولونسو نفسه ،
من أقصى حدود الخطر إلى أقصى حدود الأمن .

سقوط مفاجيء في قبر ؛ اختفاء في حبس باريس المظلم . كانت
لحظة مذهلة تلك التي تعين عليه فيها ان يغادر ذلك الشارع المائل فيه
الموت في كل مكان الى هذا الضرب من القبر الذي تسري فيه الحياة . وظل
بضع ثوان وكأنه مصعوق ، وانشأ يصغي منشدها . كان فخ السلامة قد
انفتح تحته فجأة . وكان اللطف الساوي قد غدر به بمعنى من المعاني .
أشارك رائعة تنصبها العناية الالهية !

مع فارق واحد هو ان الرجل الجريح لم يتحرك قط . ولم يدرِ جان
فالجان ما إذا كان هذا الذي يحمله في ذلك القبر حياً أو ميتاً .

كان احساسه الأول هو العمى . إنه لم يعد يرى شيئاً . فجأة .
وبدا له أيضاً انه قد أمسى أصم - في دقيقة واحدة . انه لم يعد يسمع
شيئاً . وعاصفة التقتيل المسعورة الثائرة على مسافة بضعة اقدام فوقه
لم تصل اليه ، كما قلنا ، بفضل سماكة الارض التي تفصله عنها . إلا
مخنوقة وغير واضحة . مثل ضجة على عمق كبير . لقد استشعر ان
الأرض صلبة تحت قدميه . ذلك كان كل شيء . ولكنه كان كافياً . وبسط
احدى يديه ، ثم بسط الاخرى ، ومسّ الجدار من الجانبين ، وادرك
ان المجاز كان ضيقاً . وزلت قدمه ، وادرك ان البلاط مبلل . وقدم
رجلا في حذر ، خائفاً ان تصادف ثقباً ، أو بالوعة ، أو هوة .
واستيقن أن البلاط متصل . وأنبأته هبة من نثانة اين كان .

وبعد بضع لحظات عاودته القدرة على الابصار . لقد سقط ضياء قليل
من المنفذ الذي انزلق منه ، واخذت عينه تألف هذا الكهف . وبدأ
يقين شيئاً . كان المجاز الذي ووري فيه - إن ايما كلمة اخرى لا تصور
الوضع تصويراً أفضل - موصداً خلفه بجدار . كان واحداً من تلك الدروب
غير النافذة التي تدعى في اللغة الفنية امتداداً فرعياً . وأمامه كان جدار

آخر ، جدار الليل . لقد تلاشى الضياء الوافد من المنفذ على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من النقطة التي كان جان فالجان واقفاً فيها ، ولم يكذب يحدث على بضعة أمتار من جدار البالوعة الرطب غير بياض شاحب . ووراء ذلك المكان كانت اللاشفافية كثيفة . وبدأ اختراقها رهيباً ، وبدأ الدخول إليها أشبه شيء بذهاب المرء ضحية التهام اللعجة . بيد انه كان في مسور المرء ان يشق طريقه عبر جدار الضباب هذا ، وان عليه ان يفعل . بل إن عليه ان يعجل . وفكر جان فالجان ان تلك الشبكة الحديدية ، المنظورة من جانبه تحت بلاط الشارع ، يمكن ان يلاحظها الجنود أيضاً ، وإنما كان ذلك كله رهناً بالمصادفة . وكان في استطاعتهم أيضاً أن يهبطوا إلى هذه البئر ويفتشوا فيها . لم تكن ثمة دقيقة يمكن ان تضاع . كان قد وضع ماريوس على الأرض ، فجمع شتاتيه — وهذا أيضاً هو التعبير الصحيح — واعداد حمله على كتفيه ، وبدأ سيره . لقد دخل تلك الظلمة في عزم .

والحق انهما لم يكونا في نجوة من الخطر إلى الحد الذي خاله جان فالجان . لعل مخاطر من نوع آخر ، ولكنها ليست أقل شأناً ، كانت تنتظرهما . فبعد إعصار المعركة الساطع جاء كهف الانخرة الوبيثة والأشراك . وبعد العماء والاختلاط جاءت البالوعة . كان جان فالجان قد سقط من إحدى دوائر الجحيم إلى أخرى .

وعند نهاية الخطوات الخمسين اضطر إلى التوقف . لقد برز سؤال . كان المجاز ينتهي إلى معبر آخر ضيق يلتقي به بالعرض . وهكذا كان أمامه طريقان . فأيهما يسلك ؟ أيجب عليه ان يستدير إلى الشمال أم إلى اليمين ؟ كيف يتجه في هذا التيه الاسود ؟ كان لهذا التيه . كما اشرنا من قبل ، مفتاح هو منحدره . وكان الترام المنحدر يعني الذهاب إلى النهر .

وفهم جان فالجان ذلك في الحال .

وقال في ذات نفسه انه ، غالباً ، في بالوعة الاسواق ، وانه إذا اختار الاتجاه إلى اليسار وتابع سيره في المنحدر ، فعندئذ يصل في أقل من ربع ساعة إلى مصب ما على الـ « سين » بين « جسر الشانج » و« الجسر الجديد » ، يعني انه سيعاود الظهور في وضوح النهار في أحفل اجزاء باريس بالسكان . انه قد ينتهي إلى تجتمع ما لبعض المتسكعين في الشوارع . ويصاب عابرو السبيل بالذهول لرويتهم رجلين مخضبين بالدم ينبقان من باطن الأرض تحت أقدامهم . ويصل رجال الشرطة ، ويدعى الجند في مركز الحراس المجاور إلى تقلد السلاح . ويلقى عليه القبض قبل ان يتمكن من الخروج . كان من الافضل أن يغوص في التيه ، أن يثق بهذه الظلمة ، وان يتكل على العناية الالهية في هذه المسألة .

واختار الاتجاه إلى اليمين ، وراح يصعد في المرتقى .

حتى إذا انعطف حول زاوية الدهليز ، اختفى ضوء المنفذ الضئيل القصي ، وعاد حجاب الظلمة بحلله من جديد . وغدا أعمى كرة اخرى . ومع ذلك فقد واصل تقدمه ، وبأقصى ما استطاع من السرعة . كانت ذراعاً ماريوس تحيطان بعنقه وكانت قدماه تتدليان خلفه . وامسك ذراعي ماريوس باحدى يديه ، وتحسس الجدار بالآخرى . ومس خد ماريوس خده والتصق به . بوصفه دامياً . لقد احس بسيل حار ، منبشق من ماريوس ، يجري فوقه ويحترق ثيابه . ومع ذلك ، فان دفئاً رطباً عند أذنه ، التي مست فم الرجل الجريح ، كان يؤذن بالتنفس ، ويؤذن من ثم بالحياة . كان المجاز الذي تحرك جان فالجان فيه الآن أقل ضيقاً من المجاز الأول . لقد مشى جان فالجان فيه بصعوبة فلم تكن امطار اليوم السابق قد صُرّفت كلها ، وكانت قد أنشأت سيلاً صغيراً وسط البالوعة ؛ وكان مضطراً إلى الالتصاق بالجدار لكي يبقى قدميه خسارج الماء . وهكذا مضى لسبيله في الدجنة . لقد أشبه مخلوقات الليل المتلمسة طريقها في اللامنتور ، الضائعة تحت الأرض في عروق الظلام .

ومع ذلك . فشيئاً بعد شيء ، عاودته القدرة على بعض الإبصار الغامض
— سواء بسبب من ان بعض المنافذ بعثت بقليل من الضوء الطافي في هذا
الضباب الكثيف ، أو بسبب من أن عينيه أصبحتا تألفان الظلمة — وبدأ
يُلم المأماً غامضاً بالجدار الذي كان يمسّه . حيناً . وبالعقد الذي كان
يمشي تحته ، حيناً آخر . إن الحديقة تتسع في الظلام ، ثم تجد النهار
فيه ، كما تتسع الروح في الشقاء وتنتهي باكتشاف الله فيه .
وكان اهتداؤه إلى السبل عسيراً .

إن تخطيط البواليع ليردد . إذا جاز التعبير ، صدى تخطيط الشوارع
القائمة فوقها . كان في باريس ذلك العهد ألفان ومثتا شارع . فليتخيل
كل امرئ ، تحتها ، تلك الغابة من التشعبات المظلمة التي ندعوها البالوعة .
ولو أن البواليع التي كانت موجودة في ذلك العهد وصلت اطرافها في
خط مستقيم اذن لبلغ طولها أحد عشر فرسخاً . ولقد سبق منا القول ان
الشبكة الحاضرة لا يقل طولها ، بفضل النشاط الاستثنائي الذي تم في
السنوات الثلاثين الأخيرة . عن ستين فرسخاً

وبدأ جان فالجان بغلطة . لقد ظن انه تحت شارع سان دونيز . وكان
من سوء طالعه انه لم يكن هناك . ان تحت شارع سان دونيز بالوعة
حجرية عتيقة ترقى إلى عهد لويس الثالث عشر ، وتمضي في خط
مستقيم إلى البالوعة المجمعة ، المسماة البالوعة العظمى . وهي ذات منعطف
واحد ، إلى اليمين ، على ارتفاع « فناء العجائب » القديم ، وفرع
واحد ، بالوعة سان مارتين ، تتقاطع أذرعه الاربعة على شكل صليب .
ولكن دهليز الـ « بيتيت تروواندري » الذي كان المدخل اليه قرب حانة
كورنث لم يتصل قط بالجزء القائم تحت الأرض من شارع سان دونيز .
إنه ينتهي إلى بالوعة مونمارتر ، وفي هذه البالوعة بالذات كان جان
فالجان قد تورط . هناك كانت امكانيات الهلاك موفورة . فبالوعة مونمارتر
من أعقد بواليع الشبكة القديمة وادعاها إلى الضلال . ومن حسن حظ

جان فالجان انه كان قد خُلف وراءه بالوعة الاسواق التي يمثل مخططها الهندسي جمهرة من سوارى البقاء المتشابكة . ولكن كان أمامه أكثر من لقاء مُربك ، وأكثر من زاوية شارع — لأن هذه هي شوارع — تتمثل في الظلمة مثل علامة تعجب . كان إلى يساره . أولاً ، بالوعة الـ « بلاتيرير » العريضة ، ضرب من الاحجية الصينية ، مُظيلة ومشوشة عماءها المؤلف من اشكال تشبه حرفي T و Z تحت الـ « اوتيل دي بوس » وتحت البناء المدور المقبب الخاص بسوق القمح حتى الـ « سين » حيث تنتهي بما يشبه حرف Y . وكان إلى يمينه ، ثانياً ، رواق شارع « كادران » الملتوي بأسنانه الثلاث التي تتألف من جمهرة من الطرق غير النافذة . وكان إلى يساره ، ثالثاً ، امتداد الـ « ميل » المشتبك منذ مدخله تقريباً بضرب من امتداد المذراة ، المتقدم في خطوط متعرجة إثر خطوط متعرجة ، لينتهي آخر الأمر إلى سرداب اللوفر المفرغ الضخم ، المقطع والمتشعب في جميع الاتجاهات . وأخيراً ، كان إلى يمينه مجاز شوارع « الجونور » غير النافذ ، عدا المواطن المنزلة هنا وهناك ، قبل أن يصل إلى البالوعة المركزية التي تستطيع وحدها ان تقوده إلى منفذ ما قصي إلى درجة تجمعها آمناً ؟

ولو قد كان لجان فالجان أي معرفة بما ذكرناه اللحظة اذن لادرك في سرعة ، من مجرد مس الجدار ، انه لم يكن في الدهليز تحت الأرضي من شارع سان دونيز . وبدلاً من الحجر العتيق المنحوت ، وبدلاً من الهندسة المعمارية القديمة ، المتعجرفة والملوكية حتى في البالوعة ، ذات الارضية والمداميك الغرائبية والملاط الكثيف الكلس ، التي تكلف الياردة الواحدة منه ثمانئة ليرة ، بدلاً من هذا كله كان خليقاً به أن يستشعر تحت يده الرُخص المعاصر والتدبير الاقتصادي ، وحجارة الرحي المثورة فوق ملاط مائي على طبقة من الاسمنت يكلف المتر الواحد منها مئتي فرنك ، وهندسة المعمار البرجوازية المعروفة بمواد البناء الصغيرة . ولكنه

ما كان يعرف شيئاً من ذلك كله .

وتقدم إلى أمام ، في حصر ، ولكن في هدوء ، غير مبصر شيئاً ، غير عارف شيئاً ، غائصاً في المصادفة ، يعني مغموراً بالعناية الالهيّة ، وشيئاً بعد شيء — ويتعين علينا ان نقول ذلك — ساوره شيء من الرعب . لقد دخل الظلام الذي غلّفه إلى عقله . كان يمشي في احجية . ان قناة البالوعة هذه لرهيبة ، إنها تتشابك على نحو يوقع الدوار في الرأس . وإنه لشيء كثيب أن يقع المرء في شرك باريس الظلمة هذه . واضطر جان فالتجان إلى أن يكتشف ، بل إلى أن يخترع تقريباً ، طريقه من غير ان يراها . وفي ذلك المجهل كان من العجائز ان تكون كل خطوة يغامر في القيام بها هي الخطوة الأخيرة . كيف السبيل إلى خروجه من هناك ؟ أبتعين عليه ان يجد مخرجاً ؟ وهل سيوفق إلى اكتشافه في الوقت المناسب ؟ هل ستجيز له هذه الأسفنجة ، تحت الارضية ، الهائلة ذات الخلايا الحجرية ان ينفذ اليها ويحترقها ؟ هل يواجه عقدة ظلام غير متوقعة ؟ هل يلاقي ما هو مستعص وما لا يمكن تجاوزه ؟ هل يموت ماريوس من نزف الدم ، ويموت هو من الجوع ؟ هل يهلكان كلاهما ، هناك ، آخر الأمر ، ويصبحان هيكليْن عظيمين في زاوية من زوايا ذلك الليل ؟ لم يكن يدري . لقد طرح على نفسه هذه الاسئلة كلها ولكنه عجز عن الجواب . ان مصران باريس هاوية . لقد كان جان فالتجان ، شأن النبي ، في جوف الهولة .

وفجأة استبد به الدهش . فلحظة كان اقل ما يكون توقعاً لذلك ، فمن غير ان يكف عن السير في خط مستقيم ، اكتشف انه لم يعد يصعد البتة . لقد اخذت مياه الجدول تصدم عقبيه بدلا من ان تصدمه عند أعلى قدميه . لقد انخفضت البالوعة ، الآن . ماذا ؟ هل يصل قريباً إلى «السين» ؟ كان هذا الخطر عظيماً ، ولكن خطر الارتداد كان اعظم ، وواصل تقدمه .

إنه لم يكن يتجه نحو الـ «سين» . والسنام الذي تشكله طوبوغرافيا باريس على الضفة اليمنى يُفرغ أحد منحدريه في الـ «سين» ، والآخر في البالوعة العظمى . وقمة هذا السنام التي تعين انقسام المياه تتبع خطأً مُقلباً إلى حد بعيد . أما الذروة ، التي هي نقطة انقسام السيل ، فهي في البالوعة سان آفوا ، وراء شارع ميشيل دو كونت ، في البالوعة الاوفر ، قرب الجادات ، وفي البالوعة مونمارتر ، قرب الاسواق . وإلى تلك الذروة كان جان فالجان قد وصل . كان يتخذ سبيله نحو البالوعة المطوّقة ، كان يسلك الطريق الصحيح . ولكنه لم يعرف من ذلك شيئاً . كان كلما انتهى إلى تشعب جديد تلمس الزوايا ، فإذا وجد الفتحة أقل عرضاً من الرواق الذي كان فيه لم يدخل ، وتابع طريقه ، مقدراً بحق ان كل طريق أضيّق لا بد ان تنتهي إلى زقاق غير نافذ ، وان تبعده عن الهدف ، يعني عن المخرج . وهكذا اجتنب الوقوع في الشرك الرباعي الذي نصبته له في الظلام تلك المتابع الأربعة التي عددناها منذ لحظة .

وفي إحدى اللحظات ، استشعر انه يبتعد من تحت باريس التي حَجَرَتْها الفتنة ، حيث عطلت المتاريس حركة المواصلات ، وانه كان يعاود الدخول إلى ما تحت باريس الناشطة السوية . وفجأة ، سمع فوق رأسه صوتاً كالرعد ، قصياً ولكنه موصول . تلك كانت اصدااء العربات المنطلقة .

كان قد سلخ نحواً من نصف ساعة وهو يمشي ، وفقاً لحسابه على الأقل ، ولم يكن قد فكر بعد في الراحة . كل ما في الأمر أنه غير اليّد التي كانت تحمل ماريوس . كانت الظلمة احلك منها في أي لحظة مضت ، ولكن هذا العمق أعاد الثقة إلى نفسه .

وفجأة رأى خياله أمامه . لقد برز فوق احمرار واهن يكاد يكون غير واضح ، خُصّب الأرض عند قدميه والعقد فوق رأسه بالارجوان

نخضياً غامضاً : وانزلت إلى يمينه وإلى يساره على جداري الرواق الدقيق .
واستدار في ذهول :

ووراءه ، في ذلك الجزء من الدهليز الذي اجتازه ، وعلى مسافة
بدت له هائلة . توهج — مرسلًا اشعته إلى الظلمة الكثيفة ، شبه كوكب
رهيب بدا وكأنه ينظر إليه .

كانت نجمة البوليس القائمة هي التي اخذت تطلع في البالوعة .
وخلف هذه النجمة كان يتحرك ، في غير نظام ، ثمانية أو عشرة
أشكال سوداء ، مستقيمة . فظيعة ، غير واضحة .

٢

تفسير

في اليوم السادس من حزيران كانت السلطة قد اصدرت أوامرها
بتفتيش البوالبع . لقد خشيت أن يفرع إليها المغلوبون ، فكان على مدير
الشرطة جيسكيه ان يفتش باريس المستورة ، وكان على الجنرال بوغو أن
يكنس باريس العمومية : عملية متشابكة مزدوجة اقتضت استراتيجية
مزدوجة من القوات العامة الممثلة في المحل الأعلى بالجيش وفي المحل
الادنى بالبوليس . وراحت ثلاث مفارز من رجال الشرطة وعمال البوالبع
شوارع باريس تحت الأرضية : الأولى رادت الضفة اليمنى . والثانية
راحت الضفة اليسرى ، والثالثة طوّفت في المدينة .

كان رجال الشرطة مسلحين بالبنادق القصيرة الخفيفة . والنبابت ،
والسيوف ، والخناجر .

وكان الذي وُجّه في هذه اللحظة إلى جان فالجان هو فانوس العسس
المطوفين في الضفة اليمنى .

وكان هؤلاء العسس قد زاروا ، منذ لحظة ، الدهليز الملتوي والدروب الثلاثة غير النافذة الممتدة تحت شارع « كادران » . وفيما كانوا يجيلون مشعلهم في قعر هذه الدروب غير النافذة ، كان جان فالجان قد صادف في طريقه مدخل الدهليز ، وكان قد وجده أضيّق من المجاز الرئيسي ، فلم يدخله . كان قد تجاوزه ، وكان رجال الشرطة قد ظنوا ، عند دهليز « كادران » ، أنهم سمعوا وقع أقدام في اتجاه البالوعة المطوّقة . كان ذلك في الحقي وقع خطوات جان فالجان . ورفع قائد العسس فانوسه وشرعت الفرقة تحديق في الظلام إلى حيث انبعث الصوت :

تلك كان لحظة لا سبيل إلى وصفها ، بالنسبة إلى جان فالجان : وإذا كان قد رأى الفانوس جيداً ، فإن الفانوس لم يره ، لحسن حظه ، إلا على نحو رديء . كان الفانوس ضياءً ، وكان هو ظلاماً : كان بعيداً جداً ، يغمره سواد المكان . وانزوى في جانب الجدار ، ووقف .

ومع ذلك ، فانه لم يكوّن فكرة عما كان يمشي خلفه هناك . كان الأرق والجوع والانفعال قد ألقت به ، هو ايضاً ، في الحالة الوهمية . لقد رأى التماعاً ، ورأى حول ذلك الالتماع بعض البرقانات . أي شيء كان ذلك ؟ إنه لم يفهم .

حتى إذا وقف جان فالجان انقطعت الضجة : واصغى العسس ، فلم يسمعوا شيئاً ، ونظروا ، فلم يروا شيئاً . ونشاوروا .

وكان على هذه النقطة من بالوعة مونمارتر ، آنذاك ، شبه مفرق طرق يدعى « دو سرفيس » ألغى منذ ذلك الحين بسبب من البحيرة الداخلية الصغيرة المشكلة فيه نتيجة لانحصار مياه الامطار وسيولها ، هناك ، اثناء العواصف القوية : وكان في ميسور العسس ان يتجمعوا في مفرق

• البرقانة ، دودة تتحول الى حشرة .

الطرق ذاك .

ورأى جان فالجان هذه اليرقانات تشكل شبه دائرة . وتقاربت رؤوس هذه الكلاب الكبيرة ، وتهاومت .

وكانت نتيجة هذا المؤتمر الذي عقدته كلاب الحراسة ان القوم كانوا مخدوعين ، وانه لم تكن ثمة ضجعة ، ولم يكن ثمة احد ، وان من العبث الذي لا طائل تحته ان يتورطوا في البالوعة المطوقة ، وان ذلك مضیعة للوقت ، ولكن عليهم أن يسرعوا في اتجاه سان ميري ، وانه إذا كان ثمة ما يُعمل وإذا كان ثمة « قبعة بحرية » يجب ان يُقتَصَّ اثرها فينبغي ان يتم هذا في ذلك الحلي .

فبين الفينة والفينة تضع فرق الجند نعالا جديدة لاهاناتها العتيقة . وفي عام ١٨٣٢ كانت كلمة « قبعة بحرية » *bousingot* تمثل مرحلة الانتقال بين كلمة « يعقوبي » *jacobin* التي كانت قد بليت ، وكلمة « ديماغوجي » *demagogue* التي كانت قد أُمست غير مستعملة تقريباً والتي كانت قد أدت منذ ذلك الحين خدمة ممتازة ضخمة جداً .

واصدر الضابط أمره بالانحراف يساراً نحو منحدر الـ « سين » . ولو قد خطر لهم ان ينقسموا فرقتين ويمضوا في كلا الاتجاهين اذن لوقع جان فالجان في الاسر . كان ذلك متوقفاً على هذا الخيط الواهي . واغلب الظن ان تعليمات مديرية البوليس ، وقد توقعت نشوب معركة وقدرت ان يكون عدد المتمردين كبيراً ، حظرت على العسس ان يتفرقوا . واستأنفت الدورية سيرها ، مخلقة جان فالجان وراءها . ومن هذه الحركات كلها لم يحس جان فالجان إلا بكسوف الفانوس الذي استدار في الحال . ولكي يريح الضابط ضميره البوليسي اطلق نار بندقيته القصيرة ، قبل مغادرته المكان ، في اتجاه النقطة التي كانوا يغادرونها ، اي نحو جان فالجان . وكرر الدوي من صدى إلى صدى في العقد مثل قرقرة ذلك المعوي الهائل . وكان في بعض الجبسين الذي تساقط في السيل فأهاج المياه

هياجاً خفيفاً على بضع خطوات من جان فالجان ما جعله يلرك ان الرصاص كان قد اصاب العقد فوق رأسه .
وتصادت خطوات بطيئة موزونة على ارض الشارع فترة من الزمن ، وكانت تلك الاصداء تزداد وهنا على وهن كلما تعاظم تباعد المسافة التدرجي ، وغاب الجمع ذو الاشكال السوداء ، وتذبذب وميضاً وانشأ يطنمو ، محدثاً في العقد قوساً ضارباً إلى الحمرة تضاعل ثم اختفى ، وامست الظلمة عميقة كرة اخرى ، وعاد العمى والصمم فاستبدا بالعممة من جديد .
وظل جان فالجان ، ولم يكن قد جروث بعد على الحركة ، واقفاً فترة طويلة مولياً الجدار ظهره ، مرهف الاذنين ، متسع الحدقتين ، مراقباً تلاشي دورية الاشباح تلك .

٣

المطاردة المتربصة

وينبغي ان نعترف لشرطة ذلك العهد بأنها كانت تؤدي واجباتها الحراسية والصحية ، حتى في أشد الازمات الشعبية خطراً ، في هلوء ورباطة جأش . انها ما كانت لترى في نشوب الفتنة ذريعة لالقاء جبل الاشرار على غواربهم ، أو لأهمال المجتمع لأن الحكومة في خطر .
كان الواجب الاعتيادي يؤدي على احسن وجه بالاضافة إلى الواجب الاستثنائي ، ولم يكن هذا الاخير ليعوق الاول . ففي غمرة من وقوع حدث سياسي ضخم ، وتحت ضغط من ثورة قد تنشب ، كان ضباط الشرطة يطاردون اللصوص في تربص ، غير مجيزين للفتنة وللمتراس ان يصرفاهم عن مهمتهم .

إن شيئاً مثل ذلك بالضبط حدث بعد ظهر اليوم السادس من حزيران

على شاطئ آل «سين» ، منحدر الضفة اليمنى ، وراء جسر الانفاليد بقليل .

وليس ثمة اليوم منحدر لتلك الضفة ، فقد تغيرت معالم المكان ، لقد بدا وكأن رجلين ، تفصل ما بينهما مسافة ما ، كانا يتخالسان النظر ، عند ذلك المنحدر ، ويحاول كل منهما أن يجتنب الآخر . كان الرجل المتقدم يحاول أن يوسع الشقة الفاصلة ، وكان الرجل المتخلف يحاول أن ينقصها .

كان ذلك اشبه بلعبة شطرنج تلعب من بعيد ، وعلى نحو صامت ه ان اياً منهما لم يبد مسرعاً ، ولقد مشيا كلاهما في ببطء ، وكأن كلا منهما كان يخشى ان يكون في مبالغته في الاسراع ما يضاعف سرعته خطوات مُلاعبه .

كان في ميسور المرء ان يقول انها شهوة إلى الطعام تطارد فريسة ما ، من غير أن يبدو وكأنها تفعل ذلك عن عمد ، وكانت الفريسة مخادعة ، وكانت تلتزم الحذر .

وروعيت النسب المطلوبة بين النمس المطارد والكلب المطارد . كان لذلك الذي يحاول ان يفر مشية واهنة ومحبياً مهزول . وكان ذلك الذي يحاول المطاردة — وهو رجل فارغ الطول — قاسي المظهر ، ولا ريب في انه كان قاسي المخبر .

كان الأول ، وقد استشعر انه اضعف الرجلين ، يحاول التخلص من الثاني ، ولكنه كان يفعل ذلك على نحو ضار جداً . ولو قدر لأحد ان يلاحظه اذن لرأى في عينيه ضغينة القرار القائمة ، وجميع ما في الخوف من توعده .

كان الشاطئ مهجوراً . لم يكن ثمة احد من عابري السبيل . بل لم يكن ثمة ربابة زوارق أو ناقلو بضائع من السفن إلى البر فوق القوارب

المسطحة المربوطة بالأقلاص . هنا وهناك .

ولم يكن في الامكان رؤية هذين الرجلين في يسر إلا من رصيف النهر المقابل . ولقد كان خليقاً بذلك الرجل ، الماشي في المقدمة ، ان يسدو لمن قدر له ان يراه من تلك المسافة ، وكأنه مخلوق شائك ، ممزق الثياب ذليل ، قلق مرتعد تحت درّاعة بالية ، وخليقاً بذلك الرجل الآخر ان يبدو مثل شخص كلاسيكي رسمي يرتدي معطف السلطة مزوراً حتى الذقن .

ولعله كان في ميسور القاريء ان يعرف هذين الرجلين لو رآهما من مسافة أقرب .

ما كانت غاية الرجل الأخير ؟

لعلها كانت لباس الأول ثياباً أكثر دفئاً .

فحين يطارد رجل يرتدي ملابسه باسم الدولة رجلاً يرتدي اسماً بالية فهو إنما يفعل ذلك لكي يلبسه هو أيضاً ملابس من عمل الدولة . إن اللون وحده هو الذي يقرر المسألة كلها : فالملابس الزرقاء تضيف عليك المجد ، والملابس الحمراء تشير كراهيتك . إن ثمة ارجوان أعماق .

ولعل الرجل الأول كان يرغب في اجتناب مكروه ما ، أو الفرار من مثل هذا الضرب من الارجوان .

واذا كان الآخر يجيز له ان يتابع مسيله من غير أن يلقي القبض عليه فقد كانت جميع المظاهر تدل على انه كان يفعل ذلك املاً في ان يراه ينتهي إلى موعد ذي شأن ، أو إلى عدد من المغانم السمينه . وهذه للعملية الدقيقة تدعى « المطاردة المتربصة » .

والذي يرجح هذا الظن هو ان صاحب السّرة المحكمة التزير ، وقد لمح من الشاطيء عجلة كراء تمر بالرصيف فارغة ، اشار إلى السائق :

« القلس : حبل ضمنه للسفينة من حوص او غيره .

وفهم السائق ، مدركاً من غير شك من الذي كان يخاطبه ،
وإدار حصانه ، وشرع يتبع الرجلين في القسم الأعلى من الرصيف بأكثر
ما تستطيعه العربة من ببطء . إن الشخص المبهمة الرث الثياب ، الماشي
في الجهة الامامية ، لم يلاحظ ذلك .

وكرت العجلة بحذاء اشجار الشان زيليزيه . كان في إمكان المرء ان
يرى جذع السائق يتحرك فوق الحاجز ، والسوط في يده .

إن تعليمات الشرطة السرية لرجالها تنطوي على هذه المادة : « ليكن
في متناولكم دائماً عربة تستطيعون امتطاءها عند الحاجة . »

وفيما كان هذان الرجلان يناوران ، كل من ناحيته ، باستراتيجية
خلو من العيب ، اقتربا من احد منحدرات الرصيف الهابطة حسي
الشاطئ ، والتي كانت تساعد سائقي العربات القادمة ، في ذلك العهد ،
من « باسي » ، على الذهاب إلى النهر لاطفاء ظمأ خيولهم . ولقد ازيل
هذا المنحدر ، منذ ذلك الحين ، ابتغاء الانسجام . إن الخيل لتموت
ظماً ، ولكن العين قريرة .

لقد بدا أن من المتوقع أن يصعد الرجل ذو الدراعة في هذا المنحدر
لكي يحاول الفرار إلى الشان زيليزيه ، وهو موطن مزدان بالاشجار ،
ولكنه غاصّ برجال الشرطة ، حيث كان في إمكان الرجل الآخر أن
يقبض عليه بيد قوية .

وهذه النقطة من الرصيف قريبة جداً من المنزل الذي حملة الكولونيل
براك من موريه إلى باريس ، عام ١٨٢٤ ، والمدعوبت فرنسيس الأول .
كان ثمة مركز للحراسة قائم على مقربة دانية من هناك .

ولكن الرجل المطارد لم يتخذ سبيل منحدر المنهل ، مثيراً بذلك دهشة
المراقب البالغة . لقد واصل تقدمه على الشاطئ في محاذة الرصيف .
كان وضعه قد أمسى حرجاً على نحو واضح .

وإذا لم يكن يقصد إلى لقاء نفسه في الـ « سين » فما الذي ينتهي

أن يفعله ؟

لم يعد ثمة ، منذ الآن ، إيما وسيلة لارتفاع الرصيف . لم يكن هنالك
لا منحدر ولا سلم . وكانا جد قريبين من تلك البقعة التي ينعطف الـ
« سين » عندها نحو جسر إيننا ، حيث يضيق الشاطئ شيئاً بعد شيء
لينتهي بلسان طويل ، ويغيب تحت الماء . وهناك كان لا بد من أن يجد
نفسه محصوراً بين الجدار الشديد الانحدار ، إلى يمينه ، والنهر إلى يساره
وتجاهه ، والسلطة وراءه .

صحيح ان أقصى الشاطئ هذا كان محجوباً عن النظر بركام من
الردم يتراوح ارتفاعه ما بين ستة أقدام أو سبعة أقدام ، نتيجة لتخريب
ما . ولكن أكان هذا الرجل يطمع في الاختباء ، على نحو مفيد ، خلف
ركام الردم هذا الذي لم يكن على الرجل الآخر إلا ان يستدير حوله ؟
لقد كان خليقاً بتلك الحيلة ان تكون صبيانية . وليس من ريب في انه
لم يفكر بها البتة . إن براءة اللصوص لا تبلغ هذا الحد .

واحدث ركام الردم ضرباً من الرابية ، عند حافة الماء ، تطاول مثل
رأس أرضي حتى جدار الرصيف .

وبلغ الرجل المطارد هذه التلة الصغيرة ، وتجاوزها بحيث لم يعد في
ميسور الآخر أن يراه .

واذ لم يعد في ميسور الرجل الآخر أن يرى فانه ما عاد يرى . وأفاد
من هذا الوضع لكي يتخلى عن الماربة كلها ، ولكي يغدو السير . وما
هي إلا بضع ثوان حتى انتهى إلى ركام الردم واستدار حوله . وهناك ،
وقف في انشده . كان الرجل الذي طارده قد اختفى :

لقد ألمّ بالرجل ذي الدراعة كسوف كامل .

ولم يكن طول الشاطئ المتمدد خلف ركام الردم ليزيد على ثلاثين
خطوة ، ليغوص بعد ذلك في المياه المتلاطمة على جدار الرصيف .
لقد كان من المتعذر على الآبق ان يقذف بنفسه في الـ « سين » ، أو

ان يتصور رصيف النهر من غير ان يراه ذلك الذي كان يتعقبه . ما الذي حل به ؟

ومشى الرجل ذو السُرة الطويلة المحكمة الازرار إلى أقصى الشاطئ ، ووقف هناك لحظة مفكراً ، وقد تشنَّجُ جمعاً كفيه ، وشرعت عيناه تبحثان . وفجأة ضرب جبينه براحة يده . كان قد لاحظ في النقطة التي انتهت اليابسة عندها وبدأ الماء ، شبكة حديدية عريضة منخفضة ، مقوسة ، ذات قفل ثقيل وثلاث رزات ضخام . وكانت هذه الشبكة الحديدية ، وهي ضرب من الباب اقيم في قعر الرصيف ، تنفتح على النهر بقدر ما تنفتح على الشاطئ . وجرى من تحتها جدول ضارب إلى السواد . وكان هذا الجدول يصب في نهر السين . وخلف قضبانها الثقيلة الصدئة كان في استطاعته ان يتبين ضرباً من الرواق المقنطر المظلم .

وطوى الرجل ذراعيه ، ونظر إلى الشبكة الحديدية نظرة توبخ . واذ كانت هذه النظرة غير كافية فقد حاول أن يدفع الشبكة . ثم انه هزها ، فقاومت في ثبات . كان من الراجح أنها 'فتحت منذ لحظة ، على الرغم من ان صوتاً ما لم يُسمع ، وتلك ظاهرة فريدة بالنسبة إلى شبكة حديدية على مثل هذا الصدا كله . ولكن كان من الثابت انها قد أوصدت كرة اخرى . وهذا ما يؤذن بأن الشخص الذي انفتح هذا الباب في وجهه منذ لحظة لم يكن يحمل 'كلاباً صغيراً ولكن مفتاحاً .

لقد التمعت هذه الحقيقة الواضحة فجأة في ذهن الرجل الذي كان يبذل قصارى جهده لتحريك الشبكة الحديدية ، وانتزعت منه هذه الخاتمة الحكيمة :

— « شيء رائع ! مفتاح من مفاتيح الحكومة ! »
ثم انه هدأ نفسه في الحال ، وعبر عن عالم كامل من الأفكار الباطنية بهذه النفخة من الكلمات الوحيدة المقطع ، الموقعة توقيعاً يكاد يسكون .

تهكمياً :

— « حسن ! حسن ! حسن ! »

حتى إذا قال ذلك ، وقف على قدم الحذر خلف ركام الردم ، بمثل
السورة الصبور التي يتكشف عنها كلب من تلك الكلاب التي توقف
قرب الطرائد بانتظار وصول الصياد ، وإن كان احد لا يدري أكان
يرجو من وراء ذلك أن يرى الرجل يخرج من هناك أم أن يرى رجلاً
آخرين يدخلون .

أما عجلة الكراء ، التي تابعت حركاته جميعاً ، فكانت قد وقفت
فوقه قرب الحاجز . واذ توقع السائق انتظاراً طويلاً فقد ادخل خطم
فرسيه في كيس الشوفان الرطب الذي يعرفه الباريسيون جيداً ، والذي
تصطنعه الحكومات — ولنقل ذلك بين معترضتين — معهم في بعض
الاحيان . وأدار بعض عابري السبيل فوق جسر آيينا رؤوسهم ، قبل أن
يبتعدوا ، لكي يروا لحظة إلى هذين المنظرين الطبيعيين الجامدين : منظر
الرجل على الشاطئ ، ومنظر عجلة الكراء على رصيف النهر .

٤

وهو أيضاً يحمل صليبه

كان جان فالجان قد استأنف تقدمه ، من غير أن يقف كرة أخرى .
وغدا هذا التقدم أكثر إجهاداً . إن مستويات هذه العقود لتفاوت .
وإن ارتفاعها المتوسط ليلغ نحواً من خمسة أقدام وست بوصات ، مقدراً
على أساس من قامه رجل من الرجال . واضطر جان فالجان إلى الانحناء
لكي لا يصيب ماريوس من العقد اذى ما . كان عليه أن يطأطيء رأسه
كل لحظة ، ثم يتصدر من جديد ، ويتلمس الجدار من غير انقطاع .

وكانت رطوبة الحجارة ولزوجة الأرض قد جعلت منها نقاط ارتكاز دينة ، سواء لليد أم للقدم . كان يترنح في مزبلة البلد الرهيبة . وكانت انعكاسات النور المتقطعة المنبعثة من منافذ الضوء لا تبدى إلا في فترات متباعدة جداً ، وعلى نحو خابٍ إلى درجة جعلت نور الظهيرة يبدو أشبه بضوء القمر . وكان كل ما عدا ذلك ضباباً ، وانجرة وبيثة ، وعدم شفافية ، وسواداً . كان جان فالفجان جائعاً وظمآن . وكان ظمآن بوجه خاص ؛ وهذا الموطن ، كالبحر ، مليء بالمياه التي لا يستطيع المرء ان يشربها . وكانت قوته ، الاعجوبة كما نعرف ، والتي لم توهن منها السن ، بفضل حياته العفيفة الزاهدة ، كانت قوته هذه قد بدأت رغم ذلك تضعف وتراخي . واستبد به التعب ، وكان في تناقص قوته ما زاد في ثقل حمله . كان وزن ماريوس — ولعله قد قضى نحبه — ثقيلاً كسائر الاجساد التي لا حياة فيها . لقد حمله جان فالفجان على نحو يقي صدره من الضغط ، ويجعل تنفسه حراً ، دائماً ، جهد الطاقة . لقد استشعر انسلال الجرذان السريع بين رجليه . وكان احدها قد دُعر إلى حد إقدامه على عضه . وكانت تفدُ عليه ، بين الفينة والفينة ، من خلال مآزر افواه البالوعة ، نسمة هواء جديد تنعشه .

ولعلها كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما وصل إلى البالوعة المطوقة . ودهش باديء الامر لهذا الاتساع المفاجئ . وفجأة ، وجد نفسه في دهليز ما كانت يدها المبسوطتان لتبلغا جدرانها ، وتحتم عقد ما كان رأسه ليمسه . إن البالوعة العظمى ليلبغ عرضها ، في الحق ، ثمانية اقدام ، وعلوها سبعة .

وحيث تتصل بالوعة مونمارتر بالبالوعة العظمى كان دهليزان تحترضان . آخران ، دهليز شارع بروفانس ودهليز شارع الآباتوار ، يلتقيان فيشكلا مفرق طرق . ولقد كان خليقاً بإعما رجل أقل حكمة من جان

• أي امتدان تحت الأرض .

فالجبان ان يتردد امام هذه الطرق الأربع . ولكن جان فالجبان سلك
السبيل الاعرض ، يعني البالوعة المطوّقة . ولكن السّرّال ما لبث ان نشأ ،
ههنا ، من جديد : أميهط ، أم يصعد ؟ وفكر أن الوضع حرج ،
وان عليه ان يبلغ الـ « سين » مهما تكن المخاطر . وبكلمة اخرى ، كان
عليه ان يهبط . وانعطف إلى اليسار .

وحسناً فعل . ذلك ان من الخطأ ان نحسب أن للبالوعة المطوقة منفذين
أحدهما نحو بيرسي ، والآخر نحو باسي ، وأنها كما يوحى اسمها الحزام
التحترضي لباريس الضفة اليمنى . ان البالوعة العظمى التي لا تعلق ان
تكون ، كما ينبغي ان نتذكر ، جدول مينيلمونتان العتيق ، تنتهي حين
نصعد فيها إلى زقاق غير نافذ ، يعني إلى منطلقها القديم ، الذي كان
ينبوعها ، عند سفح تل مينيلمونتان . وليس ثمة اتصال مباشر يربطها
بالامتداد الذي يجمع مياه باريس تحت حي بويينكور ، والذي يصب في
الـ « سين » من طريق البالوعة آميلو فوق جزيرة لوفيه القديمة . وهذا
الامتداد ، الذي يتعم البالوعة المجمعة مفصول عنها ، تحت شارع
مينيلمونتان نفسه ، بجدار صلب يعين نقطة انقسام الماء إلى مياه عليسا
ومياه سفلى . ولو قد صعد جان فالجبان في ذلك الدهليز اذن لانهى
بعد ألف جهد ، وقد هذه الاعياء واشرف على الهلاك وسط الظلام -
إلى سور . لو قد فعل اذن لكان الهلاك مصيره .

وبكلمة دقيقة ، فبالنكوص على عقبيه قليلا ، والدخول إلى مجاز
« بنات كالفير » ، إذا لم يتردد عند مفرق بوشيرا ، وباجتياز رواق سان
لويس ، ثم - إلى اليسار - يمر سان جيل ، وبعد ذلك بالانعطاف إلى اليمين
واجتباب المرور في دهليز سان سيباستيين كان من الممكن ان يبلغ البالوعة
آميلو ، ومن هناك - شرط ان لا يضل في ذلك الضرب من حرف
الـ F الذي تحت الباستيل - كان من الممكن ان يبلغ المنفذ الذي على
نهر السين قرب « دار الصناعة » . ولكن كان يتعين عليه ، حتى يتم

له ذلك ، ان يكون على احسن العلم بتلك البالوعة الهائلة المتشعبة تشعب المرجان ، بجميع امتداداتها وجميع منافذها . بيد أنه ، كما يجب ان نكرر ، ما كان يعرف شيئاً من شبكة السبل الرهيبة هذه التي كان يشق طريقه خلالها . ولو ان امرأ سألته اين كان ، اذن لكان خليقاً به أن يجيب : « في الليل . »

وخدمته غريزته خدمة صالحة . كان الهبوط ، في الواقع هو السبيل الوحيدة إلى الخلاص .

لقد ترك عن يمينه المجازين اللذين يتشعبان على شكل مخالب تحت شارع « لافيت » وشارع سان جورج ، ورواق الـ « شوسيه دانتين » الطويل المتشعب :

ووراء احد السواعد بقليل ، وكان هذا الساعد في أغلب الظن امتداداً للـ « مادلين » ، كف عن المسير . كان متعباً جداً . وتسرب نور يكاد يكون ناضراً من احدى نوافذ الضوء ، لعلها الثقب الذي في شارع آنجوه ووضع جان فالجان ، بمثل رفيق اخ بأخيه الجريح ، ماريوس على حافة البالوعة . وبدا وجه ماريوس المضرج بالدم ، على ضوء النافذة الابيض ، وكأنه في قعر قبر . كانت عيناه مغمضتين ، وكان شعره ملتصقا بصدغيه مثل فرشاة جففت في الصبغ الاحمر ، وكانت يداه متدليتين في غير حياة ، وكانت رجلاه باردتين ، وكان على زوايا فمه دم متخثر . كانت جلطة دم قد اجتمعت في عقدة رباط رقبتة . كان قميصه قد انغرس في الجراح ، وكان قماش سترته يمس الجراح الفاعرة فاها في اللحم الحي . وازاح جان فالجان الملابس باطراف أصابعه ، ووضع يده على صدر ماريوس . كان القلب لا يزال يخفق . ومزق جان فالجان قميصه ، وضمد الجراح أحسن ما استطاع ان يضمدها ، واوقف الدم المتدفق . ثم انه انحنى في ذلك الغسق فوق ماريوس ، الذي كان لا يزال غائباً عن الرشد فاقداً الحياة تقريباً ، ونظر اليه في كراهية لا سبيل إلى التعبير عنها .

وكان قد وجد ، حين فتح ثياب ماريوس ، شيئين اثنين في بعض جيوبه : قطعة الخبز التي نُسبت هناك منذ البارحة ، وحافظة اوراق ماريوس . فأكل قطعة الخبز ، وفتح حافظة الأوراق . وعلى الصفحة الأولى ، وجد الاسطر الاربعة التي خطها ماريوس . إن القاريء ليتذكرها . — « اسمي ماريوس بونميرسي . احملوا جثتي إلى منزل جدي ،

مسيو جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، في الماريه . » وعلى ضوء منفذ النور ، قرأ جان فالجان هذه الاسطر الاربعة ، ووقف لحظة وكأنه مستغرق في ذات نفسه ، مكرراً في همس : « شارع بنات كالفير ، رقم ٦ ، مسيو جيلنورمان . » واعاد حافظة الأوراق إلى جيب ماريوس . كان قد أكل ، وكانت القوة قد عاودته . وحمل ماريوس على ظهره كرة اخرى ، واضعاً رأسه في عناية فوق كتفه اليمنى ، واستأنف هبوط البالوعة .

ويبلغ طول البالوعة العظمى ، إذا سلك المرء طريق وادي مينيلمونتان ، فرسخين تقريباً . وإن جزءاً كبيراً منها لمعبّد .

إن مشعل اسماء الشوارع الباريسية التي نضيء به للقاريء تقدّم جان فالجان تحت الارضي ، إن هذا المشعل لم يكن جان فالجان مملكه . ان شيئاً ما لم يخبره باي منطقة من المدينة كان يجتاز ، ولا أي طريق كان قد ملك . كل ما في الأمر أن الشحوب المتعاطم الذي أصاب ومضات الضياء ، تلك الومضات التي كان يللمحها بين الفينة والفينة ، آذن بأن الشمس كانت تنسحب من حصباء الطريق ، وإن الليل يوشك ان يهبط . ومن جري العربات فوق رأسه . ذلك الجري الذي تحول من موصول إلى متقطع والذي انتهى إلى أن ينقطع انقطاعاً كاملاً تقريباً ، استنتج انه لم يعد تحت باريس المركزية ، وانه يقترب من إحدى المناطق المنزلة ، في جوار العجادات الخارجية أو ارصقة النهر القصية . وحيث تكون المنازل قليلة ، والشوارع قليلة ، تكون

منافذ الضياء أقل في البالوعة . وتكاثفت الظلمة حول جان فالجان . ومع ذلك ، فقد واصل تقدمه ، متمسكاً سبيله في الظلمة . وفجأة ، أمسك هذه الظلمة فظيعة .

٥

ان للرمل ، كما للمرأة ، رقة خادعة

لقد استشعر أنه يلج الماء ، وأنه لم يعد تحت قدميه حجارة ، ولكن وحل .

وقد يتفق أحياناً ، في بعض شواطئ بريطانيا أو اسكتلندة ، ان يكون المرء — رحالة كان أو صياد سمك — ماشياً على الشاطئ ، في فترة الجزر ، بعيداً عن الضفة ، فيلاحظ فجأة أنه مشى منذ بضع لحظات بشيء من العسر . إن الشاطئ تحت قدميه أشبه بالزفت ؛ إن نعله ليلصق به . إنه لم يعد رملًا ، لقد أصبح دبقاً . ان الشاطئ جاف كل الجفاف ، ولكن ما ان يرفع الماشي قدمه ، في كل خطوة من خطاه ، حتى يمتلئ الاثر الذي تحلّفه بالماء . ان العين لم تلاحظ تغيراً ما ، على اية حال ، وإن الشاطئ الرحب أملس هادي ، وللرمل كله مظهر واحد ، فليس ثمة ما يميز السطح الصلب عن السطح الذي لم يعد كذلك . وتواصل سحابة براغيث الرمل الصغيرة البهيجة وثوبها الصاخب على رجلي العابر . ويتابع الرجل طريقه . ويتقدم إلى امام ، وينعطف نحو الياسة ، ويحاول ان يزداد قرباً من الساحل . إنه ليس قلقاً . قلقاً من اي شيء ؟ كل ما هنالك انه يحس بطريقة ما ، وكأن ثقل قدميه تزايد اثر كل خطوة يخطوها . وفجأة تغوص قدماه . انهما تغوصان إلى عمق يتراوح ما بين بوصتين وثلاث بوصات . وليس من ريب في انه

لا يسلك الطريق الصحيح . ويقف لكي يحدد اتجاهه . وفجأة . ينظر إلى قدميه . لقد اختفت قدماه . ان الرمل يغطيها . ويسحب قدميه من الرمل ، ويرغب في النكوص على عقبه ، ويستدير إلى الوراء . فلا ترداد قدماه إلا غوصاً . إن الرمل ليرتفع إلى كاحليه ، ويتنزع نفسه وينطرح إلى اليسار ، ويرتفع الرمل إلى منتصف رجله ، وينطرح إلى اليمين . ويرتفع الرمل إلى باطن ركبتيه . وعندئذ يدرك . في ذعر ممتنع على الوصف ، أنه وقع في شرك الرمل الخاسف ، وان تحته ذلك الوسط الرهيب الذي لا يستطيع المرء ان يسير فيه إلا بمقدار ما تستطيع السمكة ان تسبح خلاله . ويطرح حملة إذا كان مثقلاً بحمل ، ويتخفف كما تتخفف السفينة في ساعة الشدة . ولكن الاوان يكون قد فات ، ان الرمل قد انتهى إلى ما فوق ركبتيه .

وينادي ، ويلوح بقبعته أو بمنديله ، ويغمره الرمل أكثر فأكثر . واذا كان الشاطيء مهجوراً ، واذا كانت اليابسة نائية أكثر مما ينبغي ، واذا كانت كومة الرمل ذات شهرة بغیضة أكثر مما ينبغي ، واذا لم يكن في الجوار بطلٌ ما . فعندئذ ينتهي كل شيء . ويُقضى عليه بالغوص في الرمل المتحرك . إنه مقضي عليه بذلك الدفن الرهيب ، الطويل ، الحقود ، المتعذر ابطاؤه أو تعجيله ، الدفن الذي يدوم ساعات ، والذي لا ينقضي ، والذي يستحوذ عليك وانت قائم ، حر ، وفي كامل عافيتك ، والذي يجرك من قدميك إلى أعماق بعض الشيء كلما بذلت جهداً وكلما اطلقت صيحة ، والذي يبدو وكأنه يعاقبك على مقاومتك بتشديد قبضته على نحو مضاعف . والذي يعيد المرء ثانية ، في ببطء . إلى التربة تاركاً إياه طوال الوقت ينظر إلى الافق . والاشجار . والحقول الخضراء . ودخان القرى في السهل ، وشرعة السفن في البحر ، والعصافير الطائرة المفردة ، واشعة الشمس ، والسماء . ان الغوص في الرمل المتحرك هو القبر الذي يتحول إلى مد ، والذي يرتفع في اعماق الارض نحو كائن

حي . إن كل دقيقة تكفين لا يعرف الرحمة . ويجاول الضحية ان يجلس ، ان يتمدد ، ان يزحف . إن كل حركة يأتيها تدفنه ؛ ويتصدر ، ويغوص ، ويستشعر ان الارض تبتله . ويولول ، ويتوصل ، ويجأر إلى السحب ، ويلتاع توجعاً ، ويأس . انظر اليه غائصاً في الرمل حتى الخصر ؛ إن الرمل ليبلغ صدره ، فهو لا يعدو ان يكون تمثالاً نصفياً . ويرفع ذراعيه ، وبطلق أنات حانقة ، وينشب اظافره في الشاطيء ، راغباً في التعلق بتلك القشة ، ويتكئ على مرفقيه ليخرج نفسه من ذلك الغمد المائع ، ويتنهد ، في صعر ؛ ويرتفع الرمل . إن الرمل ليبلغ منكبيه ، إن الرمل ليبلغ عتقه ؛ وإن وجهه وحده هو المنظور الآن . ويصبح الفم ، فيملاؤه الرمل ؛ ويرين الصمت . وتظل العينان تحدقان . فيغلقهما الرمل ؛ ويسود الظلام . ثم يتناقص الجبين ، ويصفق شعراً قليل فوق الرمل ، وتنبثق يد ، وتخرق سطح الشاطيء ، وتتحرك وتلوح ، وتختفي . احياء مشووم ينتهي به رجل .

واحياناً يغوص الفارس مع فرسه ؛ وحياناً يغوص السائق مع عربته ؛ كل شيء مظلم تحت الشاطيء . إنه الفرق في مكان آخر غير الماء . إنها الأرض تفرق الانسان . إن الأرض ، وقد تحملها الاوقيانوس ، لتصبح شركاً . إنها تقدم نفسها وكأنها سهل ، وتغرفاها وكأنها مغارة . ان للهوة مثل هذه الخيانات .

وهذه الكارثة المشوومة ، الممكن حدوثها دائماً في هذا الشاطيء أو ذاك من شواطئ البحر ، كانت ممكنة ايضاً ، منذ ثلاثين سنة ، فسي بالوعة باريس .

فقبل أن تبدأ الأعمال الهامة عام ١٨٣٣ كانت شبكة باريس تحت الارضية عرضة لانخسافات فجائية .

لقد نفذ الماء إلى بعض البقاع التحتية ، وبخاصة إلى التربة السريعة التفتت . ولقد انطوت الأرضية ، التي كانت من حجارة مرصوفة ، كما

هي الحال في البوالبع القديمة ، أو من كلس مريع التصلب على اسمنت ، كما هي الحال في الدهاليز الجديدة ، بعد ان فقدت سنادها . والانطواء في أرضية من هذا الضرب هو صدع ، هو انهيار . وانهارت الأرضية في مسافة بعينها . وهذا الانصداع ، انفلاق لجة من الوحل ، كان يدعى في اللغة الخاصة الخسف *fontis* . ما الخسف ؟ انه رمل الشواطئ المتحرك يلقاه المرء فجأة تحت الأرض ؛ إنه شاطيء « جبل سان ميشيل » في بالوعة . ان التربة المنقوعة تكاد تكون ذائبة . وإن جميع جزئياتها لتندلى في وسط مائع . إنها ليست جزءاً من اليابسة ، وإنها ليست جزءاً من البحر . وقد يكون عمقها عظيماً جداً في بعض الاحيان . وليس ثمة ما هو أدعى إلى الرعب من مثل هذه المصادفة . واذا هيمن الماء فعندئذ يكون الموت رشيقي الحركة ؛ إن هناك ابتلاءً . واذا هيمنت اليابسة فعندئذ يكون الموت بطيئاً ؛ إن ثمة غوصاً في الرمل المتحرك .

هل تستطيع ان تتصور مثل هذه الميته ؟ وإذا كان الغوص في الرمل المتحرك رهيباً على شاطيء البحر ، فكيف يكون في البالوعة ؟ فبدلاً من الهواء الطلق ، والضياء الساطع ، ووضوح النهار ، وذلك الافق الصافي ، وتلك الاصوات الرجة ، وتلك السحب الحرة التي تنسكب منها الحياة ، وتلك القوارب المرئية في المدى البعيد ، وذلك الأمل المتخذ مختلف الأشكال ، وعابري السبيل الممكنين ، والنجدة الممكنة حتى اللحظة الأخيرة — بدلاً من ذلك كله تقع هناك على الصمم ، والعمى ، وعلى عقد أسود ، وجوف قبر معدّ سلفاً ، وعلى الموت في الوحل تحت غطاء ! وعلى الاختناق البطيء بالقدر ، وعلى صندوق حجري حيث ينشب الموت اختناقاً مخلياً في الحماة ويأخذ بخناقك ، وعلى التناثنة ممزوجة بحشجة الموت . وحل بدلاً من الرمل ، هيدروجين مُكَبَّرَت بدلاً من الأعصار ، واقدار بدلاً من الاوقيانوس ! هناك تصرخ منادياً ، وتصر على اسنانك ، وتتلوى توجعاً ، وتناضل ، وتحشرج ، وقد جهلت تلك المدينة الهائلة القائمة فوق

وأسك كل ما انت فيه من بلاء .

إن الموت على هذا النحو هولٌ لا سبيل إلى وصفه ! وفي بعض الاحيان يكفر الموت عن قسوته البالغة ببعض الشرف الرهيب . فعلى الخازوق ، وفي السفينة الغارقة ، قد يكون المرء عظيماً . في اللهب ، كما في الزبد ، يكون الوضع البهي ممكناً . انك لتتألق وانت تسقط في تلك الهاوية . ولكن ليس هنا البتة . إن الموت هنا قدير . وان العار من تلفظ انفسك . إن آخر الروى الطافية لحقيرة . الوحل مرادف للعار . إنه وضع ، بشع ، مرذول . الموت في برميل خمر يوناني ، مثل كلارنس . ، قد يكون مقبولا . أما الموت في حفرة رافع الوحل ، مثل ايسكوبلو ، فذلك شيء رهيب . إن النضال في جوف تلك الحفرة لفظيع . ففيا انت تحشرج يصيك الوحل . ان فيها لظلمة كافية لجعلها جحيماً ؛ وان فيها لوحلاً كافياً لجعلها حمأة ليس غير ، ولا يسدري الرجل المحتضر هل سيصبح شبهاً أم علجوماً . . .

القبر مظلم في كل مكان ، أما هنا فهو شاته .

وكان عمق الخسف يتفاوت ، كما يتفاوت طوله وغلاظته ، تبعاً لمدى الرداءة التي يتسم بها باطن الأرض . ففي بعض الاحيان كان عمق الخسف ثلاثة أقدام أو أربعة ، وفي بعضها الآخر كان ثمانية أقدام أو عشرة . واحياناً لم يكن للخسف قرارٌ البتة . كان الوحل ههنا صلباً أو يكاد ، وكان ههناك مائعاً أو يكاد . ففي خسف لونيير كان اختفاء المرء يقتضيه يوماً كاملاً ، على حين كان في ميسور حمأة « فيليبو » ان تبتلعه في خمس دقائق . وصمود الوحل رهن بكثافته ، إن قليلةً فقليل ، وإن كثيرة

• Clarence أخو ادورد الرابع ملك انكلترة . ونليائه هذا الاخير حكم عليه بالموت . ويقولون انهم تركوا له حق اختيار وسيلة الموت ، فاختر الاغراق في برميل ملي بالخمير اليونانية malvoisie (١٤٤٩ - ١٤٧٨)

• الملجوم : ضفدع الجبل .

فكثير . وقد ينجو الطفل حيث يهلك الرجل . وأول قواعد السلامة ان تجرد نفسك من كل حمل . واطراح كيس الادوات ، أو السلة ، أو حوض الملاط ، هو أول ما يفعله عامل البواليع عندما يستشعر أن الأرض تنخسف تحت قدميه .

وكانت للخسف اسباب مختلفة : سهولة تفتت التربة ، وانصداع ما على عمق يعجز المرء عن بلوغه ، وامطار الصيف الغزيرة العنيفة ، وعواصف الشتاء الموصولة ، والرذاذ الرقيق الطويل . وفي بعض الأحيان كانت وطأة البيوت المجاورة على تربة سجّيلية أو رملية تضغط على عقود الدهاليز تحت الأرضية وتلويها ، وقد يتفق أن تتشقق أرضية الدهليز وتتصدع تحت هذا الضغط الماحق . والواقع ان ثاقل وطأة البانتيون ، بهذه الطريقة ، قد عما ، منذ قرن ، جزءاً من كهوف جبل « سانت جانفييف » ، وحين كانت احدى البواليع تنهار تحت ضغط اليبوت كان الخلل يتكشف أحياناً ، فوق ، في الشارع ، بضرب من الانفصال بين بلاطات الطريق شبيه بأسنان المنشار . وكان هذا التشقق يتكون في خط لولبي يمتد على طول العقد المتصدع ، واذ كانت العلة ملحوظة فان في ميسور العلاج ان يكون عاجلاً . وكثيراً ما يتفق ايضاً ان لا يتكشف العطل الداخلي من طريق اي ندبة خارجية . والويل لعمال البواليع في هذه الحال . انهم قد يهلكون بسبب من دخولهم إلى البالوعة الغائرة ، في غير ما حذر . والسجلات القديمة تذكر بعض العمال الذي دفنوا في الخسف ، على هذا النحو . انها تذكر عدة أسماء . ومن بين هؤلاء ذلك العامل الذي هلك في حمأة غائرة تحت قناة شارع «كاريم برونان» ، والذي كان يدعى بليز بوترين . وكان بليز بوترين هذا أخاً لنقولا بوترين الذي كان آخر حفار قبور في الجبانة المدعوة «شارنييه ديزينوسان» عام ١٧٨٥ ، وهو التاريخ الذي ماتت فيه هذه الجبانة .

وكان ثمة ايضاً الفيكونت ديسكوبلو ، الشاب الفاتن ، الذي تحدثنا

عنه ، وهو أحد أبطال حصار ليريدا ، حيث كان المهاجمون مرتدين
الجوارب الحريرية ، يتقدمهم عدد من الكائنات * . وتفصيل ذلك ان
ديسكوبلو بوغت ذات ليلة عند ابنة عمه الكونتس دو سورديس ، ففرق
في مَوَحْل من مَوَاحِل بالوعة بوتريسي كان قد فزع اليه فراراً من وجه
الدوق . وحين وُصف موته لمدام دو سورديس طلبت زجاجة الشم ،
ونسيت ان تبكي لكثرة ما استنشقت من الاملاح * . فليس ثمة غرام
يصمد في مثل هذه الحال . البالوعة تطفئه . إن هيرودوت * . ترفض ان
تغسل جثة لياندر . وان تيسيه تسد انفها امام بيرام * . وتقول : «أف» :

٦

الحسف

لقد وجد جان فالجان نفسه أمام خسف ما .
وكان هذا الضرب من الانهيار مألوفاً آنذاك في تجربة الشان زيليزيه ،
شبه الممتنعة على الاعمال المائية ، والقليلة الصيانة للمنشآت تحت الأرضية ،
بسبب من ميوعتها المفرطة . وهذه الميوعة تفوق حتى ميوعة رمال حي
السان جورج التي ما كان من الممكن التغلب عليها إلا برصف الحجارة
في الماء على طبقة من الاسمنت ، وميوعة التربة الطينية الممتنة بالغاز في

* جمع كان ، الآلة الموسيقية المعروفة .

** يقصد املاح الشم ، وهي التي تستعمل للتخلص من الأغشاء والصداع .

*** هيرودوت Hero ولياندر Léandre عاشقان تروي قصة غرامها قصيدة اغريقية

متأخرة ، وكانت هيرودوت كاهنة لفينوس ، وقد غرق حبيبها لياندر في الدردليل .

**** Pyrame شاب بابلي اشتهر بحبه لتيسيه Thibé وتروي الاسطورة ان بيرام

قتل نفسه حين رأى دماً توهم انه دم تيسيه ، حتى اذا علمت تيسيه بالامر
انتحرت بدورها .

« حي الشهداء » ، تلك التربة المائعة إلى درجة جعلت شق المعبر نحت
دهليز الشهداء غير مُجدٍ إلا باصطناع انبوب معدني . حتى إذا هدموا ،
عام ١٨٣٦ ، ابتغاء إعادة بنائها ، البالوعة الحجرية العتيقة تحت ضاحية
سان أونوريه ، التي نرى جان فالجان في هذه اللحظة متورطاً فيها ،
شكّل الرمل المتحرك ، الذي يؤلف التجربة الممتدة من الشان زيليزيه إلى
الد « سين » ، عقبةً كأداء إلى حد جعلت العمل يستمر ستة اشهر تقريباً ،
بما أثار اعتراضات شديدة من أصحاب الاملاك القائمة على ضفة النهر ،
وبخاصة من أصحاب الفنادق والعربات الفاخرة . كان العمل أكثر مسن
عسير ، كان خطيراً . ولقد كان ثمة ، في الحق ، اربعة اشهر ونصف
من المطر ، وثلاثة فيضانات لنهر السين .

وكان الخسف الذي صادف جان فالجان ناشئاً عن أمطار اليوم
السابق ، الغزيرة . وكان انخساف بلاط الشارع ، بعد ان خذله الرمل
التحتي ، قد أدى إلى احتجاز مياه الامطار . حتى إذا حدث الارتشاح ،
تبعه الانخساف . وكانت الأرضية ، المتفككة ، قد اختفت في الوحل :
إلى أية مسافة ؟ من المتعذر على المرء أن يحزر . كانت الظلمة أحلك
منها في أيما مكان آخر : كانت حفرة من وحل في مغارة
من ليل .

واستشعر جان فالجان البلاط يغور تحته . وولج هذه الحمأة . كانت
ماء على السطح ، ووحلاً في القعر . إن عليه ان يجتازها بأية حال . فقد
كان الارتداد مستحيلاً . كان ماريوس مشرفاً على الموت ، وكان جان
فالجان خائر القوى . وإلى أي مكان غيره يستطيع أن يذهب ؟ وتقدم
جان فالجان . وإلى هذا ، فأن الموحل بدا عبر عميق في الخطوات الأولى ،
ولكن قدميه كانتا تمعنان في الغوص كلما أَمعن في التقدم . وسرعان ما
وصل عمق الوحل إلى منتصف ساقيه ، وانتهى الماء إلى أعلى من ركبتيه ،
وتابعت سيره ، حاملاً ماريوس بذراعيه أعلى ما استطاع حمله فوق الماء .

وانتهى الوحل الآن إلى ركبتيه ، وبلغ الماء خصره . ولم يعد في طوقه أن يرتد . وغاصت قدماه أعمق فأعمق . كان واضحاً ان هذا الوحل ، الكافية كثافته لثقل رجل واحد ، عاجز عن احتياله رجلين اثنين . ولو قد كان كل من جان فالجان وماريوس منفرداً اذن لكان له أمل في النجاة . وواصل جان فالجان تقدمه ، حاملاً ذلك الرجل المحتضر ، الذي ربما كان جثة هامدة .

وارتفعت المياه إلى إبطيه ؛ واستشعر أنه يغرق ؛ ولم يوفق إلى التحرك في أعماق الوحل الذي كان فيه إلا في مشقة . فالكثافة ، التي كانت السناد ، كانت هي العقبة أيضاً . كان لا يزال رافعاً ماريوس . وفي بذل للقوة لم يسبق إلى مثله ، تقدم إلى أمام ، ولكن قدميه غاصتا أكثر . كان رأسه وحده ، الآن ، خارج الماء ، وكذلك ذراعه الرافعتان ماريوس . إن بين صور الطوفان القديمة أمّا ترفع طفلها على هذا النحو .

وغاص أعمق فأعمق ، وردّ وجهه إلى الوراء اجتناباً للماء ، ولكي يكون في مقدوره أن يتنفس . ولو قدّر لأحد ان يراه في تلك الظلمة اذن لخيّل إليه أنه يرى قناعاً عائماً في الظلام . ولم يلمح فوقه رأس ماريوس المنكسر ووجهه الشاحب ، إلا على نحو غامض . وبذل جهداً يائساً ، ودفع قدمه إلى أمام : ووقعت قدمه على شيء صلب . كانت نقطة ارتكاز . وكان ذلك في الوقت المناسب .

ونهض ، وتلوى متوجعاً ، وثبت نفسه فوق هذا المرتكز في ضرب من الأسعرج . واحس وهو يفعل ذلك وكأنه يضع قدمه على أولى درجات من سلم يصعد به ثانية إلى الحياة .

وهذا المرتكز ، المكتشف في اللحظة الأخيرة وسط الوحل ، كان مستهل منحدر الأرضية الآخر ، تلك الأرضية التي كانت قد التوت من غير أن تتحطم ، وتحدبت مثل لوح خشبي وبوصفها قطعة واحدة .

إن الأرضيات المحكمة البناء لتشكل عقداً ، وان لها مثل هذا الرسوخ . وكانت تلك القطعة من أرضية الدهليز ، المغمورة جزئياً ، ولكن الصلبة ، منحدرأ حقيقياً ، فما يكادان يبلغان هذا المنحدر حتى ينجوا . وارتقى جان فالجان هذا السطح المنحني ، وانتهى إلى الجانب الآخر من الموحل .

وفيما كان يخرج من الماء تعثرت قدمه بحجر ، فخرّ على ركبته . وبدا ذلك الحادث ملائماً في نظره ؛ وظل على هذا الوضع فترة ، واستغرقت روحه في صلاة للرب غير ملفوظة . ونهض ، مرتعداً ، مثلوجاً ، آسنأ ، محدودباً تحت هذا الرجل المحتضر الذي كان يحمله ، وقد سال الوحل من اقطار جسمه كلها ، وامتلأت روحه بضياء عجيب .

٧

قد نجنح الى الشاطئ احياناً حيث نظن اننا نهبط الى اليابسة

واستأنف سيره كرة اخرى . بيد أنه إن يكن لم يترك حياته في ذلك الخسف فالذي يبدو انه ترك قوته . كان هذا الجهد الفائق قد أنهكه . وكان خوره من الشدة بحيث امسى مضطراً إلى أن يأخذ نفساً ، كل ثلاث خطوات أو اربع ، ويستند إلى الجدار . وذات مرة ، تعيّن عليه ان يجلس على الحافة لكي يغير وضع ماريوس ، وخيّل له أن عليه ان يبقى هناك . ولكن إذا كانت قوته قد ماتت ، فأن عزيمته لم تمت . ونهض . ومشى في بأس ، وفي سرعة تقريباً ، طوال مئة خطوة ، من غير

ان يرفع رأسه ، ومن غير ان يتنفس تقريباً : وضجأة ارتطم بالجدار .
كان قد انتهى إلى زاوية البالوعة ، واذ وصل إلى المنعطف منكس الرأس
التقى الجدار . ورفع عينيه . وعند أقصى الدهليز ، هناك أمامه ، بعيداً
بعيداً جداً ، لمح ضوءاً . وهذه المرة ، لم يكن الضوء الرهيب . كان
الضوء الخبِر الأبيض . كان ضوء النهار :
لقد رأى جان فالجان المخرج .

ان النفس الهالكة التي يقدر لها ، من وسط الاتون ، ان تلمح فجأة
مخرجاً من جهنم خليق بها ان تشعر بما شعر به جان فالجان . إنها تطير
في سر ، بالبقية الباقية من جناحيها ، نحو الباب المشع . ولم يعد جان فالجان
يستشعر الاعياء ، ولم يحس بثقل ماريوس ، ووجد ركبته القولاذيتين
كرة أخرى ، وانطلق راكضاً أكثر منه ماشياً . وفيما هو يقترب ، كان
المخرج يتخذ شكلاً أوضح فأوضح . كان قوساً دائرياً ، أقل ارتفاعاً
من العقد الذي غار شيئاً بعد شيء ، وأقل عرضاً من الدهليز الذي ضاق
كلما انخفض العقد . وانتهى النفق ، من داخل ، على شكل قمع .
تضييق سقيم ، منقول من بوابات السجون . تضيق معقول في سجن ،
ولكنه غير معقول في البالوعة ، وقد صُحح منذ ذلك الحين .
ووصل جان فالجان إلى المخرج .
وهناك وقف .

كان هو المخرج حقاً ، ولكن جان فالجان لم يستطع الخروج منه .
كان القوس موصداً بشبكة حديدية قوية . وكانت الشبكة الحديدية -
التي لم تكن تدور ، كما تدل جميع المظاهر ، على رزاتها الصدئة ،
إلا نادراً - مشدودة إلى إطار حجري بقفل غليظ بدا ، وقد احمر من
الصدأ ، وكأنه آجرة ضخمة . كان في ميسور المرء ان يرى ثقب المفتاح
ولسان القفل القوي مغموراً غمراً عميقاً في الرزة الحديدية . كان القفل
مغلقاً ، على نحو منظور ، غلقاً مزدوجاً . كان واحداً من أقفال الباستيل

التي كانت باريس العتيقة شديدة السخاء بها .
ووراء الشبكة الحديدية ، كان الهواء الطلق ، والنهر ، وضوء النهار ،
والشاطئ - الضيق جداً ولكن الكافي لتمكين المرء من المرور - وارضفة
للنهر النائية ، وباريس - تلك الهوة التي يستطيع المرء الاختفاء فيها -
بسهولة - والأفق العريض ، والحرية . وتبين إلى يمينه ، في سافلة النهر ،
جسر ايننا ، وإلى يساره ، في عالية النهر ، جسر الانفاليد . كانت
البقعة ملائمة للرصد في الليل وللفرار . كانت احدى نقاط باريس الأكثر
انزلا ؛ الشاطئ المواجه له « غرو كايو » . ودخل الذباب وخرج من
خلال قضبان الشبكة الحديدية .

لعلها كانت الساعة الثامنة والنصف مساء . كان الليل قد هبط .
ووضع جان فالجان ماريوس على أرضية الدهليز في محاذاة الجدار ،
ثم مضى إلى الشبكة الحديدية ، وأمسك بقضبانها بكلتا يديه . كان الهز
مسعوراً ، ولكن الاهتزاز كان صغيراً . إن الشبكة الحديدية لم تتحرك .
وقبض جان فالجان على القضبان الحديدية ، واحداً بعد آخر ، راجياً
ان يوفق إلى انتزاع أقلها صلابة ، وأن يتخذ منه مخلاً يمكنه من رفع
الباب أو كسر القفل . ولكن أياً من القضبان لم يتحرك . إن أسنان النمر
ما كانت أكثر صلابة في مغارزها . لا مخل ، لا جهد قادراً على الرفع .
كانت العقبة عصية لا تقهر . ولم تكن ثمة وسيلة لفتح الباب .

أيتعين عليه ، اذن ، ان يموت هناك ؟ ما الذي يجب ان يفعله ؟
أيقلب على عقبه ؟ أيرتد سالكاً تحت الطريق الرهيبة التي اجتازها منذ
لحظات ؟ لم تكن له القوة الكافية لذلك . وإلى هذا ، كيف السبيل إلى
عبور ذلك الموحل ، كرة اخرى ، وهو الذي لم ينج منه إلا بمعجزة ؟
وبعد الموحل ألم تكن ثمة دورية الشرطة التي لا يستطيع المرء ، من غير
ريب . ان ينجو منها مرتين ؟ وفوق هذا كله ، إلى أين يذهب ؟ أي
اتجاه يتخذ ؟ إن هبوط المنحدر ما كان ليبلغه هدفه . ولو انه انتهى

إلى مخرج آخر ، اذن لوجده مسدوداً بباب أو بشبكة حديدية . كانت جميع المخارج موصدة على هذا النحو من غير شك . كانت المصادفة قد انتزعت الشبكة الحديدية التي دخلا منها ، ولكن مخارج البالوعة الأخرى كانت موصدة من غير جدال . إنه لم يوفق إلى غير الفرار إلى سجن .

لقد قضي الأمر . كان كل ما فعله جان فالحان عقيماً . إن الله لم يشأ .

كانا كلاهما قد علقا في نسيج الموت المظلم الهائل ، وأحس جان فالحان بالعنكبوت الرهيبة تمشي فوق تلك الخيوط السوداء المرتعدة في الظلام .

وإدار ظهره إلى الشبكة الحديدية ، وخرّ على الحصباء ، مكباً على وجهه أكثر منه جالساً ، إلى جانب ماريوس الذي كان ما يزال فاقد الحركة ، وغار رأسه بين ركبتيه . لا مخرج . تلك كانت آخر قطرة من قطرات الألم النفسي المرير .

فيمن فكر وهو ينوء تحت ذلك الخور البالغ ؟ انه لم يفكر لا في نفسه ولا في ماريوس . لقد فكر في كوزيت .

٨

ذيل السترة المعزق

وفي غمرة من هذا الاعياء مست كتفه يداً ، وخاطبه صوت مهموس قائلا :

— « أعطني النصف ! »

شخص في الظلام ؟ ليس كاليأس شيء يشبه الحلم : وخيل لجان

فالجبان أنه يعلم . إنه لم يسمع وقع خطى ما . أكان ذلك ممكناً ؟
رفع عينيه .

كان أمامه رجل .

وكان الرجل يرتدي درّاعة ؛ كان حافي القدمين . وكان بمسك نعليه
بيده اليسرى . كان من الواضح انه خلعهما لكي يكون قادراً على الوصول
إلى جان فالجبان من غير ان يحس به .

ولم يتردد جان فالجبان لحظة . ولئن كان ذلك اللقاء غير متوقع
البتة ، فقد كان هذا الرجل معروفاً عنده . كان هذا الرجل هو
تيناردييه .

وعلى الرغم من ان جان فالجبان أوقف ، إذا جاز التعبير ، في إجمال
فانه — وهو المعتود ان يكون يقطاً وعلى حذر من الضربات غير المتوقعة
التي يتعين عليه ان يتقبلها بسرعة — استعاد حضور ذهنه الكامل في الحال
وإلى هذا ، فان الاحوال لا يمكن أن تكون اسوأ من ذلك ، فهناك درجة
من الشدة تمتنع على الزيادة . وتيناردييه نفسه لم يكس في ميسوره ان
يضيف شيئاً إلى سواد ذلك الليل .
وكانت لحظة توقّع .

ورفع تيناردييه يده اليمنى إلى ارتفاع جبينه ، وظلل عينيه بها ، ثم
زوى ما بين حاجبيه بينما غمر بعينه على النحو الذي يميز ، مع قرص طفيف
للغم ، ذلك الانتباه الثاقب الذي يتكشف عنه رجل يحاول ان يتبين شخصاً
آخر . ولم يوفق الى ذلك البتة . لقد أدار جان فالجبان ظهره للضوء ، كما
قلنا من قبل ، وكان فوق هذا مشوه الصورة ، ملطخاً بالوحل ، مضرجاً
بالدم إلى حد خليق بأن يجعل تعرفه متعذراً حتى في قاب الظهيرة . أما
تيناردييه — وكان الضوء المنبعث من الشبكة الحديدية . وهو ضوء شاحب
من غير شك ولكنه دقيق في شحوبه ، ينير وجهه — أما تيناردييه هذا
فقفز ، كما تقول الصورة المجازية المتبدلة ، إلى عيني جان فالجبان في

الحال : وكان في هذا التفاوت بين الوضعين ما ضمن لجان فالجان شيئاً من الامتياز في تلك المباراة الخفية التي كانت على وشك أن تنشب بين الوضعين والرجلين . لقد تم اللقاء بين جان فالجان محجّباً وبين تينارديه متزوّج القناع .

وأدرك جان فالجان ، في الحال ، أن تينارديه لم يعرفه .
وحقق أحدهما إلى الآخر ، لحظة ، في ذلك الغسق ، وكأنما كان كل منهما يقيس صاحبه . وكان تينارديه أسرع إلى قطع حبل الصمت .
- « ما الذي ستعمله من أجل الخروج ؟ »

ولم يجب جان فالجان .

وتابع تينارديه :

- « من المستحيل فتح القفل بكلمات . ومع ذلك ، فأنا عليك أن تخرج من هنا . »

فقال جان فالجان :

- « هذا صحيح . »

- « حسن . أعطني النصف . »

- « ماذا تعني ؟ »

- « لقد قتلت الرجل . هذا حسن . أما أنا ، فمعي المفتاح . »

وأشار تينارديه إلى ماريوس . وتابع كلامه :

- « أنا لا أعرفك ، ولكني أود أن أساعدك . لا شك أنك

صديق . »

وبدأ جان فالجان يفهم . لقد حسبه تينارديه سفاحاً . وعاد تينارديه

إلى القول :

- « اسمع ، أيها الرفيق ، أنت لم تقتل هذا الرجل من غير أن

تنظر إلى ما في جيوبه . أعطني حقي في النصف . سوف افتح

الباب لك . »

وسحب من تحت دراعته الملاصق بالثوب مفتاحاً كبيراً وأبرزه ابرازاً
نصيفاً ، ثم أضاف :

« أتحب أن تعرف شكل مفتاح الهرب ؟ دونك إياه . »
« وظل جان فالفجان أبله » - والتعبير لكورناي العجوز - إلى حد
الشك في ان ما رآه كان حقيقياً . كانت العناية الإلهية في قناع من
الهل ، والملاك الخير منبثقاً من باطن الارض على صورة تينارديه .
واقحم تينارديه جمع كفه في جيب ضخم مخبوء تحت دراعته ، واخرج
حبلاً ، وقدمه إلى جان فالفجان .
وقال :

« خذ . لقد أعطيتك الحبل بالاضافة إلى ذلك . »
« حبل ؟ ولأي غرض ؟ »
« وتحتاج إلى حبل أيضاً ، ولكنك ستجد حبلًا في الخارج .
إن هناك ردمًا . »

« حبل ؟ ولأي غرض ؟ »
« ما دمت ستقذف بحجرة الرجل في النهر فانت محتاج إلى حبل
وحبل . وإلا عامت على سطح الماء . »
وأخذ جان فالفجان الحبل . وليس ثمة شخص لم يتقبل بعض الاشياء
على مثل هذا النحو الميكانيكي .

وفرقع تينارديه أصابعه وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة :
« والآن ، أيها الرفيق ، ما وسيلتك إلى الخروج من ذلك الموئل
للذي هناك ؟ انا لم أجروا على المغامرة بنفسي فيه . أف ! انت لا تشم
جيداً . »

وبعد فترة ، أضاف :
« أنا أوجه اليك أمثلة ، ولكنك على حق في عدم الاجابة عنها .
إن هذا تدرّب على ربع الساعة اللعينة التي مستقضياها مع قاضي التحقيق . »

والى هذا ، فانك بعدم الكلام بتاتاً تجتنب مغامرة التحدث بصوت أعلى مما ينبغي . وانك لتخطئ على كل حال إذا حسبت ، لمجرد اني لا ارى وجهك ولا أعرف اسمك ، اني لا أعرف من أنت وماذا تريد . معروف . لقد سحقت هذا الرجل ، بعض الشيء . والآن تريد ان تخفيه في مكان ما . انت في حاجة إلى النهر ، محباً الحماقة الكبير . وسوف اخلصك من ورطتك . ان مساعدة فتى طيب نزلت به محنة تُلبسني حذائي . »

وفيما كان يقرّ جان فالجان على اعتصامه بالصمت ، راح يعمل بصورة واضحة على إغرائه بالكلام . لقد دفع منكبه لكي يحاول أن يرى صورته الجانبية ، وهتف ولكن من غير ان يرتفع إلى ما فوق النبرة المعتدلة التي احتفظ بها صوته :

« وعلى ذكر الموصل ، يبدو لي انك حيوان فخور . لماذا لم تقذف بالرجل هناك ؟ »

واعتصم جان فالجان بالصمت . واستأنف تيناردييه كلامه ، رافعاً إلى جوزة حلقه تلك الخرقه التي قامت عنده مقام رباط الرقبة ، وهي حركة تتم سبباً الحصافة عند الرجل الجدي :

« لعلك ، في الواقع ، تصرفت بحكمة : إن العمال حين يجيئون غداً لكي يسدوا الثقب لا بد ان يجدوا الجثة منسية هناك ، وعندئذ يكون في استطاعتهم ، خيطاً خيطاً ، وقشة قشة ، أن يلتقطوا الاثر ، ويصلوا اليك . هل اجتاز أحد البالوعة ؟ من ؟ من اين خرج ؟ هل رآه أحد يخرج ؟ ان للبوليس دماغاً كبيراً . والبالوعة غادرة ، وهي تشي بك . ومثل هذا الاكتشاف نادر ، وهو يلفت الانتباه ، فقليل من الناس يستخدمون البالوعة في اعمالهم ، على حين أن النهر في خدمة الناس جميعاً . ان النهر هو القبر الحقيقي . وفي نهاية الشهر يصيدون الرجل

بشيكات سان كلو . حسن ، ما محصول ذلك ؟ جيفة ، من غير شك !
من قتل ذلك الرجل ؟ باريس . والعدالة لا تكلف نفسها عناء السؤال عن
ذلك . لقد احسنت صنعاً . »

وكلما ازداد تيناردييه ثروة ازداد جان فالجان بكماً . ودفع تيناردييه
كتف جان فالجان كرة اخرى .

— « والآن دعنا نجز الصفقة . فلنقتسم . لقد رأيت مفتاحي فأرني
دراهمك . »

كان تيناردييه شكساً ، ضارباً ، مبهماً ، ومتوعداً بعض الشيء .
ومع ذلك فقد كان ودياً .

وكان ثمة شيء غريب . فقد كان مسلك تيناردييه غير طبيعي ، إنه لم
يبدُ مطمئناً كل الاطمئنان . صحيح أنه لم يصطنع سيما خفية ، ولكنه
تكلم في صوت خفيض . فبين الفينة والفينة كان يضع اصبعه على فمه
ويغمغم : « صه ! » وكان من العسير على جان فالجان ان يحزر
لماذا . فلم يكن هناك احد غيرهما . وفكر جان فالجان ان من الجائز
ان يكون بعض قطاع الطرق الآخرين محتبسين في احدى الزوايا المحجوبة
غير بعيد عنهما ، وان تيناردييه لم يكن مهتماً بأن يقاسمهم ما يطمع في
الحصول عليه .

وعاد تيناردييه إلى الكلام :

— « فلنختم . كم كان في جيوب الرجل ؟ »

وبحث جان فالجان في جيوبه هو .

كان من عاداته دائماً ، كما يذكر القاري ، ان يحمل بعض المال .
ذلك ان حياة الحيل المظلمة التي 'حكم عليه بأن يحياها جعلت هذا قانوناً
بالنسبة اليه . بيد أنه هذه المرة أخذ على حين غرة . فحين لبس ، أمس ،
ثوب الحرس الوطني كان قد نسي ، في استغراقه الحدادي ذاك ، ان
يأخذ حافظة نقوده معه . لم يكن معه غير بعض القطع النقدية في جيب

صدرته ، وكان ذلك يبلغ نحواً من ثلاثين فرنكاً . وجعل داخل جيوبه خارجها ، وكانت كلها متقوعة بالوحل ، وعرض على حافة البالوعة ليرة لويسية ذهبية ، وقطعتين من فئة الفرنكات الخمسة ، وخمس قطع أو ست قطع من فئة الـ «سو» الكبير .

ومد تيناردييه شفته السفلى ، وصعر خده على نحو ذي مغزى .

وقال :

— « لقد قتلته بثمن بخس . »

وبدأ يحس جيوب جان فالجان وماريوس في دالة بالغة . ولم يعارضه جان فالجان ، فقد كان همه في المحل الأول ان يدير ظهره للنور . وفيما كان تيناردييه يتحسس سترة ماريوس ، وجد — بمثل حذاقة مشعوذ — الوسيلة ، من غير ان يلفت نظر جان فالجان ، لانتزاع مزرقة منها اخفاها تحت دراعته ، معتقداً في أغلب الظن ان مزرقة القماش هذه قد تساعده في ما بعد على التعرف إلى القاتل والقاتل . بيد أنه لم يجد أكثر من ثلاثين فرنكاً »

وقال :

— « هذا صحيح . انكما معاً لا تملكان أكثر من ذلك »

واخذ كل شيء ، ناسياً قوله : « اعطني النصف » .

وتردد قليلاً أمام قطع الـ «سو» الكبيرة . وبعد تفكير ، اخذها ايضاً ملمداً :

— « لا بأس ! ذلك يعني قتل الناس بالخنجر بسعر رخيص أكثر مما ينبغي . »

قال ذلك ، وعادوا اخراج المفتاح من تحت دراعته .

— « والآن ، ايها الصديق ، يجب ان تخرج . هذا أشبه بالسوق الموسمية حيث يدفع المرء عند خروجه . ولقد دفعت انت ، فاخرج . »

وشرع يضحك :

هل كان ينتوي ، بتقديمه مساعدة هذا المفتاح لرجل مجهول وبتمكينه شخصاً آخر غيره من الخروج من ذلك الباب - هل كان ينتوي بذلك على نحو خالص ونزبه انقاذ سفاح من السفاحين ؟ ذلك شيء يجيز المرء لنفسه الشك فيه .

ومساعد تيناردييه جان فالجان لحمل ماريوس على كتفيه كرة اخرى . ثم مضى على رؤوس أصابعه نحو الشبكة الحديدية ، وأشار إلى جان فالجان بأن يتبعه ، ونظر إلى الخارج ، ووضع إصبعه على فمه ، ووقف بضع ثوان وكأنه نهبُ التردد . حتى إذا اتم مراقبته هذه ، وضع المفتاح في القفل . وانزلق لسان القفل ، ودار الباب . لم يكن ثمة لا قرقرة ولا صرير . لقد تم ذلك في سكونة بالغة . وكان واضحاً ان هذه الشبكة الحديدية برزاتها ، المزيّنة في عناية ، كانت تُفتح على نحو متواتر اكثر مما يُظن . وكانت هذه السكونة مشوومة . كنت تستشعر الرواح والمجيء السريين ، ودخول رجال الليل وخروجهم الصامتين ، وخطوات الجريمة التي لا صوت لها . لا ريب في ان البالوعة متواطئة مع عصابة خفية ما . كانت تلك الشبكة الحديدية الصموت مخبئةً للمسروقات .

وفتح تيناردييه الباب نصف فتحة ، بحيث يمكن جان فالجان من المرور مجرد تمكين ، واغلق الشبكة الحديدية من جديد ، وادار المفتاح في القفل مرتين ، وغاص كرة اخرى في الظلام ، من غير ان يحدث من الضجيج شيئاً أكثر من نفَس . لقد بدا وكأنه يمشي بمثل رجلي النمر المخمليتين ،

وبعد لحظة ، كانت تلك « العناية » الرهيبة قد ولجت اللامنتظور من جديد .

ووجد جان فالجان نفسه في الخارج :

ماريوس يبدو ميتاً في عيني خبير

وترك ماريوس ينزلق فوق الشاطئ .

كانا في الخارج .

كانت الانخرة الوبيثة ، والظلمة ، والهول ، خلفهما . وكان الهواء الصحي النقي ، الحلي ، البهيج ، المستنشق في حرية يغمره من أقطاره . وفي كل مكان حوله كان صمت ، ولكنه الصمت الفاتن المرافق لغروب الشمس في سماء صاحبة . كان الغسق قد ران ، وكان الليل قد هبط - الليل ، ذلك المحرر الكبير ، وصديق جميع أولئك الذين يحتاجون إلى رداء من اردية الظلام لكي ينجوا من الألم المرير . وانبسطن السماء من كل ناحية مثل هدوء هائل . واقبل النهر إلى قدميه بمثل صوت قبلة . وسمع محاورة الاعشاش الاثرية وهي تتبادل التمنيات بقضاء ليلة سعيدة في شجرات الدردار بـ « الشان زيليزيه » . وكانت بضع نجوم مخترفة على نحو باهت زرقة سمت الرأس الشاحبة ، ومنظورة بالتخيل ليس غير - كانت هذه النجوم قد أحدثت تألقات صغيرة لا سبيل إلى ادراكها في الفضاء الرحب . كان المساء ينشر فوق رأس جان فالجان جميع ملاطفات اللانهاية .

كانت تلك الساعة الحائرة البديعة التي تخرج الصمت عن لا ونعم . كان ثمة قدر من الليل كاف لأن يجعل المرء يضيع وسطه على مسافة قصيرة ، وكان لا يزال ثمة قدر من النهار كاف لأن يجعل العين تتبين المرء عن كذب .

وطرال بضع ثوان استبد كل هذا الصفاء الجليل الملاطف بضع لحظات بجان فالجان استبداداً لا سبيل إلى مقاومته . إن ثمة مثل لحظات

النسيان هذه . فالآلم يرفض إبرام البائس ، وكل شيء ينكسف في الفكر .
ويلف السلامُ الحالمُ وكأنه ليل ، وتحت الفسق الذي يرسل أشعته ، وتقليداً
للسماء التي تهمل ، تشرق النفس اشراق النجوم . ولم يتمالك جان فالجان
ان يحرق في ذلك الظل الرحب الصافي المنبسط فوقه . وخلال استغراقه
في التفكير اخذ - في صمت السماء الابدية الجليل حمماً من الصلاة
والنشوة الروحية . ثم انحنى فجأة ، وكأن شعوراً بالواجب قد عاوده ،
فوق ماريوس ، وغرف قليلاً من الماء في باطن يده ونضح وجه ماريوس
في رفق بوضع قطرات منه . ولم تفصل اجفان ماريوس ، ولكن فمه
نصف المفتوح تنفس .

وكان جان فالجان يعاود غمس يده في النهر ، كرة اخرى ، عندما
استشعر ضيقاً ممتنعاً على الوصف كذلك الضيق الذي نستشعره حين يكون
امروء واقفاً خلفنا ، من غير ان نراه .
لقد سلفت منا الاشارة إلى هذا الاحساس الذي يعرفه الناس جميعاً .
واستدار .

وكشأنه منذ فترة ، كان شخص ما واقفاً خلفه حقاً .
كان رجل فارح الطول ، ملتف بمعطف طويل ، متصالب الذراعين ،
يحمل بيده اليمنى هراوة في ميسور المرء ان يلمح الكرة المعدنية التي في
رأسها - نقول كان هذا الرجل واقفاً منتصب القامة خلف جان فالجان
الذي كان منحنيًا فوق ماريوس .

كان ذلك ، بمساعدة من الظلام ، ضرباً من الشبح . ولقد كان خليقاً
بالرجل البسيط ان يخافه بسبب من الفسق ، كما كان خليقاً بالرجل المفكر
ان يرهبه بسبب من الهراوة .
وعرف جان فالجان جافير .

ولا ريب في ان القاري قد حزر ان متعقب تينارديه لم يكن غير
جافير . وكان جافير قد قصد ، بعد ان فارق المتراس على نحو غير

متوقع ، إلى مديرية الشرطة ، فرفع تقريراً شفهيّاً إلى مدير الشرطة نفسه أثناء مقابلة قصيرة ، ثم انقلب في الحال لأداء مهمته التي انطوت — والقارئ يذكر تلك الورقة التي وجدت في جيبه — على مراقبة لشاطئ الضفة اليمنى من الـ « شان زيليزيه » الذي أثار انتباه البوليس منذ فترة من الزمان . هناك ، كان قد رأى تيناردييه ، وكان قد تعقبه . أما البقية فمعروفة .

ومفهوم أيضاً أن فتح تلك الشبكة الحديدية بكثير من التفضل في وجه جان فالجان كان عملاً صدر فيه تيناردييه عن دهاء . لقد استشعر تيناردييه أن جافير كان لا يزال هناك ، فللرجل المراقب قوة شم لا تكذِّبه ، أن عظماً ينبغي أن يُطرح لذلك الكلب . سفاح ، يا لها من نعمة غير متوقعة ! كان ذلك السفاح هو الفداء الذي لا سبيل إلى رفضه . إن تيناردييه ، باخراجه جان فالجان بدلاً عنه ، قدم إلى رجال الشرطة ضحية ، وأبعدهم من طريقه ، وجعلهم ينسونه في غمرة قضية أعظم ، وأتاب جافير على انتظاره ، وهو ما يرضي الجواسيس دائماً ، وكسب ثلاثين فرنكاً ، وتعلقت آماله من غير ريب — من ناحيته هو — بالحرب مستعيناً بهذا الالهاء .

كان جان فالجان قد انتقل من مهلكة إلى مهلكة .

وكانت هاتان المصادفتان الموصولتان ، وكان وقوعه من تيناردييه على جافير ، أمراً بالغ القسوة .

ولم يتبين جافير جان فالجان الذي لم يعد ، كما قلنا ، يشبه نفسه ؛ لقد ظل متصالب الذراعين ، ولكنه سارع بحركة غير ملحوظة إلى الأمساك بهراوته بجمع كفه ، وقال في صوت هاديء موجز :

— « من أنت ؟ »

— « أنا . »

— « أنت من ؟ »

— « جان فالجان . »

ووضع جافير اهرأوة بين اسنانه ، وطوى ركبتيه ، ووضع يديه القويتين على كتفي جان فالجان ، وتشبثا به مثل كلابتين ، وحدق اليه فاحصاً ، وعرفه . كاد وجهاهما أن يتماسا . وكانت نظرة جافير فظيعة .

ووقف جان فالجان جامداً تحت قبضة جافير مثل أسد قدّر له ان يستسلم لبرائن وشتق . .
وقال له :

— « أيها المفتش جافير ، لقد القيت القبض علي . وإلى هذا ، فقد اعتبرت نفسي ، منذ هذا الصباح ، أسيرك . أنا لم أعطك عنواني لكي أحاول الفرار منك . قدني حيث تشاء . ولكن تكرم علي بشيء . »
وبدا جافير وكأنه لم يسمع . وسمر عينه على جان فالجان . كانت ذقنه المتجهمة قد دفعت شفّتيه نحو أنفه ، علامة الاستغراق في التفكير على نحو ضارٍ . وأخيراً أفلت جان فالجان ، ونهض في مثل استقامة عصا ، وعاود إمساك هراوته بجمع كفه في قوة ، وطرح هذا السؤال ، مغمغماً وكأنه في حلم أكثر منه ناطقاً :

— « ماذا تفعل هنا ؟ ومن هذا الرجل ؟ »

وأجاب جان فالجان ، وقد بدا وكأن جرسه أيقظ جافير :

— « ذلك بالضبط ما أردت ان أحدثك عنه . تصرف بي كما تشاء ، ولكن ساعدني أولاً على ان أحمله إلى منزله . أنا لا أسألك شيئاً غير ذلك . »

ونقلص وجه جافير ، كما يقع له كلما بدا وكأن مخاطبه يعتقد أن في مقدوره — هو جافير — التسليم بشيء . ومع ذلك فلم يقل لا .
وانحنى كرة أخرى ، واخرج من جيبه منديلاً ، فغمسه في الماء ،

• الرشق حيوان يشبه الفهد .

ومسح به جبين ماريوس المضرج بالدم .

وقال في همس ، وكأنه يخاطب نفسه :

« هذا الرجل كان في المتراس . انه ذلك الذي دعوه ماريوس . »

جاسوس من الطراز الأول ، لاحظ كل شيء ، وأصغى لكل شيء ،

وسمع كل شيء ، والتقط كل شيء ، وقد اعتقد انه على وشك ان

يموت ؛ جاسوس قام بمهمته حتى في حشرة الموت ، ودون ملاحظاته

وقد توكأ على الدرجة الأولى من درجات القبر .

وأمسك بيد ماريوس ، مستظلاً نبضه .

وقال جان فالجان :

« إنه جريح . »

فقال جافير :

« إنه ميت . »

فأجابه جان فالجان :

« لا . لم يميت بعد . »

ولاحظ جافير :

« لقد حملته ، اذن ، من المتراس إلى هنا ؟ »

ولا ريب في ان قلقه كان عظيماً اذ لم يلح قط في التساؤل عن ذلك

الفرار المربك من خلال البالوعة ، بل لم يلاحظ مجرد صمت جان فالجان

بعد سؤاله .

وبدا جان فالجان - من ناحيته - وكأن فكرة وحيدة استبدت به .

وأضاف :

« انه يسكن في الماريه ، شارع فتيات كالفير ، في منزل جده -

لقد نسبت اسمه . »

وبحث جان فالجان في سترة ماريوس ، واخرج منها حافظة الأوراق

وفتحها عند الصفحة الحاملة خط ماريوس بقلم رصاصي ، وقدمها

إلى جافير .

كان لا يزال في الهواء قدرٌ من النور الطافحي يمكن المرء من القراءة .
وإلى هذا ، فقد كان في عين جافير ذلك الوهج السنوري الذي تتميز به
طيور الليل . وحل ألغاز الأسطر القليلة التي خطها ماريوس ، وغمغم :
« جيلنورمان ، شارع بنات كالفير ، رقم ٦ . »

ثم صاح : « سائق ! »

والقاريء يذكر عجلة الكراء التي كانت تنتظر لوقت الحاجة .
واحتفظ جافير بحافظة أوراق ماريوس .

وبعد لحظة كانت العجلة ، الهابطة من منحدر المنهل ، قد أمست على
الشاطيء . وُمِد ماريوس على المقعد الخلفي ، وجلس جافير إلى جانب
جان فالجان في المقعد الأمامي .

وحين أغلق الباب ، انطلقت العجلة في سرعة . مصعّدة في الرصيف
باتجاه الباستيل .

وغادروا الرصيف ودخلوا إلى الشارع . وأهلب السائق - وكان في
مقعده شبه بصورة ظلية - أهلب بالسوط فرسيه المهزولين . وران الصمت
المثلوج على العربة . وبدا ماريوس - الفاقد الحراك ، المستند جسده إلى
زاوية العربة ، المنكس رأسه فوق صدره ، المتدلي الذراعين ، المتصلب
الرجلين - بدا وكأنه لا ينتظر إلا التابوت . وبدا جان فالجان وكأنه
يُخلق من ظلام ، وبدا جافير وكأنه يُخلق من حجارة . وفي تلك العربة
المفعمة بالليل ، والتي تراءى داخلها كلما مرت بأحد المصاييح وقد
شحب شحوباً شديداً ، وكأن ذلك بفعل وميض متقطع - في تلك العربة
جمعت المصادفةُ وبدأت وكأنها ألقت على نحو حدادي ما بين ضروب
الجمود الفاجعة الثلاثة : الجنة ، والشبح ، والتمثال .

عودة الابن الباذل حياته

وعند كل رجة فوق حصباء الطريق كانت قطرة من الدم تسقط من شعر ماريوس .

ولم تصل العجلة إلى رقم ٦ في شارع فتيات كالفير إلا بعد منتصف الليل .

وترجل جافير أولاً ، وثبتت بنظرة من الرقم المدون فوق باب العربات ، ورفع القارعة الثقيلة المصنوعة من حديد مطاوع ، والمزينة على الطريقة العتيقة بتيس وساطير . يتحدى أحدهما الآخر ، وخفق الباب خفقا عنيفا . وفُتح مصراع الباب على نحو جزئي ، ودفعه جافير . وبرز البواب ، متثابرا ، نصف يقظان ، وفي يده شمعة .

كان كل من في البيت نائما . فالناس يأوون إلى فراشهم باكرا في الـ «ماريه» ، وبخاصة في أيام الفتنة . إن ذلك الحي العتيق الصالح ، الذي اذهلته الثورة ، ليفزع إلى الرقاد ، كما يسارع الاطفال إلى اخفاء رؤوسهم تحت الدثار كلما أحسوا بأن «الغول» قد جاء .

وفي غضون ذلك رفع جان فالجان والسائق ماريوس ، وأخرجاه من العربة . لقد حمله جان فالجان من إبطيه ، وامسك به السائق من ركبتيه .

وفيا كانا يحملان ماريوس على هذا النحو دس جان فالجان يده تحت ثيابه ، التي كانت ممزقة ، وتلمس صدره ، واستيقن أنه ما يزال يخفق . بل لقد خفق خفقا أقل وهنا ، وكأن حركة العربة قد قبضت له انبعاثا جديدا .

• للساطير في الخرافات ، انسان ذو رجلين كرجلي القيس كان -سكن الغابات .

وصاح جافير في وجه البواب بتلك النبرة التي تلائم الحكومة ، أمام
بواب رجل متمرّد :

— « شخص ما ، يدعى جيلنورمان ؟ »

— « إنه هنا . ماذا تريد منه ؟ »

— « نحن نحمل اليه ابنه . »

فقال البواب في انشدهاء :

— « ابنه ؟ »

— « لقد مات . »

وأوماً جان فالجان — الذي أقبل خلف جافير رث الثياب وسخاً ،
والذي نظر اليه البواب في رعب — أوماً اليه برأسه انه لم يكن ميتاً .
وبدا وكأن البواب لم يفهم لا كلمات جافير ، ولا إيماءة جان فالجان .
وتابع جافير كلامه :

— « كان قد ذهب إلى المتراس . وها هو ذا . »

وصاح البواب :

— « إلى المتراس ؟ »

— « لقد جلب على نفسه القتل . اذهب وأيقظ أباه . »

ولم يتحرك البواب .

واندفع جافير يقول :

— « لماذا لا تذهب ؟ »

وأضاف :

— « سوف تكون هنا جنازة غداً . »

ذلك ان احداث الشارع العام الاعتيادية كانت مصنفة ، عند جافير ،
تصنيفاً مطلقاً ، هو أساس التبصر والحذر ، ولقد كان لكل طارئ عنده خائنه
الخاصة . كانت الحقائق المحتملة شبه منضودة في أدراج ، فهي تخرج
منها ، وفقاً للمناسبة ، في مقادير متفاوتة ؛ كان في الشارع لغط ، وقتنة ،

وكرنفال ، وجنازة .

واجترأ البواب بايقاظ باسك . وأيقظ باسك نيقوليت ، وابتظت نيقوليت العمة جيلنورمان . أما الجد ، فتركوه نائماً معتقدين أنه سوف يعرف النبا وشيكاً ، على أية حال .

وحملوا ماريوس إلى الدور الأول ، ولكن من غير أن يلمح ذلك احد في أقسام المنزل الاخرى ، ووضعوه على مقعد عتيق في غرفة الانتظار الخاصة بمسيو جيلنورمان . وفيما ذهب باسك لاستدعاء أحد الاطباء ، وراحت نيقوليت تفتح خزائن الملابس التحتية ، أحس جان فالجان بأن جافير يمسر كتفه . وفهم ، وهبط السلم ، تتبعه خطى جافير .

ورآهما البواب ينصرفان كما رآهما يصلان ، في نعاس مذعور . وامتطيا العربة من جديد ، وجلس السائق في مقعده الخاص . وقال جان فالجان .:

— « ايها المفتش جافير . تكرم عليّ ، بعدُ ، بشيء واحد . »
فسأله جافير في خشونة :

— « ما هو ؟ »

— « دعني أذهب إلى منزلي لحظة . ثم افعل بي بعد ذلك ما

تريد . »

واعتصم جافير بالصمت بضع ثوان ، وقد أخفى ذقنه في قبة ستروته الطويلة ، ثم انزل زجاج النافذة الامامي .

وقال :

— « ايها السائق ، إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »

ارتجاج في المطلق

ولم يعاود اي منهما فتح فمه طوال الطريق .
 ما الذي كان يريده جان فالجان ؟ أن يتم ما كان قد بدأه ؛ ان
 يجبر كوزيت ، ان يقول لها اين ماريوس ، وربما ان يعطيها بعض
 المعلومات المفيدة الاخرى ، ان يتخذ - إذا استطاع - بعض التدابير
 النهائية . أما في ما يتصل به ، أما في ما كان يعنيه شخصياً ، فكان كل
 شيء قد انقضى . لقد قبض عليه جافير ، ولم يقاوم . ولعل امرأ غيره
 كان جديراً بأن يفكر ، في تلك الحال ، تفكيراً غامضاً بذلك الحبل الذي
 اعطاه إياه تينارديه وبالقضبان الحديدية الخاصة بأول حبس مظلم ضيق
 سوف يدخله . ولكن منذ ان تعرف إلى الاسقف ، كان قد نشأ في ذات
 نفس جان فالجان ، تجاه اي محاولة عنيفة ، ولو كانت ضد حياته -
 ولنكرر ذلك - نقول كان قد نشأ في ذات نفسه تردد خشوعي عميق .
 كان الانتحار ، ذلك الهجوم الخفي على المجهول ، والذي قد ينطوي
 إلى حد ما على موت النفس ، شيئاً متعذراً على جان فالجان .
 وعند مدخل شارع الرجل المسلح ، وقفت العربية ، فقد كان ذلك
 الشارع أضيق من أن تلجه العربات . وترجل جافير وجان فالجان .
 وفي اتضاع أبان السائق « للسيد المفتش » ان غمّل عربته الموسوم
 بمخمل اوترخت قد تلوث كله بدم القتل ، ووحل القاتل . ذلك ما كان
 قد فهمه . وأضاف قائلاً إنه يستحق تعويضاً . وفي الوقت نفسه ،
 اخرج دفتره من جيبه ورجا السيد المفتش ان يتكرم بأن يكتب له « شهادة
 صغيرة بهذا المعنى » .
 ورد جافير الدفتر الذي قدمه السائق اليه وقال :

— « كم ينبغي ان تأخذ بما في ذلك انتظارك ورحلتك ؟ »
فأجاب السائق :

— « لقد مضت سبع ساعات وربع ، ولقد كان عملي جديداً تماماً .
ثمانون فرنكاً ، يا سيدي المفتش . »

واخرج جافير من جيبه اربع ذهبيات نابوليونية ، وصرف العربة .
وظن جان فالجان ان في نية جافير ان يقوده مشياً على الاقدام
إلى مخفر « بلان مانتو » او إلى مخفر « الأرشيف » القريين جداً .
ودخلا الشارع . كان مقفراً كشأنه دائماً . وتبع جافير جان فالجان .
ووصلا إلى رقم ٧ . وقرع جان فالجان . وفتح الباب .
وقال جافير :

— « حسن . إصعد . »

وأضاف في نبرة غريبة ، وكأنما كان يبذل جهداً في الكلام على
هذا النحر :

— « سوف أنتظرك هنا . »

ونظر جان فالجان إلى جافير . كان هذا الاسلوب قليل الانسجام مع
عادات جافير . ومع ذلك ، فلم يعجب جان فالجان كثيراً لأن يكون
جافير يستشعر ضرباً من الثقة المتعجرفة فيه ، ثقة الهرة التي تمنح الفأرة
حرية بطول برثنها ، برغم صدق عزمته على الاستسلام وإنهاء كل شيء .
وفتح الباب ، ودخل المنزل ، وخاطب البواب الذي كان في فراشه ،
والذي كان قد جذب الحبل من غير ان ينهض بقوله : « هذا أنا » ،
وارتقى السلم .

وعند وصوله إلى الدور الأول ، وقف . إن لجميع الممرات الأليمة
مواقفها . وكانت النافذة المطلة على المنبسط — وهي نافذة منزلقة —
مفتوحة ، وكانت السلم تستقبل الضوء ، شأنها في كثير من البيوت القديمة ،
كانت تطل على الشارع . وكان مصباح الشارع ، القائم تجاه السلم

مباشرة ، يلقى عليها شيئاً من الضوء ، مما كان يحدث اقتصاداً في
الإنارة .

وأطل جان فالجان من هذه النافذة ، إما لكي يأخذ نفساً أو على نحو
آلي . وانحنى مشرفاً على الشارع . إنه شارع قصير ، ولقد كان المصباح
بضيقه من أقصاه إلى أقصاه . واستند الذهول بجان فالجان . لم يكن ثمة
أحد هناك .

كان جافير قد مضى لسبيله .

١٢

الجد

كان باسك والبواب قد حملا ماريوس إلى حجرة الاستقبال ، وكان
طوال تلك الفترة ممدداً على المقعد الذي وضع عليه عند مجيئه . وكان
الطبيب الذي استدعي قد وصل . وكانت العمة جيلنورمان قد
استيقظت .

وذرت العمة جيلنورمان الغرفة جيئة وذهوباً ، مذعورة ، شابكة
يديها ، غير قادرة على ان تعمل شيئاً إلا القول : « يا الله ، أهذا
ممكّن ؟ » وكانت تضيف بين الفينة والفينة : « كل شيء سوف ينطى
بالدم ! » وحين زایلها الذعر الأول ، اشرقت على عقلها فلسفة للحادث ،
وعبرت عن نفسها بهذه الصيحة : « كان لا بد لذلك من ان ينتهي
على هذا الشكل ! » ولم يبلغ بها ذلك إلى حد القول : « هذا ما كنت
أقوله دائماً » ، وهي العبارة المألوفة في مثل هذه المناسبات .

وبناء على أمر الطبيب ، كان سرير ذو سيور قد وضع قرب المقعد .
وفحص الطبيب ماريوس . وبعد ان قرر ان قلبه ما يزال يتبض ، وأن

الجريح لم يكن مصاباً بأي جرح بليغ في صدره ، وان الدم الذي حول زوايا شفتيه انبتق من تجويف الانف ، مدده على السرير ، من غير وسادة ، ورأسه على مستوى واحد مع جسده ، بل أكثر انخفاضاً بعض الشيء ، وقد عُمرت صدره ، لكي يسهل التنفس . وانسجبت الآنسة جيلنورمان عندما رأتهم ينزعون ثياب ماريوس . وراحت تصلي في غرفتها مستعينة بالسبحة .

ولم يكن الجسد قد أصيب بجرح باطني . كانت الرصاصة قد انحرفت بعد ان اوهنتها حافظة الاوراق ، واستدارت حول الضاوع محدثة خرقاً فظيماً ، ولكنه غير عميق ، وبالتالي غير خطر . وكان السير الطويل تحت الارض قد أتم انخلاع لوح الكتف المكسورة ، وكانت اختلالات خطيرة هناك . كانت ثمة جراحات سيف على الذراعين . ولم تشوه ندبة ماوجه . بيد ان رأسه بدا وكأنه مغطى بحزوز وفروض . اي اثر سوف تتركه هذه الجراح على الرأس ؟ هل وقفت عند جلدة الرأس ؟ هل اثرت في الجمجمة ؟ ذلك ما لم يكن ثمة ميل إلى الاجابة عنه وكان من الاعراض الخطيرة انها سببت الاغماء ، والناس لا يثوبون إلى رشدهم ، عادة ، من مثل هذه الغيبوبة . وإلى هذا ، فقد كان نزف الدم قد استنفد قوى الجريح . وابتداء من الخصر ، كان القسم الأدنى من الجسد مصنوعاً خلف المتراس .

ومزق باسك ونيقوليت الاقمشة البيضاء وصنعا منها ضمادات . كانت نيقوليت تخطيها ، وكان باسك يطويها . واذا لم يكن ثمة نسالة ، فقد اوقف الطبيب تدفق الدم من الجراح ، مؤقتاً ، بلفافات من القطر المنذوف . وإلى جانب السرير ، كانت ثلاث شمعات تضيء فوق طاولة نشرت عليها الادوات الجراحية . وغسل الطبيب وجه ماريوس وشعره بماء بارد . واستحال دلو الماء المملوء أحمر ، في الحال . ووقف البواب ، والشمعة في يده ، يبدد بها الظلام .

وبدا الطبيب وكأنه يفكر في كآبة . وكان يهر رأسه بين الفينة والفينة ، وكأنما يجيب عن سؤال ما ، كان قد طرحه على نفسه باطنياً . وهذه المحاورات الخفية التي تدور بين الطبيب وبين ذاته نذير للمريض بسوء .

ولحظة كان الطبيب يمسح الوجه ويمس بأصبعه ، وفي رفق ، الاجفان التي ما تزال مغمضة ، فُتح باب في الطرف الاقصى من حجرة الاستقبال ، وبرزت صورة طويلة شاحبة .
كان هو الجدد .

كانت الفتنة قد اثارت مسيو جيلنورمان إلى ابعد الحدود وأسخطته واستأثرت بتفكيره كله طوال يومين اثنين . إنه لم ينم الليلة الماضية ، وكانت الحمى تستبد به طوال النهار . وفي المساء ، كان قد أوى إلى فراشه في ساعة مبكرة جداً ، موصياً بأن توصل جميع ابواب البيت بالحديد ، واستسلم للرقاد بعد ان هذه الأعياء .

ان رقاد الرجال العجائز ميسور الانقطاع . كانت حجرة مسيو جيلنورمان محاذية لغرفة الاستقبال . وكانت الضجة قد أيقظته برغم الاحتياطات التي اتخذوها . واذا ادهشه النور الذي رآه من خلال شق الباب ، نهض من فراشه ، وانشأ يتلمس طريقه تلمساً .

كان على العتبة ، واضعاً احدى يديه على تفاحة الباب نصف المفتوح ، ناكس الرأس بعض الشيء متذبذباً ، متلفعاً بمنامة بيضاء مستقيمة ليس فيها ثنيات فهي أشبه ما تكون بالكفن . كان مشدوهاً ، وكانت تبدو عليه سيما شبح ينظر إلى قبر .

ولمع السرير ، ولمح على الحشية ذلك الفتى الدامي ، ابيض بلون الشمع ، مغمض العينين ، فاغر الفم ، شاحب الشفتين إلى حد بعيد ، عارياً حتى الخصر ، مثخناً جسده كله بالجراح الحمراء ، جامداً لا حراك به ، مضاء على نحو ساطع .

وسرت في جسم الجد ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، رعدة
كانت أعنف ما يمكن للاتصال التي استحالت إلى عظم أن تعرفه . وكانت
عيناه ، اللتان اصفرت قرنيتهما بالشيخوخة ، محجوبتين بضرب من اللمعان
الرجاجي . وفي لحظة ، اتخذ وجهه تلك الزوايا الترابية التي تميز رأس
الهيكل العظمي ، وتدلّت ذراعاؤه وكأن نابضاً قد كسر فيهما ، وتجلّى
انشداه بتباعد أصابع يديه العجوزين المرتعشتين ، والتوت ركبتاه إلى امام
كاشفتين من خلال فتحة منامته ، عن رجليه العاريتين المهزولتين الشائكتين
بالشعر الأشيب . وغمغم :

— « ماريوس ! »

فقال باسك :

— « سيدي ، لقد جيء اللحظة بسيدي إلى المنزل . كان قد ذهب

إلى المتراس ، و ... »

وصاح الرجل العجوز في صوت فظيع :

— « ومات ! آه ، يا لقاطع الطريق ! »

ثم ان ضرباً من التحول القبري جعل هذا الرجل العجوز منتصب
القامة مثل فتى في ريق الشباب .

وقال :

— « سيدي ، أنت الطيب . قل لي شيئاً واحداً . لقد مات ، أليس

كذلك ؟ »

واذ كان يستبد بالطيب حصر نفسي بالغ ، فقد اعتصم بالصمت .

والتاع مسيو جيلنورمان ألماً وانفجر ضاحكاً على نحو رهيب :

— « لقد مات ! لقد مات ! لقد عرض نفسه للقتل في المتاريس .

لكرهه إياي . لقد فعل ذلك برغمي ! آه ، يا لشارب الدماء ! تلك

هي الطريقة التي يرجع بها الي ! يا لشقاء حياتي ، لقد مات ! »

ومضى إلى نافذة ، وفتحها على مصراعها وكأنه يخنق . لقد وقف

أمام الظلام ، وانشأ يتكلم موجهاً الخطاب إلى الشارع والليل .
 - « إنه مثقّب ، مشخن بضربات السيف ، ذبيح ، مستأصل ، ممزق ، مقطّع إرباً إرباً . هل رأيتموه ، المتشرّد ! لقد عرف جيداً اني سوف اكون في انتظاره ، واني قد اعددت غرفته لاستقباله ، واني قد علقت رسمه الراجع إلى عهد طفولته فوق سريري ! لقد عرف جيداً أن ليس عليه إلا أن يعود ، واني سلخت سنوات وانا أناديه ، واني قعدت في الليالي امام الموقد ويدي على ركبتيّ ، غير عارف ماذا أعمل ، واني أصبت بالعتّة من أجله ! كنت تعرف جيداً انه ليس عليك إلا ان تدخل وتقول : « هذا أنا » ، وانك سوف تصبح سيد البيت ، واني سوف اطيعك ، وانك تستطيع ان تعمل ما تشاء بهذا الجد العجوز البليد . لقد عرفت ذلك جيداً ، وقلت : « لا ، إنه ملكي » ، لن اذهب ! »
 وذهبت إلى المتاريس ، وعرضت نفسك للقتل بسبب من عناد الاولاد ! لكي تنتقم لنفسك مما قلته لك عن الدوق دو بري . هذا شيء معيب . اذهب إلى فراشك ، اذن ، ونم نوماً هادئاً . لقد مات . وهذه هي يقظي . »
 فلم يكن من الطبيب ، الذي امسى قلقاً من ناحيتين ، إلا ان ترك ماريوس لحظة ، ومضى إلى مسيو جيلنورمان ، وأمسك بذراعه . واستدار الجد ، ونظر اليه بعينين بدتا متفتحتين دامتيتين ، وقال في تودة :
 - « اشكرك يا سيدي . أنا رابط الجأش ، انا رجل ؛ لقد شهدت موت لويس السادس عشر ؛ انا اعرف كيف اتحمل المصائب . ولكن هناك شيئاً واحداً فظيماً ، ان تفكر ان جرائمك هي التي تسبب الاذى كله . سوف نحصل على مؤلفين مكثرين في اسفاف ، وعلى محدثين ، ومحامين ، وخطباء ، ومنابر ، ومناقشات ، وتقذّم ، وانوار ، وحقوق الانسان ، وحرية الصحافة ، وهذه هي الطريقة التي يحملون بها اولادك إلى بيتك . آه ! ماريوس ! هذا فظيع ! أينطرح قتيلاً ، ميتاً أمام ناظري ! متراس ! آه ، يا لقاطع الطريق ! ايها الطبيب ، أنت تقطن

في الحى ، على ما أظن . اوه ، انا اعرفك جيداً . أنا ارى عربتك تمر تحت نافذتي . سوف اقول لك . إنك تخطيء إذا اعتقدت اني غاضب . إن المرء لا يغضب من ميت ، تلك حماقة . ان هذا طفل أنا نشأته . لقد كنتُ عجوزاً عندما كان لا يزال صغيراً جداً . وكان يلعب في التويلري بمجرفته الصغيرة وكرسیه الصغير . ولاجتناب توبيخ المراقبين كنت املأ بعصاي تلك الحفر التي أحدثها في الارض بمجرفته . وذات يوم صاح : « فليسقط لويس الثامن عشر ! ومضى لسبيله . انها لم تكن غلطتي . كان شديد تورّد الوجنتين ، شديد الشقرة ، وكانت امه قد ماتت . هل قدر لك ان تلاحظ ان جميع الاطفال الصغار شقر ؟ ما سبب ذلك ؟ إنه ابن واحد من قطاع طرق اللوار ، ولكن الاطفال ابرياء من جرائم آبائهم . انا اذكر حين كان على مثل هذا الطول . انه لم يكن يحسن النطق بحرف الدال . كان كلامه ناعماً جداً وغامضاً جداً حتى لقد كان يخيل اليك انه عصفور . واذكر انهم تحلقوا حوله ، أمام ال « هيركول فارنيز » وانشأوا يحدقون اليه في اعجاب ودهش ، لقد كان طفلاً جميلاً ! كان له رأس كذلك الذي نراه في اللوحات الفنية . كنت اتحدث اليه بصوتي الخشن ، وكنت اروعه بعصاي ، ولكنه يعرف جيداً اني كنت امزح . وفي الصباح ، حين كان يدخل إلى غرفتي ، كنت أوبخه ، ولكن ذلك كان أشبه بأشعة الشمس بالنسبة الي . انك لا تستطيع ان تدافع عن نفسك أمام هؤلاء الصغار . انهم يغضبون عليك ، انهم يتشبثون بك ، انهم لا يفلتونك ابداً . والحق أقول ، اني لم أعرف حباً كمثل حبي لذلك الطفل . والآن ، ما الذي ينبغي ان أقوله في لافاييت ، وبنجمان كونستان ، وتيركوير دوكورسيل الذين قتلوه ! ان الوضع لا يمكن ان يستمر هكذا . »

واقرب من ماريوس ، الذي كان لا يزال شديد الشحوب جامداً لا حراك فيه ، والذي كان الطبيب قد رجع اليه ، وبدأ يتلوى ألساً .

وتحركت شفتا الرجل العجوز البيضاء وكأنها تتحركان اوتوماتيكياً ،
وأطلقنا كلمات تكاد تكون غير واضحة ، كلمات اشبه بهمسات فسي
حشرجة ، كانت لا تُسمع إلا بشق النفس : « آه ، يا عديم القلب !
آه ، يا عضو النوادي ، آه ، ايها الأثيم ! آه ، ايها الأيولي ! »
تقريعات بهمسها رجل محتضر في أذن جثة باردة .

وشيناً بعد شيء — إذ لا بد للتفجرات الباطنية ان تنطلق دائماً —
استعادت كلماته تسلسلها ، ولكن الجذ بدا وكأنه فقد القدرة على النطق بها .
وكان صوته تخافناً مخنوقاً إلى درجة بدا معها وكأنه ينبعث من الجانب
الآخر من احدى الحفر .

— « سيان عندي ، أنا سوف أموت أيضاً . وأن يقال انه لم يكن
في باريس مخلوقة صغيرة كان يسعدها ان تجعل هذا المسكين سعيداً !
وعدّ ذهب إلى القتال ، بدلا من ان يعبت ويستمتع بالحياة ، وعرض
نفسه لقذائف المدافع مثل بهيمة من البهائم . ومن أجل من ؟ ومن اجل
ماذا ؟ من أجل الجمهورية ! بدلا من ان يذهب ليرقص فسي الـ
« شومير » كما ينبغي للشباب أن يفعلوا . ان كون المرء في العشرين من
العمر لأمر يستحق العناء . الجمهورية ، تلك الحماقة الجميلة اللعينة .
ابتها الامهات المسكينات ، أنجبن اذن اولاداً وسيمين . ولكن ، لقد
مات . ذلك يعني جنازتين تمران بباب العربات . واذن ، فقد قمت
بذلك كله اكراماً لعيني الجنرال لامارك الجميلتين ! ما الذي صنعه من
اجلك ، الجنرال لامارك هذا ؟ جندي لا يفقه شيئاً من فنون الحرب !
ثرثار ! تعرض نفسك للقتل من أجل رجل ميت ! اذا لم يكن في هذا
ما يجتبل المرء فما الذي يجتبله ! فكر في ذلك ! في العشرين من العمر !
ومن غير ان يدير رأسه لكي يرى ما إذا كان يترك وراءه شخصاً ما ،
أم لا ! ها هم العجايز المساكين الذين كتب عليهم ان يموتوا وحيدين .
مت في زاويتك ، ايها البومة ! حسناً ، نعم هذا في الواقع . ذلك ما

كنت أرجوه ، إنه سوف يقضي عليّ قضاء كاملاً . أنا هرم أكثر مما ينبغي . إن عمري مئة عام ، إن عمري مئة الف عام . ولقد كان من حقي ان أموت منذ عهد بعيد . وبهذه الضربة ، ينتهي كل شيء . لقد قضى الأمر اذن ، يا للسعادة ! أي فائدة من حملة على تنشق محلول الشادر وجميع هذه الكومة من العقاقير ؟ إنك تضع تعبك ، أيها الطبيب الأحمق ! تابع ، انه ميت ، ميت مثل صخر . أنا أفهم ذلك ، أنا الميت أيضاً . إنه لم يبق بالأمر على نحو جزئي . اجل هذه الايام شائعة ، شائعة ، شائعة ، وهذا هو رأيي فيك ، وفي افكارك ، وفي انظمتك ، وفي سادتك ، وفي حكمائك ، وفي أطبائك ، وفي كتابك الادبيات ، وفي فلاسفتك الشحاذين ، وفي جميع الثورات التي روعت طوال ستين عاماً أسراب الغربان في التويلري ! ولما كنت من عدم الرحمة بحيث تعرض نفسك للقتل على هذه الشاكلة ، فلن أستشعر ولو مجرد حزن على وفاتك ، أفهمت ، أيها السفاح ؟ »

وفي هذه اللحظة ، رفع ماريوس جفنيه في بطاء ، واستقر نظره ، الذي ما يزال محجباً بدهشه السباتي ، على مسيو جيلنورمان .

وصاح الرجل العجوز :

« ماريوس ! ماريوس ! يا صغيري ماريوس ! يا ولدي ! يا بني الحبيب ! انت تفتح عينيك ، انت تنظر الي ، انت حي ، شكراً . » وخرّ مغشياً عليه .

الكتاب الرابع

جافير يتنكب الطريق

كان جافير قد ابتعد في خطى وثيدة ، عن شارع الرجل المسلح .
لقد مشى ناكس الرأس ، للمرة الأولى في حياته ، ويداه خلف ظهره ، للمرة الأولى في حياته أيضاً .
فحتى ذلك اليوم كان جافير قد اصطنع من مسلكي نابوليون الاثنين ،
ذلك الذي يعبر عن العزم ليس غير : شبك الذراعين على الصدر . أما
ذلك الذي يعبر عن التردد - شبك الذراعين خلف الظهر - فلم يكن
معروفاً عنده . والآن ، كان ثمة تغير قد حدث ؛ كان شخصه كله ،

شخصه المتباطئ الكالـح ، يحمل طابع الحصر النفسي .

وغاص في الشوارع الصامتة .

ومع ذلك ، فقد اتخذ اتجاهأ واحداً .

لقد اتخذ الطريق الأقصر نحو الـ «سين» ، وبلغ الـ «كي ديزورم» ، وسار في محاذاة رصيف النهر ، واجتاز الـ «غريف» ، ووقف على مسافة قصيرة من مخفر ساحة الـ «شاتليه» ، عند زاوية جسر «نوتر دام» . أن الـ «سين» يشكل هناك بين جسر «نوتر دام» وجسر الـ «شانج» من ناحية ، وبين رصيف الـ «ميجيستري» و «رصيف الازهار» من ناحية ثانية - نقول ان الـ «سين» بشكل شبه بحيرة مربعة يحترقها تيار مائي سريع .

هذه النقطة من نهر الـ «سين» يرهبها الملاحون . ان شيئاً ليس أكثر خطراً من هذا التيار ، الذي حُصر في تلك الحقبة واستثير غيظه بالاوناد المدعّمة لمطحنة الجسر ، التي لم يعد لها وجود اليوم . والجسران ، القريب أحدهما من الآخر إلى أبعد حدود القرب ، يزيدان الخطر حدة ، وقد اخذت المياه تسرع تحت العقود على نحو رهيب . إنها تندرج في ثنيات عريضة مروعة . إنها تتجمع وتتراكم . ويُفرغ الفيضان جهده عند دعائم الجسر وكأنما يريد ان يقتلعها بحال ضخمة مائعة . إن من يسقط هناك لا تراه العين بعدُ أبداً . إن خير السابحين ليغرقون في تلك اللجج .

وأسند جافير كلا مرفقيه إلى الحاجز ، مطوقاً ذقنه بيديه ، وفيما كانت أصابعه منسبة ميكانيكياً في لحية عارضيه ، انشأ يفكر .

كان يعتمل في أعماق وجوده شيء جديد ، ثورة ، كارثة . وكان

فيها ما يدعو إلى فحص الضمير .

كان جافير يقاسي آلاماً رهيبة .

فمنذ بضع ساعات وجافير في حال غير طبيعية . كان قلقاً مشغول

البال . وكان ذهنه ، الشديد الصفاء في عماه ، قد فقد شفافيته . كان ثمة سحابة في هذا البلور . لقد استشر جافير ان الواجب كان قد شرع يضعف في ضميره ، ولم يكن في ميسوره ان يخفي ذلك عن نفسه . فحين التقى جان فالجان ، في كثير من عدم التوقع ، فوق شاطئ الـ «سين» ، كان في ذات نفسه شيء من الذئب ، الذي يمسك بفريسته من جديد ، والكلب الذي يعثر على سيده كرة اخرى .

لقد رأى أمامه طريقين متباينين في الاستقامة . ولكنه رأى طريقين ؛ وقد روعه ذلك - روعه هو ، هو الذي لم يعرف قط في حياته غير طريق مستقيم واحد . وكان مما اورثه الألم الممض ان هذين الطريقين كانا متناقضين . إن واحداً من هذين الطريقين الاثنین ينفي الآخر . اي الطريقين هو الطريق الصحيح ؟ كانت حالته تمتنع على الوصف .

كان الذي جندله ان يكون مديناً بحياته لشرير ، وان يرتضي ذلك الدين وفيه ؛ وان يكون ، بالرغم منه ، على مستوى واحد مع هارب من العدالة ؛ وأن يبادل خدمة بخدمة ؛ وان يجيز له ان يقول : « امض لسيلك ! » ويقول له هو ، بدوره ، « أنت مطلق السراح ! » ، وان يضحى بالواجب ، تلك الفريضة العمومية ، على مذبح الدوافع الشخصية ؛ وان يستشر في هذه الدوافع الشخصية شيئاً عمومياً أيضاً ، وربما شيئاً سامياً ؛ وان يخون المجتمع لكي يكون وفيماً لضميره ؛ وان تتحقق هذه الاستحالات كلها ، وان تراكم عليه هو . كان شيء قد أثار دهشه : أن يكون جان فالجان قد غفر له ، وكان شيء قد حثره : أن يكون هو ، جافير ، قد غفر لجان فالجان .

أين كان ؟ والشمس نفسه ، فلم يجد نفسه .
ما الذي يتعين عليه ان يفعله الآن ؟ أيسلم جان فالجان إلى السلطات ؟

ان ذلك شر . أترك جان فالجان طليقاً ؟ ان ذلك شر أيضاً . ففي الحال الأولى يهبط رجل السلطة إلى أحط من درك الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وفي الحال الثانية يرتفع الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى مستوى أعلى من مستوى القانون ويدوسه بقدمه . وفي كلتا الحالتين عار عليه ، هو جافير . وأياً ما كانت الطريق التي سيسلكها فثمة زلة . إن للاقدار بعض الحدود القصوى المتحدرة على المستحيل ، والتي لا تعدو الحياة ان تكون ، وراءها ، هوة ليس غير . كان جافير قد بلغ واحداً من تلك الحدود القصوى .

وكان من أسباب حصره النفسي انه كان مكرهاً على التفكير . كان مجرد عنف هذه العواطف كلها يجبره على ذلك . وكان التفكير شيئاً غير مألوف عنده ، فهو أليم إلى حد فريد . إن ثمة دائماً قدراً معيناً من الثورة الباطنية في الفكر . ولقد هاجه ان يجد ذلك في ذات نفسه .

كان التفكير في ايمان موضوع ، مهما يكن ، خارج نطاق وظيفته الضيق — كان هذا التفكير ، في جميع الاحوال ، حماقة في نظره ومدعاة للتعب . ولكن التفكير في اليوم الذي تصرّم منذ فترة يسيرة كان عذاباً ونكالا . ويتعين عليه ، مع ذلك ، ان يلقي نظرة على ضميره بعد صدمات مثل هذه ، وان يقدم حساباً عن نفسه إلى نفسه .

كان ما قد صنعه اللحظة قد أوقع الرعدة في أوصاله . كان قد ارتأى هو جافير ، ان من الخير ان يقرر ، برغم أنظمة الشرطة جميعاً ، وبرغم التنظيم الاجتماعي والقضائي كله ، وبرغم القانون كله ، إطلاق سراح متهم . كان ذلك قد أَرْضاه ، لقد قدم مصالحه الخاصة على المصالح العامة . أليس هذا شراً لا سبيل إلى وصفه ؟ كان كلياً واجه هذا العمل الذي لا اسم له ، هذا العمل الذي ارتكبه ، يرتعد من قمة رأسه إلى اخمص قدميه . ما الذي ينبغي له ان يقرره الآن ؟ لم تبق أمامه غير

سبيل واحدة : أن يرجع في الحال إلى شارع الرجل المسلح ، ويلقي القبض على جان فالجان . كان واضحاً أن ذلك هو ما يتعين عليه فعله . ولكنه لم يستطع .

لقد سد شيء ما ، الطريق في وجهه من هذه الناحية . شيء ما ؟ ماذا ؟ وهل ثمة في العالم شيء غير المحاكم ، وأحكام القضاء ، والشرطة ، والسلطة ؟ واضطرب ذهن جافير . محكوم مقدس بالاشغال الشاقة ! محكوم تقصر يد العدالة عن اللوصول اليه ! ومن المسؤول عن ذلك ؟ هو جافير !

أليس فظيماً أن ينتهي جافير وجان فالجان ، الرجل الذي خلق للقسوة والرجل الذي خلق للخضوع ، أليس فظيماً أن ينتهي هذان الرجلان ، اللذان كان كل منهما شيئاً من أشياء القانون ، إلى نقطة يضعان فيها نفسيهما كليهما فوق القانون ؟

ماذا إذن ؟ أتقع مثل هذه الفواحش ولا يعاقب أحد ؟ أمن الجائر أن يتعين عليه تحرير جان فالجان ، وقد أمسى أقوى من النظام الاجتماعي كله ، ثم يواصل هو ، جافير ، أكل خبز الحكومة ! وشيئاً بعد شيء غدت هذه الافكار رهبة .

وكان في ميسوره ، من خلال هذه التأملات أيضاً ، أن يقرع نفسه قليلاً في ما يتصل بذلك المتمرّد الذي أُحمل إلى شارع فتيات كالفير . ولكنه لم يفكر في هذا . لقد ضاعت الخطيئة الصغرى في الخطيئة الكبرى . وإلى هذا ، فقد كان واضحاً أن ذلك المتمرّد رجل ميت ، والموت - في عرف الشرع - يخدم الملاحقة .

وإذن فجاء فالجان كان هو الحمل الذي يُثقل عقله . لقد أذهله جان فالجان . إن جميع الحقائق البديهية التي تنهض عليها حياته كلها قد انتهت أمام هذا الرجل . لقد ارهقه إحسان جان فالجان اليه ، هو جافير . وعادته بعض الاعمال ، التي تذكرها والتي كان

يعتبرها حتى ذلك الحين اكاذيب وحماقات ، وتبدت له بوصفها حقائق .
وبرز مسيو مادلين ، كرة اخرى ، خلف جان فالجان ، والتقت الصورتان
حتى شكلتا صورة واحدة ، صورة جليلة جدية بالاحترام . واستشعر
جافير ان شيئاً رهيباً كان ينفذ إلى روحه . الاعجاب بمحكوم عليه
بالاشغال الشاقة . الاحترام لعبد من عبيد سجن الاشغال الشاقة ... هل هذا
معقول ؟ وارتعد لتلك الفكرة ، ومع ذلك فلم يستطع ان يزحزحها .
كان النضال عبثاً لا طائل تحته ، وكان قد اضطر إلى الاعتراف أمام
محكمته الباطنية الخاصة بسمو هذا الرجل البائس . وكان ذلك
بغضاً إليه .

شرير محسن ؛ محكوم عليه بالاشغال الشاقة يملأ قلبه الحنان ؛ عذب ؛
معوان ؛ حلیم ؛ يقابل الشر بالخير ؛ ويرد على البغض بالعفو ؛ محب
للرفقة اكثر من حبه للانتقام ؛ يؤثر تحطيم نفسه على تحطيم خصمه ؛
وينفذ ذلك الذي طعنه ، ويركع على قمة الفضيلة ؛ أقرب إلى الملائكة
منه إلى البشر . لقد اضطر جافير إلى الاعتراف بأن هذا الكائن الجبار
موجود .

وما كان لهذه الحال ان تستمر هكذا .

وليس من ريب — ونحن نصرّ على ذلك — في أنه لم يستسلم من غير
ما مقاومة لذلك الجبار ، لذلك الملاك المرذول ، لذلك البطل الشنيع ،
الذي كان جافير مشتمراً ساخطاً عليه بقدر ما كان مشدوهاً به تقريباً .
فعرين مرة ، فيما كان في تلك العربة وجهاً لوجه مع جان فالجان ،
زجر النمر التشريعي في ذات نفسه . وعشرين مرة سولت له نفسه ان
ينقضّ على جان فالجان ، وينشب اظفاره فيه ، ويلتهمه ، يعني ان
يلقي القبض عليه . وهل ثمة ما هو أبسط من ذلك حقاً ؟ أن يصيح
لذن وصوله إلى أول مخفر اجتازاه : « هو ذا هارب من وجه العدالة ،
مخالف للحكم الصادر بحقه ! » ، ان ينادي رجال الدرك ويقول لهم :

« هذا الرجل ملك لكم ! » ويمضي لسبيله ، ان يخلف هذا الرجل المالك هناك ، وان يتجاهل الباقي ، ويقطع كل صلة له به . إن هذا الرجل هو أسير القانون إلى الأبد ، ولسوف يفعل القانون به ما يشاء . أي شيء أكثر عدالة من ذلك ؟ كان جافير قال ذلك كله في ذات نفسه • كان قد رغب في ان يذهب إلى أبعد من هذا ، ان يعمل ، ان يلقي القبض على الرجل ؛ وفي ذلك الحين ، شأنه الآن ، عجز عن ذلك . وكلما ارتفعت يده على نحو متشنج نحو عنق جان فالجان ارتدت وكأنها مثقلة بحمل هائل . وكان قد سمع في أعماق عقله صوتاً ، صوتاً غريباً مخاطبه بقوله : « حسن . اطلق سراح منقذك . وجئ بحوض ييلاطس البنطي » ، واغسل برائتك . »

ثم ارتد تفكيره إلى نفسه . وإلى جانب جان فالجان ، المعظم ، رأى نفسه ، هو جافير ، مهيناً ذليلاً .

كان المحسن اليه رجلاً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

ولكن لماذا اجاز لهذا الرجل ان ينقذ حياته ؟ كان من حقه ، في ذلك المراس ، ان يُقتل . ولقد كان ينبغي له ان يفيد من هذا الحق . ولقد كان خيراً له لو دعا المتمردين الآخرين إلى مساعدته على جان فالجان ، وان يحصل بالقوة على رصاصة يموت بها .

وكان ألمه الأعظم ناشئاً عن فقدانه اليقين كله . لقد استشعر انه مقتل من جنوره . لم يعد القانون غير أرومة في يده . ولقد كان عليه ان يواجه وساوس من نوع مجهول . لقد ألهم إحساساً مختلفاً كل الاختلاف عن توكيد القانون ، مقياسه الوحيد حتى ذلك الحين . إن التزامه فضيلته

* هو حاكم « اليهودية » من قبل الرومان ، وقد أسلم يسوع المسيح الى قضائه للدينين بالرغم من عدم اقتنائه بأنه اقترف جريمة ما . ولكي يفهم اليهود انه يحملهم تبعة موت يسوع طلب شهناً من الماء ، وعسل يديه وقال : « انا بريء من دم هذا البار » .

القديمة لم يكن كافياً . لقد نشأ نظام كامل مؤلف من حقائق غير متوقعة ،
وهيمن عليه . لقد تبدى لروحه عالم جديد بالكلية . إحسان يُقبل
وَيُرَدُّ ؛ تَفَانٌ ؛ حنانٌ ؛ رَأْفَةٌ ؛ أعمالٌ عنفٌ تشنها الشفقة على الصرامة ؛
احترام الأشخاص ؛ لا قضاء نهائياً بعد الآن ؛ لا لعنة أبدية ؛ إمكانية
ترقيق الدمعة في عين القانون ؛ عدالة خفية وفقاً للرب متناقضة مع
العدالة وفقاً للبشر . لقد لمح في الظلام الاشرار الرهيب لشمس اخلاقية
مجهولة . لقد روعته واصابت عينيه بالجهر . بومة تضطر إلى ان تنظر
نظرات نسر .

وقال لنفسه ان ذلك صحيح اذن ، وان ثمة شواذ ، وان السلطة
قد تصاب بالقلق ، وان القاعدة قد تتعطل فجأة امام عمل من الاعمال ،
وان نص القانون لا ينتظم كل شيء ، وان غير المتوقع قد يفرض سلطانه
حتى الخضوع ، وان فضيلة احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة قد
تنصب شركاً لفضيلة الموظف ، وان الرهيب قد يكون إلهياً ، وان
للقدر مكان من كهذه ، وفكر في يأس أنه نفسه ليس في نجوة من الحيرة
والانشداد .

واكره على الاعتراف بوجود الفرق . لقد كان هذا المحكوم عليه
بالاشغال الشاقة رجلاً رقيقاً ، وكان هو نفسه - وهو أمر غريب - رقيقاً
أيضاً . وإذن فقد فسُد .

وألقى نفسه ندلاً خسيساً . كانت نفسه توقع الرعب في نفسه .
لم يكن مثل جافير الأعلى أن يصبح انسانياً ، ان يصبح عظيماً ،
ان يصبح سامياً . كان مثله الأعلى ان يصبح خلواً من العيب .
وما هو ذا الآن قد اخفق ؟

كيف انتهى إلى هذه النقطة ؟ كيف حدث ذلك كله ؟ لقد عجز
عن ان يجيب نفسه : وطوف رأسه بكلتا يديه ، ولكن على غير طائل ؛
إنه لم يستطع ان يفسر ذلك لنفسه .

وكان يعترزم دائماً ، من غير شك ، ان يعيد جان فالجان إلى القانون الذي كان أسبره ، والذي كان هو جافير عبداً رقيقاً له . ولم يكن قد اقر بنفسه ، لحظة واحدة ، فيما كان ممسكاً به ، أنه فكر باطلاق سراحه . لقد اتفق لديه بطريقة ما ، وعلى غير علم منه ، ان انفتحت وأطلقت . وتراقصت أمام عينيه علامات الاستفهام على اختلاف ضروبها . لقد طرح على نفسه ، ولقد أجاب ، عن تلك الاسئلة ؛ وروعته أجوبته تلك . لقد سأل نفسه : « هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هذا الرجل اليائس ، الذي لاحقته حتى الاضطهاد ، والذي وجدني مرة تحت قدميه ، والذي كان في ميسوره ان ينتقم لنفسه ، والذي كان يتعين عليه ان يفعل ذلك إرواء لانتقامه وضماناً لسلامته في وقت معاً - هذا الرجل ، ما الذي فعله عندما منحني الحياة ، عندما عفا عني ؟ واجبه ؟ لا . شيئاً أكثر . والآن ، بغضوي عنه مقابل ذلك ، ما الذي فعلته ؟ واجبي ؟ لا . شيئاً أكثر . واذن ، فثمة شيء أكثر من الواجب . » وأجفلسه ذلك . لقد اختلت موازينه . إن احدى الكفتين قد هبطت في الهاوية ، وان الأخرى قد صعدت في السماء ، واستشعر جافير من تلك المصعدة بقدر من الذعر متكافئ مع ذلك الذي استشعره من تلك الهابطة . ومن غير ان يكون بحال من الاحوال ما يدعى فولتيرياً ، أو فيلسوفاً ، أو زنديقاً ، وعلى الرغم من انه كان على عكس ذلك شديد الاحترام ، بالغريزة ، للكنيسة الراسخة ، فلقد عرفها بوصفها جزءاً فخيماً من الكل الاجتماعي ليس غير . كان النظام عقيدته الجوهرية ، وكانت تلك العقيدة تكفيه . فمنذ ان بلغ مبلغ الرجال والموظفين ، كان قد وقف دينه كله على الشرطة . وذلك بأنه كان جاسوساً - ونحن نستعمل الكلمات هنا في أحفل معانيها بالجد ، ومن غير ايمان أثارة من السخرية - كما يكون الناس كهناً . كان له رئيس ، هو مسيو جيسكيه . وكان نادراً ما فكر ، حتى تلك اللحظات ، بذلك الرئيس الآخر : الله .

هذا الرئيس الجديد ، الله ، أحس به جافير بغتة . واربكه ذلك
الاحساس .

وأوقعه ذلك الوجود غير المتوقع في حيرة : ولم يدرك ما الذي يتعين
عليه ان يفعله بهذا الرئيس ، هو الذي لم يكن يحفل ان المروؤس مضطر
دائماً إلى الخضوع ، وان عليه ان لا يعصي ، أو يلوم ، أو يناقش ،
وانه ليس للمروؤس من سبيل — في حضرة رئيس يثير دهشة أكثر مما
ينبغي — غير الازعان .

ولكن أنى له ان يبعث باستقالته إلى الله ؟

وكيفما كان ذلك ، وكان يرجع إلى هذا على نحو موصول ، فأن
شيئاً واحداً سيطر عنده على كل شيء ، وهو انه ارتكب منذ لحظات
خرقاً رهيباً للقانون . كان قد غض طرفه عن آثم آخر صادر في حقه
حكم " ما لبث ان نقضه . كان قد اطلق سراح محكوم عليه بالاشغال
الشاقة . لقد فعل ذلك . ولم يستطع ان يفهم نفسه . إنه لم يكن واثقاً من
ان شخصيته ما تزال هي هي . لقد غابت عنه اسباب عمله نفسها . ولم
يبق له منها غير دوارها . كان قد عاش حتى تلك اللحظة بذلك الايمان
الاعمى الذي تنجبه النزاهة المظلمة . ولكن هذا الايمان كان قد زايله ،
ولكن هذه النزاهة كانت قد أعوزته . كان كل ما سبق له ان آمن به
قد تبدد . وحاصرته حقائق لم يكن راغباً فيها حصاراً لا يعرف الرحمة .
ولا ريب في أنه قد أمسى منذ ذلك الحين رجلاً آخر . وعانى تلك
الآلام الغريبة التي يقاسيها ضمير اجريت له ، فجاءة ، جراحة لانتراع
الماء الازرق . لقد رأى ما اشماز من رؤيته . لقد أحس انه مستنزف ،
عديم الفائدة ، مقتلع من حياته السالفة ، مخلوع ، منحل . لقد ماتت
السلطة فيه . ولم يبق ثمة ما يبرر وجوده .

حالة رهية ! أن تحركك العاطفة .

ان تكون صواناً ، وأن تشك ! ان تكون تمثال العقاب مفرغاً بوصفك

قطعة مفردة في قالب القانون ، ثم تلمح فجأة ان تحت صدرك البرونزي شيئاً مستحيلاً ، عصياً يكاد يشبه قلباً من القلوب ! وان يقودك ذلك القلب إلى أن تجزي الخير بالخير ، على الرغم من انك ربما اعتدت ان تقول ، حتى ذلك اليوم ، ان هذا الخير كان شراً ! ان تكون كلب الحراسة ثم تداهن ! ان تكون ثلجاً ثم تذوب ! ان تكون كلابة وتنقلب إلى يد ! ان تستشعر اصابعك تنفتح على نحو مفاجئ ! ان تُرخي قبضتك ، شيء رهيب !

أن لا يعرف « الرجل القذيفة » سبيله بعد الآن ، وان ينكص على عقبيه .

أن يضطر إلى الاعتراف بهذا : أن العصمة من الضلال ليست معصومة ؛ وأنه قد يكون في العقيدة الجوهرية خطأ ما ؛ وان القانون حين يتكلم لا يقول كل شيء ؛ وان المجتمع ليس كاملاً ؛ وان السلطة مشوبة بالتردد ؛ وأن التصديق في ما هو غير قابل للتغير ممكن ؛ وان القضاة ناس من الناس ؛ وان القانون قد يُخدع ؛ وأن المحاكم قد تخطئ ! أن يرى صدعاً في بلور القبة الزرقاء الهائل .

ان ما كان يجري في ذات نفس جافير كان تخلخل ضمير مستقيم ، واقصاء نفس عن طريقها ، وسحق صلاح أطلق ، على نحو لا يقاوم ، في خط مستقيم وانكساره عند الله . وليس من ريب في ان ذلك كان عجيباً : أن تجندل وقاد النظام ، مهندس السلطة ، الممتطي متن فرس الطريق الصلب الحديدية العمياء ، بضعُ خيوط من الضياء ! أن يكون في إمكان المنيع ، المباشر ، القويم ، الهندسي ، السلبي ، الكامل ، أن يلتوي ! ان يكون ثمة طريق تنتهي بالقاطرة إلى دمشق !

الله ، النفسي دائماً بالنسبة إلى الإنسان ؛ المستعصي ، وهو الضمير الحق ، على الضمير الباطل ، المحرّم على الشرارة ان تنطفئ ، الأمر الشعاع بأن يذكر الشمس ؛ الموصي النفس بان تعترف بالمطلق الحقيقي

حين تواجه المطلق الوهمي ؛ الله الذي هو الانسانيةُ خالدةٌ ،
والقلب البشري باقياً ؛ هذه الظاهرة السّنية — ولعلها أجمل اعاجيبنا
الباطنية — هل فهمها جافير ؟ هل نفذ إليها جافير ؟ هل كَوّن جافير
فكرة عنها ؟ لا ، من غير ريب . ولكن تحت ضغط من هذا الممتع
على الفهم ، غير المارّ فيه ، استشعر جافير ان جمجمته تكاد
تنفجر .

كان ضحية هذه المعجزة أكثر منه متحولاً بواسطتها إلى شخص أكثر
سموّاً . لقد خضع لها ، ساخطاً . إنه لم ير فيها غير صعوبة وجود
هائلة . لقد بدا له أن تنفسه سوف يكون منذ اليوم مُعوقاً إلى الابد .
إنه لم يألف أن يُصَلّت المجهول فوق رأسه .

فحتى تلك اللحظة كان كل ما فوقه سطح أملس ، بسيط ، رائق
في نظره . لا شيء مجهولاً هناك ، لا شيء غامضاً . لا شيء مما هو
غير محدود ، غير متسق ، غير منظم ، غير مضبوط ، غير دقيق ،
غير واضح الحدود ، غير مقيد ، غير منغلق ، غير متنبأ به كله . كانت
السلطة شيئاً مسطحاً ، لا تعثر فيه ، ولا دوران أمامه . إن جافير لم
يقدّر له من قبل ان يرى المجهول إلا تحت . كان الشاذ ، وغير المتوقع ،
ومنفذ العماء ، غير المتسق ، وإمكان الانزلاق إلى هاوية — كان ذلك
كله خاصاً بالمناطق الدنيا ، بالثائرين ، بالاشرار ، بالبؤساء . أما الآن
فقد انقلب جافير إلى الوراء ، ولقد رُوع فجأة بهذه الرؤيا الرهيبة :
هوة فوق .

ماذا اذن ؟ لقد دُمرت أسواره تدميراً كاملاً ! لقد أسقط في يده
بالكلية ! بأي شيء يتعين عليه ان يثق ؟ لقد انهار ذلك الذي كان
مقتنعاً به !

ماذا ؟ أمكن ان يكشف بانس شهيم نقص المجتمع ؟ ماذا ؟ أمكن

* chaos

لخادم مخلص من خدم القانون ان يجد نفسه فجأة بين جريمتين : جريمة اطلاق سراح رجل ، وجريمة القاء القبض عليه ! إن كل شيء لم يكن يقينياً في الأمر الذي تصدره الدولة إلى الموظف ! قد يكون ثمة في الواجب دروب غير نافذة ! ماذا اذن ! اكان ذلك كله حقيقياً ؟ اكان صحيحاً ان يوفَّق لص عتيق ، مثقل بالأحكام القضائية ، إلى ان ينهض وإلى أن يكون آخر الأمر على حق ؟ أكان ذلك ممكن التصديق ؟ اكان ثمة ، اذن ، حالات يتعين فيها على القانون ان يتراجع أمام جريمة مجلبة بالسوء ، وهو يغمغم بالمعاذير ؟

أجل ، كان ثمة حالات مثل هذه ! ولقد رآها جافير ! ولقد مسها جافير ! إنه لم يكن عاجزاً عن إنكارها فحسب ، بل لقد كان له فيها دور أيضاً . كانت حقائق . وكان من المقيت ان يكون في ميسور الحقائق الفعلية أن تبلغ هذا المبلغ من الشناعة .

ولو ان الحقائق أدت واجبها اذن لاجتزأت بأن كانت براهين القانون : الحقائق ، إن الله هو الذي يرسلها . اكانت الفوضوية اذن على وشك ان تهبط من الأعالي ؟

وهكذا — وتحت قوة الألم المريع المضخمة ، وفي وهم الانشده البصري ، تلاشى كل ما كان في ميسوره أن يقيد انطباعته ويصححها ، ومنذ ذلك الحين اختصر المجتمع ، والجنس البشري ، والكون في عينيه في مظهر واحد بسيط وفظيع — وهكذا فان العقاب ، والشيء المحاكم ، والقوة الجدير بالقانون ان يتمتع بها ، وقرارات المحاكم السيدة ، والقضاء ، والحكومة ، والاحتياط والقمع ، والحكمة الرسمية ، والعصمة التشريعية ، ومبدأ السلطة ، وجميع المعتقدات الجوهرية التي تستند إليها السلامة السياسية والمدنية ، والسيادة ، والعدالة ، والمنطق المنبثق من القانون ، والمطلق الاجتماعي ، والحقيقة العمومية ، كل هذه هي فوضى ، واختلاط ، وعماء . وأنه ، هو جافير ، شرطي النظام ،

العامل بتزاهة في خدمة البوليس ، درواس . العناية الالهية المسخر لصالح المجتمع ، قد قُهر وهُزم . وكان يقف فوق هذا الدمار كله رجل يعتمر بقلنسوة خضراء وتحيط بجبينه هالة من نور . ذلك هو الانقلاب الذي كان قد انتهى اليه . تلك كانت الرؤيا الرهيبة التي كانت في ذات نفسه .

هل كان في الامكان الصبر على ذلك ؟ لا .

حالة غير طبيعية ، اذا كان ثمة شيء مثل ذلك . ولم يكن هناك غير سيلين اثنين للخروج منها . الأول ان يمضي في حزم إلى جان فالجان ويعيد الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى المحبس المظلم . والثاني... وغادر جافير الحاجز . واتخذ طريقه ، في خطى ثابتة ، غير منكس الرأس هذه المرة ، نحو المخفر الذي كان احد المصاييح يشير اليه في بعض زوايا ساحة ال « شاتليه » .

حتى إذا بلغه ، رأى من خلال النافذة شرطياً ، ودخل . إن رجال الشرطة يعرف بعضهم بعضاً من مجرد الطريقة التي يدفعون الباب بها . واعلن جافير عن نفسه ، وابرز بطاقته للشرطي ، وجلس إلى طاولة المخفر ، حيث كانت تشتعل شمعة . كان على الطاولة ريشة ، ومجبرة من رصاص ، وبعض الورق المعد للتقارير الطارئة ، والاوامر الموجهة إلى العسس .

وهذه الطاولة ، المصحوبة دائماً بكرسيها القشبي ، هي في الواقع مؤسسة . إنها موجودة في جميع مخافر الشرطة . وهي مزدانة على نحو لا يتغير بصُحيفة من خشب البقس ملأى بالنُشارة ، وصندوق من الورق المقوى مليء ببرشامات حمراء للختم ، وهي الدرجة الدنيا من الأسلوب الديواني . إن أدب الدولة انما يبدأ فوقها .

• الدواس : للكلب العظيم الرأس .

وأمسك جافير بالريشة وبقصاصة من الورق ، وبدأ يكتب . ودونك هذا الذي كتبه :

بعض الملاحظات لخير المصلحة

• أولاً ، أرجو سيدي مدير الشرطة أن يلقي نظرة على هذا .
• ثانياً : إن السجناء ، عند عودتهم من الاستنطاق ، يتزعنون أحذيتهم ويظلون واقفين حفاة ، على البلاط ، ريثما يفتشون . إن كثيراً منهم ليسعلون حين يرجعون إلى السجن . وهذا يكلف الدولة نفقات مستشفى .

• ثالثاً : الملاحقة المترصدة حسنة ، على أن يحل بعض رجال الشرطة محل بعضهم الآخر بين الفينة والفينة . ولكن يجب ان يكون ثمة ، في الحالات الخطيرة ، شرطيان لا يرفع احدهما بصره عن الآخر ، بحيث إذا ما ألمّ الضعف بواحد منهما ، لأبما سبب مهما يكن ، راقبه الآخر وقام مقامه .

• رابعاً : من العسير على المرء ان يفهم لماذا يحظر النظام الخاص بسجن المادلونيت اعطاء السجن كرسياً ، ولو دفع أجراً على ذلك .
• خامساً : في سجن المادلونيت لا يوجد غير قضيين حديديين لنافذة المحل الخاص ببيع المأكولات للسجناء ، مما يمكن البائعة من ان تدع السجناء يمسون يدها .

• سادساً : إن السجناء ، الذين يدعونهم الناجحين ، والذين ينادون للسجناء الآخرين إلى حجرة الاستقبال ، يكرهون السجن على ان يدفع اليهم درهمين ثمناً لرفع صوتهم باسمه في وضوح . إن هذه سرقة .

« سابعاً : إنهم يستبقون عشرة «سو» من أجر السجين ، في دكان الحياكة ، مقابل الخيط المهمل . وهذا ظلم من جانب المتعهد ، لأن جودة القماش لم تتأثر »

« ثامناً : من المزعج ان يضطر زائرو سجن لا فورس إلى ان يعبروا « ساحة الاطفال » لسكي يصلوا إلى حجرة استقبال « القديسة مريم المصرية » .

« تاسعاً : من الثابت ان رجال الدرك يُسمعون كل يوم وهم يقصّون في فناء مديرية الشرطة ، استنطاقات اولئك الذين سيقوا للمثول بين يدي القضاة . إن الدركي الذي يكرر ما سمعه في حجرة الاستنطاق — والذي كان ينبغي له ان يصون هذه الاقوال بوصفها مقدسة — إنما يرتكب خطأ خطيراً .

« عاشرأ : إن مدام هنري امرأة أمينة . ان نافذة دكانها الخاص ببيع المأكولات للسجناء نظيفة جداً ، ولكن من غير الحسن أن تحرّس امرأة بُويّبَ الباب المسحور الخاص بحجيرات السجن السرية . ان ذلك غير لائق بسجن أمة ذات حضارة عظيمة . »

كتب جافير هذه الأسطر بخطه الأكثر هدوءاً وضبطاً ، غير مهمل فاصلة ، جاعلاً الورقة تصوّت في قوة ، تحت ريشته . وتحت السطر الأخير وقع :

« جافير

« مفتش شرطة من الدرجة الاولى

« مخفر ساحة الشانيليه

« ٧ حزيران ، ١٨٣٢ حوالي الساعة الواحدة

صباحاً .

وجفف جافير حبر الورقة الطريء ، وطواها كما تطوى الرسالة ، وختمها ، وكتب على ظهرها : « مذكرة للإدارة » ، وتركها على الطاولة وغادر المخفر . وانغلق الباب المزجج المقضّب بالحديد خلفه .

واجتاز ساحة الـ « شاتليه » ، على نحو قَطْرِي ، كرة اخرى ، وانتهى إلى رصيف النهر ، وعاد في دقة آلية إلى النقطة نفسها التي غادرها قبل ربع ساعة ، واتكأ هناك ، فألقى نفسه في الوضع ذاته ، على بلاطة الحاجز نفسها . لقد بدا وكأنه لم يتحرك قط .

كانت الظلمة كاملة . وكان ذلك في اللحظة القبرية التي تعقب منتصف الليل . لقد حجب النجوم سقف من السحب . ولم تكن السماء غير عمق مشووم . لقد أطفئت جميع بيوت المدينة . وخلت الشوارع من عابري السبيل . كان كل ما استطاع أن يراه من الشوارع ومن رصيف النهر مهجوراً . وبدت نوتردام وأبراج قصر العدل وكأنها ملامح الليل . وحمّر مصباح حافة الرصيف . وتشوهت صور الجسور الظلية في الضباب ، بعضها خلف بعض . وكانت الأمطار قد ضخمت النهر .

وكان الموطن الذي اتكأ جافير عنده ، كما يذكر القاريء ، واقعاً فوق تيارات السين تماماً ، على خط عمودي فوق تلك الدوامة الرهيبة التي تنحل ثم تتعقد ثانية مثل لولب لا نهاية له .

وحسب جافير رأسه ، ونظره كان كل شيء أسود ، ولم يكن في ميسوره ان يتبين شيئاً . وسمع صوت الزبد ، ولكنه لم ير النهر . وبين الفينة والفينة ، في ذلك العمق الذي يوقع الدوار في الرأس ، تبدى وميض وتمعج على نحو غامض ، اذ ان للماء هذه القوة التي تمكنه في أشد الليالي حلكة ، من اقتباس الضياء - وليس يدري احد من أين - وتحويله إلى أفغوان . وتلاشى الوميض ، وعاد كل شيء غامضاً من جديد . وبدا اللاحدود مفتوحاً هناك . إن ما كان تحته لم يكن ماء ولكن هاوية . وبدا جدار الرصيف - موجزاً ، مختلطاً ، ممزوجاً بالبخار ، وقد غاب عن البصر فجأة - وكأنه منحدر اللانهاية .

لم ير شيئاً ، ولكنه استشعر برودة الماء البغيضة ، ورائحة الحجارة الندية النافهة . لقد انبعثت ريح ضارية من تلك الهوة . وكان تضخم

النهر ، المحزور حزراً بأكثر مما كان ملموحاً لمحاً ، وهمسُ الفيضان
الفاجع ، واتساع قناطر الجسر على نحو حدادي ، والسقوط المتخيّل
في ذلك الفراغ الكالسح - كان ذلك الظلام كله مفعماً بالهول .
وظل جافير بضع دقائق جامداً من غير حراك ، محدقاً إلى فتحة
الظلام تلك . لقد تأمل في اللامنظور بتركيز يشبه الانتباه . وخرّ الماء .
وفجأة ، رفع جافير قبعته ، ووضعها على حافة الرصيف . وبعد لحظة ،
بدا واقفاً على الحافة شكل "أسود كان خليفاً بعابر سبيل متأخر ان يحسبه
عن بعد شبحاً من الاشباح . وانحنى ذلك الشكل نحو الـ « سين » ، ثم
انصب ، وسقط في الظلمات على نحو عمودي . وسُمع هدير موج
خافت . وكان الظلام وحده في مكنون تشنجات ذلك الشكل المربد الذي
اختفى تحت الماء .

الكتاب الخامس

الحفيد وابجد

١

حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك كرة اخرى

بعد فترة وجيزة انقضت على الاحداث التي روينها منذ لحظات
استشعر السيد بولاتروويل انفعالا عارماً .
ولعل القاريء يذكر ان بولاتروويل كان رجلاً منهمكاً في اشياء
كدرجة متباعدة . كان يكسر الحجارة ويتزل الاذى بالمسافرين على الطريق
العام . وبوصفه حفاراً ولصاً كان يراوده حلم . كان يؤمن بالكنوز
الدفينة في غابة مونفيرماي . وكان يرجو ان يجد المال ذات يوم ، في

بطن الارض ، عند سفح شجرة من الاشجار . وفي انتظار ذلك ، كان يرغب في البحث عن ذلك المال في جيوب عابري السيل .

ومع ذلك ، فقد اصطنع الحكمة مؤقتاً . كان قد نجح ، منذ قريب ، من موقف حرج . فنحن نعرف انه كان اصطياد في كوخ جوندريت الحبيب مع قطاع الطرق الآخرين . وتلك جدوى الرذيلة : كان سكره قد انقذه . فلم يكن في ميسور الشرطة ان تجزم اكان سارقاً أم مسروقاً . كان قد أطلق سراحه أمرٌ بمنع المحاكمة بني على حالته الثملة المثبتة اثباتاً واضحاً ليلة الكمين . لقد استعاد حرية الغابات . ورجع إلى طريقه الموصلة بين غانيبي ولانيبي لكي يكسر الحجارة لحساب الدولة ، تحت الاشراف الاداري ، منكس المحيا ، مستغرقاً في التفكير ، وقد خمد شوقه بعض الشيء للسرقة ، التي كادت تُنزل الخراب بساحته ، وانصرف في شغف أشد نحو الخمر ، التي انقذته منذ فترة يسيرة .

أما الانفعال العارم الذي ألمّ به بُعيد عودته إلى الاستغلال بسطح كوخه الخاص بعمال الطرق ، المصنوع من العشب ، فهو هذا : ذات صباح ، فيما كان بولاتروويل ماضياً إلى عمله وفقاً لعادته ، ولعله كان يترصد أحداً ، لمح وسط الاغصان رجلاً لم يكن في ميسور عامل الطرق ان يرى غير ظهره ، ولكن مشيته ، في ما بدا له ، من خلال البعد والغسق ، لم تكن غريبة عنه بالكلية . فقد كان بولاتروويل ، برغم ادمانه الخمر ، ذاكرة دقيقة جلية ، وهو سلاح دفاعي لا يستغني عنه كل من كان على صراع ضئيل مع النظام الشرعي . وساءل نفسه :

« أين رأيت ، بحق الشيطان ، شيئاً مثل هذا الرجل ؟ » ولكنه لم يستطع أن يجيب نفسه إلا بالقول إنه يشبه شخصاً انطبعت له في ذاكرته صورة غامضة .

وأجرى بولاتروويل ، خارج نطاق الهوية التي لم يستطع ان يتذكرها

أجيد ، بعض المقارنات والحسابات . ان هذا الرجل لم يكن من ابناء
تلك الديار . كان قد وفد اليها . سعيًا على قدميه ، من غير شك . فليس
من عربة عمومية تجتاز مونفيرماي في تلك الساعة . كان قد مشى طوال
الليل . من أين كان قد جاء ؟ من مكان غير بعيد جداً . إذ انه لم
يكن يحمل لا جراباً ولا صرة . من باريس ، بلا شك . لم كان في تلك
الغابة ؟ لم كان هناك في مثل هذه الساعة ؟ ما الذي جاء به إلى
هناك ؟

وفكر بولاتروويل في الكثر . وبفضل التنقيب العميق الذي اجراه في
ذاكرته تذكر أنه استشر ، منذ بضع سنوات ، مثل هذا الرعب فيما
يقصل بشخص بدهه انه قد يكون هذا الرجل نفسه .
وفيما كان يتأمل حتى رأسه ، تحت وطأة ذلك التأمل نفسه ، وهو
امر طبيعي ، ولكنه ليس أريباً جداً . حتى اذا رفع رأسه من جديد لم
يعد ثمة شيء . كان الرجل قد اختفى في الغابة والغسق .
فقال بولاتروويل :

— « يا للشيطان ! سوف أجده من جديد . سوف اكتشف أبرشية
هذا الابرشي . إن لهذا الرجل سرّاً ، وسوف اهتدي إلى ذلك . لن
يكون لأحد سر في غاباتي من غير ان يكون لي اصبع فيه . »
وحمل معوله الذي كان حاداً جداً .
وغمغم :

— « ههنا شيء تحفر الارض به ، ورجل . »
وكما يصل امرؤ خيطاً بخيط ، ظالماً جهده في الطريق الذي لا يسد
ان يكون الرجل قد سلكه ، اتخذ سبيله خلال الغابة .
وما إن تقدم نحواً من مئة خطوة حتى ساعده الفجر الذي كان قد أخذ
بالانبلاج . كانت آثار الاقدام المنطبعة على الرمل ههنا وههناك ، والعشب
المدوس ، والمخلنج المسحوق ، والأفنان الملوية في الدغل والمنتصبة من

جديد في بطاء لطيف ، مثل ذراعي امرأة جميلة تتمطى عند النهوض من النوم — كان ذلك كله يدل على طريق ما . وتابع هذه الطريق ، ثم ضل عنها . كان الوقت ينقضي . وتابع تقدمه في الغابة ، وانتهى إلى شبه رابية . وأوحى إليه قناص صباحي يجتاز من بعيد ممراً ويصفى لحن الـ « غويلري » ، بفكرة تسلق شجرة . وعلى الرغم من شيخوخته ، فقد كان رشيقاً . كانت على مقربة منه شجرة مُرَّان فارعة الطول جذيرة بتيروس * وبولاتروويل . وتسلق بولاتروويل شجرة المران أعلى ما يستطيع ان يتسلقها .

كانت الفكرة جيدة . فمن طريق ريادة المكان الموحش من الناحية التي كانت الغابة متشابكة فيها إلى أبعد الحدود ، ضارية إلى أبعد الحدود ، لمح بولاتروويل الرجل فجأة . ولم يكذ يلمحه حتى غاب عن بصره .

ودخل الرجل ، أو على الأصح ، انزل إلى بقعة جرداء نائية ، محجة بأشجار باسقة ، ولكن بولاتروويل كان يعرفها جيداً ، إذ كان قد لاحظ هناك ، قرب ركام كبير من حجارة الرحي ، شجرة كمثاء جريئة ومعصوبة بصفيحة من الزنك مسمرة على لحائها . وهذه البقعة الجرداء هي تلك التي كانت تدعى في السابق ارض بلارو . ان ركام الحجارة ، المعدل لأمر لا يعرفه أحد ، والذي كان في ميسور المرء ان يراه هناك قبل ثلاثين سنة ، لا يزال ثمة من غير ريب . وليس في العالم ما يضاهي ركام الحجارة طول عمره ، إلا ان يكون ركام حجارة خاص بسياج خشبي . إنه هناك إلى حين . واي داع إلى البقاء !

وفي رشاقة البهجة ، سقط بولاتروويل عن الشجرة ، ولا نقول بهط منها . لقد اكتشف جحر الأرنب ، وكانت المسألة تقتضيه الآن الامساك بالطريدة . لعل كثر أحلامه الشهير كان هناك .

* Tityre احد راعيين ورد ذكرهما في اول قصائد فيرجيل للرعاية .

ولم يكن الوصول إلى تلك البقعة الجرداء أمراً هيناً . فمن طريق الممرات الممهدة ، والمشكّلة ألفَ خط متعرج مناكد ، كان بلوغها يقتضيه ربع ساعة تماماً . أما إذا سار في خط مستقيم ، من خلال الأجمة ، التي كانت هناك كثيفة جداً ، شائكة جداً ، وعدوانية جداً ، فكان الوصول إليها يقتضيه نصف ساعة بطولها . وتلك كانت غلطة بولاتروويل . لقد آمن بالخط المستقيم . وهمُّ بصريّ جليل ، ولكنه يقضي على كثير من الناس . لقد بدت الأجمة في نظره ، برغم أنها كانت شائكة جداً ، وكأنها الطريق الفضلى .

وقال :

— « فلنسلك شارع ريفولي الخاص بالذئاب » .

وارتكب بولاتروويل ، المتعود ان يسير في انحراف ، غلطة السير في خط مستقيم هذه المرة .

واندفع في عزم نحو اكثف الأدغال .

كان عليه ان يواجه آساً برياً ، وقُرّاصاً ، وزعروراً ، ونسريناً ، وشوكَ جِمال ، وعوسجاً قوياً سريع الغضب . وتُحدث جلدته تخديشاً .

وفي قعر المسيل ، وجد جدولاً يتعين عليه عبوره .

واخيراً وصل ، بعد اربعين دقيقة ، إلى بقعة بلارو الجرداء ، راشحاً بالعرق ، مبلل الثياب ، لاهثاً ، ممزقاً ، ضارباً .

ولم يكن في البقعة الجرداء احد .

وركض بولاتروويل إلى ركام الحجارة . كان الركام لا يزال في مكانه : إن أحداً لم يكن قد نقله .

أما الرجل ، فكان قد اختفى في الغابة . كان قد فر . إلى أين ؟

من اية ناحية ؟ في اي دغل ؟ كان منه المتعذر عليه ان يحزر .

وزاده مضاضةً أن وجد خلف ركام الحجارة ، أمام الشجرة ذات

صفيحة الزنك ، تربة تُنبث منذ قريب ، ومعولا منسياً أو مهجوراً ،
وحفرة .

كانت هذه الحفرة فارغة .

وصاح بولانروويل ، وهو يهز كلتا قبضتيه في وجه الافي :

« اللص ! »

٢

ماريوس ، وقد نجا من الحرب الاهلية ، يستعد

للحرب المنزلية

ظل ماريوس فترة طويلة متأرجحاً بين الموت والحياة . لقد استبدت
به طوال بضعة اسابيع حمى مصحوبة بهذيان ، وأعراض دماغية خطيرة
نشأت عن الارتجاج الذي أحدثته جراحات رأسه اكثر مما نشأت من
الجراحات نفسها .

وكرر اسم كوزيت ليالي بطولها في ثرثرة الحُمى الحدادية وعناد
الحشرة الكالغ . وكانت ضخامة بعض الجراح تشكل خطراً عظيماً -
لأن تقطيع الجراح البليغة معرض دائماً للامتصاص ثانية ، ومن ثم إلى
قتل المريض - بفعل بعض العوارض الجوية . فعند كل تغير في حالة
الجو ، وعند هبوب اضواء العواصف ، كان القلق يستولي على الطبيب ،
فهو يكرر : « عليكم ، فوق كل شيء ، ان تجنبوا المريض الاحتياج
والانفعال . » كانت الضمادات معقدة صعبة ، اذ لم يكن ربط العصابات
باللزوق قد ابتدع في تلك الحقبة . وقالت نيقوليت انها اصطنعت نُسالة
من غطاء سرير « ضخمة كالسقف » . ولم تتمكن ضروب الغسول المُمَكَّنورة

ونترات الفضة من ان تضع حداً للغفرينة إلا بشق النفس . وطوال مدة الخطر كان مسيو جيلنورمان ، الشارد اللب أمام سرير حفيده ، مثل ماريوس : لا هو يميت ، ولا هو يحيى . وكل يوم ، وفي بعض الاحيان مرتين كل يوم ، كان رجل حسن البنية . أبيض الشعر - ذلك هو الوصف الذي أعطاه البواب - يفسد لسكي يطمئن على صحة الجريح ، ويترك رزمة كبيرة من النسالة للضمادات .

واخيراً ، وفي السابع من أيلول ، بعد اربعة اشهر انقضت على ذلك اليوم الذي حمّل ماريوس فيه وهو يحتضر إلى بيت جده ، أعلن الطبيب زوال الخطر عنه . وبدأ دور النقاهة . ومع ذلك ، فقد تعين على ماريوس ان يظل اكثر من شهرين ممدداً على كرسي طويل ، بسبب من الطوارئ الناشئة عن انكسار لوح الكتف . ان ثمة دائماً جرحاً اخيراً مثل هذا يأبى ان يندمل ، ويخلد الضمادات ، مثيراً اعظم السخط في نفس المريض .

وعلى أية حال ، فان هذا المرض المتطاول ، وهذه النقاهة المتطاوله ، انقذاه من الملاحقة . ففي فرنسا ، ليس ثمة غضب ، ولو حكومياً ، لا تخمده اشهر ستة . إن الفن ، في أوضاع المجتمع الحاضرة ، تقع تبعثها على الناس جميعاً بحيث تعقبها حاجة ما إلى اغماض العينين .

ولنصف ان قرار غيسكيه الشائن ، الذي فرض على الاطباء أن يبلغوا السلطة عن المرضى ، كان قد أثار سخط الرأي العام ، بل ونقمة الملك قبل غيره من الناس . وتدرّج الجرحى واحتموا بهذا السخط وباستثناء أولئك الذي أسروا على ارض المعركة نفسها لم تجرؤ المحاكم العرفية على ازعاج احد . وهكذا ترك ماريوس في سلام .

وعرف مسيو جيلنورمان بادئ الأمر صنوف الألم المرير جميعاً ، ثم صنوف الانخفاف جميعاً . لقد وجدوا عسراً شديداً في منعه من قضاء

الليل كله ، يوماً ، مع الرجل الجريح . كان يطلب اليهم ان ينقلوا كرميه الكبير ذا الذراعين إلى جانب سرير ماريوس . وكان يصر على أن تتخذ ابنته من أنفـس ما في البيت من أقمشة عصائب وضادات . والتمست الآنسة جيلنورمان - بوصفها الشخص الأرشد الحكيم - الوسيلة إلى توفير تلك الأقمشة النفيسة ، فيما اوقعت في نفس الجد ان اوامره قد نُفذت . ولم يسمح مسيو جيلنورمان لامريء بأن يشرح له أن القماش القصبي ليس اجود ، في صنع النسالة ، من الكتان الخشن ، وان القماش الجديد ليس اجود من القماش العتيق . لقد أشرف بنفسه على وضع جميع الضادات ، وهو ما كانت الآنسة جيلنورمان تنأى بنفسها عنه في حياة . وحين كان اللحم الميت يُقطع بالمقص ، كان يقول : « آبي ! آبي ! » ولم يكن ثمة ما هو أدعى إلى التأثر من رؤيته يقدم إلى الجريح ، بارتعاشه العذبة الهرمة ، كأساً من مغلي ماء الحشائش . لقد أنقل كاهل الطبيب بالاسئلة . ولم يكن ينتبه إلى أنه كان يسأل دائماً الاسئلة نفسها .

ويوم أعلنه الطبيب ان ماريوس اجتاز مرحلة الخطر ، أصيب الرجل العجوز بهذيان . لقد أنعم على بوابه ببشارة مقدارها ثلاث لويـسيات ذهبية . وفي المساء ، حين أوى إلى غرفته ، رقص رقصة الـ « غافوت » جاعلاً من إلهامه وسبابته صناجتين ، وراح ينشد هذه الاغنية :

جان مولودة في فوجير
عشّ حقيقي لراعية
أنا أريد تنورتها
المفتاح .

ايها الحب ، انت تحيا فيها ،
ذلك انك تضع في
حديقها ، هي ، كنانتك .

الذاكرة !

أما أنا ، فاني أغني
وأحب أكثر من دهانا نفسها ،
جانّ وثديها
البروتانيين .

ثم انحنى على احد الكرامى ، وكان بامك — الذي راقبه من خلال
الباب نصف المفتوح — واثقاً من انه يصلي .
وكان حتى تلك اللحظة لا يؤمن بالله البتة .

ومع كل وجه جديد من وجوه التحسن ، الذي ازداد نجلياً يوماً
بعد يوم ، كان الجد يهذي . لقد قام بعشرات من الاعمال الميكانيكية
المفعمة بالجدل . كان يرتقي السلم ويهبطها من غير أن يدري لماذا .
ودهشت احدى جاراته ، وكانت امرأة جميلة ، اذ تلقت ذات صباح
باقة من الزهر ، كان مسيو جيلنورمان هو الذي ارسلها اليها . وعصفت
الغيرة بالزوج فغضب وثار . وحاول مسيو جيلنورمان ان يُقعد نيقوليت
على ركبته . واطلق على ماريوس لقب « السيد البارون » . وهتف :
« فلتحي الجمهورية ! »

وفي كل لحظة كان يسأل الطيب : « لم يبق من خطر ، أليس
كذلك ؟ » ونظر إلى ماريوس بعينيّ جدّ . كان يحضنه وهو يأكل .
ولم يعد يعرف نفسه ، ولم يعد يتكل على نفسه . كان ماريوس هو
سيد البيت . وكان في ابتهاجه تنازل . كان حفيد حفيده .

وفي هذا الطرب الذي عراه ، كان أكثر الاطفال توقيراً . فلخوفه
من ان يُتعب الشاب الناقه أو يزعجه كان يقف خلفه لكي يبتسم له .
كان سعيداً ، مبتهجاً ، منتشياً ، فائتاً ، غص الأهاب . وخلع شعره
الاشيب جللاً عذباً على الضياء البهيج الطافح به وجهه . وحسين

تجتمع الطلاوة والتجاعيد يصبح الوجه ساحراً حتى العبادة . إن تمسة
فجراً عجبياً في الشيخوخة السعيدة .

أما ماريوس فكانت تستحوذ على ذهنه ، فيما كان يمكنهم من أن
يضمّدوا جراحه ويعنّوا بحاله ، فكرة متسلطة : كوزيت .

ومنذ أن زابيلته الحمسى والهذيان ، لم يكن قد نطق بذلك الاسم .
ولعلمهم قد حسبوا أنه ما عاد يفكر فيه . لقد اعتصم بالصمت لسبب
واحد . هو أن روحه كانت هناك .

انه لم يدر ما الذي حل بكوزيت . كانت قضية شارع الـ
« شاتفريري » كلها أشبه بسحابة في ذاكرته . كانت ظلال ، غامضة
تقريباً . تطفو في ذهنه : ايونين ، غافروش ، مابوف ، تيناردييه
وزوجته ، وجميع اصدقائه وقد امتزجوا على نحو حشادي بدخان
المراس . وكان مرور مسيو فوشلوفان الغريب في تلك المأساة الدامية قد
خلّف في ذات نفسه مثل أثر الاحجية في عاصفة . إنه لم يفهم شيئاً في
ما يتصل بحياته هو . انه لم يدر كيف ، وبفضل من ، نجا . وما كان
احد من الذين حوله يعرف ذلك . كل ما استطاعوا ان يقولوه إنه حُمل
ليلاً إلى شارع فتياث كالفير في عربة كراء . كان الماضي ، والحاضر ،
والمستقبل لا تعني كلها ، عنده ، غير ضباب فكرة غامضة . ولكن كان
في هذا الضباب نقطة غير متحركة ، مكمّح واضح دقيق : شيء من
صوان ، عزم ، إرادة : أن يجد كوزيت من جديد . كانت فكرة
الحياة عنده غير منفصلة عن فكرة كوزيت . كان قد قرر في فؤاده ان
لا يقبل احدهما بدون الأخرى ، وكان قد وطّد العزم اقوى ما يكون
التوطيد على ان يطلب إلى كل من قد يرغب في اكراهه على الحياة—سواء
أكان المكره جده ، أو القدر ، أو الجحيم — ان يعيد اليه فردوسه
الضائع .

ولم يخف عن نفسه ما في ذلك من مصاعب .

ولنؤكد نقطة واحدة هنا : إن عناية جده كلها ولطف جده كله لم يعطفا قلبه ولم يلفظا من حاشيته إلا قليلا . إنه لم يكن ، في المحلل الأول ، جاهلا ذلك كله . ثم إنه ، في استغراقه وهو على فراش المرض ، في التفكير ، الذي ربما كان لا يزال محمومًا ، كان قليل الثقة بهذا اللطف ، بوصفه شيئًا جديدًا وغريبًا ، الغرض منه إخضاعه . وظل باردًا . لقد أنفق الجد ابتسامته المسكينة العجوز على غير طائل . وقال ماريوس في ذات نفسه ان كل شيء حسن ما دام هو ، ماريوس ، لم يتكلم ولم يبدأ مقاومة ما . ولكن ما إن تُبحث مسألة كوزيت حتى يجد حياء آخر ، وحتى ينزع القناع عن مسلك جده الحقيقي . وعندئذ سوف يشهد انتكاساً رهيباً إلى المسائل العائلية ، وسوف يواجه ضروب التهكم كلها ، وضروب المعارضة كلها دفعة واحدة : فوشلوفان ، كوبلوفان ، الثروة ، الفقر ، البؤس ، والانتقال في العنق ، والمستقبل . مقاومة عنيفة . والنتيجة ، الرفض . وتوترت أعصاب ماريوس مقدماً .

ثم إنه ، كلما رسخت قدمه أكثر في الحياة ، عاودته الاحزان القديمة ، وتفتحت قروح ذاكرته العتيقة ، وفكر في الماضي ككرة اخرى . وبرز الكولونيل بونميرسي ، مرة ثانية ، بين مسيو جيلنورمان وبينه هو ، ماريوس . ومع الصحة ، عاوده ضرب من الخشونة نحو جده . واحتمل العجوز ذلك في دعة .

ولاحظ مسيو جيلنورمان ، من غير أن يظهر ذلك بأية حال ، ان ماريوس ، منذ أن أُحمل إلى البيت واستعاد وعيه لم يقل له مرة « يا أبسي » . إنه لم يقل « مسيو » ، هذا صحيح ، ولكنه وجد الوسيلة إلى أن لا يقول هذه أو تلك من طريق ادارة الجمل على نحو ما .

كان واضحاً أن أزمة توشك ان تعصف .

وكما يحدث دائماً ، تقريباً ، في مثل هذه الاحوال ، قام ماريوس ، لكي يختبر نفسه ، ببعض المناوشات قبل أن يقاتل . وذات صباح ، اتفق لمسيو جيلنورمان ، بعد ان وقعت صحيفة بين يديه ، ان يتحدث في استخفاف عن « المؤتمر الوطني » ، وقذف دانتون ، وسان جوست ، وروبسيير ، بخاتمة حكمية ملكية . فقال ماريوس في قسوة : « لقد كان رجال ١٧٩٣ عمالقة » . واعتصم الشيخ بالصمت ، ولم يهمس بقيةَ النهار .

ورأى ماريوس ، المائلة في ذهنه ابداً صورة الجد العنيد الذي عرفه في السنوات الخالية - رأى في هذا الصمت تركيزاً للغضب كثيفاً ، وتوقع ان يعقبه صراع حاد ، وضاعف استعداداته للمعركة ، في زوايا فكره الخلفية .

وقرر ، في حال الرفض ، أن يمزق ضماداته ، ويخلع كتفه ، ويعرّي سائرَ جراحه ويفتحها ، ويرفض كل غذاء . كانت جراحه هي عتاده الحربي . فأما كوزيت ، وإما الموت . وانتظر اللحظة الملائمة في أناة المريض المدارية . وسنحت اللحظة .

٣

ماريوس يهاجم

وذات يوم انحنى مسيو جيلنورمان - فيها كانت ابنته ترتب القناني والكؤوس على ظهر الخزان الرخامي - فوق ماريوس وقال له في جرسه الأكثر رقة :

- « أترى ، يا صغيري ماريوس ، لو كنت مكانك لآثرت ان

آكل اللحم بدلا من السمك . إن سمكة موسى مقلية استهلال ممتاز
لدور النقاة . ولكن المريض يحتاج ، لكي يقف على قدميه ، إلى ضلع
جيد محشو .

واستجمع ماريوس ، الذي كان قد استعاد كامل قواه تقريبا ، جميع
هذه القوى ، واتخذ في سريره جلسة مستقيمة ، واسند قبضتيه المتشنجتين
إلى غطاء الفراش ، وحدق النظر إلى وجه جده ، وغلبت عليه سينا
رهية ، وقال :

— « هذا يقودني إلى أن أقول لك شيئا . »

— « ما هو ؟ »

— « هو أنني أريد أن أتزوج . »

— « موافق . »

قال الجد ذلك ، وانفجر ضاحكا .

— « موافق ؟ كيف ؟ »

— « اجل ، موافق . إنك سوف تفوز بفتاتك . »

وذهل ماريوس ، وغلب عليه الانشده ، وارتعدت اوصاله جميعا .
وتابع مسيو جيلنورمان :

— « اجل سوف تفوز بفتاتك الصغيرة ، الحلوة الوسيمة . إنها

نجمي كل يوم في شكل رجل عجوز لتطمئن عنك . ومنذ ان جرحت ،

ومسي تنفق وقتها في البكاء وصنع التسالة . لقد تقصيتُ حالها . إنها

تسكن في شارع الرجل المسلح ، رقم سبعة . آه ، اننا على استعداد !

حننا . سوف تفوز بها ! هذا يوقعك في الشرك . لقد بَيَّتُ

مؤامرتك الصغيرة ؛ لقد قلتَ في ذات نفسك : سوف اقذف بهذا ،

بعزم ، في وجه ذلك الجد ، في وجه مومياء عهدَي الوصاية والادارة

تلك ، في وجه ذلك الوسيم العتيق ، في وجه دورانت الذي أمسى

جبروت ؛ لقد كان له هو أيضا طيشه ، وغرامياته الموقفة ، ومحوباته

المفناجات ، و « كوزيثاته » . كان له عهد تباهى فيه بنفسه ، عهداً كان له فيه جناحان ، عهد أكل فيه خبز ربيعه ، إن عليه ان يذكر ذلك جيداً . سوف نرى . معركة . آه ، إنك تمسك الخنفساء من قرنيها . هذا حسن ، انا اقترح ضلعاً محشواً ، فتجيب أنت : « بالمناسبة ، اريد ان اتزوج . » هذا ما ادعوه انتقالاً . آه ، لقد اعتمدت على شيء من الخصام الطفيف . انك لم تعرف انني كنت جباناً عجوزاً . ما قولك في ذلك ؟ أنت مفتاظ . إنك لم تتوقع ان تجد جدك اكثر بلاهة منك نفسك ؛ انك تخسر الخطاب الذي اعددته لي ، يا سيدي المحامي . ذلك يشير السخط . حسناً ، لا بأس ، إستشط غضباً . انا أفعل ما ترغب فيه ، فذلك يفحمك ، ابها المخبول . اسمع . لقد قممت ببعض التحقيقات ؛ أنا مآكر أيضاً . إنها فاتنة ؛ إنها حسنة السيرة ؛ الرماح غير مصيب . لقد صنعت اكواماً من النسالة ؛ إنها جوهرة ؛ إنها تعبدك ولو انك مت ، اذن لكنا ثلاثة . وعندئذ يصاحب نعشها نعشي . ولقد عزمت ، منذ ان تماثلت للشفاء ، ان اركزها بكل بساطة أمام سريرك ، ولكن في الروايات فحسب يقدمون الفتيات ، في غير احتفال ، إلى سرير الجرحى الوسيمين الذين يهمهم شأنهم . هذا غير ممكن . اي شيء كان خليقاً بعمتك ان تقوله ؟ لقد كنت عارياً تماماً ، ثلاثة ارباع الوقت ، يا صاحبي . اسأل نيقوليت ، التي لم تفارقك دقيقة ، ما اذا كان بإمكان امرأة أن تكون هنا . وإلى هذا ، فأني شيء . كان خليقاً بالطبيب ان يقوله ؟ ان الفتاة الجميلة لا تشفي من الحمى . وأخيراً ، هذا حسن ، فلنقلع عن الكلام على هذا الموضوع . لقد تم كل شيء ؛ لقد قضي الامر ؛ لقد أنجز . خذها . تلك هي قساوتي . أترى ؟ لقد ادركت انك لم تحبني . قلت : ما الذي استطيع ان أفعله اذن لكي احمل هذا الحيوان على حبي ؟ وقلت : اسمع ! إن كوزيت الصغيرة تحت يدي . ولسوف أعطيه اياها . وعندئذ لا ريب في انه سوف يحبني بعض الشيء ،

أو يخبرني لماذا . آه ، لقد حسبت أن الرجل المعجوز سوف يثور ،
ويصطنع الصوت الغليظ ، ويصرخ « لا » ، ويرفع عصاه فوق هذا
الفجر كله . على الإطلاق . كوزيت ؟ فليكن . الحب ؟ فليكن . انسا
لا اطمع في ما هو أفضل . انهض بعبء الزواج ، يا سيدي . كن
سعيداً ، يا طفلي الصغير . »

حتى إذا قال ذلك ، عصفت بالمعجوز عاصفة من النحيب .
وأمسك برأس ماريوس ، وشده بين ذراعيه إلى صدره المعجوز ،
وانخرط كل منهما في البكاء . ذلك شكل من أشكال السعادة العليا .
وهتف ماريوس :

— « أبي ! »

فقال المعجوز :

— « آه ، أنت تحبني إذن ! »

وتصرمت لحظة لا سبيل إلى وصفها . وخنقتها الدموع ، ولم يستطيعا
كلاماً .

واخيراً غمغم المعجوز :

— « كفى ! لقد انحلت العقدة . لقد ناداني يا ابني ! »

وحرر ماريوس رأسه من بين ذراعي جده ، وقال في رقة :

— « ولكن أما وقد استعدت صحتي الآن ، يا أبي ، فأن في

استطاعتي أن أراها . »

— « موافق أيضاً . سوف تراها غداً . »

— « أبي ! »

— « ماذا ؟ »

— « ولم لا يكون ذلك ، اليوم ؟ »

— « حسن ، اليوم . ليكن ذلك ، اليوم . لقد ناديتني « يا أبي » ثلاث

مرات ، وهذه المناداة تستحق ذلك . سوف أتولى ذلك . سوف نجنيء

بها اليك . قلت لك اني موافق . لقد صيغَ ذلك شعراً قبل اليوم . إنه خاتمة مرثية اندريه شينييه الموسومة بـ « المريض الفتى » ، اندريه شينييه الذي قتله الآثم ... أعني عالقة عام ١٧٩٣ ،

وحسب مسيو جيلنورمان أنه لمح على جبين ماريوس عبوساً طفيفاً ، على الرغم من ان الفتى في الواقع — كما ينبغي ان نقول — لم يعد يصغي اليه ، بعد ان استحوذ عليه الانخطاف الروحي ، واستغرق في التفكير بكوزيت اكثر من استغراقه في التفكير بعام ١٧٩٣ . وسارع الجسد ، مرتعشاً لأقحامه اسم اندريه شينييه إقحاماً غير موفق ، إلى القول مسن جديد :

— « إن « قتله » ليست هي الكلمة المناسبة . الواقع ان العقريات الثورية الكبيرة ، والذين لم يكونوا اشراراً — هذا امر لا خلاف فيه — والذين كانوا ابطالا ، وحق الآله ، وجدوا ان اندريه شينييه ازعجهم بعض الشيء ، فساقوه إلى المقصلا ... يعني ان اولئك الرجال العظام ، في اليوم السابع من تيرميدور ، ومن اجل السلامة العامة ، قد توسلوا إلى اندريه شينييه ان يتفضل بالذهاب ... »

وغص مسيو جيلنورمان بحملته نفسها ، وعجز عن متابعة الكلام . واذ لم يستطع ان يتم الجملة أو ان يستدركها ، فيما كانت ابنته تسوي الوسادة خلف ماريوس ، فقد قذف الرجل العجوز بنفسه — وقد غمرته ضروب من الانفعالات كثيرة — إلى خارج حجرة النوم ، بأسرع مسا مكتته شيخوخته ، من ذلك . ورد الباب خلفه ، ارجواني الوجه ، مختنقاً ، مزبداً ، جاحظ العينين ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام باسك التلاميذ الذي كان يصقل الاحذية في غرفة الانتظار . واخذ بخناق باسك ، وصرخ في وجهه بأعلى صوته ، في سُرْع: « وحق نساء الشيطان الثرائرات لثة لف ، إن قطاع الطرق اولئك قد قتلوه ! »

— « من ، يا سيدي ؟ »

- « اندريه شينيه ! »
فقال باسك ، في ذعر :
- « نعم ، يا سيدي . »

٤

الانسة جيلنورمان تنتهي بان لاتجد غضاضة في دخول
مسيو فوشلوفان الى البيت متأبطاً
شيئاً ما

وكحل كل من كوزيت وماريوس عينيه ، كرة اخرى ، بروئية
الآخر .
أما اللقاء فنحجم عن وصفه . إن ثمة اشياء يتعين على المرء ان لا
يحاول تصويرها . والشمس في عداد هذه الاشياء .
كانت الاسرة كلها ، وفيها باسك ونيقوليت ، مجتمعة في حجرة
ماريوس ، عندما دخلت كوزيت .
لقد برزت على العتبة . ولقد بدا وكأنها هالة من نور .
وفي تلك اللحظة بالضبط كان الجد على وشك ان يتمخط . وكف
عن ذلك في الحال ، ممسكاً بأنفه خلف منديله ، وناظراً الى كوزيت من
فوقه .

وهتف :

- « فاتنة ! »

ثم تمخط في صوت مرتفع .
كانت كوزيت نشوى ، مسلوبة الفؤاد ، ذاهلة ، في الجنة . كانت

مذعورة بقدر ما يصاب المرء بالذعر بسبب من السعادة . وتمت ،
شديدة الشحوب ، شديدة التورد ، راغبة في ان تلقى بنفسها بين ذراعي
ماريوس ، غير متجرئة على ذلك . لقد استحييت أن تظهر حجبها أمام
هؤلاء الناس جميعاً . اننا لا نعرف الرحمة للمحبين السعداء ، اننا نبقي
هناك حين يكونون على اشد الرغبة في ان يخلو احدهم الى الآخر
إنهم ، مع ذلك ، في غير حاجة الى الناس ، على الاطلاق .
ومع كوزيت ، ووراءها ، دخل رجل أشيب ، وقور ، يتنسم برغم
ذلك ، وإن تكن ابتسامته غامضة ممضة . كان هو « مسيو فوشلوفان » ،
كان هو جان فالجان .

كان حسن البزة جداً ، كما سبق للبواب ان قال ، وكان يرتدي
بذلة سوداء جديدة ، ورباط رقبة ابيض .
وكان البواب على بعد الف فرسخ من ان يتبين في هذا البورجوازي
القديم ، في الكاتب العدل المحتمل هذا ، حامل الجثة الرهيب ذاك الذي
ترجّل عند بابيه ليل السابع من حزيران ، رث الثياب ، ملطخاً
بالوحل ، مروّعاً ، شرساً ، مقنعاً وجهه بالدم والقذر ، حاملاً
ماريوس الفاقد الوعي بين ذراعيه . ومع ذلك فقد أوقف عنده ذكاء
البواب . فحين أقبل مسيو فوشلوفان مع كوزيت لم يتمالك البواب ان
يسرّ هذه الملاحظة إلى زوجته : « لست أدري لماذا يخجل الي أنني رأيت
ذلك الوجه في مكان ما . »

وفي غرفة ماريوس ، ظل مسيو فوشلوفان قرب الباب ، وكأنه
معزل . كان يتأبط رزمة شبيهة بمجلد من قطع الثمن ، ملفوف بورقة .
كانت ورقة الظرف ضاربة إلى الخضرة ، ولقد بدت عفنة .
وفي صوت خفيض وجهت الأنسة جيلنورمان ، التي لم تكن تحب
الكتب قط ، هذا السؤال إلى نيقوليت :
« هل يتأبط هذا الرجل الكتب على هذا النحو دائماً ؟ »

وبالنبرة نفسها أجاب مسيو جيلنورمان الذي كان قد سمعها :
- « حسناً ، إنه عالم . ثم ماذا ؟ اهي غلطته ؟ إن مسيو بولارد
الذي عرفته ، ما كان يغادر بيته ، هو الآخر ، من غير كتاب ،
وكان من دأبه ان يضم إلى فواده على هذه الصورة مجلداً عتيقاً . »
وانحنى ، وقال في صوت عال :

- « مسيو ترانشلوفان »

ولم يفعل الأب فوشلوفان ذلك عن عمد ، ولكن الغفلة عن اسماء
العلم كانت عنده احدى العادات الارستوقراطية .

- « مسيو ترانشلوفان ، يشرفني أن اطلب منك يد الآنسة لحفيدي
السيد البارون ماريوس بونميرسي . »
وانحنى مسيو ترانشلوفان .

وقال الجد :

- « قضي الأمر . »

والتفت نحو ماريوس وكوزيت ، بذراعين مبسوطتين مباركتين ،
وهتف :

- « في ميسور كل منكما أن يعبد الآخر . »

ولم يتركها له مجالاً لأن يقولها مرتين . وبدأت الزقزقة . لقد تحدثا في
صوت خفيض ، وقد اتسكا ماريوس على كرسيه الطويل ، ووقفت
كوزيت إلى جانبه . وغمغمت كوزيت : « آه ، يا الهي ! أنا
اراك كرة اخرى ! هذا انت ! هذا أنت ! وذهابك إلى القتال على هذا
النحو ! ولكن لماذا ؟ ذلك شيء رهيب ! لقد كنت ميتة طوال اربعة
أشهر . أوه ، كم كان قبيحاً منك أن تشترك في تلك المعركة ! اي ذنب
اقرفته لنحوك ؟ أنا اغفر لك ، ولكنك لن تعود إلى مثلها ثانية . وفي
هذه اللحظة ، حين جاءوا يدعوننا إلى الحضور اعتقدت كرة اخرى اني
سوف اموت ، ولكن الموت كان من شدة الفرح . كنت محزونة جداً .

أنا لم اضع اي وقت في ارتداء ملابسى . لا شك ان منظري يوقع الرعب في النفوس . ما الذي سوف يقوله اقرباؤك حين يروننى وقد ارتسديت طوق عتق بالياً . ولكن تكلم الآن . انت تتركبى أنكلم وحدي . نحن لا نزال نسكن في شارع الرجل المسلح . يبدو أن كنتك ... كان ذلك فظيماً . لقد اخبرونى انه كان في استطاعتهم ان يضعوا جُمع كفهم في داخلها . ثم يبدو أنهم قطعوا لحمك بالمقراض . ان هذا هو الامر الرهيب . لقد بكيت ؛ أنا لم تبق لي عيتان . من المضحك أن يكون في ميسور المرء ان يتألم على هذه الشاكلة . إن لجذك مظهراً يدل على طيبة بالغة . لا ترعج نفسك ، لا تتكئ على مرفقك ، حذار ، انك سوف تؤذي نفسك . اوه ، ما أعظم سعادتى ! واذن فقد انقضى البلاء كله ! انا بلهاء إلى ابعد الحدود . كنت لودّ ان اقول لك اشياء ، ولكنى نسيتهما نسياناً كاملاً . الا تزال تحببى ؟ انا نسكن في شارع الرجل المسلح . ليس هناك حديقة . أنا أنفق وقتى كله في صنع النسالة . انظر يا سيدي ، إنها غلطتك ، لقد تصلبت اصابعى . فقال ماريوس : « ملاك ! »

ان كلمة « ملاك » هي الوحيدة التي لا تبلى بين كلمات اللغة كلها . إن أما كلمة اخرى لا تستطيع أن تصمد لاستعمال العشاق لها على نحو لا يعرف الشفقة .

وإذ كان ثمة أناس في الغرفة ، فقد كفّا عن الكلام ، ولم ينطقا بأما لفظة اخرى ، مكثيين بلمس احدهما يد الآخر في رقة بالغة .
والفت ميسو جيلنورمان نحو كل من كان في الغرفة وصاح :
« تكلموا ، انتم الآخرون ، بصوت عال . أحدثوا بعض الضجة ، خلف الكواليس . هيّا ، شيئاً من الضجة ، يا للشيطان ! حتى يستطيع هذان الطفلان ان يتطارحا الحديث من غير انزعاج . »
واقرب من ماريوس وكوزيت ، وقال لهما في صوت خفيض جداً :

— « تغازلا . لا ترتبكا . »

وشهدت العمة جيلنورمان ، في ذهول ، هذا الغزو الذي قام به الضياء لباطنها العجوز . ولم يكن هذا الدهول عدوانياً البتة . إنه لم يكن ، بأية حال ، تلك النظرة المكلومة الحاسدة التي تلقىها بومة على يمامتين . كانت نظرة بليدة تلقىها فتاة بريئة مسكينة في السابعة والخمسين من العمر . كانت هي الحياة الناقصة ناظرة إلى ذلك النصر : الحب . وقال لها أبوها :

— « ايتها الآنسة جيلنورمان الكبرى ، لقد قلت لك في وضوح ان ذلك سوف يحدث . »

وظل صامتاً لحظة ، ثم أضاف :

— « انظري إلى سعادة الآخرين . »

ثم التفت نحو كوزيت ، وقال :

— « ما أجملها ! ما أجملها ! إنها لوحة من لوحات « غروز » . واذن فسوف تنعم بها وحدك ، ايها الولد الطائش ! آه ، ايها الوغد ، لقد نجوت من موقف حرج معي ، انك لمحظوظ ؛ ولو لم اكن اكبر مما ينبغي بخمسة عشر عاماً لتبارزنا بالسيف لرى أينما يجب ان يفوز بها . اسمعي ! أنا متيم بك ، ايتها الآنسة . هذا طبيعي جداً . هذا حقك . آه ، يا للعرس الصغير الجميل الفاتن الذي سوف ينتج عن هذا الحب ! إن « سان دونيز دوسان ساكريمان » هي ابرشيتنا ، ولكني سوف انتزع إعفاء يمكنك من الزواج في « سان بول » . الكنيسة افضل . لقد شيدها اليسوعيون . ذلك اكثر دلالة . انها تقع تجاه نبع الكاردينال دو بيراغ . ان رائعة فن العمارة اليسوعي هي في نامور . انها تدعى « سان لو » . يجب ان تذهبي إلى هناك حين تتزوجين . ان تلك الكنيسة تستحق الرحلة ايتها الآنسة ، أنا من رأيك تماماً ، أنا أريد من الفتيات ان يتزوجن ،

• Grause رسام فرنسي امتاز يرسم صور الاشخاص (١٧٢٥ - ١٨٠٥)

لقد خلقت من أجل ذلك . إن ثمة قديسة اسمها « سانت كاترين » احب ان اراها دائماً حاسرة الرأس . ان صبرورة المرأة عانساً شيء رائع ، ولكنه بارد . الكتاب المقدس يقول : « تكاثروا ! » . لكي تنقذ الشعب نحتاج إلى جان دارك ، ولكن لكي نصنع الشعب نحتاج إلى الام جيغونسي . وهكذا تزوجن ، ابنتها الجميلات . انا في الواقع لا ارى فائدة ما في إحجام المرأة عن الزواج حتى تصبح عانساً . انا اعرف جيداً ان ثمة معبداً مستقلاً في الكنيسة ، وانهم يتحدثون كثيراً عن أخوية العنراء ، ولكني اقسم بحق الشيطان ان الزوج الوسيم - الفتى الصالح - وان الطفل الممتلئ الاشقر ، الذي يرضع ثديك ، عند انقضاء عام ، في ابتهاج ، والذي تحفل رجلاه بطبقات من الدهن ، والذي يعتصر اللبن من ثديك حفناً حفناً باظفاره الصغيرة الوردية ، فيها هو يضحك كالفجر ، ان هذا افضل ، على اية حال ، من حمل شمعة في صلاة العصر أو الغروب وإنشاد « السور العاجي ! Tris eburnea »

ورقص الجد على رجل واحدة ، على عقب رجله البالغ عمرها تسعين عاماً ، وشرع يتحدث من جديد مثل نابض ينطلق ثانية :

وهكذا ، بتضييق حقل احلامك
يا آل سيب ، سوف تتزوجين حقاً عما قريب .

- « وبالمناسبة ! »
- « ماذا ، يا ابي ؟ »
- « ألم يكن لك صديق حميم ؟ »
- « نعم . كورفيراك . »
- « ما الذي حل به ؟ »
- « لقد مات . »
- « حسن . »

وجلس قريبا ، وأجلس كوزيت ، وأمسك أيديها الأربع بيديه العجوزين المتجعدتين .

— « إنها لليلة ، هذه الفتاة اللطيفة . ان كوزيت هذه رائعة ! إنها فتاة صغيرة جداً ، وسيدة عظيمة جداً . إنها لن تصبح إلا بارونة ، هذا نزول عن مرتبتها الخاصة ، فقد ولدت مركيزة . يا ولدي ، ثبتنا في رأسكما انكما على صواب . ليجب احكما الآخر . كونا محبولين في ذلك . الحب هو حماقة الناس ، وحكمة الله . ليعبد كل منكما الآخر . ولكن » — اضاف الجد وقد اغتم فجأة — « يا للمصيبة ! هذا ما أفكر فيه ! إن أكثر من نصف ما أملك هو رُقبى أمتع بها ما دمت حياً . فما دمت على قيد الحياة ، فسوف يكون كل شيء على ما يرام . ولكن عقب موتي ، بعد عشرين عاماً ، آه ، يا ولدي المسكين ، لن تنالا دائماً واحداً . ان يديك الجميلتين البيضاوين ، يا سيدتي البارونة . سوف يكون لهما شرف شدة من ذنبه . »

— « إن عند الآنسة اوفرازي فوشلوفان ستمئة الف فرنك . »

كان ذلك الصوت صوت جان فالجان .

لم يكن قد نطق بعد بكلمة ، بل ان احداً لم يبد وكأنه كان يعرف انه هناك ، وانه كان واقفاً من غير حراك خلف هؤلاء الناس السعداء جميعاً .

وتسأل الجد ، مشدوها :

— « ومن هي الآنسة اوفرازي هذه ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « أنا . »

واضاف مسيو جيلنورمان :

— « ستمئة الف فرنك ! »

فقال جان فالجان :

— « ناقص اربعة عشر الف فرنك أو سبعة عشر الف فرنك ،
ربعا »

ووضع على الطاولة تلك الرزمة التي حسبها العمة جيلنورمان كتاباً .
وفتح جان فالجان الرزمة بنفسه . كانت حزمة اوراق نقدية .
وتصفحها ورقة ورقة ، وأحصوها . كانت تتألف من خمسمئة ورقة
من ذوات الالف فرنك ، ومئة وثمانين وستين ورقة من ذوات الخمسمئة
فرنك .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « هذا كتاب نفيس . »

وغضمت العمة :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! »

ثم إن الجد أضاف :

— « هذا سوف يسوي الأمور أحسن تسوية ، اليس كذلك ايتهما
الآنسة جيلنورمان الكبرى ؟ لقد وجد لك ماريوس الشيطان مليونيرة
مغناجة في شجرة الاحلام ! واذن فلتكن لك ثقة في غراميات الجيل
الطالع ، هذه الأيام ! الطلاب يجدون طالبات يملكن ستمئة الف فرنك .
الكروبيم • يشتغل احسن مما يشتغل روتشيلد . »

وكررت الآنسة جيلنورمان في همس :

— « خمسمئة واربعة وثمانون الف فرنك ! خمسمئة واربعة وثمانون !

وفي استطاعتك ان تقول انها ستمئة الف حقاً ! »

أما ماريوس وكوزيت فكانا يتبادلان النظرات طوال تلك الفترة .
لأنهما لم يوليا هذه النقطة إلا أقل الاهتمام .

• من الملائكة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس .

لأن تستودع مالك غابة ما ، خير لك من ان تستودعه كاتباً عدلاً ما

لا ريب في ان القاريء قد ادرك ، من غير أن يحتاج إلى شرح مسهب ، ان جان فالجان استطاع ، بعد قضية شانغاتيوي - وبفضل هربه الأول الذي استمر بضعة أيام - ان يشخص إلى باريس ، وان يسحب المال الذي كسبه باسم مسيو مادلين ، في مونثروي سور مير ، من مصرف لافيت في الوقت المناسب . وأنه ، كان قد خبأ - خشية ان يقبض عليه من جديد ، وهو ما حدث فعلاً بعد فترة قصيرة - ودفع ذلك المال في غابة مونفيرماي ، في الموطن المعروف بأرض بلارو . وكانت تلك الثروة ، البالغة ستمئة وثلاثين ألف فرنك ، والمؤلفة كلها من اوراق نقدية ، ذات حجم صغير ، وكانت موضوعة ضمن علبة . ولكي يقضي العلبة من الرطوبة ، وضعها في صندوق من خشب البلوط ، مليء بنشارة الكستناء . وفي الصندوق نفسه ، كان قد وضع كتزه الآخر: شمعداني الاسقف . والقاريء يذكر انه كان قد حمل هذين الشمعدانين عند هربه من مونثروي سور مير . وكان الرجل الذي لمح به بولاتروويل ذات مساء ، أول مرة ، هو جان فالجان . وفي ما بعد ، كان جان فالجان كلما احتاج إلى مال ، قصده إلى بقعة بلارو الجرداء التماساً لشيء منه . ومن هنا غيابه المتكرر الذي تحدثنا عنه . كان عنده معول في ناحية ما من الدغل ، في مخبأ ليس يعرفه أحد غيره . وحين رأى إلى ماريوس نعم بالنقاها ، واستشعر اقتراب الساعة التي قد يصبح فيها ذلك المال ذا فائدة ، مضى التماساً له أيضاً . وكان هو الذي رآه بولاتروويل

آنذاك في الغابة ، ولكن صباحاً هذه المرة ، لا مساء . وورث بولاتروويل المعول .

كان المبلغ الحقيقي خمسمئة وأربعة وثمانين ألفاً وخمسمئة فرنك . ولقد اخذ جان فالجان خمسمئة فرنك لنفسه . وفكر : « سوف نرى في ما بعد . » وكان الفرق بين هذا المبلغ والستمئة وثلاثين ألف فرنك المسحوبة من مصرف لافيت يمثل نفقات عشر سنوات ، من ١٨٢٣ إلى ١٨٣٣ . إن السنوات الخمس التي قضاها في الدير لم تكلفه غير خمسة آلاف فرنك . ووضع جان فالجان الشمعدانين الفضيّين على الموقد ، حيث أضاءا ، مُوقِعِينَ في نفس توسين أعظم الإعجاب .

وإلى هذا ، فقد عرف جان فالجان انه قد أنقذ من جافير . كان قد ذُكر على مسمع منه ، وكان قد تثبتت من صحة الواقعة من طريق صحيفة « المونيتور » التي نشرت أن مفتش شرطة يدعى جافير وجسد غريقاً تحت مركب احدى الغسالات بين جسر « شانج » و « الجسر الجديد » ، وان ورقة تركها هذا الرجل ، الذي كان خلواً من العيب متمتعاً بأعظم التقدير من رؤسائه ، قادت إلى الاعتقاد بأنه انتحرا اثر نوبة جنون أصابته . وقال جان فالجان في ذات نفسه : « الواقع ، انه ما دام قد اطلق سراحى بعد ان قبض علي ، فلا ريب في أنه كان قد اصيب قبل ذلك بالخليل . »

٦

العجوزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ،

لكي تكون كوزيت سعيدة

وانتخذت جميع الاستعدادات للزواج . وحين استشير الطبيب أعلن ان

في الامكان عقده في شباط . وكان القوم آنذاك في كانون الاول .
وتصرمت بضعة أسابيع فاتنة من السعادة الكاملة .
ولم يكن الجد اقلهم سعادة . كان يقضي بين الفينة والفينة فترة تزيد
على ربع ساعة وهو يحرق إلى كوزيت .
وهتف مرة :

— « يا للفتاة الجميلة الرائعة ! ويا ما أعذب اخلاقها وأطيبها !
وليس ثمة فائدة ، يا حبيبي ، في ان اعبر لك عما يختلج في
فؤادي . إنها اجمل فتاة رأيتها في حياتي . وإلى هذا فإنها سوف تحمل
اليك فضائل ذات عبر اشبه بعير البنفسج . إنها نعمة ، حقاً . ليس في
استطاعتك الا ان تحيا ، في نبل ، مع مخلوقة كهذه . ماريوس ، يا بني
انت بارون ، انت غني ، لا تمارس المحاماة بغير نجاح ، أتوسل
اليك . »

كانت كوزيت وماريوس قد انتقلا فجأة من القبر إلى الجنة . ولم
يكن في ذلك الانتقال غير حذر ضئيل . ولقد كان جديراً بهما ، لو لم
يصبهما الجهل ، ان يصابا بدوار .
وقال ماريوس لكوزيت :

— « هل تفهمين شيئاً من ذلك ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « لا . ولكن يخيل الي أن الله اللطيف يحيطنا بعنايته . »

وعمل جان فالجان كل شيء ، وسوى كل شيء ، وأصلح كل
شيء ، وسهل كل شيء . لقد اسرع نحو سعادة كوزيت بمثل اللهفة ،
وفي ما يبدو بمثل البهجة ، التي اندفعت بها كوزيت نفسها .

واذ كان في ما مضى عمدة ، فقد عرف كيف يحل مشكلة دقيقة
كان هو وحده واقفاً على سرها : مشكلة وضع كوزيت المدني . فلو
انه ذكر اصلها في قساوة اذن لحال ذلك — من يدري ؟ — دون الزواج .

لقد اخرج كوزيت من المصاعب كلها . ولقد نظم لها أسرة من الموتى ، وهي وسيلة مضمونة لعدم إثارة اعتراض ما ؛ وكانت كوزيت هي البقية الباقية من تلك الاسرة البائدة ؛ إن كوزيت لم تكن بنته ، ولكن بنت فوشلوفان آخر . كان أخوان من آل فوشلوفان قد عملا بستانيين في دير بيكبوس الصغير . وذهب القوم إلى هذا الدير . وكانت الأدلة الفضلى والشهادات الأحفل بالاحترام موفورة هناك . فالراهبات الصالحات لمتنعت باقل القدرة على سبر قضايا الأبوة واقل الرغبة في ذلك ، واللواتي ما كن يفهمن الخبث على الاطلاق ، لم يعرفن قط على وجه الضبط ابنة ابي من الفوشلوفانين كانت كوزيت . لقد قلن ما كان مطلوباً منهن ، وقلن ذلك في اندفاع . وحرر محضر بهذا أمام الكاتب العدل . واصبحت كوزيت ، امام القانون ، الآنسة اوفرازي فوشلوفان . لقد أعلنت بتيمة الاب والام . ورتب جان فالجان الاشياء بحيث يُنص على انه ، تحت اسم فوشلوفان ، وصي على كوزيت ، وان مسيوجيلنورمان وكيل بي عليها .

أما الخمسمئة والاربعة والثمانون الف فرنك فكانت هبة بوصية ، تركها لكوزيت شخص ميت كان قد أبدى رغبته في أن يظل مجهولاً . وكانت الهبة الأصلية خمسمئة واربعة وتسعين الف فرنك ، ولكن عشرة آلاف فرنك كانت قد انفقّت على تعليم الآنسة اوفرازي ، ومنها خمسة آلاف فرنك دفعت إلى الدير نفسه . وكان لهذه الهبة ، المودعة في يدي فريق ثالث ، ان تقدّم إلى كوزيت عند بلوغها سن الرشد ، أو عند زواجها . وكان هذا كله مقبولا جداً ، كما نرى ، وبخاصة على اساس من نيف ونصف مليون . وكانت ههنا وههناك ، في الواقع ، بعض الاشياء الغريبة ، ولكن احداً لم يلاحظها . كان احد المعنيين بهذا الأمر معصوب العينين بالحلب ، وكان الآخر معصوب العينين بالفرنسكات الستمئة الف .

وعلمت كوزيت انها لم تكن بنت ذلك العجوز الذي دعته أباها طوال فترة مديدة . لقد كان مجرد نسيب من أنسابها ؛ كان أباها الحقيقي فوشلوفان آخر . ولقد كان خليفاً بهذا ، في أيما وقت آخر ، أن يكسر فؤادها . ولكنه لم يكن في تلك الساعة ، الممتعة على الوصف ، غير ظل ، غير اربداد ، ولقد كانت تنعم بقدر من البهجة كبير جعل تلك السحابة قصيرة الأجل . كان لها ماريوس . لقد جاء الرجل الشاب ، واهمى الرجل العجوز . تلك هي الحياة .

وإلى هذا ، فقد اعتادت كوزيت ، طوال سنين عديدة ، ان ترى نفسها محاطة بالاحاجي . وكل من كانت طفولته غامضة خفية يكون أبدأ على استعداد لبعض التنازلات .

وعلى كل حال ، فقد ظلت تقول لجان فالجان : « يا ابي » . وكانت كوزيت ، في جملتها البالغ ، كلسفة بالجد جيلنورمان . صحيح أنه أثقلها بالقصائد الغزلية القصيرة وبالهدايا . وبينما كان جان فالجان يبني لكوزيت وضعاً سوياً في المجتمع ، وملكاً لا مرية فيه ، كان مسيو جيلنورمان يسهر على هدية العرس . وما كان ليسر شيء بقدر جعلها فخمة رائعة . وكان قد قدم إلى كوزيت ثوباً من البريم المعروف بـ « بريم بينش » تحذر اليه من جدته . وقال : « لقد درجت هذه الازياء من جديد . إن الناس جميعاً يميلون إلى الاشياء العتيقة ، وهكذا فأن فتيات شيخوختي الصغيرات يلبسن مثل عجائز طفولتي . »

ونهب خزائنه الجليلة المستديرة الكروش ، المصقولة بلك* . كورمنديل والتي لم تفتح منذ سنوات عديدة ، وقال : « فلنحمل هذه الارامل على الاعتراف . ولتر ما الذي تنطوي عليه . وهكذا افترع ، في صخب ، تلك الادراج العميقة الملأى بحلى زوجاته جميعاً ، وخليلاته جميعاً ، وجداته جميعاً . واخرج منها منسوجات حريرية موشاة من نوع

* الك laque ضرب من الصمغ كانوا يخطون به مادة لصفل الخزائن الثمينة .

« بيكين » ، ودمقساً ، وانسجة حريرية صيفية ، ومنسوجات متموجة مزدانة بالتصاوير ، واثواباً من حرير « تور » المتوهج ، ومناديل هندية موشاة بذهب يمكن غسله ، واقمشة من نوع « دوفين » مصقولة الوجهين لم يمسهامقص ، وتخاريم جنوا وآلانسون ، وحلى عتيقة ، وعلب ملابس عاجية مزدانة بمعارك ميكروسكوبية ، وملابس ، وعصائب ، وأغدها كلها على كوزيت . وحلمت كوزيت - المنشده ، المحبة لماريوس حباً عارماً ، العامر صدرها بعرفان للجميل طاغ نحو مسيو جيلنورمان - حلمت بسعادة لا حدود لها مجليسة بالأطلس والمخمل . وتراءت لها سلة عرسها وقد حملتها ايدي الساروفيم . لقد حلفت روحها في اللازورد على اجنحة من تخاريم مالين . .

ولم يكن ثمة ما يضارع نشوة العاشقين ، كما قلنا ، غير انخطاف الجسد . لكأن انغام الابواق كانت تصدح في شارع فتيات كالقبر . وكل صباح كانت كوزيت تتلقى من الجسد هدية جديدة من تلك النفائس العريقة . ونورت ضروب الحللى على اختلافها ، من حولها ، تنويراً بهياً .

وذات يوم ، قاله ماريوس الذي كان مولماً بالكلام في رصانة وسط سعادته ، وذلك لمناسبة حادث لست اعرف ما هو :

« إن رجال الثورة هم عظام إلى درجة جعلتهم ينعمون منذ زمن بتقدير الأجيال ، مثل « كاتون » ، و « فوسيون » ، وكل منهم

• ارواح سامرية تعتبر في الطبقة الاولى بين الملائكة ، عند اليهود والمسيحيين .

• Malino مدينة بلجيكية اشتهرت بوشيا وتخريمها .

• Caton حد مشاهير الرومان ، وكان معروفًا بعدائه لقرطاجة ، حتى لقد كان ينادي

دائماً بضرورة تدميره . (٢٣٢ - ١٤٧ ق.م)

• Phocion جنرال وعطيب اثيني ، وكان شهيراً ب نزاهته وحبه للعلم . رقد حكم عليه

ان يشرب الشوكران السم حوالي ٤٠٠ - ٣١٧ ق.م)

يبدو وكأنه ذكرى عريقة في القدم . (*mémoire antique*)

فهتف العجوز :

— « منسوجات متموجة عريقة في القدم ! (*moire antique*) شكراً لك ، يا ماريوس . تلك هي ، على وجه الضبط ، الفكرة التي كنت أبحث عنها . »

وفي اليوم التالي أضيف إلى سلة عرس كوزيت ثوب رائع مصنوع من نسيج متموج عتيق شبيه لونه بلون الشاي .
واستخرج الجد حكمة من هذه الأسفال :

— « الحب ، هذا شيء حسن . ولكنه في حاجة إلى هذه . ان السعادة لا تستغني عن غير المفيد . السعادة ليست إلا الضروري ليس غير فتبّلوها لي تتيلاً هائلاً بكل ما هو فضلة . قصرٌ وقلبها . قلبها والوفر . قلبها ومناهل فرساي الغزيرة . اعطوني راعيتي ولتكن دوقة إذا أمكن . ليتوني بفيليس متموجة بزهرات نبات الجليجلة ، وأضيفوا إليها مئة ألف ليرة من الدخل السنوي . افتحوا لي قصيدة ريفية في نجوة من الانظار تحت صف من أعمدة رخامية . أنا اوافق على القصيدة ، كما اوافق على صنيع الجن في الرخام والذهب . السعادة الجافة أشبه بالخبز الجاف . انا نأكل ، ولكننا لا نعيش . انا ارغب في ما هو زائد ، في غير المفيد ، في الغريب الأهوس ، في المبالغ فيه ، في ذلك الذي لا يصلح لشيء . انا اذكر اني شاهدت في كاتدرائية ستراسبورغ ساعة يبلغ ارتفاعها ارتفاع بيت ذي ثلاثة ادوار ، ساعة تعين الوقت ، أو تفضل بتعين الوقت ، ولكنها لا تبدو وكأنها جعلت لمثل ذلك . ساعة ما ان تعلن حلول الظهر أو نصف الليل — الظهر ، موعد الشمس ، ونصف الليل ، موعد الحب — أو أي ساعة تشاء انت ، حتى تعطيك

القمر والنجوم ، والبر والبحر ، والأطيار والاسماك ، وفيومس . وفيه . .
 وجمهرة من الاشياء تخرج من كوة ، والرسل الاثني عشر ، والامبراطور
 شارل الخامس (شارل كان) ، وايونين . . . وسابينوس ، ومجموعة
 من الرجال الضئيلي الأجسام ، المذهبتين ، النافخين في البوق ، فضلاً عن
 ذلك . هذا إذا لم نذكر قرع الاجراس المتناغم الفائن الذي كانت تبده
 في الهواء ، في جميع المناسبات ، من غير ان يدري احد لذلك
 سبباً . هل نستطيع القول ان الساعة الشريرة العارية عرياناً كاملاً ، والتي
 تجتريء بالدلالة على الوقت ، تساوي هذه الساعة ؟ اما أنا ،
 فأتفق في الرأي مع ساعة ستراسبورغ الضخمة ، وافضلها على « الساعة
 الوقواق » في الغابة السوداء . »

وهذا مسيو جيلنورمان في موضوع الزفاف على نحو خاص ، ومرت
 كيفما اتفق ، جميع مرايا القرن الثامن عشر القائمة بين الكوى ، من
 خلال مدائح المغالى فيها .

وصاح :

« انتم تجهلون فن الافراح . انتم لا تعرفون كيف تحيون يوماً
 من أيام البهجة في هذا العصر . ان قرنكم التاسع عشر قرن ضعيف .
 ان الافراط يعوزه . وهو ينكر ما هو غني ، وينكر ما هو نبيل .
 إنه مجزوز في كل شيء جزأ مفراطاً . ان طبقتكم الثالثة . . . لا طعم
 لها ، ولا لون ، ولا رائحة ، ولا شكل . أحلام بورجوازيتكم السي

• Phébus اسم يطلق على ابولو ، آله الضياء والفنون عند الاغريق والرومان .

• Phébé اسم مستعار للالهة الاغريقية آرتيميس والقمر .

••• Eponine بطلة من الغالين (الفرنسيين القدماء) ، كانت زوجة لسابينوس ،

الوارد ذكره في المتن ايضاً . وكانت قد عاهدت نفسها على ان تنقذ الغالين من نير
 الرومان ، ولكنها أخفقت ، فحك عليها بالموت .

••• المقصود بالطبقة الثالثة ، هنا ، طبقة العوام .

تقيم بناء ، كما يقولون : هو للسيدات صغير وجميل ، مزدان منذ عهد قريب
 بنحش بنفسجي اللون وبنسج قطي . أفسحوا ! أفسحوا ! السيد غريغو
 يتزوج الآنسة غريبيسو . زهو وبهاء ! لقد الصقوا ليرة لويسية ذهبية إلى
 إحدى الشموع . ذلك هو العصر . انا أرجو ان أفر إلى ما وراء بلاد
 « السارمات » . آه ، في سنة ١٧٨٧ تنبأت بأن كل شيء قد ضاع ، يوم
 رأيت الدوق دو روهان ، والبرنس دو ليون ، والدوق دو شابو ، والدوق
 دو مونبازون ، والمركيز دو سوبيز ، والفيكونت دو تووار ، مير
 فرنسا ، يقصدون إلى لونشان في عربة صغيرة ذات مقعدين ! لقد آتني
 ذلك ثماره . ففي هذا القرن ، يتاجر المرء ويقامر ، بالبورصة ، ويكسب
 المال ، ويغلب عليه البخل الشديد . الناس في هذا العصر يعنون بالظاهر
 ويصقلونه . إنهم يغالون في التأنق ، انهم يغسلون بشرتهم بالماء ،
 وبالصابون ، إنهم يكشطون جلودهم ويخلقون ذقونهم ، ويسرحون
 شعورهم ، إنهم مشتمعون ، مملسون ، مُقَرَّشُونَ ، منظفون — من
 خارج ، منزهون عن العيب ، مصقولون مثل الحصاة ، أصحاب فطنة ،
 شديلو النظافة ، وفي الوقت نفسه — وحق خيلتي — يحملون في اعماق
 ضميرهم مزابل وبواليس خليقة بأن تجفل راعية بقر اعتادت ان تتمخط
 باصابعها . أنا امنع العصر الحاضر هذا الشعار : نظافة قدرة . ماريوس ،
 لا تغضب ، دعني اتكلم ، أنا لا أهين الشعب ، كما ترى ، ان فمي
 مليء من شعبك ، ولكني اجد من الخير ان اضرب البورجوازية بعض
 الشيء . أنا واحد منهم . إن من يحب كثيراً ، يضرب كثيراً . وعلى
 هذا ، فاني اقولها من غير مجاملة : ان الناس يتزوجون اليوم ، ولكنهم
 لا يعرفون كيف يتزوجون . آه ، هذا صحيح ، أنا آسف على
 الطرق الجميلة التي كانت متبعة في الايام الخالية . أنا آسف عليها كلها .

« اصقاع واسعة في اوروبة الشرقية كان يقطنها في ما مضى شعب يعرف بالشعب
 السارماتي . وقد قضى القوط على قوتهم في القرن الثالث للميلاد .

تلك الاناقة ، تلك الفروسية ، تلك الاساليب المصقولة الفاتنة ، ذلك العرف البهيج الذي كان ينعم به كل انسان ، والموسيقى وقد ألقت جزءاً من العرس ، السيمفونية فوق ، وقرع الطبول تحت ، وضروب الرقص ، والوجوه المستبشرة الجالسة إلى المائدة ، والقصائد الغزلية المعقدة ، والاغاني ، والاسهم النارية ، والضحك المرسل ، وإيليس وحاشيته ، وعُقد العصائب الكبيرة . أنا آسف على رباط ساق العروس . ان رباط ساق العروس ابن عم لحزام فينوس . ما الذي هاج حرب طروادة ؟ الذي هاجها ، وحق السماء ، رباط ساق هيلانة . لماذا يتقاتلون ؟ لماذا يحطم ديوميديس الآلهي تلك الخوذة البرونزية الضخمة ذات الرؤوس العشرة على رأس ميرونس ؟ لماذا يتبادل أنخيل وهكتور طعنات حراب بليغة ؟ لأن هيلانة مكنت « باريس » من ان يأخذ رباط ساقها . ورباط ساق كوزيت كان خليفاً بهوميروس ان يبدع الاليادة . كان خليفاً به ان يدخل في قصيدته ثراثراً عجوزاً مثلي ، وان يسميه نسطور . ايها الاصدقاء ، في الايام الخالية ، في تلك الايام الجميلة الخالية ، كان الناس يتزوجون على نحو علمي ، كانوا يوقعون عقداً صالحاً ، ثم يمدون مائدة صانحة صالحة . فما إن يخرج كوجا .. حتى يدخل غاماش .. . ولكن المعدة هي ، حقاً ! ، حيوان لطيف يطالب بحقه ، ويرغب في ان يعقد زفافه أيضاً . كانوا يتناولون عشاء دسماً ، وكانوا يضعون قريباً منهم ، إلى المائدة ، جارة جميلة ، لا ترتدي لباس صدر ، ولا تخفي جيدها إلا باعتدال ! اوه ، يا للافواه العريضة الضاحكة ، ويا للبهجة البالغة التي

• Diomedes أحد المقاتلين الافريق في حرب طروادة . وهو الذي ساعد اوديسيوس على سرقة خيل ريسوس وتمثال البالاديوم .

•• Gujas مترشح فرنسي شهير (١٥٢٢ - ١٥٩٠)

••• Gamacho فلاح غني ورد ذكره في رواية دونكيشوت ، وقد أقام عند زواجه مأدبة باذخة ضرب بها المثل في الاسراف البالغ .

كانت تكشف عنها في تلك الأيام . كان الشباب باقية . كان كل شاب ينتهي بغصن من الليلك أو بحزمة من الورود . فاذا كان المرء مقاتلاً ، كان راعياً . واذا اتفق ان كان قائداً من قواد الفرسان الثنائين ، كان يجد وسيلة لأن يدعى فلوريان . . كانوا يصطنعون كل شيء لكي ينحلوا بالجمال . كانوا يوشون انفسهم ، وكانوا يصبغون انفسهم بالارجوان . كان للبورجوازي مظهر زهرة ، وكان للمركيز مظهر حجر كريم . ان المرء ما كان يشد سيوراً تحت حذائه ، انه ما كان يلبس حذاء ذا رقبة . كان المرء أنيقاً ، مصقولاً ، متموجاً ، اسمر ذهبياً ، مرفرفاً ، لطيفاً ، مغتاجاً ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من ان يحمل في جنبه سيفاً . ان للطائر الطنان مقاراً وأظفاراً . كان ذلك عصر « جزر الهند الغزلة » . كان الناعم هو أحد جانبي العصر ، وكان البهسي هو جانبه الآخر . وكان المرء ، وحق الشيطان ، يلهو ويعبث . اما اليوم فالناس جديون . البورجوازي يخيل ، والبورجوازية مغالية في التعفف . إن عصركم منكود الحظ . فالناس قد يطردون آلهات الجدل . . لمجرد ان اثوابهن تكشف عن اجيادهن بعض الشيء . واأسفاه ! انهم يخشون الجمال وكأنه قبح . ومنذ الثورة ، أمسى كل شيء يرتسدي البنطلون ، حتى الراقصات . ان على الراقصة ان تكون رصينة . إن رقصاتكم مذهبية . ينبغي أن نكون أجلاء . اننا نغضب إذا لم تكن ذقوننا مقحمة في أربطة اعناقنا . والمثل الأعلى الذي يطمح اليه الصبي السذي يتزوج ، وهو في العشرين من العمر ، ان يكون مثل مسيو روايسه كولار . وهل تدري لي م سوف ننتهي بهذا الجلال ؟ لي أن نصبح صفاراً . تعلم هذا : الابتهاج ليس بهيجاً فحسب ؛ إنه عظيم أيضاً .

• Florian من كلمة fleur وتعني الزهر .

•• Graces في الميثولوجيا اليونانية . وهي ثلاث : أغلايه Aglaé ، وطالي Thalie

وأوفروزين Euphrosine .

فكونوا اذن عاشقين في بشر ، يا للشيطان ! وتزوجوا ، حين تتزوجون
بمحمى السعادة ، ودوارها ، ولغظها ، وفوضاها ! الرصانة فسي
الكنيسة ، ليكن ذلك . ولكن ما إن ينتهي القداس ، حتى يتعين علينا
ان نجعل الحلم يعصف من حول العروس . الزواج ينبغي ان يكون
ملوكياً وخيالياً . ينبغي ان يسير في موكب من كاتدرائية ريمس إلى هيكل
اصنام شانتلو . إن الذعر ليلفتي من العرس البليد . كونوا في الاولب ،
ذلك اليوم فحسب على الاقل . كونوا آلهة . آه ، في استطاعة المرء ان
يكون جنأ ، ان يكون الآه بهجة ، أن يكون أرجيراسبيد . انتسم
عفاريت . يا اصدقائي ، إن على كل زوج جديد ان يكون البرنس
آلدوبرانديني . فأفيدوا من هذه اللحظة الفريدة من حياتكم لكي تفروا
إلى عليين مع الأوز والنسور ، على ان تبقى لكم حريتكم في ان
ترتدوا ، في غد ، إلى بورجوازية الضفادع . لا تقتصدوا في الزفاف
أبداً ، لا تقلّموا بهاءه ، لا تقتروا اليوم الذي تشعّون فيه . الزفاف
ليس تدبير منزل . اوه ، لو اردت ان اطيع هواي ، اذن لسكان
ذلك أنيقاً ظريفاً ، كنت اسمعكم انغام الكمان تُعزف في الاشجار .
ذلك هو برناجي : زرقة سماوية وفضة . لو اردت ان اطيع هواي
لأدخلت الالهات الريفيات في الحفلة ، ولدعوت اليها جنيات الأحراج
وحوريات البحر . اعراس آمفيتريت * ، سحابة وردية ، إلهات مياه
رُتّب شعرها احسن ترتيب عارية عرياً كاملاً ، وعضسو في
الاكاديمية يقدم الرباعيات إلى الالهة ، عربة تجرها هُولات بحرية :

إن سمندر الماء قد خب فدام ، واستل من حذفه
اصواتاً كانت من الفتنة بحيث تفتن كائن من كان .

إن للحفلات برامج ، وهوذا واحد منها ، وإلا لم تكن لي معرفة
بها ، وحق الشيطان ! »

* Amphitrite الالهة للبحر ، وزوجة نبتون في الميثولوجيا القديمة .

وفيهما كان الجد ، المتدفق تدفقاً غنائياً كاملاً ، يصغي لنفسه ، كانت كوزيت وماريوس منتشين بتبادل النظرات في حرية .
وشهدت العمة جيلنورمان ذلك كله في وداعتها الهادئة . كانت قد عرفت منذ خمسة اشهر أو ستة اشهر عدداً من الانفعالات . لقد رجع ماريوس ؛ لقد أعيد ماريوس دامسي الجراح ؛ لقد حُمل ماريوس من احد المتاريس ؛ ماريوس قد مات ؛ ثم عاش ؛ ماريوس قد استُرُضي ؛ ماريوس قد خُطب له ؛ ماريوس يتزوج شحاذة ؛ ماريوس يتزوج مليونيرة . وكانت الستمئة الف فرنك هي آخر مفاجأتها . ثم إن لامبالاتها التناولية الأولى عاودتها . كانت تذهب على نحو نظامي إلى القديس ؛ وكانت تتمرّجيات سبحتها تحت أصابعها ؛ وتقرأ في كتاب صلواتها ؛ ونهمس بـ « السلام الملائكي » في جانب من المنزل ، بينما كان نهمس بـ « أحبك » في الجانب الآخر ، وكانت ترى ماريوس وكوزيت وكأنهما طيفان . كانت هي نفسها الطيف .

إن ثمة حالة من النسل العادم الحركة حيث النفس ، المعادلة بالخدر ، الغريب على ما نستطيع ان ندعوه مسألة العيش ، لا تلمح - باستثناء الزلازل والكوارث - أيّاً من الانطباعات البشرية . سواء منها الانطباعات المستحبة ، والانطباعات الاليمة . وقال الجد جيلنورمان لابنته : « هذا التقى يطابق زكماً في الرأس . انت لا تشم شيئاً من الحياة . لا رائحة كريهة ، ولكن لا رائحة زكية أيضاً . »

وإلى هذا ، فإن الستمئة الف فرنك كانت قد حسمت تردد العانس . كان ابوها قد اعتاد ان لا يدخلها في حسابه إلى حد جعله يُغفل استشارتها في موضوع الموافقة على زواج ماريوس . كان قد تصرف في تهور ، وفقاً لهواه ، وقد سيطرت على عقله - وهو الطاغية السذي أمسي عبداً - فكرة واحدة ، هي ارضاء ماريوس . أما العمة ، أما ان العمة كانت موجودة ، وانه قد يكون لها رأي ، فذلك ما لم يفكر فيه مجرد تفكير . وعلى الرغم من انها كانت نعجة بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد غاظها ذلك . واذا ثارت بعض الشيء باطنياً ، ولكنها احتفظت

بامتناعها على التأثر ، خارجياً ، فقد قالت في ذات نفسها : « ان والذي قد بت في مسألة الزواج بمزول غني ، ولسوف ابت في مسألة الميراث بمزول عنه . » كانت مومسة ، في الواقع ، ولم يكن ابوها مومساً . وهكذا كانت قد احتفظت بقرارها في شأن ذلك . وكان من المحتمل ، لو كان الزفاف هزيلا ، ان تتركه هزيلا . فلأم السيد ، ابن اخي ، الهبسل ! انه يتزوج شحاذة ، فليكن شحاذاً . ولكن نصف الملبسون الذي كانت تملكه كوزيت سرّاً العمة ، وغير مشاعرها نحو هسديسن العاشق . إن علينا أن نولي بعض الاعتبار لستمثة الف فرنك ، وكان واضحاً انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً غير ترك ثروتها إلى هذين الشابين ، ما دام قد أمسيا في غير حاجة اليها .

وانخذت الترتيبات لكي يسكن الزوجان في منزل الجد . واصر مسيو جيلنورمان اصراراً شديداً على إعطائهما غرفته ، وهي أجمل غرف المنزل . وأعلن قائلاً : « إن ذلك سوف يحدد شبابي . هذا مشروع قديم . لقد كنت دائماً افكر في اقامة عرس في غرفتي . » وملاً هذه الغرفة بمجموعة كبيرة من الاثاث القديم الانيق . وجلل الجدران والسقف بقماش نادر كان يحتفظ بثوب منه كامل ، وكان يعتقد أنه من أوترخت : خلفية من أطلس مع حوذان ذهبي وآذان دب مخملية . وقال : « يمثل هذا القماش جُسلل سرير دوقة آنفيل في الـ «روش غويون» . ووضع على الموقد دمية من دمي ساكس تحمل فرواً من فراء اليدنين فوق بطنها العاري .

وأمت مكتبة مسيو جيلنورمان مكتب الحمامة الذي كان ماريوس في حاجة اليه . وكان هذا المكتب ، كما يذكر القراء ، شيئاً تحتمه قواعد النظام المتبع .

• الحوذان وآذان اللب نوعان من النبات .

آثار حلم ممزوج بالسعادة

ورأى كل من المحبين صاحبه يومياً . كانت كوزيت تفقد مع مسيو فوشلوفان . وقالت الآنسة جيلنورمان : « إنه لعكس لطبيعية الأشياء ان تجيء المخطوبة إلى البيت لكي تغازل على هذا النحو . » ولكن نقاهة ماريوس كانت قد قادت إلى نشوء هذه العادة . كما ان الكراسي ذوات الاذرع في شارع فتيات كالفير ، وهي اكثر ملاءمة للاحاديث الطويلة من الكراسي القشبية التي في شارع الرجل المسلح ، كانت قد جذرتها . واجتمع كل من ماريوس ومسيو فوشلوفان ، ولكنهما ما كانا يتبادلان الأحاديث . وبدا ذلك أمراً مفهوماً . فكل فتاة في حاجة إلى رفيق حارس . وما كان في ميسور كوزيت ان تجيء من غير ان يصاحبها مسيو فوشلوفان . كان مسيو فوشلوفان هو ، عند ماريوس ، شرط كوزيت . وقبل ذلك الشرط . ومن طريق التعرض لقضايا السياسة ، على نحو غامض وعام ، من زاوية الرغبة في التحسين الشامل لأوضاع الناس جميعاً ، وُقِّعا إلى أن يقولوا شيئاً اكثر قليلاً من تبادل لفظي « نعم » و « لا » . وذات يوم ، وكان الموضوع موضوع التعليم ، الذي اراده ماريوس مجاناً والزامياً ، مضاعفاً تحت الاشكال جميعاً ، مغدقاً على الجميع كالهواء واشعة الشمس ، وبكلمة واحدة ، ممكناً تنشقّه من جانب الناس جميعاً - نقول في ذلك اليوم انتهاء إلى ألفة ، بل كادا يتطارحان حديثاً . ولاحظ ماريوس في تلك المناسبة ان مسيو فوشلوفان يجيد الحديث ، بل يجيده في شيء من سمو اللغة . ولكن كان ثمة شيء يعوزه ، على كل حال . كان في مسيو فوشلوفان شيء اقل من رُجل مجتمّع ، وشيء اكثر .

وباطنياً ، وفي أعماق نفسه ، أحاط ماريوس مسيو فوشلوفان هذا ، الذي كان بالنسبة اليه محسناً وبارداً ليس غير ، بمختلف ضروب الاسئلة الصامته . وبين الفينة والفينة ، كانت تساوره شكوك حول ذكراهاته هو . كان في ذاكرته خرم ، موطن "أسود" ، هوة جوفتها اربعة اشهر من العذاب الاليم . كانت اشياء كثيرة قد ضاعت فيها . وانتهى إلى ان سأل نفسه ما اذا كان صحيحاً ، انه قد رأى ، حقاً ، مسيو فوشلوفان ، مثل هذا الرجل ، البالغ الجذ والبائع الهدوء ، في المترامى .

بيد أن هذا لم يكن هو الغيوبة الوحيدة التي خلفها في عقله مثول الماضي واختفاؤه . وينبغي أن لا نفترض انه أنقذ من جميع تلك الأفكار المتسلطة التي تكرهنا ، حتى ونحن في غمرة من السعادة والرضا ، على الالتفات إلى وراء في غم وكآبة . إن الرأس الذي لا يلتفت نحو آفاق الماضي ، لا ينطوي لا على فكر ولا على حب . وبين حين وآخر ، كان ماريوس يغطي وجهه بيديه ، وكان الماضي الغامض يحترق ، في صخب ، ذلك الغسق الذي ملأ ذهنه . لقد رأى مابوف يخر على الأرض من جديد ، وسمع غافروش يغني تحت نيران القذائف ، واستشعر على شفثيه برودة جبين ايونين ، ونهض آنجولراس ، وكورفيراك ، وجان بروفير ، وكومبوفير ، وبوموويه ، وغرانتيير وجميع اصدقائه — نهضوا امامه ، ثم تبددوا . هذه الكائنات ، الغالية ، المحزونة ، الباسلة ، الفاتنة أو الفاجعة ، هل كانت أحلاماً ؟ هل وجدت حقاً ؟ كانت الفتنة قد لفت كل شيء بدخانها . إن لهذه الحميات الكبيرة أحلاماً كبيرة . واستجوب نفسه ؛ وتلمس طريقه في ذات نفسه ؛ كانت هذه الوقائع المتلاشية قد أصابته بدوار . أين كانوا كلهم اذن ؟ هل صحيح أنهم أمسوا كلهم أمواتاً ؟ كان السقوط في الظلمة قد قضى عليهم جميعاً ، باستثنائه هو . وبدا له أن كل شيء قد اختفى وكأنه خلف ستار في مسرح . إن ثمة مثل هذه الستر التي تُسدل في الحياة . الرب ينتقل إلى

الفصل الثاني .

وهو ، اكان لا يزال الرجل نفسه ؟ كان - هو الفقير - قد أمسى غنياً . كان - هو المتخلى عنه - ذا أسرة . وكان - هو اليائس - في سبيله إلى الزواج من كوزيت . لقد بدا له وكأنه اجتاز قبراً ، وأنه دخل إلى هذا القبر اسود ، وخرج منه أبيض . وفي هذا القبر كان الآخرون قد بقوا . وفي بعض الاحيان ، كانت جميع كائنات الماضي هذه ، العائدة الماثلة ، تشكل حلقة حوله وتوقع في نفسه الغم . وعندئذ كان يفكر في كوزيت ، فتعاوده بشاشته . ولكن لم يكن في ميسور شيء أقل من هذه السعادة أن يحو تلك الكارثة .

وكان لمسيو فوشلوفان موضع ، تقريباً ، بين هذه الكائنات المتلاشية . وتردد ماريوس في الاعتقاد بأن فوشلوفان المتراس كان هو نفسه فوشلوفان هذا ، بلحمه ودمه ، الجالس في كثير من الرصانة قرب كوزيت : كان الأول ، في أغلب الظن ، واحداً من تلك الكوابيس التي تروح وتجيء مع ساعات هذيانه : وفوق هذا ، فلما كانت طبيعتهما وعربتين ، فما كان من الممكن أن يوجّه إيماء سؤال من ماريوس إلى مسيو فوشلوفان . بل ان مجرد الفكرة لم تخطر له ببال . ولقد سبقت منا الإشارة إلى هذه الحادثة المميّزة .

رجلان يجمعهما سر مشترك ، ولا يتبادلان - بضرب من التفاهم المضمّر - كلمة واحدة في الموضوع . ان شيئاً مثل ذلك هو أقل ندرة مما يظن المرء .

ومرة واحدة ليس غير ، قام ماريوس بمحاولة . لقد أدخل شارع الـ « شافريري » في المحادثة . التفت نحو مسيو فوشلوفان ، وقال له :

- « هل تعرف ذلك الشارع جيداً ؟ »

- « أي شارع ؟ »

— « شارع الشانفريري : »
فأجاب مسيو فوشلوفان بنبرة ليس أكثر منها طبيعية في العالم :
— « ليس عندي أية فكرة عن اسم ذلك الشارع . »
وبدا الجواب ، الذي دار على اسم الشارع ، لا على الشارع نفسه —
بدا للماريوس جازماً أكثر مما كان .
وفكر . « لا ريب في اني كنت أحلم . لقد ألت بي هلوسة .
كان ذلك شخصاً آخر يشبهه . مسيو فوشلوفان لم يكن هناك : »

رجلان من المتعذر الاهتداء اليهما

ولم تمحُ الرُّقِية ، على الرغم من ضخامتها ، شواغلَ اخرى مسن ذهن ماريوس .

ففي خلال الاستعداد للزفاف ، وفيما كان ينتظر الميقات المضروب ، أجرى بعض المباحث الارتدادية العسيرة ، الدقيقة .

كان مديناً بالمعروف من عدة نواح . كان مديناً ببعض ذلك المعروف بسبب من أبيه ، ومديناً ببعضه لحسابه هو .

كان ثمة تيناردييه ، وكان ثمة ذلك الرجل المجهول الذي حمّله ، هو ماريوس ، إلى منزل مسبو جيلنورمان .

وحرص ماريوس على العثور على هذين الرجلين ، غير معترم أن يتزوج ، ان يكون سعيداً ، ان ينسأهما ، وخائفاً أن تلقى ديون الواجب غير المسددة هذه ، ظلاً على حياته التي امست مشرقة منذ اليوم . كان من المتعذر عليه ان يختلف كل هذا الدين وراءه ، من غير سداد . ولقد اراد ، قبل ان يدخل إلى المستقبل ، ان يبريء ذمته مسن

الماضي .

وكون تيناردييه مجرمًا لا يغير شيئاً من هذه الواقعة ، وهي انه انقذ الكولونيل بونغيرسي . كان تيناردييه قاطع طريق ، في عيني كل انسان ، ما عدا ماريوس .

ثم ان ماريوس ، الجاهل حقيقة ما وقع في ميدان واترلو ، لم يعرف هذه النقطة الفريدة ، وهي ان اباه كان في ما يتصل بتيناردييه على هذا الوضع الغريب : كان مديناً له بالحياة من غير ان يكون مديناً له بعرفان الجميل .

ولم ينجح احد من الرجال الذين استخدمهم ماريوس في الاهتداء إلى أثر تيناردييه . لقد بدا الاحياء كاملاً من هذه الناحية . كانت تيناردييه الزوجة قد ماتت في السجن خلال التحقيق في الجريمة . وكان تيناردييه وابنته آزيلما ، الاثنان الوحيدان اللذان بقيا من هذا المجموع الفاجع ، قد غاصا في الظلام كرة اخرى . كانت لجنة « المجهول الاجتماعي » قد أطبقت في صمت على هذين المخلوقين . بل لم يعد في امكان احد ان يرى ، على السطح ، تلك الدوائر المشتركة المركز ، المرتعشة ، المرتجفة ، الغامضة ، التي تعلن ان شيئاً قد سقط هناك ، وان في ميسورنا أن نلقي بالمسبار .

واذ ماتت تيناردييه الزوجة ، وأبعد بولاتروويل من القضية ، واختفى كلاكسو ، وفر المتهمون الرئيسيون من السجن ، فان النظر في دعوى كمين بيت غوربو العتيق كان جهيضاً تقريباً . لقد تُركت القضية فسي ظلام عميق . واضطرت محكمة الجنابات إلى الاجتزاء بمشاركين ثانويين في الجريمة ، بانشو المعروف بـ « برانتانيه » أو « بيغروناي » و دومي لييار المعروف بـ « دو ميار » اللذين حوكما وحكم عليهما بالحبس عشر سنوات في سجن الاشغال الشاقة . ولفظت المحكمة حكم الاشغال الشاقة مدى الحياة على شركائهما الذين فروا وابوا المثول بين يدي القضاة .

وحكم على تيناردييه ، بوصفه رئيساً للعصابة ، بالموت لانه أبى الملوك
امام المحكمة أيضاً . وكان هذا الحكم هو كل ما بقي من تيناردييه ،
ملقياً على هذا الاسم الدفين وهجه المشؤوم ، مثل شمعة إلى جانب
نعرش .

وإلى هذا فأن ذلك الحكم ، بارجاعه تيناردييه إلى الاعماق السفلى ،
خشية أن يُقبض عليه ثانية ، زاد في كثافة الظلمة التي اكتنفت هذا
الرجل .

أما الشخص الآخر ، اما الرجل المجهول الذي انقذ ماريوس ، فقد
انتهت المباحث عنه باديء الامر إلى نتيجة ما ، ثم توقفت فجأة . لقد
وقفوا إلى العثور على عربة الكراء التي حمات ماريوس إلى شارع فتيات
كالفير ليل السادس من حزيران . واعلن السائق انه « جُمد » في اليوم
السادس من حزيران ، بأمر من احد ضباط البوليس ، من الساعة الثالثة
بعد الظهر حتى الليل ، على رصيف الشان زيليزيه ، فوق منفذ البالوعة
العظمى ؛ وان شباكة البالوعة المؤدية إلى شاطيء النهر فتحت حوالى الساعة
التاسعة مساء ؛ وان رجلا قد خرج منها ، حاملا رجلا آخر على كتفيه
كان يبدو وكأنه ميت ؛ وان ضابط البوليس الذي كان يراقب في تلك
النقطة ألقى القبض على الرجل الحي وأمسك بالرجل الميت ؛ وأنه
استقبل ، هو السائق ، بناء على أمر الضابط ، « كل هؤلاء الناس » في
عربته ؛ وانهم شخصوا أولا إلى شارع « فتيات كالفير » ؛ وانهم تركوا
الرجل الميت هناك ؛ وان الرجل الميت كان مسيو ماريوس ، وأنه
هو - السائق - قد عرفه جيداً ، على الرغم من انه كان حياً ، « هذه
المرة » ؛ وانهم امتطوا بعد ذلك متن عربته من جديد ، وأنه الهب خيله
بالسوط ، وأنه قد طُلب إليه أن يتوقف على بضع خطوات من باب
« الارشيف » ؛ وأنه قد قبض أجرته ، هناك في الشارع ، ومضى لسبيله ؛
وان ضابط البوليس اقتاد الرجل الآخر ؛ وأنه ما كان يعرف شيئاً

الضامياً ، وان الليل كان دامساً .

ولم يتذكر ماريوس ، كما قلنا ، شيئاً من ذلك . كل ما تذكره ان يبدأ قوية أمسكت به من خلاف لحظة سقط على ظهره وسط المتراس ، وبعدها امحى كل شيء بالنسبة اليه . إنه لم يستعد وعيه إلا في منزل مسيو جيلنورمان .

وتاه في الاحداس والظنون .

إنه لم يستطع ان يشك في هويته . ولكن ، كيف اتفق له ، وهو الذي سقط في شارع الـ « شانفريري » ، أن يلتقطه ضابط البوليس ، على ضفة الـ « سين » ، قرب جسر الانفاليد ؟ إن شخصاً ما ، قد حمله من حي الاسواق إلى الشان زيليزيه . وكيف ؟ عبر البالوعة . تفان لم يسبق إلى مثله من قبل .

شخص ما ؟ من هو ؟

كان هذا الرجل هو الشخص الذي يبحث عنه ماريوس .

ولم يجد من هذا الرجل ، الذي كان منقذه ، شيئاً • لم يجد اثراً . لم يجد اقل إشارة تدل عليه .

ودفع ماريوس مباحثه حتى ادارة الشرطة ، على الرغم من انه كان مضطراً إلى اصطناع كثير من الحيلة في هذا المجال . ولكن المعلومات التي حصل عليها هناك لم تكن ادعى إلى انارته من تلك التي فاز بها من مصادر اخرى . كانت ادارة الشرطة تعرف أقل مما عرفه سائق العربة . إنها لم تعرف بأي اعتقال تم في السادس من حزيران عند شبكة البالوعة العظمى . إنها لم تتلق من رجالها ايما تقرير حول هذه الواقعة ، التي اعتبرت - في ادارة الشرطة - مجرد خرافة . وعزا رجال الشرطة اختراع هذه الخرافة إلى السائق . فالسائق الذي يطمع في مبلغ اضافي فوق الاجرة قادر على كل شيء ، حتى على الخيال . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الواقعة ثابتة ، ولم يكن في وسع ماريوس ان يشك فيها ، إلا اذا شك

في هويته ، كما اشرنا منذ لحظة .

كل شيء في هذه الاحجية الغريبة كان ممتنعاً على التفسير .

هذا الرجل ، هذا الرجل الخفي ، الذي رآه السائق ينبثق من شبكة البالوعة العظمى حاملاً ماريوس الغائب عن الوعي على ظهره ، والذي اعتقله ضابط الشرطة المراقب متلبساً بجريمة إنقاذ متهم من المتمردين ، ما الذي حل به ؟ ما الذي حل بضابط الشرطة نفسه ؟ لماذا اعتصم هذا الضابط بالصمت ؟ هل وفق الرجل إلى الفرار ؟ هل رشا ضابط البوليس ؟ لماذا لم يتكشف هذا الرجل عن أي أمارات الحياة لماريوس المدين له بكل شيء ؟ إن نزاهته لم تكن أقل إثارة للعجب من تفانيه . لم لم يعاود هذا الرجل الظهور ؟ لعله كان فوق الثواب ، ولكن ليس ثمة احد فوق عرفان الجميل . هل مات ؟ أي نوع من الرجال كان ؟ ما شكله ؟ لم يكن في ميسور احد ان يحزر . لقد اجاب سائق العربة قائلاً : « كان الليل دامساً . » وكان بأسك ونيقوليت قد اكتفيا ، في غمرة انشدهما ، بالنظر إلى سيدهما الشاب مضرجاً بالدم . وكان البواب ، الذي أضاءت شمعته وصول ماريوس الفاجع ، هو وحده الذي لاحظ ذلك الرجل ، وهذا هو الوصف الذي وصفه به : « كان هذا الرجل رهيباً . »

وكان ماريوس قد احتفظ بالملابس الدامية التي كان يلبسها لحظة أعيد إلى منزل جده ، رجاء أن يستمد منها العون في مباحثه . وعند فحصه السترة لاحظ ان أحد أهدابها كان ممزقاً على نحو عجيب . كان يعوزها قطعة ما .

وذاث مساء ، تحدث ماريوس ، أمام كوزيت وجان فالجان ، عن هذه المغامرة الفريدة كلها ، وعن المباحث التي قام بها ، وعن ذهاب جهوده ادراج الرياح . وكان في محيا « مسيو فوشلوفان » البارد ما جعله يفقد صبره . وهتف في حيوية كادت تنطوي على ارتجاج الغضب :

— « اجل ، ذلك الرجل ، كائنًا من كان ، كان ماچدًا . هل تعرف ماذا فعل ، يا سيدي ؟ لقد تدخّل مثل ملاك اكبر ، ولا ريب في أنه قد ألقى بنفسه في غمرة المعركة ، وانتزعني منها ، وفتح البالوعة ، وقادني اليها ، وحملني عبرها ! ولا بد انه سار أكثر من فرسخ ونصف خلال دهاليز تحترضية رهيبة ، ملوياً ، منحنيًا ، في الظلام ، فسي البوايع ، أكثر من فرسخ ونصف يا سيدي ، وعلى ظهره جثة ! ولأي غرض ؟ ابتغاء إنقاذ تلك الجثة ليس غير . وكنت أنا تلك الجثة ! لقد قال في ذات نفسه : « لعله لا يزال ههنا ومضة من حياة . سوف اخاطر بحياتي من اجل تلك الشرارة البائسة ! » وحياته هذه لم يخاطر بها مرة واحدة ، ولكن عشرين مرة ! وكل خطوة كانت محفوفة بالخطر . والدليل على ذلك أنه ما إن خرج من البالوعة حتى اعتقل . هل تعرف ، يا سيدي ان ذلك الرجل قد فعل ذلك كله ؟ ولم يكن في ميسوره ان يتوقع ثواباً ما . اي شيء كنت انا ؟ متمرداً . اي شيء كنت أنا ؟ رجلاً مغلوباً . اوه ، لو كانت آلاف كوزيت الستمئة لي »

فقاطعه جان فالجان :

— « إنها لك . »

فأضاف ماريوس :

— « حسن ، اذن لدفعتها ثمنًا للعثور على ذلك الرجل ! »

واعتصم جان فالجان بالصمت .

الكتاب السادس

الليلة البيضاء

١٦ شباط ، عام ١٨٣٣

كان ليل السادس عشر من شباط ، عام ١٨٣٣ ، ليلاً مباركاً .
ف فوق ظلمته ، كانت ابواب السماء قد فُتحت . كان موعد زواج ماريوس
وكوزيت .

كان النهار رائماً .
إنه لم يكن العيد السماوي للزرقة الذي حلم به الجد : مشهداً جنياً
مختلط فيه الملائكة وآلهة الحب فوق رأسي العروسين ، ولكنه كان
عذباً طروباً .

إن زي الزواج لم يكن ، عام ١٨٣٣ ، ما هو اليوم . لم تكن فرنسة قد استعارت بعد ، من انكلترة ، تلك اللطافة البالغة التي تجعل الزوج يخطف زوجته ، ويفر عند مغادرته الكنيسة ، ويختبئ خجلاً من معادته الشخصية ، ويمزج ما بين سلوك المفلس وتهللات نشيد الاناشيد . إن للفرنسيين لم يكونوا قد تعلموا اي عفة ، واي روعة ، واي ظرف ينطوي عليه رج المرء فردوسه في عربة بريد ، وتفصيل لغزه بالتكتكات ، وحسان سرير الحانة سرير العرس ، وأن يترك الانسان وراءه ، في المخدع المبتذل في كثير من الليالي ، اقدس ذكريات الحياة الفوضوية مع مناجاة سائق العربة العمومية وخادمة الحانة .

في هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي نعيش فيه لم يعد يكفيننا العمدة ووشاحه ، والكاهن وحلة قداسه ، والشريعة والله ؛ إن علينا ان نتم هؤلاء جميعاً بسائق عربة لونجومو ؛ صدره زرقاء ذات اطراف حمراء ، وازرارٌ جلاجل ، وضيحة تطوق الذراع ، وسروال من جلد أخضر ، وشئاتم موجهة إلى خيل نورمندية معقودة الأذيال ، وضمائم زائفة ، وقبعة مشمعة ، وشعر خشن منصوح بالذرور ، وسوط ضخم ، وحذاء ثقيل . وفرنسة لمّا تذهب بعد بالاناقة إلى حد إمطار عربة العرس ، كما يفعل نبلاء الانكليز ، بعاصفة من البوابيع المثنية إلى الداخل ، والاحذية العتيقة ، إحياء لذكرى تشرشل ، ثم مارلبورو ، أو مالبروك ، الذي هوجم يوم زفافه بغضبة من عمة حملت اليه حظاً سعيداً . إن الاحذية البالية والبوابيع لم تصبح بعد جزءاً من احتفالاتنا الاعراسية . ولكن صبراً ، فما دام الذوق الرفيع يواصل انتشاره ، فلا بد ان تنتهي إلى ذلك .

وفي عام ١٨٣٣ لم يكن الزواج يتم على وجه السرعة .
كان القوم لا يزالون يتخيلون في تلك الحقبة - وهو أمر غريب

حقاً - ان الزواج عيد حميم واجتماعي ، وان المائدة الأبوية لا تفسد
الجلال المتزلي ، وأن الابتهاج ، ولو مفرطاً ، شرط ان يكون لائقاً ،
لا يؤذي السعادة ، واخيراً أن من الجلال والخير ان يبدأ التحام هذين
المصيرين ، اللذين سوف تنبثق منهما أسرة ، في المنزل ؛ وأن تكون غرفة
العرس شاهداً على الزواج منذ اليوم .

وكان عندهم القحة لأن يتزوجوا في المنزل .
واذن ، فقد تم الزواج ، وفقاً لذلك الزي الذي أصبح الآن مماتاً ،
في منزل مسيو جيلنورمان .

وبرغم ان مسألة الزواج هذه كانت امراً طبيعياً وعادياً الى ابعاد
الحدود ، فان الاعلان الذي ينبغي أن ينشر في الكنيسة والصكوك التي
ينبغي ان تحرر ، ومقر العمدة ، والكنيسة ، تجعلها دائماً معقدة بعض
الشيء . ولم يكن في ميسورهم ان يكونوا على استعداد قبل السادس عشر
من شباط .

واتفق - ونحن نذكر ذلك لمجرد الرغبة في الدقة - ان ذلك اليوم
السادس عشر كان يوم ثلاثاء المرفع . وكان ترددٌ ، ووساوس ، وبخاصة
من جانب العمة جيلنورمان .

وهتف الجد :

- « ثلاثاء المرفع . هذه زيادة في الخير . ان ثمة مثلاً يقول :

من يتزوج في ثلاثاء المرفع
لا يرزق اولاداً حاقين اهداً .

فلنمض في سبيلنا . ليكون ذلك في السادس عشر ! هل تريد ان تؤجله

انت يا ماريوس ؟ »

فأجاب العاشق :

- « لا ، طبعاً . »

فقال الجَد :

— « فلنتزوج اذن . »

وهكذا تم الزواج في اليوم السادس عشر ، برغم الابتهاج الشعبي .
لقد امطرت السماء ذلك اليوم ، ولكن في السماء دائماً رقعة صغيرة زرقاء
في خدمة السعادة ، رقعة يراها العشاق ، على الرغم من ان سائر الخليقة
قد تكون تحت مظلة من المظلات .

وفي الليلة السابقة ، كان جان فالجان قد قدم إلى ماريوس ، في حضرة
مسيو جيلنورمان ، الخمسة والاربعة والثمانين الف قرنك .

واذ اجري الزواج وفقاً لقانون التعاقد على جعل بعض املاك الزوجين
مشاعاً بينهما ، فقد كانت الاجراءات بسيطة .

وأُستُتوسين ، منذ ذلك الحين ، عديمة الفائدة لجان فالجان .
كانت كوزيت قد ورثتها ، ورفعتها إلى مرتبة وصيفة .

أما جان فالجان ، فكانت ثمة في منزل جيلنورمان غرفة جميلة أثنت
خصيصاً من أجله ، وكانت كوزيت قد قالت له : « ابي ، أتوسل
إليك ، وقالتها على نحو لا يقاوم إلى درجة جعلته يعد ، أو يكاد ، بأن
يجيء ويحتلها .

وقبل بضعة أيام من اليوم المحدد للزواج وقع حادث لجان فالجان .
لقد سُحق إبهام يده اليمنى بعض الشيء . ولم يكن ذلك خطيراً ، ولم
يجز لأحد ان ينشغل به ، أو أن يضمده ، بل ان يرى إلى الاذى
النازل به ، حتى كوزيت نفسها . بيد أن ذلك اضطره إلى أن يلف يده
بعصاة ، وان يرفع ذراعه إلى صدره ، ومنعه من التوقيع على
اي شيء .

ولن نقود القاريء لا إلى مقر العمدة ولا إلى الكنيسة . إننا نادراً ما
نتبع العشاق إلى ذلك المدى ، ونحن في العادة نولي الرواية ظهوراً حالماً تضع
باقية العريس في عروته . ولسوف نجتريء بذكر حادثة وسمت ، على

الرغم من ان شهود العرس لم يلاحظوها ، تقدمَ الموكب من شارع فتيات كالفير إلى كنيسة القديس بولس .

كانوا يعيدون ، في ذلك الوقت ، نعييد الطرف الشمالي من شارع سان لويس . وكسان قسد سيُج ابتداء من شارع « بارك رويال » . وكان من المتعذر على عربات العرس ان تمضي إلى كنيسة القديس بولس مباشرة . كان من الضروري ان يغيروا الطريق ، وكانت أقصر الطرق تقتضيهم أن ينعطفوا من ناحية الجادة . ولاحظ أحد المدعوين أنهم كانوا في ثلاثاء المرفع ، وان الجادة خليقة بأن تكون غاصة بالعربات . وتساءل مسيو جيلنورمان : « لماذا ؟ » - « بسبب من الاقنعة » . فأجاب الجد : « ممتاز . فلنمض من هناك . هذان الشابان على عتبة الزواج » . لإنهما يوشكان أن يدخلوا إلى أشياء جدية في الحياة . وإنه لما يهيهما لذلك أن يريا شيئاً من الساخر .

وسلكوا طريق الجادة . كانت اولى عربات العرس تنتظم كوزيت والعمة جيلنورمان ومسيو جيلنورمان وجان فالجان . أما ماريوس ، الذي كان ما يزال مفصولاً عن خطيبته ، وفقاً للعادة ، فكان يتبعهم في العربة الثانية . وامتزج موكب العرس ، لدن مغادرته شارع بنات كالفير ، في صف العربات الطويل الذي شكل سلسلة لا نهاية لها من الـ « مادلين » إلى الباستيل ، ومن الباستيل إلى الـ « مادلين » .

وغصت الجادة بالاقنعة . وامطرت السماء ، بين الفينة والفينة ، على غير طائل . كان المهرجون والمُجبان عنيدون . ففسي دماثة شتاء عام ١٨٣٣ ذاك ، كانت باريس قد تقنعت بقناع فينيسيا . إننا لا نرى ثلاثاء مرفع كهذا ، في هذه الأيام . لأنه بعد ان أصبح كل شيء كرنافالا شائعاً ، لم يبق ثمة إنما كرنافالا .

كانت الازقة الجانبية غاصة بالسابلة ، وكانت التوافذ غاصة بالفضوليين ، وكانت السطائح التي تتوج اروقة المسارح المعمدة مهذبّة بالمشاهدين .

وإلى جانب الاقنعة ، لاحظوا صف العربات المختلفة الاصناف ، ذلك الصف المميز للثلاثاء المرفع ولونشان أيضاً : عجلات كراء ، وعربات « سيتادين » ، وعربات نزهة ضخام ، وعربات صغيرة ذات دولابين ومظلة ، وعربات خفيفة ، تمشي كلها في نظام ، وقد بُنيت احدها خلف الاخرى في قساوة ، نزولا على أوامر الشرطة ، فكأنها تمشي على خطوط حديدية . وكل من يمتطي احدى تلك العربات يكون مشاهداً ومشاهداً في وقت معاً . وأبقى رجال الشرطة هذين الصنفين المتوازيين اللانهايين على الجوانب الدنيا من الجادة - أبوقهما متحركين حركة متعاكسة ، وراقبوهما بحيث لا يعوق شيء هذا التيار المزدوج الممثل في جدولي العربات الجارين : احدهما نزولا ، والآخر صعوداً ؛ احدهما نحو مرتفع آنتين ، والآخر نحو ضاحية سان انطوان . ولزمت عربات نواب فرنسة والسفراء ، تلك العربات المنقوش عليها شعارات الشرف ، منتصف الطريق ، فهي تروح وتجيء في حرية . وتمتعت بعض المواكب الفخمة البهيجة ، وبخاصة موكب « الثور السمين » ، بالامتيان نفسه . وفي فرحة باريس هذه ، تعاظمت انكثرة ؛ إن عربة اللورد سيمور ، المغيظة بلقب شعبي ، اجتازت الطريق في جلبة بالغة .

وفي ذلك الخط المزدوج ، الذي خب رجال الحرس البلدي على طوله مثل كلاب الراعي ، كانت بعض العربات العائلية الأمانة ، المثقلة بالجدات والجدود ، تعرض عند ابوابها مجموعات طريئة من الاطفال المقنعين ، مهرجين في السابعة من العمر ، ومهرجات في السادسة ، مخلوقات صغيرة فاتنة ، شاعرة بانها كانت رسمياً جزءاً من الجذل الشعبي ، متأثرة بجلال تهريجها ، ومصطنعة وقار الموظفين .

وبين الفينة والفينة كانت تعترض موكب العربات عقبة ، وكان هذا الصف الجانبي أو ذاك يتوقف ريثما تحل العقسدة . إن عربة معوقسة كانت كافية لأن تشل الخط كله . ثم ان العربات كانت تستأنف السير

بعد ذلك .

وكانت عربات العرس في الصف المتجه نحو الباستيل ، والمتحرك في محاذاة الناحية اليمنى من الجادة . وعند شارع ال « بون أو شو » توقف السير فترة . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، في الناحية الأخرى من الجادة ، توقف الصف الآخر المتجه نحو ال « مادلين » ، أيضاً . كان في هذه النقطة من الخط حِمل عربة من الأقنعة .

وهذه العربات ، أو على الأصح ، أحمال الكارّات هذه ، يعرفها الباريسيون جيداً . فإذا لم تظهر في ثلاثاء المرفع ، أو منتصف الصوم الكبير ، توقع الناس شيئاً ، وقالوا : « ان وراء الأكمة ما وراءها » . لعل الوزارة سوف تتغير . . ركام من العجائز المضحكين ، والمزاحين اللابسين اثواباً مخيطة من رقع مختلفة الألوان ، يرتجح فوق عابري السبيل . مختلف ضروب الصور المضحكة ، من التركي إلى التوحش ، هراقلة . تسند مركيزات ، ونساء غليظات الكلام خليقات بأن يجعلن رابليه . . بوصد اذنيه ، كما حملت السكيات الفواجر آريستوفان على ان يغمض عينيه . شعر مستعار من مشاقة الكتان ، واقمطة زهراء ، وقبعات متطرفين ، ونظارات متصعرين ، وقبعات « جانو » ثلاثية القرون تزعجها فراشة من الفراشات ، وصيحات موجهة إلى المشاة ، وأذرع على الخواصر ، وأوضاع غير محتشمة ، واكتاف عارية ، ووجوه مقنّعة ، ووقاحات منزوعة الكمّات ، وعباء من السفاهة يطوف به سائق متوج بالازهار . تلك هي هذه المؤسسة .

• جمع هرقل ، وهي تعني هنا الجيابرة.

• ديب فرنسي كبير سبق التعريف به ، وكان معروفاً بأسلوبه المقنّع المائل بالالفاظ غير المهذبة .

كانت بلاد الاغريق محتاجة إلى مركبة تيسيس . . وفرنسة في حاجة إلى عربة فاديه . . .

كل شيء يمكن ان يزور ، حتى التزوير نفسه . ان أعياد الآلهة الزمان عند الرومان ، تصغر الجمال العتيق ذاك ، قد تطورت تدريجياً إلى ثلاثاء المرفع . وأعياد الآلهة الخمر ، التي كانت متوجة في الايام الخالية باغصان الكرمة ، مغمورة بأشعة الشمس ، كاشفةً عن اثناء من الرخام في شبه عري الآلهي ، والتي أمست اليوم مائعة تحت أسمال الشمال المبلة ، انتهت بأن تدعو نفسها الـ *Chie - en - lie* وتقليد عربات الاقنعة يرقى إلى أقدم عهود الملكية . فحسابات الملك لويس الحادي عشر تمنح قاضي البلاط « عشرين سو مضروبة في مدينة « تور » من اجل ثلاث من عربات التنكر في زوايا الشوارع . » وفي ايامنا ، تحمل هذه الحشود الصاخبة ، عادة ، في عربة عتيقة ما ، يُثقلون أعلاها ، أو يُبهظون بجمعهم الضاج عربة من عربات الضرائب ذات غطاء ممزق . ان عشرين منهم يحتلون عربة تتسع لسته اشخاص . إنهم يمتطون المقعد ، والكرسي الصغير ، وقوسي الغطاء ، ويحجر العربة . بل انهم يمتطون مصاييح العربة . فانت تراهم واقفين ، منطرحين ، قاعدين ، منظويةً معاطف سيقانهم ، متدلية ارجلهم . إن النسوة ليجلسن على ركب الرجال . وإن المرء ليرى اهرامهم المجنونة ، من مسافة بعيدة ، فوق تجمهر الرؤوس . إن أحمال العربات هذه لتحدث جبالا من الفرح الشديد وسط الحشود . وإن كولييه . . . ، وبانار . . . ،

• *Thespis* شاعر يوناني يعتبر مبدع التراجيديا الاغريقية . (القرن السادس قبل الميلاد) .

• • *Vadé* شاعر فرنسي يعتبر مبدع النوع المعروف بالـ *poissard* أي القصيدة للفاحشة المأوى بالالفاظ التي يعوزها الاحتشام .

• • • *Collé* مؤلف أغان ، وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٠٩ - ١٧٨٣)

• • • • *Panard* مؤلف اوبرات وأغان فرنسي (١٧٦٤ - ١٧٦٥)

وببرون . ليسيلون منها ، ولكن على نحو غني بلغة السوق . انهم يبصقون التعليم الديني المقذع على رؤوس الناس . ان لهذه العربية ، وقد غسدت لانهاية الاتساع بالحمل الراضحة تحته ، سيما الفاتحين . فالهدير في مقدمتها والفوضى في مؤخرتها . انهم يصخبون فيها ، ويغنون ، وينبحون ، وينفجرون ، ويتلوهون بالسعادة . ان البهجة تزار هناك ، وان السخرية تنهج ، وان المزاج الفرح لينتشر وكأنه داء الحصبة . إن فرسين غير أصيلين يقودان التمثيلية المضحكة المتهللة بالتمجيد . إنها مركبة الضحك المظفرة .

ضحك مبالغ في السخرية بحيث يتعذر عليه ان يكون صريحاً . والواقع أن هذا الضحك موضع الريبة . إن لهذا الضحك رسالة . ومهمته ان يثبت الكرنافال للباريسيين .

هذه العربات الخالعة العذار ، التي نستشعر فيها ظلمة تمتنع على التحديد ، تدعو الفيلسوف إلى التفكير . فيها نضع اصبعنا على ملاءمة خفية بين الرجال الداعرين ، والنسوة العاهرات .

وليس من ريب في انه لمن المحزن ان تقدم هذه القبايات المركومة حاصلًا من البهجة ، وان يُجذب الشعب بتكديس الخزي فوق العار ؛ وان يؤدي التجسس العامل في خدمة البغاء وتدعيمه إلى إلقاء الحشود فيما هو بينهما ، وان تولع الجماهير بتتبع سير هذه الكومة الرهيبة مسن الأحياء ، التي هي أسمال وبهارج في وقت معاً ، والتي نصفها قلندر ونصفها ضياء ، والتي تعوي وتغني فوق عجالات العربية الأربع ؛ وان يصفق الناس لهذا المجد المؤلف من كل ضرب من ضروب العار ؛ وان لا يكون للجماهير عيد إلا إذا عرض البوليس وسطهم هذا الضرب من افعوان الابتهاج ذي المئة رأس . ولكن ما العمل ؟ إن عربات الوحل الموشح المزدان بالازهار ليهينها الضحك العام ويغفر لها . والضحك الاجاعي

• Piron شاعر فرنسي الف عدداً كبيراً من الاغاني والأهاجي (١٦٨٩-١٧٧٣)

شريك السخط العام في الجريمة . إن بعض الاعياد الوخيمة تفسد الشعب ، وتجعله سوقة . والسوقة ، كالطغاة ، في حاجة إلى مهرجين . إن للملك روكولور ، وللشعب باياس . وباريس هي المدينة الحمقاء الكبرى ، كلما اخفقت في ان تكون المدينة الجلييلة الكبرى . ان الكرنافال جزء من سياستها . إن باريس — وعليها ان نسلم بذلك — تزود نفسها ، مختارة ، بالملهاة من طريق الفحشاء . إنها لا تسأل أسيادها — حين يكون لها أسياذ — غير شيء واحد : « زوَّقوا لي الوحل ! » ورومة كان لها المزاج نفسه . لقد احبت نيرون . كان نيرون ناقلًا عملاقاً ينزل البضائع من السفينة إلى البر .

وشاءت المصادفة — كما ذكرنا اللحظة — ان تقف احدى هذه الحزم الشائهة ، حزم المقتنعين والمقتنعات ، المنقولة في عربة ضخمة ذات اربع دواليب ، إلى يسار الجادة فيما وقف موكب العرس إلى يمينها . ومن جانب الجادة إلى جانبها نظرت العربة المحملة بالاقنعة إلى العربة المواجهة ، التي كانت 'تقل' العروس .

وقال قناع :

— « انظروا ! عرس ! »

فأجاب آخر :

— « عرس زائف . نحن العرس الحقيقي . »

واذ كان القناعان أبعد من أن يقدرًا على استجواب المحتفلين بالزفاف ، واذا خافا إلى جانب ذلك صيحة رجال الشرطة ، فقد حولا نظرهما إلى مكان آخر .

وبعد لحظة قامت العربة المقتنعة كلها بأعمال كثيرة جعلت الجسماسهير تصوت لها ساخرة ، وتلك هي ملاطفة الرعاع لجماعة المتكبرين . واضطر القناعان اللذان تكلما اللحظة إلى ان يوجها وجهيهما نحو الشارع ، مع سائر رفاقهما ، ولم يكن عندهم قدر كاف من قذائف الاسواق المدخرة

يمكنهم من الاجابة على ضربات شدى الشعب الهائلة . وتبادلت الاقنعة
وافراد الحشد سىلا رهيباً من التعابير المجازية .

وفي الوقت ذاته كان قناعان من اقنعة العربة نفسها : رجل اسباني ضخـم
الانف ، ذو محيا مسنن بعض الشيء وشاربين اسودين هائلين ، وامرأة
مقدعة اللغة مهزولة - فتاة طرية العود ذات قناع من محمل أسود -
كان هذان القناعان قد لاحظا المحتفلين بالزفاف أيضاً . وفيما كان رفاقهم
وعابرو السيل يتبادلون الاهانات ، دار بينهما حوار في صوت
خفيض .

وطغت الضجة على حديثهما المنفرد ، فضاع فيها . كان المطر قد
بلل العربة المكشوفة كشفاً كاملاً ؛ إن ريح شباط ليست حارة ، وحتى
فيما كانت الفتاة تجيب الاسباني ارتجفت ، في ثوبها الكاشف عن أعلى
الصدر ، وضحكت ، وسعلت .

وكان هذا الحوار :

- « قولي ، اذن . »

- « ماذا يا ابي ؟ »

- « هل ترين هذا الرجل العجوز ؟ »

- « اي رجل عجوز ؟ »

- « هناك ، في العربة الأولى من عربات العرس الواقفة إلى

جانبنا . »

- « الرجل ذو اليد المعلقة برباط عتق أسود ؟ »

- « نعم . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « أنا واثق من اني أعرفه . »

- « آه ! »

- « اود لو ان احداً يحتر حنجرتي وان اكون لم اقل

- قط في جباتي أنتِ أو أنا إن كنت لا اعرف هذا البانتيني . . .
- « إن باريس اليوم هي بانتي . »
- « هل تستطيعين ان تري العروس اذا انحنيت قليلاً ؟ »
- « لا . »
- « والعريس ؟ »
- « ليس هناك عريس في تلك العربة . »
- « أشك في ذلك . »
- « إلا اذا كان هو الرجل العجوز الآخر . »
- « انحنى جيداً إلى أمام وحاولي ان تري العروس . »
- « لا أستطيع . »
- « على كل حال ، انا واثق من اني أعرف هذا الرجل المصاب
بشيء في يده . »
- « وماذا تفيدك معرفته ؟ »
- « لا احد يدري . أحياناً ! »
- « أما أنا فلا ارى متعة كبيرة في العجائز ممن
الرجال . »
- « أنا أعرفه ! »
- « لإعرفه على مهلك . »
- « ما الذي جاء به — يا للشيطان ! — إلى العرس ؟ »
- « وها نحن نفسنا فيه أيضاً . »
- « من أين أقبل موكب العرس هذا ؟ »
- « وهل أعرف ؟ »
- « إسمعي . »
- « ماذا ؟ »
-
- يقعد الباريسي .

- « يجب أن نصنع شيئاً . »
- « ماذا ؟ »
- « اخرجني من عربتنا ، واتبعني موكب العرس . »
- « لمساذا ؟ »
- « لنعرف إلى أين يذهب وما هو . عجلي في الخروج . اركضي ، يا بنيتي ، فأنت صغيرة . »
- « لا أستطيع أن أغادر العربية . »
- « ولم لا ؟ »
- « أنا مستأجرة . »
- « آه ، يا للشيطان ! »
- « أنا مدينة بيومي هذا لإدارة الشرطة . »
- « هذا صحيح . »
- « إذا غادرت العربية ، فإن أول شرطيّ يراني يلقي القبض علي . »
- « انت تعرف ذلك جيداً . »
- « أجل ، اعرف . »
- « لقد اشترتني الحكومة اليوم . »
- « سيان . إن ذلك العجوز يضجرني . »
- « الرجال العجائز يضجرونك . انت لست مع ذلك فتاة صغيرة . »
- « إنه في العربية الأولى . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « في عربية العروس . »
- « وبعد ؟ »
- « اذن فهو أبوها . »
- « واي شأن لي بذلك ؟ »

- « اقول لك انه ابوها . »
- « ليس هناك أب آخر . »
- « إسمعي . »
- « ماذا ؟ »
- « من ناحيتي ، أنا لا أكاد استطيع الخروج إلا إذا كنت مقتنعاً .
أنا مخبوء هنا ؛ ان احداً لا يعرف أنني هنا . ولكن غداً ، لن تبقي
أقنعة . إنه اربعاء الرماد . سوف اعرض نفسي للاعتقال . يجب ان
أعود إلى ثقبتي . أما انت فطليقة . »
- « ليس إلى حد بعيد . »
- « أكثر مني ، على كل حال . »
- « حسن ، ثم ماذا ؟ »
- « يجب ان تحاولي أن تعرفي إلى أين يذهب موكب العرس هذا . »
- « إلى أين يذهب ؟ »
- « نعم . »
- « أنا اعرف ذلك . »
- « إلى اين يقصد اذن ؟ »
- « إلى الكادران بلو . »
- « قبل كل شيء ، ان الكادران بلو ليس في هذا الاتجاه . »
- « حسن ! إلى لا رايه . »
- « أو إلى مكان آخر . »
- « إنه حر . الاعراس حرة . »
- « هذا ليس كل شيء . اقول لك ان عليك ان تعرفي لي ما هو
هذا العرس ، وإلى من ينتسب هذا العجوز ، واين يسكن أصحاب
العرس . »
- « هذا شيء مضحك على الأغلب ! إنه ملائم ان يعثر الانسان ،

بعد ثمانية أيام ، على موكب عرس مر بباريس في ثلاثاء المرفع ! دبوس
في مستودع هشيم ! هل هذا ممكن ؟
- « مهما يكن ، فأنت عليك أن تحاولي . هل سمعت ، يا آزيلما ؟ »
واستأنف صفا العربات حركتهما في اتجاهين متعاكسين على جانبي
الجادة ، ولم يعد في ميسور عربة الاقنعة ان ترى عربة
العروس .

جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه الى صدره

تحقيق الحلم الذي بدغدغ المرء . من الذي أنعم عليه بذلك ؟ لا شك في ان ثمة انتخابات في السماء تدور حول هذا الموضوع . اننا جميعاً مرشحون غير واعين ، وإن الملائكة لتقرر . لقد انتُخبت كوزيت وماريوس :

وكانت كوزيت في مقر العمدة وفي الكنيسة ، ساطعة ومؤثرة : كانت توسين ، تساعدنا نقوليت ، قدألبستها ثياب العرس .

وارتدت كوزيت ، فوق تنورة من نسيج حريري أبيض ، ثوبها المخيط من بريم بينش . ، وحجاباً من تخريم انكلرة ، وعقداً من جواهر رقيقة ، وتاجاً من زهر الليمون . وكان ذلك كله ابيض ، وكانت هي - في هذا البياض - متألفة . كانت سلامة سريرة طيبة انبسطت وتحولت إلى سطوع . كان خليقاً بكل من يراها ان يقول انها كسانت

• Bincho بلدة في بلجيكا .

عنراء على وشك ان تصبح إلهة .

كان شعر ماريوس الجميل مصقولاً معطراً . وههنا وههناك كان في ميسور المرء ان يتبين ، تحت كثافة الغدائر ، خطوطاً شاحبة كانت هي ندوب المراس .

وكان الجذ بهيماً ، مرفوع الرأس ، مازجاً في زينته ومسالكه ، أكثر من أي وقت مضى ، كل ما في عصر باراك ؛ وكسان يقود كوزيت . لقد حل محل جان فالجان الذي لم يستطع ان يعطي يده إلى العروس إذ كانت ذراعه مرفوعة إلى صدره .

وتبعهم جان فالجان ، مرتدياً ثوباً أسود ، وابتسم .
وقال له الجذ :

— « مسيو فوشلوفان ، هذا يوم سعيد . أنا اعطي صوتي لانتهاء للكروب والاحزان . يجب ان لا يبقى ثمة ايما حزن في ايما مكان ، منذ اليوم . وحق الآلهة ! أنا اصدر امري بأن يعم الابتهاج ! ليس للشر حق في أن يكون . إن وجود أناس بائسين هو ، في الحق ، عار على السماء الزرقاء . الشر لا يصدر عن الانسان ، الذي هو — في الواقع — خير . إن جميع ضروب الشقاء الانساني حاضرتها وحكومتها المركزية جهنم ، المدعوة بطريقة أخرى « تويلري الشيطان » . حسن . ها أنا ذا اقول كلمات دماغوجية الآن ! أما أنا ، فلم تبق لي ايما آراء سياسية . كل ما أطلبه هو أن يكون جميع الناس أغنياء ، يعني ان يكونوا سعداء . »

وبعد أن أتمت جميع الطقوس ، وبعد أن لفظا أمام العمسدة والكاهن كل نعم ممكنة ، وبعد أن وقعسا على سجلات البلدية والكرستيا ، وبعد أن تبادلنا خاتميها ، وبعد ان ركعا — ومرفق احدهما

• Barras سياسي فرنسي كان عضواً في المؤتمر الوطني ثم في حكومة الادارة .
وقد وضع مذكرات ثمينة . (١٧٥٥ - ١٨٢٩)

إلى مرفق الآخر - تحت النقاب المصنوع من نسيج متموج ابيض ،
في دخان المبخرة ، وقد تشابكت يداها ، وأعجب بهما القوم كلهم
وحسدهما القوم كلهم ، وتقدمهما - ماريوس في ثوب أسود ، وهي
في ثوب ابيض - الحاجب المزدان بكتافتي كولونيل ، ضارباً الأرض
بحرسته ، بين سياجين من المشاهدين المنشدين ، ووصلا إلى باب الكنيسة
المفتوح على مصراعيه ، واستعدا لامطاء متن العربة كرة ثانية وقد انتهى
كل شيء - بعد هذا كله لم يكن في ميسور كوزيت ان تصدق ذلك .
لقد نظرت إلى ماريوس ، ونظرت إلى الحشد ، ونظرت إلى السماء .
لقد بدا وكأنها كانت تحشى اليقظة . وأضفت عليها تلك السيماء المندهشة
الذاهلة فتنة لا سبيل إلى وصفها . ولكي يعودوا أدراجهم صعدوا إلى العربة
نفسها : ماريوس إلى جانب كوزيت ، ومسيو جيلنورمان وجان فالجان
تجاههما . كانت العمة جيلنورمان قد تراجعت خطوة واحدة ، فهي
تمتطي العربة الثانية . وقال الجد : « يا ولدي ، ها انتما السيد البارون
والسيدة البارونة ، ومعكما ثلاثون ألف فرنك في العام . » وانحنست
كوزيت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى ماريوس وداعبت أذنه بهذه
الهمسة الملائكية : « صحيح اذن . انا أدعى ماريوس . أنا
قرينتك . »

وتألق هذان المخلوقان . كانا في اللحظة المحتومة وغير المكتشفة ،
في النقطة المعشوية التي يتلاقى عندها الشباب كله والبهجة كلها . لقد حققا
أبيات جان بروفير . فهما - مجتمعين - لم يكونا قد بلغا الأربعين من العمر .
كان الزواج متسامياً ، وكان هذان الطفلان زنبقتين . ان أحدهما لم ير
الآخر ، لقد تأمل أحدهما الآخر . ورأت كوزيت ماريوس في حالة من
نور ، ورأى ماريوس كوزيت فوق مذبح . وفوق ذلك المذبح ، وفي
تلك الحالة ، وقد امتزج التمجيدان ، في الخلفية ، على نحو خفي ،
وراء سحابة بالنسبة إلى كوزيت ، وفي تلالو بالنسبة إلى ماريوس ، كان

المثل الأعلى ، الشيء الواقعي ، موعد القبله والحلم ، وسادة العرس .

إن جميع الآلام التي ألمت بهما عاودتهما الآن في نشوة . لقد بدا لهما ان الاحزان ، والارق ، والدموع ، والآلام النفسية المريرة ، والذعر ، واليأس ، وقد أمست ملاطفات وإشعاعاً ، قد زادت الساعة الفاتنة التي كانت تقترب سحراً على سحر ، وان احزانهما كانت خدماً لا يحصون يشاركون في تزيين فرحتهما . يا للآلام التي تنزل بالانسان في سالفات أيامه ما أحسنها ! لقد أحاط الأسى الماضي سعادتهما الحاضرة بهالة من نور . ان آلام جبهما النفسية المبرحة قد انتهت إلى سمو . كان في هذين النفسين التهلل عينه ، مظلاً باللذة عند ماريوس ، وبالحياء عند كوزيت . وقال أحدهما للآخر في همس : « سوف نذهب ونرى حديقتنا الصغيرة في شارع بلوميه ، كرة اخرى . » كانت ثنيات ثوب كوزيت فوق ماريوس .

إن يوماً مثل هذا هو مزيج من الحلم واليقين لا سبيل إلى وصفه . إن المرء ليملك ، وإنه ليفرض . وإن مجال الخيال لا يزال مفتوحاً امامه . وانها لعاطفة تتمتع على التعبير ، في ذلك اليوم ، ان يكون المرء في الظهيرة ، وان يفكر بمنتصف الليل . ولقد فاضت بهجة هذين القلبين على الحشد ، وخلعت المسرة على عابري السبيل .

ووقف الناس ، في شارع سان انطوان أمام كنيسة القديس بولس ليروا ، من خلال نافذة العربة ، إلى زهرات البرتقال ترتجف على رأس كوزيت .

ثم انهم رجعوا إلى شارع فتيات كالفير ، إلى بيتهم . وصعد ماريوس - جنباً إلى جنب مع كوزيت ، مظفراً متألقاً - تلك السلم التي حمل عليها محتضراً . وتجمع الفقراء امام الباب ، وباركوهما بعد أن شاركوهما في ما كانا يحملان من مال . وكانت الازهار في كل

مكان . إن المنزل لم يكن اقل عبقاً بالرائحة الزكية من الكنيسة ، فبعد البخور ، جاء دور الورود . وحسباً انها سمعا اصواتاً تنشد في اللانهاية؛ كان الله في قلبيهما ، وبدا القدر في أعينهما مثل سقف من الكواكب ؛ لقد رأيا فوق رأسيهما وميض شمس مشرقة . وفجأة دقت الساعة . ونظر ماريوس إلى ذراع كوزيت العارية ، الفاتنة ، وإلى الاشياء الوردية التي لمحها على نحو باهت من خلال الوشي الذي ازدان به النصف الأعلى من ثوبها . وحين رأت كوزيت نظرة ماريوس شاع الدم في وجهها حتى اطراف أذنيها .

كان عدد كبير من اصدقاء اسرة جيلنورمان القدماء قد دُعوا . وتزاحموا حول كوزيت في لفة . وتنافسوا في دعوتها « السيدة البارونة » . وكان الضابط ، تيبودول جيلنورمان ، وقد أمسى الآن رئيساً (كابتن) قد وفد من شارتر ، حيث كان مرابطاً مع الحامية ، ليشهد عرس ابن عمه بونميرسي . ولم تعرفه كوزيت . أما هو ، المتعود ان تراه النساء جميل الطلعة ، فلم يتذكر كوزيت اكثر من تذكره ايما فتاة اخرى .

وقال الجد جيلنورمان في ذات نفسه : « لقد كنت على حق في عدم تصديق حكاية الرماح تلك . »

ولم تكن كوزيت في يوم من الأيام اكثر رقة مع جان فالجان . وكانت على تناغم مع الجد جيلنورمان . فقيماً كان هو يجسد البهجة في حكم موجزة وجوامع كلم ، كانت هي تتضوع بالحب والحنان مثل عطر من العطور . السعادة تريد ان يكون الناس جميعاً سعداء .

وارتدت ، في حديثها مع جان فالجان ، إلى جرس صوتها الذي كان لها وهي بعد فتاة صغيرة . ولألفته بابتساماتها . وكانت مائدة قد مدت في حجرة الطعام .

والاغراق في الاضاءة من لوازم البهجة الكبيرة . فالسعداء يرفضون

الغسق والظلمة . انهم لا يوافقون على ان يكونوا مظلّمين . الليل ، نعم .
أما الظلمة ، فلا . فاذا لم يكن ثمة شمس ، فيتعين على المرء ان يصنع
شمساً .

كانت حجرة الطعام بوتقة اشياء بهيجة . ففي الوسط ، فوق المائدة
للبيضاء المتألقة ، كانت ثريا من ثريات فينيسيا ذات صفائح مسطحة ،
مزدانة بجميع ضروب الطير الملونة ، من زرقاء ، وبنفسجية ،
وحمرأ ، وخضراء ، جائمة وسط الشموع . وحول الثريا كسانت
شمعدانات مشعّبة ، وفوق الجدار كانت مرايا تزيينية ذات اغصان مثلية
ومخسة . وكانت المرايا ، والبلور ، والزجاجيات ، وآنية المائدة ،
والآنية الصينية ، والخزف المطلي ، والفخار ، والآنية الذهبية والفضية—
كانت كلها تتلأأ وتبهج . وكانت المسافات التي بين الشمعدانات المشعّبة
ملأى بياقات الزهر ؛ يعني انه حيث لم يكن ضوء كانت زهرة .
وفي حجرة الانتظار كانت ثلاث كهانات ومزمار تغزف بعض رباعيات
هايدن في صوت خفيض .

وجلس جان فالجان على كرسي في حجرة الاستقبال ، خلف الباب ،
الذي انطوى مصراعاه عليه على نحو يكاد يخفيه . وقبل بضع لحظات من
اتخاذهم مقاعدهم إلى المائدة أقبلت كوزيت ، وكأنما كان ذلك بحافز
مفاجيء ، وانحنى له في احترام ، ناشرة ثوبها العرائسي بيديها الأثنتين ،
وسأله في نظرة تنضح بالمرح الحنون :

— « أبي ، هل انت راض ؟ »

فقال جان فالجان :

— « نعم ، أنا راض . »

— « حسن ، اذن فاضحك . »

وبدأ جان فالجان يضحك .

وبعد بضع لحظات أعلن باسك ان المائدة قد مدت .

ودخل الضيوف حجرة الطعام ، يتقدمهم مسيو جيلنورمان متأبطاً ذراع كوزيت ، واتخذوا مقاعدهم ، وفقاً للنظام المعين ، حول المائدة .

ووضع كرسيان كبيران ذواً أذرع عن يمين العروس وعن يسارها ، الأول لمسيو جيلنورمان ، والثاني لجان فالجان . واتخذ مسيو جيلنورمان مقعده . وظل الكرسي الآخر ذو الذراعين شاغراً .

وبحثت الأعين كلها عن جان فالجان .
إنه لم يكن هناك .

ونادى مسيو جيلنورمان باسك ، وسأله :

— « هل تعرف أين مسيو فوشلوفان ؟ »

فأجاب باسك :

— « السيد ، تماماً . السيد فوشلوفان أخبرني ان اقول لسيدي انه يتألم قليلاً من يده العلية وانه لا يستطيع ان يتناول طعام العشاء مع سيدى البارون وسيدتي البارونة . وانه يرجوهما ان يعذراه ، وانه سوف يرجع غداً صباحاً . لقد مضى منذ لحظة . »

هذا الكرسي الشاغر اوقع القشعريرة ، لحظة ، في عشاء العرس . ولكن إذا كان مسيو فوشلوفان غائباً ، فان مسيو جيلنورمان كان هناك ، ولقد تألق الجدد تألق اثنين . لقد أعلن أن مسيو فوشلوفان أحسن صنعا في مضيه إلى الفراش باكراً ، اذا كان متألماً ، ولكن ذلك لم يكن غريب « خدش » . وكان هذا التصريح كافياً . وإلى هذا ، فأى شأن لزاوية ظلام واحدة في هذا الطوفان من البهجة ؟ كانت كوزيت وماريوس في إحدى اللحظات الانانية والمباركة حين لا تكون لنا غير القدرة على رؤية السعادة . ثم إن جيلنورمان خطرت له فكرة . « وحق الآلهة ، إن هذا الكرسي شاغر . تعال إلى هنا يا ماريوس . ان عمثك ، على الرغم من ان لها حقاً فيه ، سوف تجيز لك ذلك . هذا الكرسي ذو الذراعين لك .

هذا شرعي ، وهذا لطيف . السعيد إلى جانب السعيدة » . تصفيق من
ارجاء المائدة جميعاً . وحل ماريوس محل جان فالجان قرب كوزيت .
واستقامت الامور على نحو جعل كوزيت ، المحزونة باديء الأمر لغياب
جان فالجان ، تشعر آخر الامر بالارتياح لذلك . فمئذ ان امسى ماريوس
بديلاً من جان فالجان لم يكن في ميسور كوزيت ان تتحسر . لقد
وضعت قدمها الصغيرة الناعمة المغلفة بالاطلس الابيض فوق قدم
ماريوس .

وما ان احتل ماريوس الكرسي ذا الذراعين حتى محي مسيو
فوشلوفان . ولم يكن ثمة غائب ما . وبعد خمس دقائق كانت
المائدة كلها تضحك ، من اقصاها إلى اقصاها ، بكامل حميها
النسيان .

وحين جاء دور الحلوى والفاكهة وقف مسيو جيلنورمان ، وفي يده
كأس من الشامبانيا نصف مليء حتى لا تهرقه ارتعاشات سنيه الاثنتين
والتسعين ، وشرب نخب العروسين .
وهتف :

— « إنكما لن تفلتا من عظمتين . ففي هذا الصباح سمعتما عظة
الكاهن ، وفي هذه الليلة سوف تسمعان عظة الجد . أصغيا اليّ ، فلسوف
اقدم اليكما نصيحة : تبادلوا الحب حتى العبادة . أنا لن أبني ركناً من
الكلمات المزوقة . اني أسرع إلى الغاية : كونا سعيدين . ليس في الخليقة
من عقلاء غير القماريّ . الفلاسفة يقولون : اقتصدوا في مباهجكم . اما
انا فأقول : أطلقا لها العنان . كونا متيمين كالابالسة . كونا مسعورين .
الفلاسفة يهزون . اني لآتمنى لو أعيد فلسفتهم إلى حناجرهم . أمّن
الممكن ان يكون ثمة قدر أكثر مما ينبغي من العطور ، قدر أكثر مما
ينبغي من الأكمام المنوّرة ، قدر أكثر مما ينبغي من العنادل المفردة ، قدر أكثر
مما ينبغي من الاوراق الخضراء ، قدر أكثر مما ينبغي من الفجر في الحياة ؟

هل يستطيع العاشقان ان يتحابا أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيعان ان يتوادا أكثر مما ينبغي ؟ خذي حنرك ، يا ايستيل ، انت وسيمة أكثر ممسا ينبغي ! وخذ حنرك ، يا نيمورين ، انت جميل أكثر مما ينبغي ! يا للبلالة النادرة ! هل يستطيع العاشقان ان يفتن احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يلاطف احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يسحر احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع المرء ان يكون متمتعاً بالحيوية أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع ان يكون سعيداً أكثر مما ينبغي ؟ اقتصدوا في مباهاجكم ! آه ، هذا سخيف ! فليسقط الفلاسفة ! التهلل هو الحكمة . تهللوا ! تهللوا ! هل نحن سعداء لاننا صالحون ، ام نحن صالحون لاننا سعداء ؟ هل دعيت الـ « سانسى » باسم « سانسى » لأنها كانت ملكاً لهارلي دو سانسى . أم لأنها كانت تزن مثنة وستة (cent-six) قراريط ؟ لست ادري شيئاً من ذلك . الشيء المهم هو ان تملك الماسة ، والسعادة . كونا سعيدين من غير محاكمة . أطيعا الشمس طاعة عمياء . ما هي الشمس ؟ انها الحب . ومن قال الحب فكأنه قال النساء . آه ! آه ! ان ثمة شيئاً واحداً كلي القدرة ؛ إنسه المرأة ، اسألوا ماريوس الديماغوجي هذا أليس هو العبد الرقيق لهذه الطاغية المدعوة كوزيت ؟ وبكامل موافقته ، ياله من جبان ! المرأة ! ليس ثمة روبسيير يستطيع ان يصمد ؛ المرأة تتربع على العرش . انا لم أعد ملكياً باستثناء هذا الضرب من الملكية . ما آدم ؟ إنه مملكة حواء . ليس ثمة عام ١٧٨٩ بالنسبة إلى حواء . كان هناك الصولجان الملوكي المتوج بزهرة الزنبق ؛ كان هناك الصولجان الامبراطوري المتوج بكرة أرضية ؛ كان هناك صولجان شارلمان الذي كان من حديد ؛ كان هناك صولجان لويس الرابع عشر الذي كان من ذهب ، ولكن الثورة

• Harley de Sancy رجل دولة فرنسي كان يملك ماسة مشهورة دعيت باسمه (١٥٤٦ - ١٦٢٩) .

لوتها كلها بين إبهامها وسبابتها مثل قشتين من تين لا تساويان دانقين .
لقد انتهت تلك الصوالجة جميعاً ؛ لقد تحطمت ؛ إنها على الأرض ؛ لم
يبق ثمة صولجان ؛ ولكن أعطوني بعض الثورات على هذا المنديل الصغير
الموشى العابق برائحة البتشول ! اود أن أراكم تفعلون . جربوا ! ما الذي
يجعله وطيداً ؟ كونه خرقة . آه ، أنتم القرن التاسع عشر ! حسن ، ثم
ماذا ؟ نحن القرن الثامن عشر ، ولقد كنا على مثل ما انتم عليه من
الحماقة . لا تتخيلوا انكم غيرتم شيئاً كثيراً في الكون لأن هواءكم الأصفر
غير المعدي يدعى الكوليرا ، ولأن رقصة البوريه تدعى عندكم رقصة
الكاشوشا . لا بد انكم في أعماق قلوبكم مقيمون على حب النساء . انا
أتحداكم ان تقلعوا عن ذلك . إن هاته الشيطانات هن ملائكتنا . أجل ،
الحب ، المرأة ، القبله ، تلك هي الحلقة التي أتحداكم ان تخرجسوا
منها . أما أنا ، فالحق اني شديد التوق إلى أن أعاود الدخول اليها . اي
منكم رأى الكوكب الزهرة (فينوس) ، مغنساجة الهاوية الكبيرة ،
« سيليمين » الاوقيانوس ، ترتفع إلى اللانهاية ، مهدئة كل ما تحتها ،
محدقة إلى الامواج مثل امرأة ؟ الاوقيانوس آليست « جافية » حسن ،
إنه يربخ عبثاً . وتبرز فينوس ، فهو مضطر إلى أن يتسم . ان ذلك
الوحش ليدعن . نحن كلنا هكذا . غضب ، عاصفة ، رعود ، وزبد
حتى السماء . وتدخل المسرح امرأة ، ويطلع كوكب ، فتخر مكباً على
وجهك ! كان ماريوس يقاتل ، منذ ستة اشهر ، في الميدان ، اما اليوم
فأنه يتزوج . ولقد أحسن صنعاً . اجل ، يا ماريوس ، اجلس ،
يا كوزيت ، انكما على حق ، ليعش احداكما ، بحسارة ، من أجل
الآخر ؛ تبادلا الغزل ؛ واجعلنا نموت من الغيظ لأننا لا نستطيع ان
نفعل قدر ما نستطيعان ؛ ليعبد كل منكما الآخر . إلثقتا بمنقاريكما كل

• Alceste ابنة « بيلياس » وزوجة « آدميت » ، وقد ارتضت الموت انفاذاً لزوجها .
ثم ان هرقل ، كما تقول الاسطورة ، دخل الى جهنم لكي يخرجها منها .

ما على الأرض من قش السعادة الصغير ، وابنيا لنفسيكما عشاً مدى الحياة . وحق الآله ، لأن يكون الإنسان عاشقاً ، ولأن يكون معشوقاً ، ولأن ينعم بمعجزة كونه غض الأهاب ! لا تتصورا انكما اخترعتما هذا . أنا ، أيضاً ، كانت لي نفس أشبه بضياء القمر . الحب طفل عمره ستة آلاف سنة . الحب يستحق لحية طويلة بيضاء . وميتوشالح ليس غير فتي لا خلاق له أمام كوبيد . ومنذ ستين قرناً والرجل والمرأة يتخلصان من الورطة بتبادل الحب . إن الشيطان ، الذي هو خبث ، شرع ييغض الرجل ؛ والرجل ، الذي هو اشد خبثاً ، شرع يحب المرأة . وبهذه الطريقة عاد على نفسه بخير يفوق ما أنزله به الشيطان من أذى . وهذه الحيلة إنما اكتشفت في عهد الفردوس الأرضي . ايها الصديقان ، الاختراع عتيق ، ولكنه جديد تماماً ، أفيدا منه . كونا دافيس وكلوويه * ، في انتظار ان تصبحا فيليمون وبوسيس * . وهكذا تصرفا بحيث لا يعوزكما ، حين تلتقيان ، شيء البتة ، وبحيث تكون كوزيت هي الشمس لماريوس ، ويكون ماريوس هو الكون لكوزيت . كوزيت ، ليكن الجو الجميل ، في نظرك ، ابتسامة زوجك . ماريوس ، ليكن مطرك دموع زوجتك . واجتهدا ان لا يكون ثمة في منزلكما مطر البتة . لقد سرقتما الرقم الرابع في اليانصيب : زواج الحب . لقد فزتما بالجائزة الكبرى ، فحافظا عليها جيداً . أقفلا عليها ؛ لا تبعتها ؛ ليعبد كل منكما الآخر ، ولا تهتما بالباقي . صدقا ما أقوله لكما . إنه منطق سليم . والمنطق السليم لا يقوى على الكذب . ليكن احكما ديناً بالنسبة إلى الآخر . إن لكل امرئ طريقته في عبادة الله . وحق الشيطان ، إن خير طريقة لعبادة الله ان يحب المرء زوجته . انا احبك ؛ ذلك هو تعليمي الديني . وكل من يحب هو

• Daphnis et Chloé بطلا رواية عاطفية ريفية تحمل هذا الاسم .

•• Philémon et Baucis زوجان شهيران في الميثولوجيا . وقد أصبح اسمهما رمزاً

لحب الزوجي .

مستقيم الرأي . إن تجديف هنري الرابع يضع القداسة بين الشراهة
والسكر . « مذهب البطن الثمل المقدس » . انا لست على دين ذلك
التجديف . فالنساء منسيّة فيه . هذا ما يثير عجبني في ما يتصل بتجديف
هنري الرابع . ايها الصديقان ، فلتحي المرأة ! يقولون اني شيخ ؛
ومدهش كيف اشعر اني اعود شاباً من جديد . اني لأحب ان أهضي
وأصغي إلى مزامير القرب في الغابات . وان الاطفال الذين
ينعمون بالجمال والسعادة ليفقدوني صوابي . وانه لخليق
بي ، انا نفسي ، ان اتزوج إذا ما رغب احد في ذلك . ومن المتعذر
علينا ان نتخيل ان الله قد خلقنا لغرض غير هذا : أن نحب ، أن نهذل ،
ان نتبرج ، ان نكون حمائم ، ان نكون ديكة ، أن نلتقط حب غرامنا
من الصباح إلى المساء ، أن نفتخر بزوجاتنا الصغيرات ، ان نكون
مختالين ، ان نكون مظفرين ، ان نكون متعجرفين ؛ تلك هي غاية
الحياة . ذلك ، ولا يسؤكما ما أقول ، ما كنا نعتقده ، نحن العجائز ،
في أيامنا حين كنا شباباً . آه ، وحق الشيطان ، كم كان في تلك الحقبة
من نساء فائنات ، ومن وجوه صبيحة ، ومن فتيات صغيرات ! هناك
كنت امارس فساد اخلاقي . وإذن فليحب أحدكما الآخر . وإذا لم يحب
بعض الناس بعضاً فعندئذ لا أرى أي فائدة من وجود شيء اسمه الربيع .
وعندئذ يكون خليقاً بي ان اصلي لله كي يحزم جميع الاشياء التي يرينا
اياها ، ويستردها منا ، ويعيد الازهار ، والطيور ، والفتيات الجميلات
إلى صندوقه . يا ولدي ، تقبلاً بركة الرجل العجوز . »

كانت الليلة حية ، بهيجة ، أنيسة . وكانت دماء الجد المهيمنة قد
حددت اللحن للحفلة كلها ، ولقد كيّف كل امرئ نفسه وفقاً لمحبة
الجد القلبية التي يبلغ عمرها قرناً من الزمان أو يكاد . ورقصوا قليلا ،
وضحكوا كثيراً . كان عرساً صالحاً طفيفاً . ولقد كان خليقاً بهم ان
ان يدعوا الرجل الطيب القلب « الماضي » . والحق انه كان هناك في شخص

الجد جيلنورمان .

كان ثمة صخب ، ثم صمت .

واختفى العروسان .

وبعد منتصف الليل بقليل أمسى منزل مسيو جيلنورمان هيكلا .

وهنا نقف . إن ملاكاً مبتسماً ، واضعاً إصبعه على شفته ، يقف على عتبة ليالي الأعراس .

وتستغرق الروح في التأمل أمام هذا المعبد ، الذي يُحتفل فيه بعيد الحب .

ينبغي ان يكون ثمة أشعة فوق هذه البيوت . إن الابتهاج الذي تنطوي عليه يجب ان يفر في الضياء من خلال حجارة الجدران ، ويشع على نحو قائم في الظلمة . ومن المستحيل ان لا يبعث هذا العيد المقدس ، المحتوم ، إشعاعاً سلباً إلى الانهاية . الحب هو البوتقة السّنية التي يتم فيها اتحاد الرجل والمرأة . إن الكائن الواحد ، الكائن الثلاثي ، الكائن النهائي ، الثالث البشري ليفتق منه . وولادة هذه النفس الواحدة من نفسين اثنتين لا بد ان توقع في نفس الظلمة اضطراباً . إن المحب كاهن ، وإن العذراء المستغرقة في الانخفاف ليصيبها الذعر . وبعض هذا الابتهاج يمضي إلى الله . فحيث يكون زواج صحيح ، يعني حيث يكون الحب ، فهناك بمرتج المثل الأعلى به . إن سرير الزفاف يرسم هالة في الظلام . ولو قد قيّض للعين التي هي من لحم ان ترى المشاهد الرهيبة الساحرة الخاصة بالحياة العليا اذن لرأينا ، في أغلب الظن ، اشكال الليل ، والغرباء المجنّحين ، وعابري سبيل اللامنتور الزرق ، ينحنون — على هيئة حشد من الرؤوس القائمة — فوق البيت النّير ، سعداء ، مباركين ، يدل بعضهم بعضاً على العروس العذراء ، المروّعة في رفق ، وقد بدا على وجوههم الالتئيم انعكاس السعادة البشرية . ولو قدر ، في تلك الساعة السّنية ، للعروسين اللذين اصابتها البهجة بالجهر وظنا نفسيهما منفردين — لو قدر لهما ان

يصغيا ، اذن لسمعا في غرفتهما خفيف اجنحة مضطربة . ان السعاد
الكاملة تنطوي على تماسك الملائكة . وإن ذلك المخدع الصغير الغامض
يتخذ من السماء كلها سقفاً له . فحين يقترب فبان ، جعلهما الحب
مقدسين ، ابتغاء الخلق والابداع ، فمن المتعذر ان لا يكون فوق تلك
القبلة ، التي لا توصف ، قشعريرة في لغز النجوم الهائل .
تلك هي السعادات الحقيقية . ولا بهجة وراء هذه المباهج . الحب هو
وحده الانخطاف الروحي ، وكل ما عداه ييكى .
حسبُ المرء ان يحب وان يحب . فلا يطلبن احد شيئاً اكثر .
ليس ثمة جوهره اخرى يمكن ان يُعثر عليها في ثنایا الحياة المظلمة . إن
الحب إنجاز .

٣ ممتعة الانفصال

ما الذي كان قد حل بجان فالجان ؟
فيُعَيّد ضحكهم ، نزولاً عند طلب كوزيت الرفيق ، ومن غير ان يلاحظه
أحد ، كان قد نهض من مقعده ، وانتهى إلى حجرة الاستقبال . كانت
هي الحجرة نفسها التي سبق له ان دخلها قبل ثمانية اشهر ، أسود
بالوحل ، والدم ، والبارود ، حاملاً الحفيد إلى منزل الجد . كانت
ألواح الجدران الخشبية القديمة مكلفة بالاوراق والأزهار ؛ وكان الموسيقيون
جالسين على المقعد الذي مُدّد عليه ماريوس من قبل . وكان باسك يرتدي
سترة سوداء ، وبنطلوناً قصيراً ، وجوربين ابيضين ، وقفازين ابيضين
أيضاً . وكان يرتب تيجان الزهور حول كل من الاطباق التي كانت على
وشك أن يُسكب فيها الطعام . وكان جان فالجان قد أراه يده المرفوعة

إلى صدره ، وعهد اليه في ان يفسر للقوم سبب غيابه ، ومضى
لسيله .

كانت نوافذ حجرة الطعام تطل على الشارع . ووقف جان فالحان ،
بضع دقائق ، من غير حراك ، في الظلمة ، تحت تلك النوافذ المشعة .
واصغى . لقد انتهت اليه اصداء المأدبة المختلطة . ولقد سمع كلمات الجد
العالية ، الآمرة ، والحان الكمانات ، وقعقة الاطباق ، ورنين الكؤوس ،
ودوي الضحك . ومن خلال ذلك الصخب البهيج كله ميّز صوت كوزيت
العذب الجذلان .

وغادر شارع بنات كالفير ، ورجع إلى شارع الرجل المسلح .
ولكي يرجع ، اتخذ سبيله من شارع سان لويس ، وشارع « كولتور
سانت كاترين » وشارع ال « بلان مانتو » . كانت تلك الطرق أطول
بعض الشيء ولكنها كانت الطريق التي اعتاد طوال ثلاثة اشهر - ابتغاء
تجنب العوائق والحوادث في شارع « فيني دو تامبل » - ان يسلكها كل
يوم في ذهابه من شارع الرجل المسلح إلى شارع فتيات كالفير ، مع
كوزيت .

كانت هذه الطريق التي سارت عليها كوزيت قد نفت عنده كل
طريق اخرى .

ورجع جان فالحان إلى منزله . واضاء شمعته وارتقى السلم . كانت
الشقة شاغرة . إن توسين نفسها لم تعد هناك . وحدثت خطي جان فالحان
ضجة في الغرف اعظم من المألوف . كانت جميع الخزائن مفتوحة .
ومضى إلى حجرة كوزيت . لم يكن ثمة أغطية على السرير . كانت
الوسادة ، المجردة من غطاءها ومن وشيها ، مطروحة على الاغطية المطوية
عند قدم الحشية التي بدا قماشها والتي ما كان لأحد أن يرقد فيها
بعد . كانت جميع الاشياء الانثوية الصغيرة التي تعلقت بها كوزيت قد
نُقلت . لم يبق ثمة غير الاثاث الثقيل والجلدان الأربعة . كان فراش

تومين قد عُرِي أيضاً . كان سرير واحد معداً ليس غير ، ولقد بدا وكأنه ينتظر شخصاً ما . وكان ذلك السرير هو سرير جان فالجان .

ونظر جان فالجان إلى الجدران ، واغلق بعض ابواب الخزائن ، واخذ يروح ويحيي من غرفة إلى أخرى .

ثم انه وجد نفسه كرة ثانية في غرفته ، ووضع شمعته على الطاولة .

كان قد أطلق ذراعه من رباطها ، وأنشأ يستعين بيده اليمنى وكأنه ما كان يتألم منها .

واقرب من سريره ، ووقعت عينه — اكان ذلك مصادفة ؟ اكان ذلك عن عمد ؟ — على « ممتعة الانفصال » التي كانت كوزيت تغار منها ؛ وقعت عينه على صندوق الامتعة ذاك الصغير ، الذي ما كان يفارقه ابداً . وفي اليوم الرابع من حزيران ، لدن وصوله إلى شارع الرجل المسلح ، كان قد وضعها على الطاولة المدورة القائمة على عمود في وسطها ، قرب مقدم سريره . لقد مضى إلى تلك الطاولة في ضرب من الرشاقة ، واخرج من جيبه مفتاحاً ، وفتح الحقيبة .

واخرج منها ، في بطء ، تلك الثياب التي غادرت فيها كوزيت ، قبل عشر سنوات ، مونفيرماي ؛ الثوب الصغير الاسود اولاً ، ثم منديل العنق الاسود ، ثم الحذاء الضخم الثقيل التي كانت كوزيت عاجزة تقريباً عن انتعاله لشدة صغر قدميها ، ثم الصدرة المصنوعة من نسيج قطني غليظ ، ثم التنورة المسرودة ، ثم المشرز ذا الجيوب ، ثم الجوربين الصوفيين . وكان هذان الجوربان — اللذان ما يزال منطبعاً عليهما ، في رفق ، شكل الرجل الصغيرة — لا يكادان يبلغان طول يسد جان فالجان . وكانت هذه الملابس كلها سوداء ، وكان جان فالجان هو الذي حمل لها تلك الثياب إلى مونفيرماي . حتى إذا أخرجها من الحقيبة ،

وضعها على السرير . كان يفكر . لقد تذكر . كان ذلك فسي الشتاء ، في شهر من شهور ديسمبر القارسة ، ولقد ارتعدت نصف عارية في الأسفل ، واحمرت قدمها الصغيرتان البائستان احمراراً كاملاً في حداثها الخشبي . وكان هو ، جان فالجان ، قد جردها من تلك الأسفل لكي يلبسها هذا الثوب الحدادي . ولا ريب في أن الأم كانت سعيدة في قبرها لرؤيتها ابتها مرتدية ثوب الحداد عليها ، وان ترى بخاصة أنها كانت كاسية ، وأنها كانت تنعم بالدفء . وفكر في غابة مونفيرماي تلك . كانا قد اجتازاها معاً ، كوزيت وهو . وفكر في الحالة الجوية ، في الأشجار الجرداء ، في الغابة العاطلة عن الطيور ، في السماء التي لا شمس فيها . سيان ؛ فقد كان ذلك كله فاتناً . ورتب الأشياء الصغيرة على السرير : مندبل العنق إلى جانب التنورة ، والجوربين إلى جانب الحذاء ، والصدرة إلى جانب الثوب ، وأنشأ ينظر إليها واحداً بعد آخر : ان كوزيت لم تكن أطول من هذا المقدار ؛ كانت تحمل دميها الكبيرة بين ذراعيها ؛ وكانت قد وضعت ليرتها اللويسية الذهبية في جيب هذا المتر ؛ لقد ضحكت ، ولقد سارا وقد امسك أحدهما بنزاع الآخر ؛ لم يكن لها غيره في الوجود .

ثم ان رأسه ، الأبيض الجليل ، سقط على السرير ، وتفطر ذلك القلب المعجوز الثبت ، وغمر وجهه - إذا جاز التعبير - في ثياب كوزيت : ولو قد مر أحد بالسلم في تلك اللحظة اذن لسمع نحيباً رهيباً .

جيكور الخالد

ومن جديد ، بدأ الصراع المروع القديم ، الذي رأينا عدداً من وجوهه .

لقد تصارع يعقوب والملاك ليلة واحدة ليس غير . وأسفاه ، كم مرة رأينا جان فالدجان وقد أمسك به ضميره - جسداً لجسد - وسط الظلام ، فهو يصارع ذلك الضمير على نحو يائس !

صراع لم يسبق إلى مثله . في بعض اللحظات تزلّ القدم ، وفي بعض اللحظات تميد الأرض . كم مرة اخذ ذلك الضمير ، المسعور أمام الحق ، نخاقه وطرحه ارضاً ! كم مرة ركزت الحقيقة ، التي لا تعرف الشفقة ، قدمها على صدره ! كم مرة صاح ، وقد طرحه النور ارضاً ، ملتصقاً منه الرحمة ! كم مرة ، عمد ذلك النور الحقود ، الذي أضرمه الاسقف في ذات نفسه ومن فوقه ، إلى ان يوقع الجهر في عينيه كلما رغب في ان يكون اعمى لا يرى ! كم مرة نهض في ذلك الصراع ، مشلوداً إلى الصخر ، متكئاً على السفسطة ، متمرغاً في التراب ، وقد تمكن من ان يقهر ضميره حيناً ، وتمكن ضميره من ان يقهره حيناً آخر ! كم مرة ، بعد كلام مبهم ، بعد تفكير أناني غادر ممّوه ، سمع ضميره الهائج يصيح في اذنه : « زلة ! أيها الشقي ! » كم مرة حشرج فكره المتمرد حشرجة متشنجة تحت دليل الواجب ! مقاومة للرب . عرق مائمي ! كم جرح خفي استشعر هو وحده انها كانت تدمي ! كم خلدش لوجوده البائس ! كم مرة نهض من فراشه دامياً ، مشخناً ، محطماً ، مضطراً ، يفعم اليأس قلبه وتملأ الطلاقة روحه ! مهزوماً ، شاعراً أنه هو المنتصر . وبعد أن قطع الضمير أوصاله ،

ومزقه ، وحطمه ، وقف فوقه ، رهيباً ، نيراً ، هادئاً ، وقال له :
« والآن ، امض في سلام ! »

ولكن أيّ سلام حدادي هذا الذي واجهه لدن خروجه من ذلك الصراع
الكالح إلى هذا الحد ، وأأسفاه !
ومع ذلك ، فقد استشر جان فالفجان أنه كان يخوض ، تلك الليلة ،
معركته الأخيرة .

لقد برز له سؤال ممض .

إن التقادير ليست مستقيمة كلها ، أنها لا تتكون على صورة شارع
مستقيم أمام من كُتبت عليه . أنها دروب غير نافذة ، أنماء معوجة ،
منعطفات مظلمة ، مفارق مربكة تتكشف عن طرق متعددة . كان
جان فالفجان قد وقف في هذه اللحظة عند أخطر تلك المفارق .

كان قد انتهى إلى التمازج الأخير بين الخير والشر . كان ذلك التقاطع
المظلم امام عينيه . وهذه المرة أيضاً ، كما قد اتفق له من قبل في أزمان
أليمة اخرى ، انفتحت أمامه طريقان اثنتان : الأولى فاتنة ، والثانية
رابعة . فأى الطريقين يتعين عليه أن يسلك ؟

لقد نصحه بسلوك الطريق الرابعة ذلك الأصبع الخفي المشير الذي
نلمحه ، جميعاً ، كلما ركزنا اعيننا على الظلام .

كان على جان فالفجان ان يختار ، كرة اخرى ، بين الملاذ الرهيب ،
والشرك المبتسم .

اذلك صحيح اذن ؟ ان النفس قد تشفى ؛ أما المصير فلا . شيء
رهيب ! قدّر عضال !

وكان السؤال الذي واجهه هو هذا :

بأي طريقة يتعين على جان فالفجان ان يسلك تجاه سعادة كوزيت
وماريوس ؟ هذه السعادة كان هو الذي رغب فيها ، وكان هو الذي
صنعها . كان قد أقحمها في فؤاده ، وكان خليقاً ان يستشر ، في هذه

اللحظة ، وقد نظر إليها ، مثل ارتياح صانع أسلحة يرى طابع مصنعه على مُسدية فيما هو يستلها ، وقد خضب الدم جسمه كله ، من صدره .

لقد فازت كوزيت بماريوس ، ولقد امتلك ماريوس كوزيت . كانا يتمتعان بكل شيء ، حتى بالثروة ، وكان ذلك من صنعه .

ولكن ما الذي كان ينبغي ان يفعله ، هو جان فالجان ، بهذه السعادة ، بعد أن تحققت ، وبعد أن أمست هناك ؟ أيفرض نفسه على هذه السعادة ؟ ايعاملها وكأنها ملك له ؟ لا ريب في ان كوزيت كانت لرجل آخر ؛ ولكن ايتعين عليه ، هو جان فالجان ، ان يحتفظ من كوزيت بكل ما استطاع ان يحتفظ به ؟ أينبغي ان يظل ذلك الضرب من الأب ، الذي يرى نادراً ولكنه ينعم بالاحترام ، والذي كانه حتى تلك اللحظة ؟ هل يقدم نفسه ، في هدوء ، إلى منزل كوزيت ؟ هل يحمل ماضيه ، من غير ان يقول كلمة ، إلى هذا المستقبل ؟ هل يمثل هناك بوصفه صاحب حق ، وهل ينبغي له ان ان يفسد ويتخذ مقعده ، محجّباً ، في تلك الدار المتألقة ؟ هل يمسك بأيدي هذين المخلوقين البريثين - فيما هو يتشم لها - بيديه الفاجعتين ؟ هل يضع على مساند الخطب الآمنة ، في حجرة استقبال مسبو جيلنورمان ، قدميه اللتين كانتا تجران خصمهما ظامة القانون الشائنة ؟ هل يدخل في مشاركة بالخطوط مع كوزيت وماريوس ؟ هل يتعين عليه ان يكتشف الظلمة فوق رأسه والسحابة فوق رأسيهما ؟ هل يجعل من نكبتة رفيقاً لسعادتهما ؟ هل يظل معتصماً بالصمت ؟ وبكلمة ، يجوز له ان يكون ، إلى جانب هذين المخلوقين السعيدين ، أبكم القدر المشؤوم ؟

إن علينا ان نكون معوّدين لقاء الاقدار لكي نجروء على رفع أعيننا حين تجابهنا بعض المسائل في عريها الرهيب . ان الخير أو الشر ليحكم

وراء علامة الاستفهام القاسية هذه . ويسأل أبو الهول : وما الذي سوف تصنعه ؟

وكانت لجان فالحجان هذه الألفة مع التجربة . لقد حقق إلى أبي الهول على نحو موصول .

وقلب المشكلة القاسية على اختلاف وجوها .

وكانت كوزيت ، ذلك الوجود القاتن ، هي قارب النجاة في ذلك الفرق . ما الذي ينبغي ان يفعله ؟ ايتشبث بالقارب ، أم يقلته ؟ إذا تشبث به نجا من الكارثة ، وارتفع كرة اخرى إلى الشمس ، وترك الماء يرشح من ثيابه وشعره ، ونجا ، وعاش . أما إذا أقلته ؟

فستند إلى الهاوية .

وهكذا راح يستشير أفكاره ، في مرارة . أو على الأصح ، يتصارع معها . لقد عصفت في ذات نفسه ثورة ، وانشأ يتقصر على ارادته حيناً ، وعلى يقينه حيناً آخر .

وكان من حسن حظ جان فالحجان أنه استطاع البكاء . لعل ذلك قد أضفى عليه شيئاً من النور . ومع ذلك ، فقد كانت البداية ضارية . لقد انطلق في صميمه إعصار أشد عنفاً من ذلك الذي كان قد ساقه في وقت مضى إلى آراس . لقد عاوده الماضي وجهاً لوجه مع الحاضر . وقارن ، وانتحب . وما إن فُتح سد الدموع ، حتى تلوى الرجل اليائس المساء وحسرة .

لقد شعر أنه قد أوقف .

وأسفاه ! ففي هذه الملائكة المستميتة بين انانيتنا وواجبنا ، حين نراجع هكذا خطوة اثر خطوة أمام مثلنا الأعلى المنيع ، ذاهلين ، هائجين ، حائقين للاستسلام ، متصارعين مع الارض ، تواقين إلى امكانية الفرار ، ملتجئين مخرجاً ما - في هذه الملائكة المستميتة كم تكون

مقاومة الجدار الذي خلفنا مفاجئة ومشوومة !
إننا نستشعر الظل المقدس يعترض الطريق .
اللامنتظر الذي لا يعرف الرحمة ! يا له من فكرة متسلطة على
العقل !

واذن فليس لنا مع الضمير نهاية البتة . فاختر سييلك ، وفقهه ،
يا بروتوس ، واختر سييلك ، وفقهه ، يا كاتون . إنه — بما هو
الله — لا قرار له . إننا نلقي في هذه البشر عمل حياتنا كلها ، إننا نلقي
فيها حظنا ، نلقي فيها ثروتنا ، نلقي فيها نجاحنا ، نلقي فيها حريتنا
أو وطننا ، نلقي فيها هناءتنا ، نلقي فيها راحتنا ، نلقي فيها سعادتنا .
اكثّر ! اكثّر ! اكثّر ! أفرغ الاناء ! أمل الجرة ! إن علينا آخر
الأمر ان نلقي فيها فؤادنا .

إن ثمة في مكان ما من ضباب الجهنمات القديمة مثل هذا البرميل .
ليس يُعذر المرء إذا ما رفض آخر الأمر ؟ هل يستطيع الممتنع على
النضوب ان يدعي شيئاً ؟ اليست السلاسل التي لا نهاية لها فوق القوة
البشرية ؟ ومن ذا الذي يلوم : اذن ، سيسيفوس . أو جان فالدجان اذا
ما قال : « في هذا كفاية ! »

ان عبودية المادة محدودة بالاحتكاك ؛ أليس ثمة حد لعبودية الروح ؟
إذا كانت الحركة السرمدية مستحيلة فهل يكون التفاني السرمدي
مطلوباً ؟

ان الخطوة الأولى ليست شيئاً ، الخطوة الاخيرة هي العسيرة . اي شيء كانت
قضية شاتماتيو إذا ما قورنت بزواج كوزيت وكل ما انطوى عليه ؟ واي
شيء كان هذا : الذهاب إلى سجن الاشغال الشاقة ، بالقياس إلى هذا :

• Sieypho ، في الميثولوجيا ، ابن ايول Eolus ملك كورنث . كان قاسياً شديداً
لوحشية وقد حكم عليه بعد موته بان يرضع ، في الجحيم ، صخرة ضخمة الى قمة جبل ،
ولكن الصخرة كانت ترتد ، كل مرة ، الى الهاوية ...

الدخول في العدم ؟

ايه ايتها الدرجة الأولى من درجات النزول ، كم أنت داكنة ! ايه ايتها الدرجة الثانية كم انت سوداء !

كيف يستطيع ان لا يدير رأسه هذه المرة ؟

الاستشهاد تسام ، تسام قارض . إنه تعذيب يكرس ويرسم . انك قد تفره في الساعة الأولى وتجلس على عرش الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتضع على جبينك تاج الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتتلقى الكرة الارضية المصنوعة من الحديد الحامي حتى الاحمرار ، وتأخذ صولجان الحديد الحامي حتى الاحمرار ، ولكن لا يزال عليك ان ترتدي معطف اللهب ، افلا يكون ثمة لحظة يثور فيها اللحم المسكين ، ويتنازل فيها المرء عن النكال والتعذيب ؟

واخيراً دخل جان فالجان في سكينه اليأس .

لقد راز ، ولقد فكر ، ولقد تأمل مختلف السبل التي يخيره بينها ذلك الميزان الخفي ، ميزان النور والظلام . أن يفرض سجن اشغاله الشاقة على هذين الطفلين الفاتنين ، أو أن يستهلك بنفسه غرقه العضال . في ناحية : التضحية بكوزيت ، وفي ناحية : التضحية بنفسه .

عند أي حل وقف ؟ أي قرار اتخذ ؟ ما كان ، في صميم ذاته ، جوابه الاخير عن طلب القدر العفيف ؟ أي باب اعترم أن يقرع ؟ اي جانب من حياته وطن النفس على أن يوصد أو يسد ؟ ومن بين جميع هذه الهوى التي لا غور لها ، والتي تحيط به ، أي واحدة اختار ؟ اي طرف ارتضى ؟ لأي من هذه اللجج حتى رأسه ؟

لقد استمر تفكيره ، الموقع الدوار في الرأس ، طوال الليل . وظل هناك حتى الفجر ، في الوضع نفسه ، منطوياً طيتين فوق السرير ، ساجداً تحت ضخامة القدر ، ولعله كان مسحوقاً ، وأسفاه ، متشنج

الاصابع ، مبسوط الذراعين على زاوية قائمة ، مثل رجل مُنزع عن الصليب وطُرح على وجهه فوق الأرض . لقد ظل اثنتي عشرة ساعة - اثنتي عشرة ساعة طويلة من ساعات ليلة من ليالي الشتاء - مثلوجاً ، من غير ان يرفع رأسه ، ومن غير ان ينبس بكلمة . كان جامداً مثل جثة ، فيما كان فكره يتلوى على الأرض ويطير ، حيناً كالثعبان ، وحيناً كالنسر . ولو رآته عين هكذا من غير حراك اذن لظنته ميتاً . وفجأة ، ارتعش في تشنج ، وقبل فمه ثياب كوزيت ، وكان مسمراً عليها . وعندئذ كان جديراً بتلك العين ان ترى أنه حي .

اية عين ؟ ما دام جان فالجان وحده ، وما دام احد لم يكن هناك ؟

« العين » التي في الظلام .

الكتاب السابع

آخر قطرة في الكأس

١

الدائرة السابعة والسماء الثامنة

ان اليوم الذي يلي العرس يوم " تكتنفه العزلة . فنحن نحترم خلوة السعدين ، ومن هنا فقليلاً ما نعوق رقادهما . وصخب الزيارات والتهنئات لا يبدأ إلا في ما بعد . وفي صباح اليوم السابع عشر من شباط كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعض الشيء عندما سمع باسك ، وكان يرتب قاعة الانتظار متأبطاً مترره ومنفضة غباره ، قرعاً خفيفاً على الباب . إن احداً لم يقرع الجرس ، وهو شيء ينم عن التكتم في يوم كهذا . وفتح باسك الباب ، ورأى مسيو فوشلوفان . وأدخله إلى قاعة

الاستقبال ، التي كانت ما تزال مزدحمة مقلوبة رأساً على عقب ، والتي
بدت عليها سيما الميدان الذي شهد مباهج احتفال الليلة الفائتة .
ولاحظ باسك :

— « وحق الاله ، يا سيدي ، لقد افقنا في ساعة متأخرة . »
وسأله جان فالجان :

— « هل استيقظ سيدك ؟ »

فأجاب باسك :

— « كيف حال ذراع سيدي ؟ »

— « أحسن . هل استيقظ سيدك ؟ »

— « ايها ؟ القديم أم الجديد ؟ »

— « مسيو بونميرسي . »

فقال باسك متصديراً :

— « سيدي البارون ؟ »

ان المرء ليكون باروناً عند خدمه قبل كل شيء . إن شيئاً من ذلك
ينعكس عليهم . فهم يملكون ما يستطيع الفيلسوف ان يدعو « رشاش
اللقب » ، وهم بذلك يعترفون . ولنقل ههنا ، بين معترضتين ، ان
ماريوس الجمهوري المناضل ، ولقد اقام الدليل على ذلك ، كان الآن
باروناً بالرغم منه . كانت ثورة صغيرة قد نشبت في الاسرة حول هذا
اللقب . ففي الوقت الحاضر كان مسيو جيلنورمان هو الذي تشبث به ،
وكان ماريوس هو الذي استخف به . ولكن الكولونيل بونميرسي كان
قد كتب « ان ابني سوف يحمل لقبني » . وأطاع ماريوس . ثم ان
كوزيت ، التي بدأت المرأة تشرق في أعطافها ، كانت تستشعر اعظم
الحبور لكونها بارونة .

وكرر باسك :

— « سيدي البارون ؟ سوف اذهب وأرى . سوف اقول له ان

مسيو فوشلوفان هنا . »

— « لا . لا تقل له ذلك . قل إن شخصاً ما ، يسأل ان يتحدث اليه على انفراد ، ولا تذكر له اي اسم . »

فقال باسك :

— « آه ! »

— « أود ان أبادره بمفاجأة . »

فأضاف باسك :

— « آه ! »

معطياً نفسه آهته الثانية كتفسير لآهته الأولى .

وغادر الحجرة .

وظل جان فاليجان منفرداً .

وكانت الفوضى كما قلنا ، تسود حجرة الاستقبال . لقد بدا وكأن المرء كان لا يزال قادراً ، إذا ما ارهف سمعه ، على ان يسمع جليبة العرس الغامضة . كان ثمة مختلف ضروب الازهار ، التي سقطت من الاكاليل ومن القبعات ، على الارض . وكانت الشموع ، التي اشتعلت حتى محارها ، قد اضافت إلى بلور الثريات رواسب من شمع . لم تكن قطعة من قطع الاثاث في مكانها . وفي الزوايا ، كانت كل ثلاثة أو اربعة من الكراسي ذوات الازرع قد تقاربت وشكلت دائرة ، وبدا وكأنها ما تزال تواصل حديثاً ما . وكان مجموع ذلك ضاحكاً . إن ثمة جمالاً ما في الأعياد الميتة . لقد كانت هذه الحجرة سعيدة . وعلى تلك الكراسي المختلطة ، وبين هذه الازهار الآخذة في الذبول ، ونحت هذه الاضواء المنطفئة ، كان القوم قد فكروا افكاراً بهيجة . لقد خلفت الشمس الثريا ، ولقد دخلت في بشر إلى حجرة الاستقبال .

وتصرمت بضغ دقات . كان جان فاليجان جامداً من غير حراك في النقطة التي تركه باسك فيها . كان شاحباً جداً . وكانت عيناه غائرتين

في محجريهما ، بسبب من الأرق ، إلى درجة جعلتهما لا تكادان تبدوان إلا في عسر . وكانت ترين على سترته السوداء تلك التفضينات المرهقة التي تبدو عادة على السترة التي سلخت الليل بطوله . وكان مرفقاه قد ايضاً بذلك الزغب الناشئ عن دعك القماش . كان جان فالجان ينظر إلى النافذة التي رسمتها الشمس ، عند قدميه ، فوق ارض الحجرة .

وسمع ضجة لدى الباب ، ورفع عينه .
ودخل ماريوس ، مرفوع الرأس ، باسم الثغر ، مشرق الوجه بنور لا سبيل إلى وصفه ، وضاح الجبين ، مظفر العين . إنه هو الآخر لم يعرف النوم .

وهتف لدن رؤيته جان فالجان :

— « هذا أنت ، يا ابي ! يا لباسك الأحمر الذي رانت على وجهه سياء خفية ! ولكنك جئت مبكراً جداً . فلم تنقض على الظهر غير ساعة واحدة . ان كوزيت لا تزال نائمة . »

تلك الكلمة « ابي » يقولها ماريوس لمسيو فوشلوفان كانت تعسني : السعادة العظمى . لقد كان ثمة بينهما دائماً ، كما نعرف ، حاجز وبرود وتحفظ ، ثلج للكسر أو للذوبان . كان ماريوس قد انتهى إلى تلك المرحلة من النشوة التي يأخذ الحاجز عندها بالسقوط ، والثلج بالذوبان ، وكان مسيو فوشلوفان بالنسبة إليه ، شأنه بالنسبة إلى كوزيت ، أباً .

وتابع . لقد فاضت الكلمات منه ، وهو ما يميز نهايات الابتهاج الالهية هذه :

— « ما أعظم سعادتي برويتك ! لو كنت تعرف كيف افتقدناك أمس ! صباح الخير ، يا ابي . كيف يدك ؟ أحسن ، أليس كذلك ؟ »

وإذ قنع بالجواب الخير الذي قدمه هو نفسه ، مضى يقول :

— « لقد اكثرتنا ، كلانا ، من الحديث عنك . إن كوزيت تحبك حباً
 جماً ! أنت لن تنسى ان غرفتك هنا . نحن لا نريد شارع الرجل المسلح
 بعد اليوم . لا ، لا نريده بعد اليوم البتة . كيف استطعت ان تذهب
 وتقفن في شارع مثل ذاك ، شارع مريض ، شارع مدمدم ، شارع
 بشع ، شارع يقوم عند احد طرفيه حاجز ، حيث تصاب بالبرد ، وحيث
 لا تستطيع ان تدخل ؟ سوف تأتي ، وتستقر هنا . وسوف تفعل ذلك
 اليوم . ولأنا نشأ بينك وبين كوزيت نزاع . إنها تعتزم ان تقودنا كلنا
 من انوفنا ؛ انا احذرك . لقد رأيت غرفتك ؛ إنها جد قريبة إلى غرفتنا ،
 وهي تطل على الحديقة ؛ لقد جعلنا لها قفلاً ، وأقمنا السرير ، وكل
 شيء جاهز . وليس عليك إلا ان تجيء . لقد وضعت كوزيت كرسيّاً
 قديماً واسعاً ذا وسادة من مخمل اوترخت إلى جانب سريرك وخاطبته
 قائلة : « أبسط ذراعيك له . » وكل ربيع يأتي عندليب الى مجموعة
 شجر الأكاسيا المواجهة لنوافذك . إنك سوف تقع عليه بعد شهر .
 وعندئذ يكون عشها إلى يسارك ، وعشتنا إلى يمينك . ويغرد لك العندليب
 ليلاً ، وتتحدث كوزيت نهاراً . إن غرفتك قائمة إلى الجنوب تماماً .
 وسوف ترتب لك كوزيت كتبك هناك ، « رحلة الكابتن كوك » ،
 و « رحلة فانكوفيه » ، وسائر أشيائك . وهناك ، في ما اعتقد ، حقيّة
 صغيرة انت حريص عليها جداً ، ولقد اخترت لهذه زاوية شرف .
 لقد قهرت جدي ، انت تناسبه . انتم سوف تعيشان معاً . هل تعرف
 الهويست ؟ انك سوف تأنس إلى جدي إذا عرفت الهويست . وسوف
 تصحب كوزيت إلى التزهة يوم أكون غائباً في قصر العدل ، وسوف
 تعطيهما ذراعك ، كما تعلم ، شأنك في حديقة اللوكسمبورغ ، في مسا
 مضى . لقد عقدنا العزم عقداً مطلقاً على ان نكون سعيدين جداً . وانت
 جزء من سعادتنا ، أفنهم ، يا أبي ؟ آه ، قل لي ، هل تناول طعام

• What ضرب من لعب الورق .

الصباح معنا اليوم ؟ »

فقال جان فالجان :

« سيدي ، ان عندي شيئاً واحداً أقوله لك . أنا رجلٌ مُحكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة . »

إن حدود الاصوات الحادة المدركة يمكن ان يتجاوزها العقل بمثل السهولة التي تتجاوزها فيها الأذن . إن هذه الكلمات « انا رجلٌ مُحكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة » ، خارجة من فم مسيو فوشلوفان داخلة في اذن ماريوس ، إنما ذهبت إلى أبعد من الممكن . ولم يسمع ماريوس . لقد بدا له ان شيئاً قد قيل له اللحظة ؛ ولكنه لم يدر ما هو . لقد وقف فاجر الفم .

ثم انه ادرك ان الرجل الذي يحدثه كان رهيباً . إن الجهر الذي اصاب عينيه كان قد حجب عنهما ، حتى تلك اللحظة ، ذلك الشحوب الفظيع .

وفك جان فالجان رباط العنق الأسود الذي كان يسند ذراعه ، ونزع القماش الملفوف حول يده ، وعرض إبهامه ، وأراه لماريوس . وقال :

« ان يدي سليمة . »

ونظر ماريوس إلى الإبهام :

وتابع جان فالجان :

« وهي لم تكن غير سليمة في يوم من الايام . »

لم يكن ثمة ، في الواقع ، أيما أثر لجرح .

وواصل جان فالجان :

« كان من الأفضل ان لا أحضر زفافك . ولقد تغيبت أكثر مما

استطعت ان أتغيب . لقد تظاهرت بهذا الجرح لكي لا اقوم بتزوير ، لكي لا أدخل البطلان على وثائق الزواج ، لكي أعفى من التوقيع . »

وتلجج ماريوس :

— « ماذا تريد ان تقول ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « اريد ان اقول اني كنت في سجن الاشغال الشاقة . »

فهتف ماريوس في ذعر :

— « انت تجعلني مخبلاً ! »

وقال جان فالجان :

— « مسيو بونيميسي ، لقد سلخت تسع عشرة سنة في سجن الاشغال الشاقة . بسبب من السرقة . ثم حكم علي بالسجن مدى الحياة . بسبب من السرقة . بسبب من تكرار الجرم . لاني في هذه اللحظة هارب من العدالة . »

وكان من غير المجدي ان يرتد ماريوس أمام الحقيقة ، ان يرفض الواقعة ، أن يقاوم الدليل ، لقد اضطر إلى الاذعان . وشرع يفهم ؛ وكما يقع دائماً في مثل هذه الاحوال ، فهم ما وراء الحقيقة . لقد استشر رعدة وميض باطني رهيب . لقد خطرت بباله فكرة جعلته يرتجف . لقد لمسح في المستقبل قدراً رهيباً مقدوراً له .

— « قل كل شيء ، قل كل شيء ! انت والد كوزيت . »

وارتد إلى الوراء في سياء من الذعر لا سبيل إلى وصفها .

ورفع جان فالجان رأسه ، في جلال جعله يبدو وكأنه يرتفع إلى السقف .

— « من الضروري ان تصدقني في هذا ، يا سيدي . على الرغم من ان أيمان امثالنا غير مقبولة في نظر العدالة . »

وهنا اعتصم بالصمت . ثم إنه اضاف ، في ضرب من السلطان المهيمن ، القبري ، لافظاً الكلمات في بطء ، ومؤكداً مقاطعها :

— « سوف تصدقني . أنا والد كوزيت . أما أمام الله ، فلست

والدها . سيدي البارون بونميرسي ، أنا فلاح من فافيرول . لقد كنت
اكسب رزقي من تشذيب الأشجار . إن اسمي ليس فوشلوفان . انسي
ادعى جان فالجان . أنا لا أمتّ بنسب إلى كوزيت . اطمئن !
ونتمم ماريوس :

— « ومن يثبت ذلك لي ؟ »

— « أنا . ما دمت أقول ذلك . »

وحين جان فالجان رأسه وكأنه يقسم يمينا . ثم تابع كلامه قائلا :
— « أي صلة تربطني بكوزيت ؟ صلة عابر السيل . قبل عشر
سنوات ، لم اكن أعلم أنها في الوجود . انا أحبها ، هذا صحيح . انا حين
نبلغ سن الشيخوخة نحب الطفلة التي سبق لنا ان رأيناها وهي صغيرة .
وحين يبلغ الرجل سناً عالية يحس أنه جد لجميع الأطفال . ان باستطاعتك
في ما يحيل الي ان تفترض ان لي شيئاً يشبه الفؤاد . لقد كانت يتيمة .
يتيمة من غير أب أو أم . كانت في حاجة الي . ذلك هو السبب الذي
من اجله بدأت أحبها . إن الاطفال هم من الضعف بحيث يستطيع ائما
امريء ، وحتى ولو كان رجلاً مثلي ، ان يكون لهم حامياً . وقد قمت
بهذه المهمة في ما يتصل بكوزيت . ولست احسب ان احداً يستطيع حقاً
ان يدعو هذا الشيء الضئيل جداً عملاً صالحاً . ولكن اذا كان هو عملاً
صالحاً فاذاكر اني انا الذي قمت به . دون هذا الظرف المخفف . إن
كوزيت تغادر اليوم حياتي . ان سيبلينا يفرقان . انا لست بقادر على
ان اوّدي لها ائما خدمة اضافية ، منذ اليوم . انها مدام بونميرسي . لقد
تغير حاميتها . ولقد كسبت كوزيت بهذا التغير . كل ذلك حسن . اما
الستة الف فرنك فانت لم تجدني عنها ، ولكنني استطيع ان اعرف ما
الذي يحول في خاطرك . إنها ودیعة . كيف انتهت هذه الودیعة إلى يدي؟
واي أهمية لذلك ؟ انا اسلم الودیعة إلى أهلها . ان شيئاً اكثر من ذلك
لا يمكن ان يطلب مني . انا اتم الاعادة بالنص على اسمي الحقيقي .

وهذا شيء يتعلق بي أيضاً . فأنا نفسي ارجب في ان تعرف من أنا . »
ونظر جان فالجان إلى ماريوس في وجهه .

كان كل ما استشعره ماريوس مبلبلا غير متلاحم الاجزاء . إن بعض
هبات القدر لتحدث مثل هذه الامواج في نفوسنا .

لقد عرفنا ، كلنا ، مثل لحظات الاضطراب هذه . التي يتبدد خلالها
كل شيء في ذوات نفوسنا . إننا نقول أول الاشياء التي ترد على ذهننا ،
وهي ليست دائماً ، على وجه الضبط ، ما ينبغي ان نقوله . ان ثمة
ضروباً من الكشف المفاجيء عن الاسرار لا نستطيع ان نحتملها ،
فهي تسكرنا مثل خمر مهلكة . لقد شُده ماريوس امام الحالة الجديدة
التي كُشفت لعينه إلى درجة جعلته يخاطب هذا الرجل وكأنه غاضب عليه
أو يكاد ، لاعترافه ذاك .

وصاح :

« ولكن ، لمَ تقول لي ذلك كله ؟ ما الذي يكرهك على ان تفعل
ذلك ؟ كان في استطاعتك ان تحتفظ بالسِر لنفسك . إن احداً لم يش بك ،
ولست ملاحقاً او متعقباً . ان عندك سبباً يدعوك إلى ان تكشف عن هذا
السِر ، طوعاً واختياراً . أكمل . هناك شيء آخر . بمناسبة أي شيء
تدلي بهذا الاعتراف ؟ بدافع من اي شيء ؟ »

فاجاب جان فالجان ، في صوت خفيض وغائر إلى درجة كسنت
تجيز للمرء ان يزعم انه كان يتحدث إلى نفسه لا إلى ماريوس :

« بدافع من اي شيء ؟ حقاً ، بدافع من اي شيء يجيء هذا
المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ويقول : انا محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟
حسن ، اجل ! الدافع غريب . إنه دافع الشرف . اجل ، إن سوء
حظي حبل احمله هنا في قلبي ، فهو يُحكّم وثاق . وحين يبلغ المرء
من الشيخوخة تكون هذه الخيال قوية خاصة . إن الحياة كلها لتبديد من
حولها ، ولكنها تصمد وتقاوم . ولو كنت قادراً على ان اقتلع هذا

الحبل ، ان اقطعه ، ان أحل العقدة ، أو أقطعها ، أن أقصد إلى مكان بعيد ، اذن لنجوت ، ولم يكن علي إلا أن امضي لسيلبي . ان ثمة عربات عامة في شارع بولوا ، انهما سعيدان ، فلامض لسيلبي . لقد حاولت ان اقطع ذلك الحبل ، لقد شدته ، ولكنه قاوم في ثبات ؛ إنه لم ينقطع ؛ لقد كنت اقتلع قلبي معه . ثم قلت : إنني لا أستطيع ان احيا بعيداً عن هذا المكان . يجب ان أبقى . اجل ، ولكنك على صواب . انا محبول ، فلماذا لا أبقى بكل بساطة ؟ انت تقدم الي غرفة في المنزل . والسيدة بونميرسي تحبني كثيراً ، وهي تقول لذلك الكرسي ذي الذراعين : ابسط ذراعيك له ، وجدك لا يطعم في أكثر من ان اكون إلى جانبه ، فأنا الائمة . وسوف نحيا كلنا معاً ، ونأكل كلنا معاً ، وسوف أعطي ذراعي لكوزيت ... إلى السيدة بونميرسي ، عفواً . فانا اقول ذلك بحكم العادة ، ولن يكون لنا غير سقف واحد ، ومائدة واحدة . ونار واحدة ، وزاوية الموقد نفسها في الشتاء . والثرثرة نفسها في الصيف ، تلك هي البهجة ، تلك هي السعادة ، ذلك هو كل شيء . سوف نحيا كأسرة واحدة ، كأسرة واحدة ! »

وعند هذه الكلمة غدا جان فالجان ضارباً . لقد طوى ذراعيه ، وحقق إلى الأرض . عند قدميه ، وكأنه كان يود ان يحفر هوة فيها . وغدا صوته ثاقباً على نحو مفاجيء .

— « اسرة واحدة ! لا ، أنا رجل بلا أسرة . أنا لست من اسرتكم . انا لست من اسرة الناس . ففي البيوت التي يكون فيها الناس بسين اهلهم اكون انا فضلة زائدة . هناك أسر ، ولكنها ليست لي . انا البائس ؛ أنا خارج النطاق . هل كان لي اب وأم ؟ أنا أكاد اشك في ذلك . ويوم زوجت هذه الطفلة انتهى كل شيء . لقد رأيت انها سعيدة ، وأنها مع الذي أحبت . وان ثمة عجوزاً صالحاً ، أسرة من ملاكبين . وان جميع المباهج في هذا المنزل ، وان كل شيء

حسن ، قلت لنفسى : لا تدخل . لقد كان فى استطاعتى ان اكذب ،
هذا صحيح ، ان اخدعكم جميعاً ، ان اظلم فوشلوفان . لقد
كان فى ميسورى أن اكذب ما كان الكذب من أجلها ، اما وقد أصبح
الكذب من أجلى أنا فليس ينبغي لى ذلك . وكان حسبى ان اظلم صامتاً ،
هذا صحيح ، وعندئذ يستمر كل شيء . انت تسألنى ما الذى يكرهنى
على الكلام ؟ شيء غريب : ضميرى . لقد كان من اليسير جداً ، على اية
حال ، أن اظلم صامتاً . ولقد سلخت الليل وانا احاول إقناع نفسى
بذلك . انت تطلب منى اعترافاً ، وما جئت لآخبرك به هو من الغرابة
بحيث يكون من حقك ان توجه الى هذا الطلب . اجل ، لقد سلخت
الليل وانا اقدم الى نفسى اعداراً ، ولقد قدمت اليها اعداراً جيدة جداً ،
لقد بذلت جهدى ، ولكن على غير طائل . بيد أنه كان ثمة شيئان لم
أوفق اليهما . أنا لم اوفق لا إلى قطع الحبل الذى يجعل فؤادى مثبتاً ،
مستمراً ، مستخاً هنا ، ولا إلى إخراس ذلك الذى يتحدث الى فى صمت
حين اخلو الى نفسى . وذلك هو الذى يجعلنى اجيء واعترف لك بكل
شيء هذا الصباح . بكل شيء ، أو بكل شيء تقريباً . فمن غير المجدى
ان آخبرك بما يهمنى أنا وحدى . إننى احتفظ بذلك لنفسى . الشيء
الاساسى انت تعرفه . وهكذا أخذت لغزى ، وحملته اليك . ولقد
بقرت سري امام عينيك . ولم يكن ذلك قراراً يسهل اتخاذه . فطوال الليل كنت
فى صراع مع نفسى . آه ، انت تحسب انى لم أقل لنفسى ان هذه القضية
لا تشبه قضية شاماتيو . وانى باخفائى اسمى لا اؤذى احداً ، وان اسم
فوشلوفان قد اعطانى اياه فوشلوفان نفسه عرفاناً منه لجميل أسديته اليه ،
وان فى ميسورى ان احتفظ به ، وانى سوف اكون سعيداً فى هذه
الغرفة التى تقدمها الى ، وانى لن ادخل فى شيء ، وانى سوف اكون
منتحياً زاوية صغيرة ، وانه فيما تمتلك انت كوزيت ينبغي ان تراودنى
فكرة البقاء معها فى البيت نفسه . وعندئذ كان خليقاً بكل

مريء ان ينعم بنصيبه الحق من السعادة . كان الاستمرار في انتحال شخصية فوشلوفان جديراً بأن يسوي كل شيء . اجل ، ما عدا روحي . كان ثمة بهجة تحيط بي من كل جانب ، ولكن اعماق نفسي كانت لا تزال سوداء . ليس يكفي المرء ان يكون سعيداً ، إن علينا ان نكون راضين عن أنفسنا . ولو اني بقيت مسيو فوشلوفان اذن لكنت اخفي وجهي الحقيقي ؛ اذن لكنت ، في حضرة جندلكم ، احمل لغزاً ؛ اذن لكنت ظلمة في وضوح نهاركم ؛ اذن لكنت ادخلت سجن الاشغال الشاقة إلى منزلكم من غير أن أطلق كلمة التحذير في صراحة ؛ اذن لجلست إلى مائدتكم وأنا افكر بانكم لو عرفتم من أنا لطردتوني من هنا ؛ اذن لاجزت لنفسي ان يقدم الي الطعام خدم لو عرفوا لقالوا : يا للهول ! ، اذن لكنت لمستك بمرفقي الذي يحق لك ان تشمثر منه ؛ اذن لكنت اختلست جُمع كفك ! لو فعلت ، اذن لكان في منزلكم قسمة للاحترام بين شعر أبيض جليل ، وشعر أبيض يلفه العار . وفي لحظاتكم الاكثر حميمية ، حين تحسب قلوبكم كلها ان بعضها منفتح لبعضها الآخر حتى الاعماق ، وحين نكون اربعتنا معاً ، جددك ، وانتما الاثنان ، وأنا ، فعندئذ يكون ثمة رجل غريب مجهول . لو فعلت ، اذن لكنت جنياً إلى جنب معكم في وجودكم وليس لي غير هم واحد هو أن لا أزيح غطاء بشري الفظيعة ابداً . وهكذا اكون أنا ، انا الرجل الميت ، قد فرضت نفسي عليكم ، انتم الأحياء . وعندئذ اكون قد قسرتها على الارتباط بي إلى الأبد . وعندئذ تصبح انت ، وكوزيت ، وأنا ثلاثة رؤوس في قلنسوة خضراء ! ألا ترتعد ؟ أنا لست الآن إلا أكثر الناس بوئاً ، ولو احتفظت بشخصيتي المنتحلة اذن لأصبحت اكثر الناس فظاعة . واذن لتعين علي ان ارتكب هذه الجريمة كل يوم ! واذن لتعين علي ان اكذب هذه الكذبة كل يوم ! واذن لتعين علي ان احمل وجه الليل هذا كل يوم ! واذن لكنت قدمت اليكم نصيبيكم من عاري كل يوم !

كل يوم ! اليكم انتم ، يا أحبتي ، انتم ، يا اولادي ، انتم يا ابرائي !
الاحتفاظ بالسكينة هين ؟ الاعتصام بالصمت بسيط ؟ لا ، انه ليس هيناً
ولا بسيطاً . إن ثمة صمتاً يكذب . ولو قد لجأت إلى الصمت اذن
لتجرعت كذبي ، وخداعي ، وخزبي ، وجبني ، وخيائتي ، وجريمتي ،
قطرة قطرة ، واذن لتعين علي ان ابصقها ، ثم انجرعها من جديد ،
واذن لانتهي في منتصف الليل وبدأت من جديد عند الظهيرة ، واذن
لكانت تحيّي التي أطلقها في الصباح كاذبة ، وتحيّي التي أطلقها في المساء
كاذبة ، واذن لكنت انام عليها ، وآكلها مع خبزي ، واذن لنظرت
إلى كوزيت في وجهها وأجبت عن ابتسامة الملاك بابتسامة الملعون ، واذن
لكنت مداحياً مرذولاً ! ولم افعل ذلك ؟ لكي اكون سعيداً ! وهل
لي ، أنا ، الحق في ان اكون سعيداً ؟ أنا خسار ج الحياة ،
يا سيدي . »

وكفّ جان فالجان عن الكلام . واصغى ماريوس . مثل هذه السلسلة
من الافكار والآلام النفسية المبرحة لا يمكن ان تقاطع . وخفض جان
فالجان صوته من جديد ، ولكنه لم يعد ذلك الصوت الغائر ، لقد أمسى
صوتاً مشوئماً :

« أنت تسأل لماذا أتكلم . أنت تقول ان احداً لم يش بي .
واني لست مطارداً ولا متعقباً . اجل ! لقد وُشي بي ! اجل ! أنا
مطارد ! اجل ! أنا متعقب ! ممن ؟ من نفسي . اني انا نفسي الذي
اوصد الطريق في وجه نفسي ، وانا اجرّ نفسي ، وانا أدفع نفسي ،
وانا اوقِف نفسي ، وأنا أعدم نفسي . وحين يكون قياد المرء في يده
هو يكون قياده ذاك في يد أمينة . »

وأمسك بسترته هو بيده المطبقة في إحكام وقال وهو يسحبها نحو
ماريوس :

« انظر إلى هذه اليد الآن . ألا ترى أنها تمسك برقبة هذه

السفرة على نحو لا سبيل إلى الافلات معه ؟ حسن ، ان الضمير لا يعلو
 ان يكون قبضة يد أخرى ! إذا اردنا ان نكون سعداء ، يا سيدي ،
 فينبغي أن لا نفهم الواجب ابداً ، إذ ما إن نفهمه حتى يمسي حقوداً .
 وقد نستطيع القول انه يعاقبك لفهمك إياه . ولكن لا ، انه يكافئك على
 هذا ، ذلك بأنه يضعك في جحيم تستشعر فيه ان الله إلى جانبك . وما
 إن يتمزق فؤادك حتى يُعقد الصلح بينك وبين ذاتك . »
 وفي تأكيد مرير أضاف :

— « مسيو بونميرسي ، هذا ليس منطقاً عاقلاً ، ولكني رجل مستقيم .
 إنني بتحقيقي لنفسي في عينيك أرفع من قدرها في عيني . ولقد حدث
 لي ذلك مرة من قبل ، ولكنه كان أقل إيلاماً ، آنذاك ؛ انه لم يكن
 شيئاً . أجل ، رجل مستقيم . وما كنت لأكون رجلاً مستقيماً لو أقمت
 بسبب من خطأي ، على احترامي . اما الآن ، وقد أصبحت تحقرني ،
 فاني رجل مستقيم . لقد كتب عليّ هذا القدر : لما كنت عاجزاً إلى
 الابد عن الفوز بأكثر من الاحترام المسروق فأن ذلك الاحترام يذلني
 ويرهقني باطنياً ؛ ولكني احترم نفسي يتعين علي ان اكون موضح
 الازدراء . ثم إنني تصدرت . انا عبد رقيق من ارقاء الاشغال الشاقة
 يطبع ضميره . إنني اعرف جيداً ان هذا بعيد الاحتمال . ولكن ما
 الذي تريدني ان افعله ؟ إن الامر لكذلك . لقد اخذت عهداً على نفسي ،
 واني لأفي بها . إن ثمة احداثاً تقيدنا ، إن ثمة مصادفات تقودنا إلى
 واجبات . اترى ، يا مسيو ماريوس ، لقد وقعت لي في حياتي
 أحداث . »

وتهمل جان فالجان كرة اخرى ، بالماً ريقه في عسر ، وكأنما كانت
 لكلماته خلفه مريرة ، ثم استأنف الكلام :
 — « حين يكون المرء مثقلاً بمثل هذا الهول فليس يملك الحق في ان
 يجعل الآخرين يشاركونه إياه من غير علمهم ؛ ليس له الحق في ان

يعديهم بطاعونه ؛ ليس له الحق في ان يجعلهم ينزلقون إلى هاويته من غير ان يحذرهم منها ؛ ليس له الحق في ان يترك قلنسوته الحمراء تنسحب فوق رؤوسهم ؛ ليس له الحق في ان يزجج سعادة الآخرين ، على نحو مُمرأ ، بشقائه هو . ان اقترابك من السالمين ومساك اياهم ، في الظلام ، بقرحتك اللامنتورة شيء رهيب . لقد أعارني فوشلوفان اسمه عبثاً ، أنا لم يكن لي الحق في ان أفيد منه . كان في استطاعته ان يعطيني اياه ، ولكن لم يكن في استطاعتي ان آخذه . ان الاسم هو الأنا . اجل ، يا سيدي ، لقد فكرت بعض الشيء ، ولقد طالعت بعض الشيء ، على الرغم من اني فلاح ، وانت ترى اني اعبر عن نفسي على نحو مقبول : أنا اكون فكرتي الخاصة عن الاشياء . ولقد زودت نفسي بثقافة خاصة بي . اجل ، إن اختلاس اسم ما والاختباء تحته عمل غير شريف . إن احرف الابدعية يمكن ان تُسرق مثل حافظة نقود أو ساعة سواء بسواء . أن تكون امضاء مزوراً بلحم ودم ، أن تكون مفتاحاً مقلداً حياً ، أن تدخل إلى بيوت الشرفاء من الناس بتزوير أقفالهم ، أن لا تنظر بعد اليوم البتة ، بل ان تنظر بحول ، ان تكون شائناً في قرارة نفسك ، لا ! لا ! لا ! من الافضل ان تتألم ، أن تدمى ، ان تبكي ، أن تتزع الجلد بالاظافر عن اللحم ، ان تسليخ الليالي بالتلوي المأ ، بالوجع النفسي المرير ، أن تبلى جسداً وروحاً . هذا هو السبب الذي حملني على ان اجيء واخبرك بهذا كله . اني افعل ذلك بمجرد طوعي واختياري ، كما تقول . »

وتنفس في صعوبة ، وقذف هذه الكلمة الاخيرة :

— « لكي أعيش ، سرقت ذات يوم رغيماً . واليوم ، لكي اعيش ،

لا اريد ان اسرق اسماً . »

فقاطعه ماريوس :

— « لكي تعيش ! انت في غير ما حاجة إلى ذلك الاسم لكي

تعيش ! »

فأجابه جان فالفجان وهو يرفع رأسه ويخفضه عدة مرات على التعاقب :

— « آه ، لقد فهمت . »

وران السكوت . لقد اعتصم كل منهما بالصمت ، لقد غرق كل منهما في هاوية من الافكار . وكان ماريوس قد جلس إلى جانب احدى الطاولات ، وكان يسند زاوية فمه على احدى أصابعه الملوية . وكان جان فالفجان بذرع الحجر جثة وذهوباً . ثم انه وقف أمام احدى المرايا وظل جامداً من غير حراك . واخيراً قال ، ناظراً إلى تلك المرأة التي لم ير فيها نفسه ، وكأنما كان يجيب عن حجة باطنية :

— « على حين أنني ، في الوقت الحاضر ، استشعر الراحة والعزاء . »

واستأنف سيره ، ومضى إلى الطرف الآخر من حجرة الاستقبال . ولم يكذب بتقدير حتى لمح ان ماريوس كان يراقب سيره . وقال له في نبرة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— « انا اجر احدى قدمي بعض الشيء . انت تعرف سبب ذلك الآن . »

ثم استدار نحو ماريوس :

— « والآن ، يا سيدي ، تصور هذا : أنني لم أقل شيئاً ، أنني ظلت مسيو فوشلوفان ، أنني أخذت مكاني في بيتكم ، اني واحد منكم ، اني في غرفتي ، اني أجيء لتناول طعام الصباح في مبادلي ، اتنا نذهب ثلاثتنا عند هبوط الليل إلى المسرح ، اني اصحب السيدة بوغيمسي إلى التويلري وإلى القصر الملكي ، واتنا كلنا معاً ، وانكم تحسبونني نظيراً لكم . وفيما اكون ذات يوم هناك ، وفيما تكونون انتم هناك ، وفيما نحن نتحدث ، وفيما نحن نضحك ، تسمعون صوتاً يصبح

بهذا الاسم : جان فالجان ! وترون تلك اليد الرهيبة ، البوليس ، تنبثق من الظلام وتترع القناع فجأة عن وجهي ! »
وكف عن الكلام كرة اخرى . كان ماريوس قد نهض في رعدة :
واستأنف جان فالجان حديثه :

— « ما قولك ؟ »

وكان صمت ماريوس جواباً .

واضاف جان فالجان :

— « انت ترى جيداً اني على حق في عدم الاعتصام بالصمت . امض ، كن سعيداً ، كن في الفردوس ، كن ملاكاً للملاك ، كن مغموراً باشعة الشمس ، وكن راضياً بذلك ، ولا ترعج نفسك بالطريقة التي يصطنعها رجل هالك مسكين لكي يفتح صدره ويؤدي واجبه . ان أمامك رجلاً بائساً ، يا سيدي . »

وعبر ماريوس حجرة الاستقبال في تودة ، حتى إذا أمسى على مقربة من جان فالجان بسط يده له .

ولكن كان على ماريوس ان يأخذ تلك اليد التي لم تعرض نفسها ؛ إن جان فالجان لم يمانع ، ولقد بدا للماريوس انه يصافح يداً من رخام . وقال ماريوس :

— « ان لجدي اصدقاء . وسوف احصل لك على العفو . »

فأجاب جان فالجان :

— « لا فائدة . إنهم يحسبونني ميتاً ، وهذا كاف . الأموات غير خاضعين للمراقبة . إن من المفروض ان تصيهم العفونة في سكين . الموت صنو العفو . »

وسحب يده من يد ماريوس المتشبثة بها ، وأضاف في ضرب من الوقار الذي لا يعرف الرحمة :

— « وإلى هذا فأنا قيامي بواجبي هو الصديق الذي افزع اليه . وأنا

في غير ما حاجة إلا إلى عفو واحد ، هو عفو ضميري . «
وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب في رفق عند الطرف الآخر من
حجرة الاستقبال ، وأطل رأس كوزيت . انهما لم يريا غير وجهها العذب ؛
كان شعرها أشعث على نحو فاتن ، وكانت عيناها ما تزالان متورمتين بالرقاد .
وأطلقت حركة شبه بحركة طائر يخرج رأسه من عشه ، ونظرت أولاً إلى
زوجها ، ثم إلى جان فالجان ، وخاطبتها ضاحكة ، حتى لقد كان
خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى ابتسامة في اعماق وردة :
- « انا اراهن انكم تتحدثون في السياسة . يا للحماقة ! بدلا من ان
تكونوا معي ! »

وارتعد جان فالجان .
وتلجلج ماريوس :
- « كوزيت ! »
ثم سكّت . ولو قد رآها امروء لحسب أنها مجرمان .
وواصلت كوزيت ، متألقة ، النظر اليها جميعاً . كان مرح الجنة
في عينيها :
وقالت :

- « لقد قبضت عليكما متلبسين بالجرم المشهود . لقد سمعت اللحظة
من خلال الباب ، ابي فوشلوفان يقول : « الضمير ... أداء الواجب ... »
هذه سياسة ، هذه . انا لا اريدها ، ما كان ينبغي لكما ان تتحدثا في
السياسة في مثل هذا اليوم . هذا شيء لا يجوز . »
فأجاب ماريوس :

- « انت مخطئة ، يا كوزيت . نحن نتحدث في التجارة . اننا
نتدارس افضل الطرق لتوظيف فرنكاتك الستمئة الف »
فقاطعت كوزيت :
- « هذا ليس كل شيء . أنا آتية . هل ترغبان في وجودي هنا ؟ »

واجتازت الباب في عزم ، ودخلت إلى حجرة الاستقبال : كانت ترتدي ثوباً صباحياً أبيض فضفاضاً ، ذا ألف ثنية ، وذاردنين عريضين ؛ ثوباً يتبدى من العنق ويهبط حتى القدمين . إن في السماوات الذهبية التي تقع عليها في اللوحات القوطية القديمة مثل هذه الاثواب الفاتنة يرتديها الملائكة .

ورأت نفسها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين في مرآة ضخمة ، ثم هتفت في تفجّر نشوة روحية تمنع على الوصف :
- « كان في غابر الزمان ملك وملكة : أوه ، ما أشد سعادتي ! »
قالت ذلك ، وحنّت رأسها احتراماً لماريوس ولجان فالجان .
واضافت :

- « ها أنا ذا أستقر ، بالقرب منك ، على كرسي ذي ذراعين . سوف نتناول طعام الفطور بعد نصف ساعة ، وعندئذ نقولان كل ما نرغبان في قوله . أنا اعرف جيداً ان الرجال يجب ان يتكلموا ، وسوف اكون عاقلة جداً . »

وامسك ماريوس بذراعها وقال لها في حب :

- « نحن نتحدث في مسائل تجارية : »

فأجابت كوزيت :

- « بالمناسبة ، لقد فتحت نافذتي فوجدت مجموعة كبيرة من الـ *pierrots* (عصافير الدوري أو الاقنعة) في الحديقة . عصافير أعني ، لا أقنعة . اليوم اربعاء الرماد ، ولكن ليس للطيور : »

- « اقول لك انا نتحدث في مسائل تجارية ؛ اذهبي ، يا حبيبي كوزيت : دعينا لحظة . نحن نتحدث حول الارقام . إن ذلك سوف يتعبك . »

- « لقد لبست رباط عنق فاتناً ، هذا الصباح ، يا ماريوس . انت تحب الزينة كثيراً ، يا مولاي . ان ذلك لن يتعبني . »

- « أوكد لك انه سوف يتعبك . »
 - « لا . لأنك أنت . انا لن افهمكما ، ولكني سوف أصغي اليكما . فحين نسمع اصواتاً نحبها نكون في غير حاجة إلى ان نفهم الكلمات التي نقولها . ان اجتماعي بكما ، هنا ، هو كل ما اريده . سوف ابقى معكما ، أجل سوف ابقى ! »
 - « انت كوزيت حبيتي ! مستحيل . »
 - « مستحيل ! »
 - « نعم . »
 فأجابت كوزيت :

- « حسن جداً ، كنت جديرة بأن اقدم اليك الاخبار . كنت جديرة بان اخبرك ان جدي لا يزال نائماً ، أن عمك تشهد القداس ، ان الموقد في غرفة ابي فوشلوفان يتسرب منه الدخان ، ان نيقوليت قد استدعت منظم المداخلن ، وان توسين ونيقوليت قد اخذتا تشاجران منذ اليوم ، وان نيقوليت تسخر من تاجلج توسين . حسن ، انك ان تعرف شيئاً . آه ، هذا مستحيل ؟ انا بدوري - كما سترى - ياسيدي ، سوف اقول : هذا مستحيل . وعندئذ من الذي يقع في الشرك؟ اتوسل اليك ، يا حبيبي ماريوس ، دعني أبقى هنا معكما . »
 - « اقسم لك ان علينا ان نبقى وحدنا . »
 - « حسن ، وهل انا شخص ما ؟ »

ولم ينطق جان فالفجان بكلمة . والتفتت كوزيت اليه وقالت :
 - « قبل كل شيء ، اريد منك ، يا أبي ، ان تجيء وتقبلني . ما الذي تفعله هنا هكذا صامتاً لا تنطق بكلمة ، بدلا من ان تؤيدني ؟ من الذي أعطاني أباً مثل هذا ؟ انت ترى في وضوح اني تعيسة جداً في حياتي المنزلية . ان زوجي يضربني . تعال ، قبلني فسي الحصال . »

- وتقدم جان فالجان .
- وامتدارت كوزيت نحو ماريوس .
- « أما أنت ، يا سيدي ، فاني امد لساني اليك . »
- وقدمت جبينها إلى جان فالجان .
- وخطا جان فالجان في اتجاهها خطوة .
- وارتدت كوزيت .
- « ابي ، انت شاحب الوجه : هل تؤلك ذراعك ؟ »
- فقال جان فالجان :
- « لقد شُفِيت . »
- « هل أرقت الليلة البارحة ؟ »
- « لا . »
- « هل انت حزين ؟ »
- « لا . »
- « قلبي . اذا كنت في صحة جيدة ، اذا كنت قد نمت نوماً عميقاً ، واذا كنت سعيداً فلن اعتنقك . »
- وقدمت له جبينها كرة اخرى .
- وقبل جان فالجان ذلك الجبين الذي كان يطفو فوقه انعكاس صماوي .
- « ابتسم . »
- وأطاع جان فالجان . كانت ابتسامة شبح .
- « والآن انتصير لي على زوجي . »
- فقال ماريوس :
- « كوزيت ! ... »
- « اغضب ، يا ابي . قل له اني يجب ان أبقى . في استطاعتكما من غير شك أن تتحدثا أمامي . واذن ، فانما تحسبان اني بلهاء جداً . »

واذن ، فإنه لعجيب جداً هذا الذي نقولانه ! تجارة ، وضع مال في مصرف ، هذه مسألة خطيرة . الرجال يتظاهرون بالتكتم لغير داع . اريد ان ابقى . أنا جميلة جداً هذا الصباح . أنظر الي ، يا ماريوس ! « وفي هزة كتفين فاتنة ، وفي إظهار للاستياء رائع إلى حد يكاد يمتنع على الوصف ، نظرت إلى ماريوس . فكأن برقاً سرى بين هذين الكائنين . ولم يهمهما ان يكون في الحجرة شخص آخر .

وقال ماريوس :

— « احبك ! »

وقالت كوزيت :

— « اعبدك ! »

وارتمى احدهما ، برغمه ، بين ذراعي الآخر .

ثم ان كوزيت استأنفت كلامها ، معدلة إحدى طيات ثوبها ، مطيلة شفيتها على نحو مظفر :

— « سوف أبقى . »

فأجاب ماريوس ، في نبرة متوسلة :

— « لا . لا . لا . إن عندنا شيئاً ينبغي أن ننجزه . »

— « ألا تزال تقول لا ؟ »

واصطنع ماريوس نبرة وقوراً :

— « أوكد لك ، يا كوزيت ، ان هذا مستحيل . »

— « آه ، انت تتكلم بلهجة الرجال ، يا سيدي . حسن جداً ،

سوف اذهب . وانت يا ابي ، انك لم تنتصر لي . سيدي الوالد ،

سيدي الزوج ، انتما طاغيتان . سوف اشكوكما إلى جدي . إذا كنتما

تحسبان أنني سأعود وأخوض معكما في شيء من الهراء تكونان مخطئين .

أنا فخور . سوف انتظركما الآن . ولسوف تريان انكما اللذان ستعبان

بدوني . أنا ذاهبة ، حسن جداً . »

ومضت لسييلها .

وبعد ثابنتين فتح الباب من جديد ، واطل وجهها كرة اخرى من بين مصراعيه ، وصاحت قائلة لهما :

— « أنا غاضبة جداً . »

وأغلق الباب ثانية ، وعادت الظلمة .

كانت اشبه بشعاع تائه اخترق الليل فجأة من غير ان يتوقعه احد :
وتثبتت ماريوس من ان الباب محكم الايصاد :

وغمغم :

— « مسكينة كوزيت ! حين تعلم ... »

وعند هذه الكلمات ارتعدت اوصال جان فالفجان كلها . وسدد إلى

ماريوس عيناً مشدودة .

— « كوزيت ! آه ، اجل ، هذا صحيح ، انت سوف تخبر

كوزيت بهذا . قف ، أنا لم افكر في ذلك . ان لنا القوة على شيء ما »

ولكن ليست لنا القوة على شيء آخر . سيدي ، انا اتضرع اليك ، أنا

اتوسل اليك ، يا سيدي ، ان تعاهدني باقدس ما عندك ان لا تعلمها

بذلك . اليس يكفي ان تعرفه انت ؟ إن في استطاعتي ان اقول ذلك

بطوعي من غير ان اكون مكرهاً عليه ، وان أعلنه على الكون ، على

الناس جميعاً ، فليس في هذا ما يضيرني . ولكن هي ، إنها لا تعرف

ما ذاك ، ان ذلك خليك به ان يروعاها . محكوم بالاشغال الشاقة ، ماذا !

سوف يتعين عليك ان تشرح ذلك لها ، ان تقول لها : إنه رجل كان

حبساً في سجن الاشغال الشاقة . لقد رأت قافلة المحكوم عليهم بالاشغال

الشاقة ذات يوم . اوه ، يا الهي ! »

وارتمى في احد الكراسي ذوات الذراعين ، وحجب وجهه بكلتا

يديه . لم يكن في ميسور المرء ان يسمعه ، ولكن كان في ميسوره ان

يرى ، من اهتزاز منكبيه ، انه كان يبكي . ان الدموع الصامتة دموع

فضيحة .

إن ثمة اختناقاً في النحيب . واستبد به ضرب من التشنج ، وانقلب على ظهر الكرسي ذي الذراعين وكأنه كان يلتمس النفس ، تاركاً ذراعيه متدليان ، ومجيزاً للماريوس أن يرى وجهه مغسولاً بالعبرات . وسمعته ماريوس يغمغم في جرس خفيض إلى درجة بدا معها وكأن صوته ينبعث من عمق لا قرار له : « أوه ، ليتني أموت ! »
فقال ماريوس :

— « كن هادئاً ، سوف أحتفظ بسرك ولن أطلع عليه احداً . »
لعل ماريوس كان أقل انعطافاً مما كان ينبغي له ، ولكنه وجه نفسه خلال ساعة مضت مضطراً إلى أن يروض ذاته على مفاجأة رهيبة ، وقد رأى ، شيئاً فشيئاً ، رجلاً أشغالياً يوضع أمام عينيه فوق مسيو فوشلوفان . واستحوذت عليه شيئاً فشيئاً ، هذه الحقيقة المشؤومة ، وقادته نزعة المرقف الطبيعية إلى أن يحدد الشقة التي اخذت تفصل ما بينه وبين هذا للرجل . واضاف ماريوس :

— « من المتعذر علي أن لا أقول لك كلمة عن الوديعة التي أعدتها في كثير من الاخلاص والأمانة . انه عمل من اعمال الصلاح . ومن العدل أن تقدم اليك مكافأة على ذلك . حدد المبلغ بنفسك بدفع اليك . لا تخش أن تحدده على نحو مرتفع جداً . »

فأجاب جان فالجان في رقة :

— « أنا اشكرك ، يا سيدي . »

وظل مستغرقاً في التفكير لحظة ، مُمرّاً طرف سبابته فوق ظفر إبهامه على نحو آلي ، ثم رفع صوته :

— « لقد انتهى كل شيء تقريباً . بقيت مسألة واحدة ... »

— « ماذا ؟ »

لكنما عرف جان فالجان تردداً أخيراً . وتلجلج — ولا نقول قال —

في غير صوت ، بل ومن غير تنفس تقريباً :
- « والآن ، وقد أصبحت تعرف ، هل تظن يا سيدي - وأنت صاحب الأمر - انه يتعين علي ان لا أرى كوزيت كرة اخرى ؟ »

فأجاب ماريوس في برود :
- « أعتقد ان هذا هو الأفضل . »

وتمتم جان فالجان :
- « أنا لن اراها بعد اليوم . »

ومضى نحو الباب .
ووضع يده على تفاحة الباب ، وأذعن لسانُ القفل ، وانفرج الباب
بعض الشيء ، ففتحه جان فالجان حتى يكون في ميسوره اجتيازه ،
ووقف لحظة من غير حراك ، ثم أوصد الباب ، والتفتست إلى
ماريوس .

انه لم يعد شاحب الوجه ، لقد غدا ازرق ضارباً إلى السواد . لم يبق
ثمة دموع في عينيه ، ولكن ضرباً من اللهب الفاجع . كان صوته قد
أسمى ، كرة اخرى ، هادئاً إلى حد غريب .
وقال :

- « ولكن ، يا سيدي ، سوف أعود - إذا أجزت لي ذلك - لكي
أراها . أوكد لك أنني حريص على هذا أشد الحرص . ولو لم أكن
متشبهاً بروية كوزيت لما اقررت بالاعتراف الذي قمتُ به ، لو لم أكن
متشبهاً بذلك لمضيت لسبيلي . ولكن رغبتني في البقاء حيث تحيا كوزيت
وفي الاستمرار في رؤيتها ، هي التي حملتني على ان أخبرك ، في اخلاص ،
بكل شيء . انت تتابع تفكيري ، اليس كذلك ؟ ان ذلك شيء يفسر
نفسه بنفسه . انت ترى ، أنها كانت ، طوال تسع سنوات مضت ،
إلى جانبي ، لقد عشنا باديء الأمر في ذلك البيت العتيق القائم على
الجادة ، ثم في الدير ، ثم قرب حديقة اللوكسمبورغ . وهناك رأيتها

انت للمرة الأولى . انت تذكر قبعتها الزرقاء المصنوعة من نسيج ذي وبر .
ثم عشنا بعد ذلك في حي الانفاليد حيث كان باب حديدي وحديقة .
شارع بلوميه . لقد قطنت في فناء خلفي صغير حيث كنت اسمع عزفها
على البيان . تلك كانت حياتي . اننا لم نفرق البتة . ودام ذلك تسع
سنوات وبضعة اشهر . كنت مثل ابيها ، وكانت هي ابنتي . انا لا ادري
ما اذا كنت تفهمني ، ايها السيد بونغيرسي ، ولكن من العسير علي ان
لا اراها البتة منذ اليوم ، ان لا اتحدث اليها بعد ، أن أحرم كل شيء
بالكلية . وإذا لم تجد في ذلك سوءاً ، فسوف أجيء ، بين الفينة والفينة ،
لأرى كوزيت . انا لن اكرر من التردد عليكم . ولن اطليل المكث
عندكم . قد تقول لاني ينبغي ان أستقبل في الحجرة الصغيرة السفلى .
في الدور الاسفل . اني مستعد لأن ادخل من الباب الخلفي ، المخصص
للخدم ، ولكن ذلك قد يثير الاستغراب . من الافضل ، في ما أعتقد ،
ان ادخل من الباب العادي . صدقي ، يا سيدي ، انا ما زلت محتاجاً
إلى ان ارى كوزيت . ان اراها نادراً إلى الحد الذي ترغب فيه . ضع
نفسك مكاني ، إنها كل ما أملك . وإلى هذا فان علينا ان نأخذ حذرنا .
إذا انقطعت عن المجيء انقطاعاً كاملاً ، ترك ذلك اثراً سيئاً ، وخليق
به ان يُعتبر ظاهرة غريبة . ان ما يستطيع ان أفعله ، مثلاً ، هو ان
اجيء في المساء ، عند هبوط الليل . »

فقال ماريوس :

« انك سوف تأتي كل مساء . ولسوف تنتظرك كوزيت . »

فقال جان فالجان :

« انت رجل كريم ، يا سيدي . »

وانحنى ماريوس لجان فالجان ، وقادت السعادة اليأس إلى الباب ،
وافترق هذان الرجلان .

الظلمات التي قد ينطوي عليها افشاء السر

كان ماريوس يستشعر قلقاً بالغاً .

لقد وجد ، الآن ، تفسيراً لتلك النفرة التي طالما احس بها نحو الرجل الذي رآه مع كوزيت . كان ثمة شيء لغزّي غريب في هذا الشخص الذي سبق لغريزته ان حذرته منه . وكانت تلك الاحجية هي أبشع ضروب الخزي : سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . إن مسيو فوشوفان هذا كان هو الاشغالي جان فالجان .

إن وقوع المرء فجأة ، وهو في غمرة السعادة ، على مثل هذا السر ، اشبه باكتشاف عقرب في عش قماريّ .

هل فرض على سعادة ماريوس وكوزيت ، منذ اليوم ، ان تخضع لهذا الجوار ؟ أكان ذلك امراً واقعاً ؟ اكان قبول ذلك الرجل يشكّل جزءاً من الزواج الذي تم ؟ ألم يكن ثمة ما يُعمل ؟

هل تزوج ماريوس الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة أيضاً ؟ فغير مُجند ان تُتوّج بالضياء وبالبهجة ، وغير مجد ان تنعم بلحظة الحياة الارجوانية الملوكية ، الحب السعيد . مثل هذه الصدمات تستطيع ان تُكره حتى كبير الملائكة في نشوته الروحية ، وحتى نصف الاله في مجده ، على الارتعاد .

وكالذي يحصل دائماً في مثل تبادل الرأي هذا ، سأل ماريوس نفسه اليس ثمة تأنيب ينبغي ان يوجّه اليه هو ؟ أكان يعوزه حسن التكهن ؟ اكان يعوزه التبصر ؟ هل أصابه الانشده على نحو غير إرادي ؟ قليلاً ،

ربما . هل ولج - من غير ما احتياط كافٍ لالقاء الضوء على المناطق المجاورة - هذه المغامرة الغرامية التي انتهت إلى الزواج من كوزيت ؟ وقرر - وهكذا - مثل هذه القرارات المتعاقبة التي تتخذها بانفسنا في ما يتصل بانفسنا تسمو بنا الحياة شيئاً بعد شيء - قرر الجانب الخيالي من طبيعته ، الجانب المأخوذ بالآوهام ، وهو ضرب من السحابة الباطنية الملزمة لبعض الطبائع ، والتي تنبسط في ذروة الانفعال والالم - حين تتغير حرارة الروح - وتحتاج الانسان اجتياحاً كاملاً ، إلى حد يحمله إلى مجرد وعي مندّى بالضباب . ولقد اشرنا غير مرة إلى هذا العنصر المميز من عناصر شخصية ماريوس . لقد تذكر أنه - في نشوه حبه ، في شارع بلوميه ، خلال تلك الاسابيع الستة أو السبعة الحاملة - لم يتحدث إلى كوزيت ، ولو مجرد حديث ، عن مأساة بيت غوربو الحقيق حيث اعتصم المعتدى عليه بالصمت ، على نحو غريب ، اثناء الصراع ، ولاذ بالفرار في ما بعد . كيف تأتت له ان لا يتحدث إلى كوزيت عن ذلك ؟ ومع هذا ، فقد كان ذلك غريباً جداً ، ورهيباً جداً . كيف تأتت له ان لا يذكر أمامها اسم تينارديه واهله ، ولو مجرد ذكر ، وبخاصة في ذلك اليوم الذي التقى فيه ايونين ؟ لقد وجد الآن عسراً بالغاً في ان يفسر لنفسه صمته السابق . ومع ذلك فقد وجد مبرراً له . لقد ذكر دُواره ، وشمه بكوزيت ، وقد استغرق الحب كل شيء ، ورفع كل منهما الآخر إلى مقام المثل الاعلى ، وربما ايضاً - فيما يمتزج مقدار العقل اللامدرك بهذه الحالة العنيفة الفاتنة من حالات النفس - تلك الغريزة الغامضة الكلية التي حفزته إلى أن يخشى ويلغي في ذاكرته هذه المسألة الرهيبة التي كان يخشى ان يمسه ، والتي لم يشأ ان يلعب فيها اي دور ، والتي تملص منها ، والتي لم يكن يستطيع ان يكون فيها لا راوية ولا شاهداً مسن غير أن يكون متهماً . وإلى هذا ، فتلك الاسابيع القليلة لم تكن غير ومضة ، لم يكن لذيها مجال لاي شيء ، غير الحب . واخيراً ، إذا

ما وزن كل شيء ، وقلبه ، ودرسه ، ما النتائج التي كان يمكن ان تنشأ لو اخبر كوزيت بقصة كمين بيت غوربو العتيق وذكر امامها اسم تيناردييه وأهله ؟ وحتى لو انه اكتشف ان جان فالجان محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، أكان ذلك يغيره هو ، ماريوس ؟ اكان ذلك يغيرها هي ، كوزيت ؟ اكان يرتد على عقبيه ؟ اكان يعترى حبه لها ضعف أو وهن ؟ اكان يتردد في الزواج منها ؟ لا . واذن فليس ثمة ما يوجب الاسف ، وليس ثمة ما يواخذ نفسه عليه ؟ كان كل شيء حسناً . ان هناك رباً لهؤلاء السكرين الذين ندعوهم العشاق . وهكذا فان ماريوس كان قد سلك ، في عماء ، تلك الطريق التي كان خليقاً به ان يختارها لو قدّر له ان يراها بوضوح . كان الحب قد عصب عينيه — ليقوده إلى أين ؟ إلى الجنة .

ولكن هذه الجنة كانت معقدة ، منذ اليوم ، بمصاحبة جحيمية . إن نفرة ماريوس السابقة من هذا الرجل ، من فوشلوفان هذا الذي أمسى جان فالجان ، غدت الآن ممزوجة بالرعب . وفي رعبه — كما يتعين علينا ان نقول — كان شيء من الشفقة ، وكان شيء من الدهش أيضاً . كان هذا السارق ، هذا السارق المحكوم عليه مرتين بالاشغال الشاقة ، قد أعاد وديعة . وأية وديعة ؟ ستمئة الف فرنك . كان هو وحسده مطلعاً على سر تلك الوديعة . كان في امكانه ان يحتفظ بهذا المال كله ، ولكنه أسلمه كله .

وإلى هذا ، فقد كان قد كشف القناع عن وضعه مختاراً . ان شيئاً لم يكن يكرهه على ان يفعل ذلك . واذا كان ثمة من يعرف هويته فهو مدين بهذه المعرفة اليه هو . لقد كان في ذلك الاعتراف شيء أكثر من قبول الاذلال ، كان فيه قبول الخطر . فالقناع ، عند الرجل الصادر فيه حكم قضائي ، ليس قناعاً ؛ إنه ملاذ . لقد تخلى عن ذلك الملاذ .

والاسم الزائف أمن ؛ ولقد اطرّح هذا الاسم الزائف . لقد كان في استطاعته ، وهو الأشغالي ، ان يخفي نفسه إلى الابد في اسرة شريفة ؛ ولكنه قاوم هذا الاغراء . وبأي دافع ؟ بدافع من تردد الضمير . لقد شرح بنفسه هذه المسألة بنبرة الحقيقة التي لا تقاوم . وباختصار ، فأياً ما كان جان فالجان هذا فقد كان له ضمير يقظ من غير شك . كان فيه اعادة اعتبار خفية مستهكة ؛ والسذي يسدو ، تبعاً لجميع المظاهر ، ان الضمير كان سيد هذا الرجل منذ زمن بعيد . ان مثل هذا الأفراط في العدالة والطيبة ليس من شيمة الطبائع الوضيعة . ويقظة الضمير لا تعدو ان تكون عظمة النفس .

كان جان فالجان مخلصاً . وهذا الاخلاص ، المرثي ، الملموس ، الذي لا يحتمل الشك ، الواضح حتى بالآلام التي انزلها به ، جعل البحث والتحقيق عديمي الجدوى ، وخلع الثقة على ما قاله هذا الرجل . وهنا عرف ماريوس عكساً غريباً للأوضاع . ما الذي اثبت من مسيو فوشلوفان ؟ الحذر . ما الذي تدفق من جان فالجان ؟ الثقة .

في هذه الميزانية الخفية التي وضعها ماريوس بكثير من الروية ، في ما يتصل بجان فالجان هذا ، تثبت مما له ، وتثبت مما عليه ، وحاول ان يصل إلى موازنة . ولكن ذلك كله كان وكأنه وسط إعصار . إن ماريوس - وقد حاول ان يكون فكرة جليلة عن هذا الرجل ، ولاحق حان فالجان ، إذا جاز التعبير ، في أعماق تفكيره - قد ضيعه ثم وجده كرة اخرى في ضباب مشووم .

كان رد الوديعه في أمانة ، وكان الاعتراف التزيه الظاهر يرشحان بالخير . كانا أشبه بانقشاع في سحابة . ولكن السحابة ما لبثت ان عادت سوداء من جديد .

وعلى الرغم من شدة الاختلاط في ذكريات ماريوس فان ظلاً منها عاوده .

ما كانت على وجه الضبط مغامرة مسكن جوندريت الحقيق تلك ؟
لماذا عمد ذلك الرجل ، لدن وصول الشرطة ، إلى الفرار بدلاً من ان
يشكو أمره إلى رجال الأمن ؟ هنا وجد ماريوس الجواب . لأن هذا
الرجل كان هارباً من وجه العدالة .

وسؤال آخر : لماذا جاء هذا الرجل إلى المتراس ؟ ذلك ان ماريوس
رأى الآن تلك الذكري في وضوح ، بعد ان عاودت الظهور وسط
هذه الانفعالات كالجبر العادم اللون أمام النار . لقد كان هذا الرجل
في المتراس . إنه لم يقاتل هناك . ما الذي جاء به اذن ؟ امام هذا
السؤال انتصب شبح ، وقدم جواباً . جافير . لقد تذكر ماريوس أحسن
التذكر ، في هذه الساعة ، مشهد جان فاليجان المأتمى وهو يقود جافير
موثقاً إلى خارج المتراس ، وسمع من جديد دوي الغدارة المروع خاف
زاوية زقاق مونديتور . لعله كان ثمة كراهية بين هذا الجاسوس وهذا
الاشغالي . كان احدهما يعوق الآخر . كان جان فاليجان قد قصد إلى
المتراس لكي يثأر لنفسه . وكان قد وصل متأخراً . ولعله كان يعرف ان
جافير كان اسيراً هناك . كانت نزعَة الثأر الكورسيكي * قد تسربت إلى
بعض الاعماق السفلى ، وغدت قانوناً لها . وهي نزعَة طبيعية جداً بحيث
لا تثير دهش النفوس نصف المرتدة نحو الخير . وهذه القلوب قد
رُكبت على نحو قد يجعل المجرم ، الآخذ سبيله إلى التوبة ، متعففاً عن
اللصوصية ، ولكنه غير متعفف عن الثأر . كان جان فاليجان قد قتل
جافير . هذا ، على الأقل ، ما بدا واضحاً .

واخيراً ، سؤال ختامي ، ولكن لم يكن ثمة جواب عن هذا السؤال .
لقد احس ماريوس بهذا السؤال وكأنه كُلابَة . كيف اتفق لوجود جان
فاليجان ان لازم كوزيت هذه الفترة الطويلة كلها ؟ ايّ قدر غامض من

* حالة من المداورة يتبع نطقها في كورسيكا حتى تشمل جميع افراد الأسرة اثر
عدوان او قتل يتعرض له احد المنتسبين الى تلك الاسرة . (Vendette corse)

من اقدار العناية الالهية وضع هذه الطفلة على اتصال مستمر بهذا الرجل ؟ هل السلاسل المزدوجة القارئة تُطَرَّق اذن في الأعالي أيضاً ، وهل يرضى الرب ان يجمع ما بين الملاك والشیطان ؟ هل في استطاعة الجريمة والبراءة اذن أن تعيشا تحت سقف واحد في سجن الشقاء الخفي ؟ وفي مضيق الیُمدانین هذا ، الذي ندعوه القدر البشري ، هل يستطيع جينان ان يتقاربا حتى التماس ، وأحدهما ساذج والآخر رهيب ، وأحدهما مندئی بياض الضحی الالهي والآخر شاحب إلى الابد بهوج برق ازلي ؟ من الذي استطاع ان يقرر هذا الاقتران الذي لا تفسير له ؟ بأي طريقة ، ومن خلال اية اعجوبة أقيمت وحدة الحياة بين هذه الطفلة السماوية وهذا البائس العجوز ؟ من الذي تمكن من ان يشد الحمل إلى الذئب وان يشد الذئب - وهو شيء اشد امتناعاً على التفسير - إلى الحمل ؟ ذلك ان الذئب احب الحمل ، ذلك ان الكائن الضاري قدس الكائن الضعيف ، ذلك ان الملاك كان - طوال تسع سنوات - يتخذ من الهولة سناداً . كانت طفولة كوزيت وصباها ، ورؤيتها النور ، ونموها البتولي نحو الحياة والضياء مصونة بهذا التفاني الشائه الرهيب . هنا تقشرت الاسئلة - إذا جاز التعبير - عن احاجي لاحتصر لها ، وانفتحت الهوى في اعماق الهوى ، ولم يعد في ميسور ماريوس ان ينحني فوق جان فالجان من غير ان يصيبه الدوار . فأی شيء ، اذن ، كان هذا الرجل الهوة ؟

إن رموز سفر التكوين القديمة سرمدية . ففي المجتمع البشري ، كما هو اليوم وكما سيكون ، حتى ذلك اليوم الذي سوف يغيره فيه ضياء اعظم ، يوجد دائماً رجلان ، أحدهما فوقی ، والآخر تحتي . فأما الذي يتبع الخير فهو هابيل ، وأما الذي يتبع الشر فهو قايين . من كان هذا اللص المستغرق على نحو تقوي في حب فتاة عذراء ، والسهر عليها ، وتنشيتها ، وحمايتها ، وتبجيلها ، واحاطتها - وهو غير الطاهر -

بالطهر ؟ من كان هذا البالوعة الذي أجلّ هذه البراءة إلى حد جعلها خلواً من أية شائبة ؟ من كان جان فالجان هذا المشرف على تثقيف كوزيت ؟ من كانت شخصية الظلام هذه التي لم يكن لها من همّ غير ان تقي ، من كل ظلمة وكل سحاب ، طلوع كوكب من الكواكب ؟ ههنا كان سر جان فالجان ، وههنا أيضاً كان سر الله .

وأمام هذا السر المزدوج ، ارتد ماريوس . إن احدهما طمأنه ، بطريقة ما ، في ما يتصل بالآخر . كان الله منظوراً في هذه المغامرة بقدر ما كان جان فالجان منظوراً . إن لله ادواته . وهو يصطنع الآداة التي تروق له . إنه غير مسؤول تجاه الانسان . هل نعرف اساليب الله ؟ كان جان فالجان قد وقف جهوده على كوزيت . كان قد شكّل ، إلى حد ما ، تلك النفس . هذا شيء لم يكن يحتمل الجدل . ولكن ، ثم ماذا ؟ كان الصانع رهيئاً ، ولكن الأثر كان رائعاً . ان الله يجترح معجزاته على النحو الذي يبدو له صالحاً . كان قد أنشأ كوزيت الفاتنة هذه ، وكان قد اصطنع جان فالجان في ذلك . لقد سره ان يصطفي هذا المعاون الغريب . ايّ حساب نستطيع ان نطلبه منه ؟ أهى المرة الأولى التي نرى فيها المذبلة تساعد الربيع على تكوين الوردة ؟

وقدم ماريوس هذه الأجوبة إلى نفسه ، وتبين له انها صالحة . وفي جميع النقاط التي اشرنا اليها اللحظة لم يجروء على ان يلجّ على جان فالجان في السؤال ، من غير أن يعترف لنفسه بأنه لا يجروء . كان يعبد كوزيت ، وكان يملك كوزيت . وكانت كوزيت طاهرة على نحو رائع . وكان ذلك حسبه . فألى أي تفسير كان يحتاج ؟ كانت كوزيت ضياء . وهل يحتاج الضياء إلى شرح ؟ كان يملك كل شيء ، ففي اي شيء يطمع بعد ؟ اليس يكفيه هذا الكل ؟ إن شوون جان فالجان الشخصية لم تكن تعنيه . وفي انحائه فوق ظل هذا الرجل المشووم ، كان يتشبث

بهذا الاعلان المهيّب الذي أطلقه ذلك المخلوق البائس : « أنا لا أمت
إلى كوزيت بنسب . منذ عشر سنوات ، لم أكن اعرف
بوجودها . »

كان جان فالجان عابر سبيل . لقد قال هو نفسه ذلك . حسن ،
ولقد كان يمضي لسبيله . فأياً ما كان هذا الرجل ، فان دوره قد انتهى .
لقد كان على ماريوس ان ينهض ، منذ اليوم ، باعباء العناية الالهية نحو
كوزيت . وكانت كوزيت قد أقبلت لتجد في اللازورد ، كرة اخرى ،
نظيرها ، وحييها ، وزوجها ، ورجلها السماوي . لقد تركت كوزيت ،
وقد طارت بمنحة متسامية ، يفعتها * ، جان فالجان ، فارغة رهبة
على الارض .

وفي ايما حلقة من الافكار دار ماريوس ، كان يرتد منها دائماً وفي
نفسه ذعراً ، من جان فالجان . ولعل ذلك الذعر كان ذعراً مقدساً
إذ كان يستشعر كما قلنا منذ لحظة « شيئاً مقدساً » *quid divinum* في هذا
الرجل . ولكنه مهما عمل ، ومهما التمس من تلطيف ، كان مضطراً
دائماً إلى الوقوع على هذا : لقد كان اشغالياً محكوماً عليه بالسجن ،
يعني ذلك المخلوق الذي ليس له في السلم الاجتماعية ، مكان ما
بوصفه تحت آخر درجة من درجات تلك السلم . فبعد احط الناس
يجيء المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . إن الاشغالي لم يعد ، إذا جاز التعبير ،
نظير الاحياء . لقد حرمه القانون كل ذلك القدر من الانسانية الذي يستطيع
نزعه من إنسان ما . ففسي المسائل الجزائية ، كان ماريوس — على الرغم
من نزعه الديمقراطية — لا يزال متشبهاً بالنظام الذي لا يعرف الرحمة ،
وكان يحمل في ما يتصل باولئك الذين يضرهم القانون افكاراً القانون
كلها . إنه لم يكن قد اعتنق بعد — ولنقل ذلك — جميع الفكرات

* اليفعة *Chrysalide* أو *Chrysalis* في علم الاحياء هي الحادرة *pupa* او القشرة
الصلبة التي تغلف الحشرة قبل ان تصبح فراشة .

التقدمية . لم يكن قد انتهى بعد إلى التمييز بين ما كتبه الانسان وما كتبه الله ، بين القانون والحق . إنه لم يدرس ولم يزن قط ذلك الحق الذي ينتحله الانسان للتخلص مما لا يُردّ ومما لا سبيل إلى التعويض عنه . إنه لم يثر على كلمة الانتقام . كان يرى طبيعياً أن تُتبع بعض المخالفات للقانون المكتوب بعقوبات سرمدية ، ولقد اعتبر الهلاك الابدي الاجتماعي طريقة من طرائق الحضارة . كان لا يزال عند تلك النقطة ، وكان لا بد له من ان يتقدم في ما بعد ، بحكم طبيعته الخيرة ، المكونة في أعماق اعماقها من تقدم كامن .

من وسط هذه الفكرات برز له جان فالجان شائهاً مقيتاً . كان المنبوذ . كاني المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . كانت هذه الكلمة أشبه عنده بآخر نفخة في صور يوم الحساب . وبعد أن تأمل في جان فالجان فترة طويلة انتهى إلى ان يشيح بوجهه عنه *Vade retro* .

وينبغي أن نذكر بل ان نلج في التذكير ان ماريوس — على الرغم من استجوابه جان فالجان إلى حد جعل جان فالجان يقول له : أنت تطلب مني اعترافاً — لم يكن قد وجه اليه سؤلين حاسمين أو ثلاثة اسئلة حاسمة . وليس ذلك لأن هذه الاسئلة لم تتمثل في ذهنه ، ولكن لأنه كان خائفاً منها . مسكن جوندريت الحقيق ؟ المتراس ؟ جافير ؟ ومن يدري أين يمكن للاسرار المهتوكة السر ان تقف ؟ ان جان فالجان لم يكن ، في ما يبدو ، ذلك الرجل الذي يعرف الانكفاء . ومن يدري ، فقد يرغب ماريوس في كبسح جان فالجان بعد ان يكون هو قد ألحف عليه في السؤال ؟ ألم يتفق لنا جميعاً ، في بعض الظروف ، أن وضعنا اصابعنا في آذاننا — بعد ان طرحنا سؤالا ما — خشية أن نسمع الجواب ؟ وهذا الجبن يستحوذ علينا ، خاصة ، حين نعشق . فليس من الحصافة أن نغالي في السؤال عن الحالات المشوومة ، وعلى الخصوص حين يكون ذلك الجزء اللامنحل من حياتنا نحن ممتزجاً بها امتزجاً محتملاً . ان بعض

الضوء الرهيب قد ينبثق من شروح جان فالجان اليائسة ، ولكن من الذي يضمن له ان لا ينعكس هذا النور المخيف على كوزيت نفسها ؟ ومن يكفل له ان لا يبقى ضرب من الوهج الجحيمي على جبين ذلك الملاك ؟ ان رشاش البرق ليس خلواً من الرعود . فلأقذار مثل هذا التكافل ، حيث تنطبع البراءة نفسها بالجريمة بحكم القانون الكالغ الخاص بالانعكاسات الملوثة . ان أظهر الوجوه قد تحتفظ إلى الأبد بالانعكاسات جوار رهيب . كان ماريوس خائفاً ، سواء أكان في ذلك على خطأ أم على صواب . لقد انتهى إلى أن يعرف ، حتى الآن ، أكثر مما ينبغي . وكان يلتمس التعمية على نفسه أكثر مما يلتمس تنويرها . لقد حمل كوزيت ، في وكره ، بين ذراعيه ، مغمضاً عينيه عن جان فالجان . كان ذلك الرجل من الليل ، من الليل الحيّ القظيع . كيف يجرؤ على سبره حتى القمر ؟ إن استجواب الظلمة لرهيب . فمن يسدري ما الجواب الذي تصدر عنه ؟ إن الفجر قد يسود من جرائه إلى الأبد .

في هذه الحال النفسية كان مما يقلق ماريوس إلى حد مرير ان يفكر في ان هذا الرجل سوف يكون له ، منذ اليوم ، اتصال مهما يكن بكوزيت . وهذه الاسئلة المروعة ، التي سبق له ان ارتد أمامها ، والتي كان من الجائز ان ينبثق منها قرار حاسم حقود ، اخذ الآن يعتسف نفسه ، أو يكاد ، لعدم طرحه اياها . لقد حسب نفسه طيباً أكثر مما ينبغي ، لينأ أكثر مما ينبغي ، ضعيفاً - ولنقل اخيراً الكلمة - أكثر مما ينبغي . هذا الضعف كان قد قاده إلى تسليم غير حصيف . لقد اجاز لنفسه بأن تتأثر . ولقد اخطأ في ذلك . كان عليه ان يتبد جان فالجان في بساطة . كان جان فالجان أشبه شيء بذلك المتاع الذي يُترك للحريق انقاذاً للباقي ، ولقد كان عليه ان يخلص البيت من هذا الرجل . واغتاظ من نفسه . اغتاظ من عنف ذلك الاعصار الانفعالي الذي أصمّه ، وأعماه ،

وقاده . كان ناقماً على نفسه .

ما الذي يجب ان يصنع الآن ؟ كانت زيارات جان فالجان بغیضة اليه . اي فائدة لذلك الرجل في هذا البيت ؟ اي شيء ينبغي له ان عمله ؟ وتشاغل عن ذلك ؛ لانه لم يكن راغباً في التنقيب ، لم يكن راغباً في ان يذهب إلى أعماق . كان قد وعد ، كان قد أجاز لنفسه ان يساق إلى إعطاء وعد . لقد فاز جان فالجان بوعده منه . وحتى مع محكوم عليه بالاشغال الشاقة ، بل مع المحكوم عليه بالاشغال الشاقة على وجه خاص ، يتعين على المرء ان يفي بالوعد . ومع ذلك ، فقد كانت كوزيت هي واجبه الأول . وعلى الجملة ، فقد استبد به تقزز غلب على كل شيء آخر .

وقلب ماريوس كل هذه المجموعة من الأفكار في ذهنه تفليساً مشوشاً ، منتقلاً من واحدة إلى أخرى ، مُثاراً بها جميعاً . ومن هنا ذلك الاضطراب العميق . ولم يكن يسيراً عليه ان يخفي ذلك الاضطراب عن كوزيت ، ولكن الحب موهبة ، ولقد وُفق ماريوس إلى ذلك . وإلى هذا فقد طرح ، من غير ما هدف واضح ، بعض الاسئلة على كوزيت ، التي كانت سليمة الطوية بقدر ما تكون الحماة بيضاء ، فلم ترتب في شيء . لقد تحدث معها عن طفولتها وعن صباها ، واقنع نفسه اكثر فاكثر بأن هذا الاشغالي وقف من كوزيت اطيب موقف يستطيع ان يقفه انسان ، واكثره حُفولا بالابوة والاحلال . كان كل ما رآه ماريوس على نحو باهت وكل ما حدس به حقيقياً . كان ذلك القُرْاص الكالـح قد أحب هذه الزنقة وحماها .

الكتاب الثامن

شجوب والغسق

١

الحجرة السفلية

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، قرع جان فالجان باب العربات من منزل جيلنورمان . واستقبله باسك . لقد اتفق ان كان باسك في الفناء في الوقت المناسب ، وكأنما كان هناك نزولا عند أمر صادر اليه . فقد يتفق في بعض الاحيان ان يقول امرؤ لخدام : ترقب السيد الفلاني ، فاذا به يجيء .

ومن غير ان ينتظر وفود جان فالجان عليه ، خاطبه باسك قائلا :
— « لقد كلفني سيدي البارون ان اسأل السيد أيرغب في الصعود إلى

الدور الأعلى أم في البقاء تحت ؟ »

فأجابه جان فالفجان :

— « سوف أبقى تحت . »

وفتح باسك ، الذي كان في ما عدا ذلك ناضحاً باحترام مطلق ،
باب الحجرة السفلية ، وقال :

— « سوف اخبر السيدة . »

كانت الغرفة التي ولجها جان فالفجان حجرة تحتية رطبة ذات عقود ،
وكانوا يتخذون منها سرّاً عند الحاجة . كانت تطل على الشارع ، مفروشة
ببلاط احمر ، ومضاءة على نحو قاتم بنافذة ذات شبّابة حديدية .
ولم تكن الحجرة من تلك الحجرات التي تُزرع كثيراً بالفرشاة ،
والمنفضة ، والمكنسة . كان الغبار مستقراً فيها . هناك لم يكن اضطهاد
العناكب قد نُظّم بعد . وكان يزين احد الواح النافذة الزجاجية نسيج عنكبوت
جميل ، منبسط انبساطاً فسيحاً ، نسيج اسود فاحم مزدان بذباب ميت
وكانت الحجرة الصغيرة المنخفضة ، مؤنثة بركام من الزجاجات الفارغة
كدست في احدى الزوايا . وكان الجدار قد طلي بطلاء بلون المغرة
الصفراء كان قد اخذ يتقشر صفائح صفائح . وفي اقصى الحجرة كان
موقد خشبي ، دُهن باللون الأسود ، ذو رف ضيق . كانت النار قد
أضرمت ، مما يدل على ان شخصاً ما ، كان قد توقع جواب جان فالفجان :
« سوف ابقى تحت . »

كان كرسيان من الكراسي ذوات الأذرع قد وُضعا عند زاويتي الموقد .
وبين الكرسيين امتد ، بدلا من السجادة ، بساط صغير من بُسط النوم ،
بساط تكشف عن أمراس اكثر مما تكشف عن صوف .
كانت الحجرة مضاءة بالنار المضربة في الموقد ، وبضوء الغسق المنبعث
من النافذة .

وكان جان فالفجان متعباً . إنه لم يعرف ، منذ بضعة أيام ، لا طعاماً

ولا رقاداً . وارتمى في واحد من الكرسيين ذوّي الأذرع .
ورجع باسك ووضع شمعة مضاءة على الموقد ، وانسحب . ولم
يلاحظ جان فالجان ، المنكس الرأس المسند الذقن إلى اعلى الصدر ، لا
باسك ولا الشمعة .

وفجأة تصدّر مجفلاً . كانت كوزيت خلفه .
إنه لم يرها تدخل ، ولكنه استشعر أنها دخلت .
واستدار . وحقق اليها . كانت جميلة على نحو يفري بالعبادة .
ولكنّ ما تطلّع اليه بتلك النظرة العميقة لم يكن جمالها ولكن
روحها .

وهتفت كوزيت :

— « آه ، هي ذي فكرة ! أبي ، لقد كنت أعلم انك غريب
الاطوار ، ولكني لم اكن اتوقع قط شيئاً مثل هذا . لقد قال لي ماريوس
انك تريد مني ان استقبلك هنا . »

— « اجل ، أنا طلبت ذلك . »

— « لقد توقعت الجواب . حسن ، أنا أحذرك اني سوف اخاصمك .
فلنبداً من البداية . أبي ، قبّلي . »
وقدمت اليه خدها .

وظل جان فالجان جامداً لا يتحرك .

— « أنت لا تتحرك . أنا ارى ذلك . انت تسلك مسلك المتهمين .
ولكن لا بأس ، أنا أصفح عنك . السيد المسيح قال : أدر خدك الآخر .
ها هو ذا . »

وأدارت خدها الثاني .

ولم يتحرك جان فالجان . لقد بدا وكأن قدميه كانتا مسمرتين إلى أرض
الغرفة .

فقالت كوزيت :

— « الأمر أخذ يصبح جدياً . ما الذي فعلته لك ؟ أنا أعلن انسي مرتبكة . يجب عليك ان تصالحني . سوف تتناول طعام العشاء معنا . »
— « لقد تعشيت . »

— « هذا غير صحيح . سوف أطلب من مسيو جيلنورمان ان يوضحك . الاجداد قد جعلوا لتوبيخ الآباء . تعال . اصعد معي إلى حجرة الاستقبال حالا . »
— « مستحيل . »

وهنا تراجعت كوزيت بعض الشيء . وكفّت عن إصدار الأوامر وانتقلت إلى توجيه الاسئلة .

— « ولكن لم لا ؟ وانت تختار أبشع غرفة في المنزل لكي تجتمع بي . ان هذا المكان رهيب . »

— « انت تعرفين ، يا سيدتي ، اني غريب الاطوار . إن لي اهوائي الخاصة . »

وشبكت كوزيت يديها الصغيرتين .

— « سيدتي ! انت تعرفين ! ها أنت تعيد ذلك كرة اخرى . ما معنى هذا ؟ »

وسدد جان فالجان اليها تلك الابتسامة المحزنة التي كان يفرع اليها بعض الاحيان .

— « لقد اردت ان تكوني سيدة . وها انت كذلك . »

— « ليس بالنسبة اليك ، يا أبي ؟ »

— « لا تناديني يا أبي ، بعد اليوم . »

— « ماذا ؟ »

— « ناديني مسيو جان ، أو جان ، إذا شئت . »

— « أنت لم تعد ابي ؟ أنا لم أعد كوزيت ؟ مسيو جان ؟ ما معنى

هذا ؟ ولكن هذه ثورات ، هذه ! ما الذي حدث ؟ انظر اليّ في

وجهي قليلاً . وانت لن تسكن معنا ! أنت لن تأخذ غرفتي ! ما الذي فعلته لك ؟ ما الذي فعلته لك ؟ هل نعمة شيء اذن ؟ »

— « لا شيء . »

— « وإذن ؟ »

— « كل شيء كالمعتاد . »

— « لماذا تغير اسمك ؟ »

— « ولكنك انت غيرت اسمك أيضاً . »

وابتسم من جديد تلك الابتسامة نفسها ، وأضاف :

— « ما دمت السيدة بونميرسي ففي استطاعتي من غير شك ان اكون

مسيو جان . »

— « لست افهم شيئاً من ذلك . هذا هراء كله . سوف اطلب لك

الاذن من زوجي لكي تكون مسيو جان . وآمل ان لا يوافق على ذلك .

انت تسبب لي كثيراً من البلاء . قد تكون لك اهاواك الغريبة ، ولكن

يتعين عليك ان لا توقع الأسى في نفس حبيبتي كوزيت . هذا خطأ . ليس

لك الحق في أن تكون شريراً ، أنت المقعم بالطيبة : »

ولم يجب بشيء .

وأمسكت بكلتا يديه في شدة ورفعتهما ، في حركة لا تقاوم ، نحو

وجهها ، وضغطتهما على عنقها تحت ذقنها ، وتلك علامة عميقة من

علامات المحبة والحنان .

وقالت له :

— « اوه ، كن كريماً ! »

ثم استأنفت كلامها :

— « هذا ما ادعوه الكرم : ان تكون لطيفاً ، ان تنجيء وتسكن

هنا . ونعاود القيام بنزهاتنا الحلوة الصغيرة ، فهنا يوجد طيور كما في

شارع بلوميه ، وان تعيش معنا ، وترك ذلك المسكن الضيق الذي في

شارع الرجل المسلح ، وان لا تعطينا ألبازاً نخلها ، وان تكون مثل
سائر الناس ، وان تتعشى معنا ، وتتناول طعام الصباح معنا ، وان
تكون أبي . »
واطلقت يديه .

— « انت لم تعودي في حاجة إلى أب . لقد أصبح لك زوج . »
وئارت نائرة كوزيت :

— « لم اعد في حاجة إلى أب ! الواقع ان المرء لا يعرف بماذا
يجيب عن هراء مثل هذا ! »
واجاب جان فالفجان ، مثل رجل يبحث عن مستندات ويتعلق
بكل قشة :

— « لو كانت توسين هنا اذن لكنت أول من اعترف بانه كانت
لي دائماً مسالكي الغريبة . ليس في هذا شيء جديد . لقد كنت دائماً
احب زاويتي المظلمة . »

— « ولكن هذه الحجرة باردة . ان المرء لا يرى فيها بوضوح »
وانه لمن المستهجن أيضاً أن ترغب في أن تكون مسيو جان . انا لا أريد
ان تكلمني على هذا النحو . »
فأجاب جان فالفجان :

— « في هذه اللحظة ، وأنا قادم إلى هنا ، رأيت قطعة من أثاث
في شارع سان لويس . عند احد نجاري الابنوس . لو كنت امرأة
جميلة لأهديت نفسي هذه القطعة من الاثاث . نضدُ تزيّن رائع جداً ،
على الزري الحالي . ما تسمونه خشب الورد ، في ما اظن . إنه مرصع .
ومرأة ضخمة إلى حد بعيد . إن له أدراجاً . إنه جميل . »
فأجابت كوزيت :

— « أوه ، يا للدب البشع ! »
وفي ظرافة فائقة ، أطبقت بعض أسنانها على بعض وباعدت ما بين

شفتيها ، ونفخت على جان فالجان . كانت الآهة جمال تقلد هرة .
وقالت :

— « أنا حانقة . منذ البارحة وكلكم تثيرون غضبي . كل امريء
منكم يغيظني . انا لا أفهم . انت لا تنتصر لي على ماريوس . وماريوس
لا ينصرني عليك . لقد أصبحت وحيدة . ارتب حجرةً الطف ترتب .
ولو كان في استطاعتي ان اضع الرب فيها ، لما أحجمتُ . ولكنك ترك
غرفتي مهجورة . إن المستأجر عندي يفلسني . أنا أطلب من نيوليت
تعدّ عشاء شهياً صغيراً ، ولكن احداً لا يريد عشاءك ، يا سيدتي .
وابي فوشلوفان يرغب في أن أدعوه مسيو جان ، وانّ استقبله في سرّ
رهيب ، عتيق ، بشع ، عفن ، حيث للجدران لحية ، وحيث الزجاجات
الفارغة تقوم مقام الكؤوس ، وأنسجة العنكبوت مقام السجف والستائر .
أنت غريب الاطوار ، أنا اسلم بذلك ، وهذه هي طريقتك ، ولكن
من الواجب ان تُمنح هدنة ما إلى الناس حين يتزوجون . ما كان ينبغي
لك ان ترجع إلى اطوارك الغريبة فجأة . واذن فسوف تكون راضياً
كل الرضا في شارعك المقيت ذاك ، شارع الرجل المسلح . لقد كنت
أنا يائسة جداً ، هناك . ماذا تنقم مني ؟ انك تسبب لي كثيراً من
المتاعب . »

وغلب عليها الجذ فجأة ، وسددت نظرها إلى جان فالجان وأضافت :
— « واذن فأنت لا تريد سعادي ؟ »

ان السذاجة تنفذ في بعض الاحيان ، على نحو غير واع ، إلى بعيد
جداً . فهذا السؤال ، البسيط عند كوزيت ، كان قاسياً عند جان فالجان .
لقد ارادت كوزيت ان تحدش ، ولكنها مزقت .

وشحب وجه جان فالجان . واعتصم بالصمت لحظة ، ثم غمغم مخاطباً
نفسه في نبرة لا سبيل إلى وصفها :

— « لقد كانت سعادتُها هي هدف حياتي . والآن ، قد يوميء الله

الى بالانصراف . كوزيت ، انت سعيدة ، لقد انتهت مهمتي . »
وهتفت :
- « آه ، لقد خاطبني بضمير المفرد ! »
ووثبت إلى عنقه .
وفي وله ، ضمها جان فالجان إلى صدره ، ضمّاً محمواً . لقد
ترأى له أنه كاد يستردها من جديد .
وقالت كوزيت له :
- « شكراً لك ، يا أبي ! »
كان الجدل قد أمسى مُمضاً لجان فالجان . وفي لطف ، انسحب
جان فالجان من بين ذراعي كوزيت ، وتناول قبعته .
وقالت كوزيت :
- « والآن ؟ »
فأجاب جان فالجان :
- « سوف اتركك يا سيدتي . انهم في انتظارك . »
ومن على عتبة الباب ، أضاف :
- « لقد خاطبتك بضمير المفرد . قولي لزوجك ان هذا لن يحدث
كرة اخرى . انا ارجو عفوك . »
وخرج جان فالجان ، تاركاً كوزيت مشدوهة لهذا الوداع اللغزي :

٢

خطوات اخرى الى الورا

وفي اليوم الذي تلا ، في الساعة نفسها ، أقبل جان فالجان .
ولم توجه كوزيت ايما سؤال إليه . إنها لم تعد تُظهر الدهش ، لم تعد

تهتف قائلة أنها تستشعر البرد ، لم تعد تتحدث عن حجرة الاستقبال .
لقد تجنبت التلفظ بـ « يا أبي » أو بـ « مسيو جان » . لقد تركته يتحدث
كما يشاء . ولقد أجازت لنفسها ان تخاطب بلفظ « السيدة » . بيد أنها
تكشفت عن قدر من البهجة أقل . كان من الجائر أن تكون محزونة ،
لو كان الحزن ممكناً بالنسبة إليها .

ولعله قد جرى بينها وبين ماريوس حديث من تلك الأحاديث التي
يقول فيها الرجل المحبوب كل ما يشاء ، ولا يشرح شيئاً ، ويفوز برضا
المرأة المحبوبة . ان فضول المحبين لا يذهب إلى ما وراء حبهما بكثير .
كانت الحجرة السفلية قد اتخذت زينتها بعض الشيء . كان باسك قد
ازال الزجاجات ، وكانت نيقوليت قد ازال العناكب .

وكل يوم ، كان جان فالجان يفسد في الساعة نفسها . كان يجيء
يوميّاً ، بعد ان استشعر انه عاجز عن ان لا يأخذ كلمات ماريوس اخذاً
حرفياً . واتخذ ماريوس ترتيبات تجعله غائباً عن المنزل كلما وفد جان
فالجان اليه . وألّف المنزل طريقة مسيو فوشلوفان الجديدة في الحياة .
وساعدته توسين على ذلك ، فكانت تكرر : « لقد كان سيدي هكذا
دائماً » . واصدر الجد هذا المرسوم : « إنه شخص شاذ الاطوار » وكانت
تلك كلمة الفصل . وإلى هذا ، ففسي التسعين يتعذر عقد علاقة جديدة .
كل شيء قد رُصف ووضّع إلى جانب غيره ؛ إن ايما وافد جديد
عامل ازعاج ؛ لم يبق ثمة متسع ، كانت جميع العادات قد سُكّلت .
مسيو فوشلوفان ... مسيو ترانشلوفان ... إن الجد جيلنورمان لم يكن
يطلب شيئاً خيراً من تخليصه من « ذلك السيد » . واضاف : « ليس شيء
أكثر شيوعاً من هؤلاء الاشخاص الشاذين : إنهم يقومون بمختلف ضروب
الاشياء الغريبة . لا دافع على الاطلاق . كان المركيز دو كانابل أسوأ .
لقد اشترى قصرأ ليعيش في مستودع للحبوب . إنها مظاهر غريبة يتخذها
الناس . »

إن احداً لم يلحظ الظلمة التي في الأعماق . وإلى هذا ، فمن الذي كان في استطاعته ان يحزر شيئاً كهذا ؟ ان ثمة مثل هذه المستنقعات في الهند . فالماء يبدو غريباً ، ممتنعاً على التعليل ، مرتعشاً حيث لا ريح تعث به ، هائجاً حيث ينبغي له ان يكون هادئاً . انت ترى على السطح هذا الغليان الذي لا سبب له ؛ انت لا تلمح الافعى الهيدرية الزاحقة في القمر .

وهكذا فإن لكثير من الناس هولة سرّية ، مرضاً يَغْدُونُهُ ، تينياً يقرضهم ، ياساً يَغْمُرُ ليلهم . مثل هذا الرجل يشبه سائر الناس ؛ إنه يروح ولأنه يحْيِي ، وليس يدري احد انه ينطوي على ألمٍ طفيلي رهيب ذي ألف ضرر ، ألمٍ يحيا في ذلك الرجل البائس الذي يموت به . ان احداً لا يعرف ان هذا الرجل هاوية . إنه راكد ، ولكنه عميق . وبين الفنية والفينة يتبدّى على سطحه اضطراب لنا نفهم منه شيئاً . إن تغضناً غريباً يترأى ، ثم يتلاشى ، ثم يعاود الظهور ؛ فقاعة هواء ترتفع وتنفجر . إنه شيء ضئيل ، إنه فظيع . إنه تنفّس الموهلة المجهولة .

إن بعض العادات الغريبة ، من مثل المحيء حين يذهب الآخرون ، والانكماش لحظة يتفاخر الناس ، والتجلبب دائماً بما يمكن ان يدعى المعطف الذي بلون الجدار ، والتماس الممر المتوحد ، وتفضيل الشارع المهجور ، وعدم الاهتمام بالمحادثات ، واجتناب الحشود والأعياد ، وظهور امارات النعمة ثم العيش عيش الفقراء ، ووضع المرء - برغم ثروته - مفتاحه في جيبه وشمعته عند البواب ، ودخوله من الباب الجانبي ، وارتقائه السلم الخلفية ، كل هذه الغرائب الضئيلة ، - هذه التجهيزات ، فقايع الهواء ، الشيات الزائلة - كثيراً ما تنبعث من قعر راعب .

وتصرمت على هذا النحو بضعة اسابيع . وشيئاً فشيئاً استحوذت على

كوزيت حياة جديدة ، العلاقات التي يخلقها الزواج ، والزيارات ،
والعناية بالمنزل ، والمتعة ، هذه المهام الكبيرة . ولم تكن متعة كوزيت
غالبية الثمن ، كان قوامها شيء واحد : أن تكون مع ماريوس . الخروج
معه ، البقاء في المنزل معه ، ذلك كان شاغل حياتها الأكبر . كأننا نجدان
مسرة جديدة بالكلية في الانطلاق ، متشابكي الذراعين ، في وجه الشمس ،
في وضوح الشارع ، غير متسترين ، وعلى مرأى من الناس جميعاً ،
وليس معهما احد البتة . وكان ثمة شيء واحد يسوء كوزيت . إن
توسين لم تستطع التفاهم مع نيقوليت ، بعد ان تعذر إدغام احسدى
العائسين بالأخرى ، ومضت لسبيلها . وكان الجد يتمتع بصحة جيدة .
وكان ماريوس يترافع بين الفينة والفينة في بعض القضايا . وعاشت العمة
جيلنورمان في دعة ، قرب ربة البيت الجديدة ، تلك الحياة الجانية التي
كانت تكفيها ، وكان جان فالجان يجيء كل يوم .

كان في اقلعه عن مخاطبتها بضمير المفرد ، وفي اصطناع لفظ
« السيدة » و « مسيو جان » ما جعله شيئاً آخر في نظر كوزيت . وكانت
العناية التي حاول ان يفصلها بواسطتها عنه قد نجحت معها . لقد غدت
مرحة اكثر فأكثر ، رؤوفاً اقل فأقل . بيد أنها ظلت تحبه حباً عظيماً ،
ولقد استشعر هو ذلك . وذات يوم ، قالت له فجأة : « لقد كنت
ابي ؛ انت لم تعد ابي . لقد كنت عمي ؛ انت لم تعد عمي . لقد
كنت مسيو فوشلوفان ؛ أنت الآن جان . من انت اذن ؟ انا لا احب
هذا كله . لو لم اكن أعرف انك طيب إلى أبعد الحدود لأخذني
الخوف منك . »

وظل يسكن في شارع الرجل المسلح ، غير قادر على توطين العزم
على الابتعاد عن الحي الذي تقطن فيه كوزيت .
وفي المرات الأولى كان يمحك مع كوزيت بضع دقائق ليس غير ،
ثم يمضي لسبيله .

وشيئاً بعد شيء تعود ان يجعل زيارته أطول . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنه أفاد من المثل الذي ضربته الأيام الآخذة في الطول : اصبح يجيء أبكر ، وينصرف في ساعة أكثر تأخراً .
وذات يوم قالت له كوزيت سهواً : « ابي ! » وأضاء وجه جان فالجان القاتم وميضاً من الابتهاج . واجابها : « قولي جان . » فاجابته وقد انفجرت بالضحك : « آه ! صحيح ، مسيو جان . » فقال : « حسن » واستدار لكي لا تراه يكفكف عبراته .

٣

يتذكروان حديقة شارع

بلوميه

كانت تلك هي المرة الأخيرة . وابتداء من هذه الومضة الختامية رآن انطفاء كامل . لا دالة بعد اليوم ، ولا نحية صباح مع قبلة ، ولا كلمة « ابي ! » العذبة إلى أبعد الحدود . لقد طرد ، بطلب منه وباشراكه هو ، من كل وجه من وجوه السعادة على نحو متعاقب . لقد تجرع هذا الشقاء : أنه بعد أن فقد كوزيت برمتها في يوم واحد ، اضطر في ما بعد إلى أن يفقدها جزءاً بعد جزء .

إن العين لتنتهي إلى أن تألف نور الكهف . وعلى الجملة ، فقد كان حسبه أن يكحل عينيه بمرأى كوزيت كل يوم . كانت حياته كلها قد تركزت حول تلك الساعة . كان يجلس إلى جانبها ، وينظر اليها في صمت ، أو يتحدثها عن السنين الخوالي ، عن طفولتها ، عن الدير ، عن اصدقائها في تلك الأيام .

وذات أصيل - كان ذلك في احد أيام نيسان الأولى ، وكان الجو قد
أمسى دافئاً ، ولكنه لا يزال على شيء من البرودة ، في تلك اللحظة
التي تنعم فيها الشمس بابتهاجها الاعظم ، وقد استشعرت الحدائق المجاورة
لنوافذ ماريوس وكوزيت انفعال اليقظة ، وشرع زعرور الأودية يطلع ،
وانتظم صف من المشور المرصع بالجواهر على الجدران العتيقة ، وتضاءلت
زهرات أنف العجل في شقوق الحجارة ، وبدأ العشب يُطلع ، على
نحو فاتن ، اقاحي وأزرار ذهب ، وبرزت فراشات العام البيضاء لأول
مرة ، وجربت الريح - عازقة الكمان في العرس السرمدي - في الاشجار
أول ألحان تلك السيمفونية الفجرية * العظمى التي دعاها الشعراء القدامى
« عودة الربيع » *renouveau* - في ذلك الاصيل قال ماريوس لكوزيت :
« لقد قلنا اننا سوف نذهب لنرى حديقتنا في شارع بلوميه كرة اخرى .
فلنذهب . ينبغي ان لا نكون عاقبين . » وطارا مثل السنونو نحو الربيع .
وتركت تلك الحديقة التي في شارع بلوميه مثل اثر الضحى في نفسيهما .
كانا قد خلفا وراءهما في الحياة شيئاً أشبه برييع جبهما . كان منزل
شارع بلوميه ، بوصفه قد أجِر ، لا يزال ملكاً لكوزيت . وقصدا إلى
تلك الحديقة وإلى ذلك المنزل . ووجدا نفسيهما فيه كرة اخرى ، ونسيا
نفسيهما هناك . وعند المساء ، في الساعة المعتادة ، وفد جان فالجان إلى
شارع فتيات كالفير . وقال له باسك : « لقد خرجت السيدة مع السيد ،
ولما يرجعا حتى الآن . » وجلس في صمت ، وانتظر ساعة . ولم
ترجع كوزيت . وحنى رأسه ومضى لسبيله .

وكانت كوزيت منتشية جداً بنزهتها إلى « الحديقة » ، وسعيدة جداً
بكونها « قد عاشت يوماً كاملاً في ماضيها » حتى انها لم تتحدث في اليوم
التالي عن اي شيء آخر . ولم يخطر لها ببال انها لم تر جان
فالجان .

* نسبة الى الفجر .

وسألها جان فالفجان :

- « كيف ذهبتما إلى هناك ؟ »

- « مشياً على الأقدام . »

- « وكيف رجعتما ؟ »

- « في عربة كراء . »

منذ فترة من الزمان وجان فالفجان يلاحظ الحياة المقتصدة الي يحياها الزوجان الشابان . وازعجه ذلك . كان اقتصاد ماريوس قاسياً ، وكان للكلمة معناها المطلق عند جان فالفجان . وغامر في السؤال :

- « لم لا تقتنيان عربة خاصة ؟ ان عربة جميلة ذات اربع عجلات

لا تكلفكما غير خمسمئة فرنك شهرياً . انت غنية . »

فأجابت كوزيت :

- « لست أدري . »

وأضاف جان فالفجان :

- « وهذا هو الشأن مع توسين . لقد مضت لسيلها ، ولكنك لم

تستعيني عنها بغيرها . لماذا ؟ »

- « نيقوليت تكفي . »

- « ولكن ينبغي ان يكون لك فراشة . »

- « ألسنت املك ماريوس ؟ »

- « ينبغي ان يكون لك بيت خاص ، وخدم مخصوصون ، وعربة ،

ومقصورة في المسرح . ليس ثمة نعم لا تستحقينها . لماذا لا تفيدين

من ثرائك ؟ الثروة تضاعف السعادة . »

ولم تجب كوزيت بشيء .

ولم تقاصر زيارات جان فالفجان . ما أبعد ذلك عن الصواب ! فحين

يتزلق القلب لا تتوقف فوق المنحدر .

وكلما اراد جان فالفجان ان يطيل زيارته ، ويجعل الساعات تنقضي من

غير انتباه ، كان يأخذ في اطراء ماريوس ؛ كان يذهب إلى أنه وسيم ، نبيل ، شجاع ، ذكي ، فصيح ، طيب . وكانت كوزيت تزايد في ذلك : وكان جان فالجان يأخذ في الاطراء من جديد . لإنهما لم يعرفا الصمت قط . فماريوس كلمة لا يتطرق إليها النقاد . كانت ثمة مجلدات في هذه الاحرف الستة . وهكذا كان جان فالجان يوفق إلى البقاء فترة طويلة . كان يستعذب رؤية كوزيت والنسيان بقربها استعذاباً كبيراً . كان ذلك هو الضمادة لجرحه . واتفق عدة مرات أن كان باسك يهبط إلى الحجرة السفلية مرتين متواليتين ليقول : « مسيو جيلنورمان أومدني لأخبر سيدتي البارونة أن مائدة العشاء قد أعدت . » وفي تلك الايام كان جان فالجان ينقلب إلى منزله وهو مستغرق في التفكير .

هل كان ثمة اذن بعض الصدق في تشبيه جان فالجان باليَقعة ، ذلك التشبيه الذي تمثل لعقل ماريوس ؟ هل كان جان فالجان ، في الواقع ، يفعة عنيدة ، يفعة تفسد لزيارة فراشتها ؟

وذات يوم مكث اكثر من المألوف . وفي اليوم التالي لاحظ انه لم يكن في الموقد نار . وقال في ذات نفسه : « ماذا ! لا نار . » وقدم إلى نفسه هذا التفسير : « هذا طبيعي جداً . نحن في شهر نيسان . لقد انصرفت الايام الباردة . »

وهتفت كوزيت عند دخولها :

— « يا الآهي ! ما أبرد هذه الحجرة ! »

فقال جان فالجان :

— « ولكن لا . »

— « واذن فأنت الذي قلت لباسك ان لا يضرم النار ؟ »

— « نعم . لقد أشرفنا على شهر نوار . »

— « ولكننا نضرم النار حتى حزينان . وفي هذا الكهف يحتاج المرء إلى النار طول السنة . »

— « لقد حسبْتُ ان النار غير ضرورية . »
فأجابت كوزيت :

— « هي ذي واحدة من فكراتك ! »
وفي اليوم التالي كان في الموقد نار . ولكن الكرسيين ذوي الذراعين
كانا قد وضعا في الطرف الآخر من الحجرة ، قرب الباب . وفكر
جان فالجان : « ما معنى هذا ؟ »

ومضى التماساً للكرسيين ، وأعادهما إلى مكانهما المألوف قرب الموقد .
ومع ذلك فقد شجعت هذه النار المضرة من جديد . واطال المحادثة
أكثر من المعتاد . وفيما كان ينهض للانصراف ، قالت له كوزيت :

— « لقد قال لي زوجي شيئاً مضحكاً أمس . »

— « وما هو ؟ »

— « قال : ان لدينا دخلاً مقداره ثلاثون ألف فرنك . سبعة وعشرون
تملكينها انت ، وثلاثة اعطاني اياها جدي . فقلت : هذا يجعلها ثلاثين .
فسألني : هل تملكين الجرأة على ان تعيشي على الثلاثة الآلاف ؟ فأجبتہ :
نعم ، وعلى لا شيء ، شرط ان يكون ذلك معك . ثم سألتہ : لماذا
تقول لي هذا ؟ فأجاب : لكي اعرف . »

ولم يقل جان فالجان كلمة . ولعل كوزيت كانت تتوقع منه تفسيراً
ما . لقد أصغى إليها في صمت فاجع . وانقلب إلى شارع الرجل المسلح .
كان مستغرقاً في التفكير إلى درجة جعلته يخطئ الباب . وبدلاً من ان
يدخل بيته هو ، دخل البيت المحاذي . ولم ينتبه إلى غلطته إلا بعد ان
كاد يصل إلى الدور الثاني ، فهبط السلم كرة اخرى .

كانت الظنون تنكّل بعقله تنكيلاً : فقد كان واضحاً ان ماريوس
يرتاب في أصل هذه الفرنكات الستمئة ألف ، ومن يدري فلعله كان
يحسب ان مصدرها غير طاهر . أو لعله كان قد اكتشف ان هذا المال
جاء منه هو ، جان فالجان . ولعله ان يكون قد تردد امام هذه الثروة

المريية ، فكرية أن يجعلها ملكاً له ، مؤثراً ان يظل هو وكوزيت فقيرين ،
على ان ينعم ببراء تحيط به الشكوك .

والى هذا ، فقد استشر جان فالجان ، على نحو غامض ، انه قد
صُرف في خشونة .

وفي اليوم التالي اصيب ، لدن دخوله إلى الحجرة السفلية ، بشيء
كالصدمة . كان الكرسيان ذوا الاذرع قد اختفيا . بل لم يكن ثمة كرسي
من اي نوع .

وهتفت كوزيت وهي داخلة :

— « والآن ، لا كراسي ! أين الكرسيان ذوا الذراعين اذن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد ولّيا . »

— « هذه مسألة طريفة . »

وتتم جان فالجان :

— « لقد قلت لباسك ان يخرجها من هنا . »

— « وما سبب ذلك ؟ »

— « أنا لن أبقى غير بضع دقائق اليوم . »

— « إن بقاءك فترة قصيرة ليس سيئاً كافياً لوقوفك ما دمت هنا . »

— « أحسب ان لباسك قد احتاج إلى بعض الكراسي ذوات الاذرع

لغرفة الاستقبال . »

— « لمساذا ؟ »

— « لا ريب في ان عندكم ضيوفاً اليوم . »

— « ليس عندنا احد . »

ولم يستطع جان فالجان ان يقول كلمة اضافية .

وهزت كوزيت كتفها .

— « تطلب لإخراج الكرسيين ! وفي ذلك اليوم طلبت ان لا تضرم

النار ! ما أغرب اطوارك ! »

ودمدم جان فالجان :

— « استودعك الله . »

انه لم يقل : « استودعك الله ، يا كوزيت . » ولكنه لم يقوَ على القول « استودعك الله ، يا سيدتي . »
ومضى لسبيله مثقلاً بالغم .

كان هذه المرة قد فهم .

وفي اليوم التالي لم يجيء . ولم تلاحظ كوزيت ذلك إلا مساء .
وقالت :

— « غريب . ان مسيو جان لم يجيء اليوم . »

وألّم بها شيء أشبه بانقباض ضئيل في الصدر ، ولكنها لم تلاحظ ذلك إلا بشق النفس ، إذ شغلته عنها ، في الحال ، قبلة من ماريوس :
وفي اليوم الذي بعده ، لم يجيء أيضاً .

ولم تلق كوزيت بالا إلى ذلك ؛ لقد أمضت السهرة ، ونامت ليلها ذاك ، كالعادة ، ولم تفكر في المسألة إلا بعد ان استيقظت . كانت سعيدة إلى أبعد الحدود ! ووجهت نيقوليت على جناح السرعة إلى منزل مسيو جان لترى ما إذا كان مريضاً ، ولماذا لم يأت البارحة . ورجعت نيقوليت بجواب مسيو جان . إنه لم يكن مريضاً . لقد كان مشغولاً . ولسوف يجيء في وقت قريب . في اقرب وقت ممكن . وإلى هذا ، فقد كان يعتزم القيام برحلة صغيرة . والسيدة تذكر انه كان من عادته الارتحال بين الفينة والفينة . فلا داعي للقلق . ولا داعي لأن يشغل احد نفسه بالتفكير فيه .

وكانت نيقوليت قد كررت « لدن دخولها منزل مسيو جان ، كلمات سيدها بالحرف الواحد . ان السيدة قد بعثتها لتستطلع « لماذا لم يأت مسيو جان البارحة . » فقال جان فالجان في رقة : « لقد تخلفت عن المجيء يومين

متوالين . »

ولكن هذه الملاحظة أخطأت انتباه نيقوليت فلم تنقل شيئاً منها إلى كوزيت .

٤

انجذاب وانطفاء

خلال الأشهر الأخيرة من ربيع ١٨٣٣ والاشهر الأولى من صيف ذلك العام ، لاحظ عابرو السيل المتناثرون في الـ «ماريه» ، واصحاب الدكاكين ، والمتعطلون على عتبات الأبواب — لاحظوا رجلاً عجوزاً مرتدياً ثوباً نظيفاً يخرج كل يوم ، حوالي الساعة نفسها ، عند هبوط الليل ، من شارع الرجل المسلح ، في اتجاه شارع «سانت كروا دو لا بروتونوري» ، ويجتاز بـ «البلان مانتو» ، إلى شارع «كولتور سانت كاترين» ، ثم يفتحي إلى شارع الـ «إشارب» ، وينعطف إلى اليسار ، ويدخل شارع «سان لويس» .

هناك كان يمشي في خطى وثيدة ، منكس الرأس ، غير مبصر شيئاً ، غير سامع شيئاً ، مصوب النظرات على نحو ثابت ، نحو نقطة واحدة ، لا تعرف التغير ، بدت له وكأنها مرصعة بالنجوم ، نقطة لم تكن غير زاوية شارع فتيات كالفير . حتى إذا اقترب من زاوية ذلك الشارع ، كان وجهه يتهلل ، وكان ضرب من البهجة يضيء عينيه مثل هالة باطنية ، وعلت وجهه سيماء مفتونة مشفقة ، وتحركت شفتاه حركات غامضة وكأنما كان يحدث شخصاً لم يكن يراه ، ويفترّ ثغره عن ابتسامة كليّة ، ويتقدم بأقصى ما يستطيع من البطء . كان في ميسور المرء ان يقول انه على الرغم منه رغبته في الوصول إلى مكان ما ، كان يخشى

اللحظة التي يقترب فيها منه . حتى إذا لم يبق بينه وبين ذلك الشارع الذي بدا وكأنه يجذبه غير بيوت قليلة كانت خطاه تنتهي إلى بطاء شديد حتى لتحسب في بعض الأحيان أنه كفّ عن السير . كان تذبذب رأسه وثبات عينه يذكرانك بالابرة الباحثة عن القطب . بيد أنه كان يصل آخر الأمر ، مهما بذل من أجل تأخير ذلك . كان يصل إلى شارع فتيات كالفير . وهناك كان يقف ، وكان يرتعد ، وكان يضع رأسه بضرب من الجبن القاتم خلف زاوية المنزل الأخير ، وينظر إلى ذلك الشارع ، وكان في تلك النظرة الفاجعة شيء يشبه الانشداء بالمستحيل وانعكاس أضواء فردوس محرم . ثم إن دمعة كانت قد تجمعت شيئاً فشيئاً في زاوية عينه ونمت إلى حد يمكنها من الانحدار كانت تنزلق على خده وتقف في بعض الأحيان عند فمه . وكان الرجل العجوز يذوق مرارتها . وكان يظل هكذا بضع دقائق ، وكأنه قد تحول إلى حجارة . ثم إنه كان يرجع من الطريق نفسها وبالخطوة نفسها . وكلما ابتعد انطفأت تلك النظرة .

وشيناً بعد شيء كف هذا العجوز عن التقدم حتى زاوية شارع فتيات كالفير . كان يقف عند منتصف شارع سان لويس . وفي بعض الأحيان كان يمضي إلى أبعد قليلاً ، وفي بعض الأحيان كان يمضي إلى أقرب قليلاً . وذات يوم ، وقف عند زاوية شارع « كولتور سانت كاترين » ونظر إلى شارع فتيات كالفير من بعيد . ثم إنه حرك رأسه ، ففي صمت ، من اليمين إلى الشمال ، وكأنه كان يأبى على نفسه شيئاً ، وارتد على عقبيه .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقلع عن التقدم إلى شارع سان لويس نفسه . كان ينتهي إلى شارع « بافيه » ، ويهز رأسه ، ويعود أدراجه . ثم إنه ما عاد يمضي إلى أبعد من شارع الـ « تروا بافيون » ، ثم أمسى لا يتخطى الـ « بلان مانتو » . لكأنه رقاص ساعة لم يدور ، فذبذباته تتقاصر ريثما تقف نهائياً .

وكل يوم ، كان يغادر بيته في الساعة نفسها ، ويشخص إلى الغاية نفسها ، ولكنه يرتد قبل بلوغها ، ويقصّرُها - وربما على نحو غير واع - تقصيراً موصولاً . كان يحياه كله يفصح عن هذه الفكرة الوحيدة : ما الفائدة ؟ كانت حقيقته قد خبت ، فليس فيها بعدُ إشعاع . وكانت الدمعة قد ولت أيضاً ، إنها لم تعد تتجمع عند زاوية الجفن . كانت تلك العين المفكرة جافة . كان رأس الرجل العجوز منكساً ما يزال ؛ وكانت ذقنه ترتعش في بعض الاحيان ، وكان النظر إلى تجعدات رقبتة المهزولة يوقع الألم في النفس . وأحياناً ، حين تكون الحال الجوية سيئة ، كان يتأبط مظلة لا يفتحها ابداً . وكانت نسوة الحي الطيبات يقلن : « إنه ساذج » . وكان الاطفال يلحقون به ضاحكين .

الكتاب التاسع

ظلمة عظمى وفجر عظم

١

شفقة للتعيس ولكن

رفق بالسعيد

أن نكون سعداء — ذلك شيء فظيع ! ما أشد سرورنا بهذا ! وما
أكثر ما نجده كافياً ! وما أكثر ما ننسى ، حين نملك هدف الحياة
الزائف ، السعادة ، الهدف الحقيقي منها : الواجب !
ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول إن من الظلم ان نلوم ماريوس .
إن ماريوس لم يوجه قبل زواجه — كما سبق منا القول — أيما سؤال
إلى مسيو فوشلوفان ، ولقد خشي ، منذ زواجه ذاك ، ان يوجه أيما

سؤال إلى جان فالجان . كان قد ندم للوعد الذي اجاز لنفسه أن تستدرج اليه . وكثيراً ما قال في ذات نفسه انه أخطأ في تساهله مع اليأس . لقد اجتراً بالعمل لابعاد جان فالجان ، شيئاً بعد شيء ، عن منزله ، ولمحوره . جهد الطاقة من ذهن كوزيت . لقد وضع نفسه على نحو موصول — وبطريقة ما — بين كوزيت وجان فالجان ، واثقاً من انها ، على هذه الصورة ، لن تلاحظه ولن تفكر فيه البتة . كان ذلك اكثر من محو ، كان كسفاً .

لقد عمل ماريوس ما قدّر أنه ضروري وصائب . لقد اعتقد انه كانت لديه — لاقضاء جان فالجان ، في غير خشونة ، ولكن في غير ضعف — اسباب جدية رأينا بعضها من قبل ، وسنرى بعضها الآخر في ما بعد . لقد اتفق له ان اجتمع ، في قضية كان يترافع فيها ، بموظف عجوز في مصر لافيت ، فاطلع — من غير ان يسعى إلى ذلك — على بعض المعلومات الغامضة التي لم يستطع ، في الواقع ، أن يسبر غورها احتراماً منه لذلك السر الذي وعد بصيائته ، ومراعاةً منه لمركز جان فالجان المحضوف بالخطر . ولقد اعتقد ، في تلك اللحظات نفسها — ان عليه واجباً خطيراً يجب اداؤه ، وهو إعادة الستمئة الف فرنك إلى شخص ما ، راح هو — ماريوس — يبحث عنه باكثر ما يكون من الحذر . وفي غضون ذلك نفادى استعمال هذه الثروة .

أما كوزيت فلم تكن على علم بأي من هذه الأسرار . ولكن من القسوة ادانتها أيضاً .

كانت تفيض من ماريوس نحوها مغناطيسية كلية القدرة تضطرها إلى ان تعمل ، غزياً بل آلياً تقريباً ، ما يتمناه ماريوس . لقد استشعرت ، في ما يتصل بـ « مسيو جان » ، ارادة من ماريوس ؛ وأذعنت لها . ولم يكن عند زوجها شيء يقوله لها . لقد عرفت ضغط رغباته غير الملفوظة ، ولكن الواضحة ، وخضعت له خضوعاً أعمى .

وكان خضوعها هنا ينهض على عدم تذكرها ما نسيه ماريوس . وما كان لها أن تبذل أيما جهد في ذلك . فمن غير أن تدري هي نفسها لماذا ، ومن غير أن يكون ثمة أيما دليل يساعد على لومها ، كانت روحها قد غدت روحَ زوجها بحيث أن كل ما جلله الظلام في ذهن ماريوس أظلم في ذهنها .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نذهب إلى بعيد جداً . ففي ما يتصل بجان فالجان لم يكن هذا النسيان وهذا المحو إلا سطحيتين . كانت ذاهلة أكثر منها ناسية . كانت في أعماق أعماقها تحب ذلك الذي طالما نادته « يا ابي ! » . ولكنها أحبت زوجها أكثر . كان ذلك هو السذي ذهب بتوازن ذلك القلب ، المائل في ناحية مفردة .

واتفق لكوزيت ان تحدثت ، ذات مرة ، عن جان فالجان وظهرت دهشها . فما كان من ماريوس إلا أن هدأ روعها : « انه غائب ، في ما اظن . ألم يقل انه سوف يقوم برحلة ؟ » فقالت كوزيت في ذات نفسها : « هذا صحيح . كان من عادته الاختفاء على هذه الشاكلة . ولكن غيابه لم يكن يطول إلى هذا الحد . » ومرتين أو ثلاث مرات ارسلت نيقوليت لتسأل في شارع الرجل المسلح ما إذا كان مسيو جان قد رجع من رحلته وكان جان فالجان يجيب أن لا .

ولم تجدد كوزيت السؤال بعد . فقد كان لها مطلب واحد في هذا الوجود : ماريوس .

ويتعين علينا ان نقول إن ماريوس وكوزيت كانا بدورهما غائبين أيضاً . كانا قد ذهبا إلى فيرنون . كان قد مضى بكوزيت إلى ضريح أبيه . كان ماريوس قد استل كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، من جان فالجان . وانقادت كوزيت لارادته .

وإلى هذا ، فأن ما ندعوه بكثير من القسوة ، في بعض الأحوال ، عقوق الاولاد ليس ، دائماً ، شيئاً يستحق اللوم بقدر ما نعتقد . إنه

عقوق الطبيعة . فالطبيعة ، كما قلنا في مكان آخر ، « تنظر إلى أمام » .
والطبيعة تقسم الكائنات الحية إلى مقبلين وموَّلين . فأما المولون فتوجَّه
وجوههم نحو الظلام ، وأما المقبلون فتوجَّه وجوههم نحو النور . ومن
هنا ينشأ تباعد هو ، من ناحية الشيوخ ، محتوم ، ومن ناحية الجيل
الطالع غير إرادي . وهذا التباعد ، غير المدرك في بادئ الأمر ، يتعاضم
تدريجياً ، ككل تباعد بين الاغصان . ان الأفنان لتبتعد عن الجذع من
غير ان تنفصل عنه . هذه ليست خطيئتها . الشباب يمضي إلى حيث
الابتهاج : إلى الاحتفالات ، إلى الاضواء الساطعة ، إلى الحب .
والشيخوخة تمضي إلى غايتها . إن احدهما لا يغيب عن بصر الآخر ،
ولكن الصلات بينهما تتراخى . ان أفراد الجيل الطالع يستشعرون برد
الحياة ، والشيوخ يستشعرون برد القبر . فيتعين علينا أن لا نلوم هؤلاء
الأطفال المساكين .

٢

آخر خفقات المصباح

الذي نفذ زيته

وذاث يوم هبط جان فالجان سَلَم منزله ، وخطا في الشارع ثلاث
خطوات ، وجلس على مُعَلَم من معالم الطريق ، ذلك المعلم عينه الذي
وجده غافروش جالساً فوقه ، ليل الخامس من حزيران ، مستغرقاً في
التفكير . ومكث هناك بضع دقائق ، ثم عاود الصعود إلى منزله من
جديد - كانت هذه آخر ذبذبة من ذبذبات الرقاص . وفي غد ،
لم يغادر غرفته : وفي اليوم السذي تلاً ، لم يغادر فراشه .

ونظرت بوابته - التي قدمت اليه طعامه الهزيل : بعض الكرنب
وقليلاً من البطاطس مع شيء من شحم الخنزير - نظرت إلى القصعة
الفخارية السمراء ، وهتفت :
- « ولكنك لم تأكل اي شيء أمس ، ايها الرجل البائس
العزير . »

فأجاب جان فالفجان :

- « اجل ، لقد فعلت . »

- « القصعة ما تزال مملوءة . »

- « انظري إلى آنية الماء . إنها فارغة . »

- « هذا يُظهر انك شربت . إنه لا يظهر انك أكلت . »

فقال جان فالفجان :

- « حسناً ، وافرضي اني لم اكن جائعاً إلا للهاء ؟ »

- « هذا يدعى العطش . وحين لا يأكل المرء شيئاً في الوقت نفسه

ندعو ذلك حمى . »

- « سوف آكل غداً . »

- « أو في عيد الثلاث الأقدس . لماذا لا تأكل اليوم ؟ هل

يقول الناس : سوف آكل غداً ! انك تترك لي قصعتي كلها من غير ان

تمسها ! إنها ملفوفاتي التي كانت جيدة جداً . »

وأمسك جان فالفجان بيد المرأة العجوز ، وقال لها في صوته

العطوف :

- « أعدك بأن آكلها . »

فأجابت البوابة :

- « أنا لست راضية عنك . »

ولم ير جان فالفجان قط كائناً بشرياً غير هذه المرأة الصالحة . إن في

باريس شوارع لا يسير فيها أحد ، ويوتأ لا يفد إليها أحد . وكان

جان فالحجان في واحد من هذه الشوارع ، وكان في واحد من تلك المنازل .

وكان قد اشترى ، قبل ان ينقطع عن الخروج من منزله ، صليبا نحاسيا صغيرا من عند احد النحاسين ، مقابل بضعة دراهمات ، وكان قد علق ذلك الصليب - وقد نُحت عليه جسد المصلوب - تجاه سريره . ان الصليب شيء يحسن النظر اليه دائما .

وتصرم اسبوع ، ولم يكن جان فالحجان قد خطا في غرفته اياما خطوة . كان لا يزال في سريره . وقالت البوابة لزوجها : « ان الرجل الذي فوق لم يعد يقوم من فراشه ابداً ، لم يعد يأكل ابداً ، وهو لن يعيش طويلا . ان له احزانه . وليس في استطاعة احد ان يتزع من رأسي هذه الفكرة : أن ابنته لم توفق في زواجها . »

وأجاب البواب ، في نبرة السيادة الجديرة بالازواج :

- « إذا كان غنياً فليستدع طبيباً . وإذا لم يكن غنياً فلا داعي لأن يستدعي طبيباً . وإذا لم يستدع طبيباً فعندئذ يموت . »
- « وإذا استدعى طبيباً ؟ »

فقال البواب :

- « يموت أيضاً . »

وشرعت البوابة تحرث الارض ، بسكين عتيقة ، حول عشب كان قد نجم في ما كانت تدعوه رصيفها . وفيما كانت تقتلع العشب ، غمغمت :

- « شيء مؤلم . رجل عجوز نظيف جداً . إنه أبيض مثل الدجاجة . »

ورأت طبيباً من اطباء الحي يجتاز بأقصى الشارع . فأخذت على عاتقها التوسل إليه أن يصعد . وقالت له :

- « إنه في الدور الثاني . ليس عليك إلا ان تدخل . إن المفتاح هو دائماً في الباب بعد ان عجز الرجل عن مفارقة سريره . »
- ورأى الطبيب جان فالدجان ، وتحدث اليه .
- وحين هبط السلم استجوبته البوابة :
- « حسناً ، أيها الطبيب ؟ »
- « إن مريضك مريض جداً . »
- « مم يشكو ؟ »
- « من كل شيء ، ومن لا شيء . إنه رجل يستدل من جميع المظاهر انه فقد شخصاً أثراً لديه . إن المرء ليموت بسبب من ذلك ؟ »
- « ماذا قال لك ؟ »
- « لقد قال ان حاله حسنة . »
- « هل سترجع كرة ثانية ، أيها الطبيب ؟ »
- فأجاب الطبيب :
- « أجل . ولكن شخصاً آخر غيري ينبغي أن يرجع . »

٣

ريشة ترهق ذلك الذي رفع كارثة فوشلوفان

وذاث مساء وجد جان فالدجان عسراً في رفع نفسه على مرفقه وجلس "معصمه ، فلم يجد اي نبض . كان نفسه قصيراً ، وكان ينقطع بين الفينة والفينة ، وأدرك انه أضعف مما كان في أياما وقت مضى . ثم إنه بذل جهداً ، تحت ضغط رغبة عليا من غير شك ، وجلس في

فراشه ، وارتدى ملابسه : لقد لبس ثوبه العمالي العتيق . كان قد عاد إليه ، بعد أن أُلْعِقَ عن الخروج من غرفته ، وكان يؤثره . وتعين عليه أن يتمهل عدة مرات اثناء اللبس . وكان في مجرد ارتدائه صدرته ما جعل العرق يتحدر على جبينه .

ومنذ أن أمسى وحيداً كان قد وضع سريره في غرفة الانتظار لكي يحتل هذا البيت المهجور اقل ما يكون الاحتلال .
وفتح الحقيبة ، وأخرج ملابس كوزيت .
ونشرها على سريره .

كان شمعدانا الأسقف في مكانهما ، على الموقد . واخرج شمعتين من احد الادراج ، ووضعهما في الشمعدانين . ثم اشعلهما ، على الرغم ان الشمس ما زالت مشرقة ، فقد كان الفصل صيفاً . إننا نرى المشاعل مضاءة في وضوح النهار ، أحياناً ، في الغرف التي يستلقي فيها الأموات .

كانت كل خطوة يخطوها في الانتقال من احدى قطع الاثاث تضنيه ، وكان مضطراً إلى الجلوس . إنه لم يكن ذلك التعب العادي الذي ينشئ القوة لكي يجددها ، كان بقية الحركة الممكنة . كان هو الحياة المستنفدة 'تعتصر قطرة' قطرة في جهود مرهقة لن 'تبذل كرة ثانية' .

وكان احد الكراسي التي ارتمى فيها قائماً أمام تلك المرأة ، المشؤومة جداً بالنسبة إليه ، السماوية جداً بالنسبة إلى ماريوس ، التي كان قد قرأ فيها مذكرة كوزيت ، مقلوبة على ورق النشاف . لقد رأى نفسه في هذه المرأة ، فلم يعرف نفسه . كان في الثمانين . أما قبل زواج ماريوس فكان المرء لا يحسب أنه في الخمسين إلا بكثير من العسر . كانت هذه السنة بمثابة ثلاثين سنة . إن ما ران على جبينه الآن لم يكن تغضن الشيخوخة ، ولكن أماراة الموت الخفية . كنت تلمح هناك أثر المخلب الذي لا يعرف الرحمة . كان خداه غائرين ، وكانت بشرة

وجهه ذات لون يوحى بأن الثرى قد علاها منذ الآن . وكانت زوايا فمه قد انخفضت وكأنها في ذلك القناع الذي كان القدماء ينحتونه على قبورهم . وكان ينظر إلى الفراغ نظرة تأنيب ، ولقد كان خليقاً بالمرء ان يحسبه واحداً من تلك الكائنات الجليلة الفاجعة التي تنهض شاكية شخصاً ما .

كان في تلك الحال - آخر مراحل الأعياء - التي ينقطع فيها الألم عن الجريان . لقد تخثر ، إذا جاز التعبير . لكأن النفس قد غطيت بجلطة يأس .

كان الليل قد هبط . وفي كثير من العناء جر احدى الطاولات وذلك الكرسي العتيق ذا الذراعين إلى مقربة من الموقد ، ووضع على الطاولة ريشة ، وحبراً ، وورقاً .

حتى إذا تم له ذلك أصيب بأغواء . وحين ثاب إلى رشده ، شعر بظماً . واذ عجز عن رفع آنية الماء ، فقد حناها نحو فمه ، في مشقة ، وشرب جرعة .

ثم التفت إلى السرير ، ونظر - وهو لا يزال جالساً لأنه لم يستطع البقاء واقفاً - إلى الثوب الاسود الصغير وجميع تلك الاشياء الاثيرة لديه .

مثل هذه التأملات تدوم ساعات تبدو وكأنها دقائق . وفجأة ارتعد ، واستشعر ان البرد قد أصابه . وانحنى فوق الطاولة المضاءة بشمعديني الاسقف ، وامسك بالريشة .

واذ كان كل من الحبر والريشة لم يستعمل منذ عهد بعيد ، وكان رأس الريشة مرتدأ إلى الوراء ، وكان الحبر قد جف ، فقد اضطر إلى ان ينهض ويضع في الحبر بضع قطرات من الماء ، وهو شيء لم يستطع ان يقوم به من غير ان يتمهل ويقعد مرتين أو ثلاث مرات ، وقد اضطر إلى ان يكتب بظهر الريشة . وكان، بين الفينة والفينة، يمسح جبينه .

وارتعتش يده . وفي بطنه ، خط الاسطر القليلة التالية :

« كوزيت ، إنني اباركك . سوف اقدم اليك تفسيراً . لقد كان زوجك على حق في إشعاري بأن علي ان انصرف . ومع ذلك فان ثمة بعض الخطأ في الذي اعتقده ، ولكنه كان على حق . إنه ممتاز . وحين اموت ، أحبيه دائماً حباً جماً . وانت يا مسيو بونميرسي ، أحب دائماً طفلاتي الحبيبة . كوزيت ، إن هذه الورقة سوف توجد ، هذا ما اريد ان اخبرك إياه ، ولسوف تقرأين ارقاماً ، إذا كانت لي القدرة على تذكرها ؛ إسمعي جيداً ، إن هذا المال هو لك حقاً . وهذه هي القصة كاملة : إن الكهرمان الابيض يجيء من نروج ، والكهرمان الاسود يجيء من انكلترا ، وتقليدها الزجاجي الأسود يجيء من المانية . والكهرمان اخف ، وأنفس ، أغلى . وفي استطاعتنا ان نقلده في فرنسة كما يقللون في المانية . وهو يقتضي سنسداداً صغيراً مساحته بوصتان مربعتان ومصباحاً على الكحول لأسالة الشمع . وكان الشمع يصنع في ما مضى من صمغ الصنوبر وسواد الدخان ، وكانت الاوقية تكلف اربعة فرنكات . وقد تراءى لي ان أصنعه من صمغ اللك وصمغ البطم . وهذا لا يكلف غير ثلاثين سو ، وهو أفضل بكثير . والابازيم تصنع من زجاج بنفسجي نلصقه بواسطة هذا الشمع بقطعة صغيرة مدورة من حديد أسود . والزجاج يجب ان يكون بنفسجياً للحل الحديدي ، وأسود للحل الذهبية . واسبانية تشتري مقادير كبيرة منها . تلك هي بسلاط الكهرمان »

وهنا كف عن الكتابة ، وسقطت الريشة من بين اصابعه ، وأطلق إحدى تلك الزفرات البائسة التي كانت تصعد أحياناً من أعماق وجوده . وامسك الرجل البائس رأسه بين يديه ، وانشأ يفكر .

وهتف في ذات نفسه - وتلك صيحات محزنة لا يسمعها غير الله :

- « اوه ! قضي الأمر . أنا لن اراها بعد اليوم . إنها ابتساءة

عبرت فوقى : سوف ادخل في الظلام من غير ان اراها مجرد رؤية ،
كرة اخرى . اوه ! دقيقة ! لحظة ! لكي اسمع صوتها ، لكي ألمس
ثوبها ، لكي انظر اليها ، هي ، الملاك ! وبعد ذلك اموت . ليس
الموت شيئاً ذا بال ، ولكن الشيء الرهيب ان اموت من غير ان اراها :
انها خليقة بأن تبسم لي ؛ وانها خليقة بأن تقول لي كلمة . هل في ذلك
ما يؤذي احداً ؟ لا ، لقد قضى الأمر ، إلى الابد . ها انا ذا في وحدة
مطلقة . يا الله ! يا الله ! انا لن اراها بعد ابداً .
وفي تلك اللحظة خفق شخص الباب .

٤

زجاجة حبر لا توفى الى اكثر من التبييض

في ذلك اليوم نفسه ، أو في ذلك المساء نفسه على الأصح ، لحظة
غادر ماريوس المائدة وأوى إلى مكتبه ، إذ كان لديه ملف اوراق يذبحي
ان يدرس ، قدم اليه باسك رسالة وقال :
— « إن الشخص الذي كتب هذه الرسالة هو في غرفة الانتظار . »
كانت كوزيت قد تأبطت ذراع جدها ، وراحت تتجول في
الحديقة .

إن الرسالة قد يكون لها ، كما للرجل ، مظهرٌ مقيت . ورق خشن ،
طية غليظة ، إن مجرد النظر إلى بعض الرسائل ليسوء . ولقد كانت الرسالة
التي حملها باسك من هذا الضرب .
وتناولها ماريوس . كانت رائحة التبغ تفوح منها . وليس ثمة ما

يوقظ الذكريات مثل الرائحة . وعرف ماريوس هذا التبغ . ونظر إلى العنوان : « إلى سيدي ، السيد البارون بوميرسي . في قصره . » وقادته معرفته للتبغ إلى أن يعرف الخط . وفي استطاعة المرء ان يقول ان للدهش بروقه . لكأن ماريوس كان قد استضاء بواحد من تلك البروق .

وأحييت حاسة الشم ، ذلك المذكّر الخفي ، علماً كاملاً في ذات نفسه . هنا كان الورق نفسه ، وطريقة الطي ، وشحوب الحبر ، هنا كان في الواقع ذلك الخط المعروف ؛ وفوق كل شيء ، هنا كان التبغ . وبدا أمامه مسكن جوندرت الحقيق .

وهكذا ، نزوة غريبة من نزوات المصادفة ! ان أحد ذينك الاثرين اللذين طالما بحث عنهما ، ذلك الاثر الذي عاد فبذل مؤخرأ جهوداً كبيرة للاهتمام إليه والذي اعتقد انه ضاع إلى الأبد ، ان ذلك الاثر جاء بنفسه اليه .

وكسر الختم في لطفة ، وقرأ :

« سيدي البارون ، لو ان الكائن الأسمى اعطاني المواهب لذلك ، اذن لكان من الجائر ان أكون البارون تينار ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، ولكنني لست كذلك . انا احمل الاسم نفسه ليس غير ، واني اكون سعيداً إذا ما كان في هذه الذكرى ما يدخلي رحاب جودك . والمنة التي متشرفني بها سوف تكون متبادلة . انا املك سرأ يتصل بشخص ما . وهذا الشخص يهملك . واني لأحتفظ بالسراياضاً اياه بتصرفك ، رغباً في ان أتشرف بأن اكون ذا فائدة لك . سوف اقدم اليك الوسيلة البسيطة لكي تطرد من اسرتك النبيلة ذلك الشخص الذي لا حق له فيها ، باعتبار ان السيدة البارونة ذات محند رفيع . إن هيكل الفضيلة لا يستطيع ان يووي الجريمة اكثر مما فعل من غير ان يتخلى عن مكانته .

« أنا أنتظر في غرفة الانتظار أوامر سيدي البارون ...

مع الاحترام » .

وكانت الرسالة موقعة هكذا : « تينار » .

ولم يكن ذلك التوقيع كاذباً . لقد كان مختصراً بعض الشيء ،
ليس غير .

وإلى هذا ، فإن ذلك الانشاء المتهاوت وذلك الخط أتمّما كشف
النقاب . كانت شهادة المنشأ كاملة . ولم يكن ثمة مجال
لأتمّما شك .

وكان انفعال ماريوس عميقاً . فبعد شعور المفاجأة استحوذ عليه شعور
بالسعادة . فليجد الآن الرجل الآخر الذي التمسّه ، الرجل الذي انقذه ،
هو ماريوس ، وهل كان ثمة ما يتمناه غير ذلك ؟

وفتح احد ادراج مكتبه ، واخرج بعض الاوراق النقدية ، ووضعها
في جيوبه ، واغلق درج المكتب ، وقرع الجرس . وفتح الباب نصف
فتحة :

وقال ماريوس :

— « أدخله . »

ونادى باسمك :

— « مسيو تينار . »

ودخل رجل .

مفاجأة اخرى لماريوس . كان الرجل الذي دخل مجهولاً عنده بالكلية .
وكان هذا الرجل — العجوز — ذا أنف ضخمة ، وذقن ملتصقة برباط
رقبته ، ونظارتين خضراوين ذاتي عاكستين للنور من حرير اخضر فوق
العينين ، وشعر مصقول وممّلس ، وجبين قريب إلى الحاجبين ، مثل
الشعر المستعار الذي يرتديه سائقو العربات الانكليز العاملون في خدمة
النبلاء . كان شعره أشيب . وكانت ثيابه سوداء كلها ، من أعلى الرأس

لى أخمص القدم ، وكانت تلك الثياب بالية . ولكنها نظيفة . وكانت خزمة من الجواهر الرخيصة المتدلية من جيب صدرته توحى بأنه يحمل ساعة . وكان يمسك بيده قبعة عتيقة . ولقد مشى فى انحناء ، ولقد زاد انحناء ظهره فى انخفاض سلامه .

وكان الذى لفت نظر ماريوس للوهلة الأولى ان ثوب هذا الرجل ، الفخفاض اكثر مما ينبغى . على الرغم من انه مزرر فى عناية ، بدا وكأنه لم يجعل له اصلا . وهنا لا بد من استطراد قصير .

كان فى باريس ، لذلك العهد . فى مسكن عتيق بشارع « بوتريسي » ، قرب دار الصناعة ، يهودى نابغة مهنته تحويل النذل إلى رجل فاضل . ولكن ليس إلى فترة طويلة جداً . مما قد يكون مربكاً للنذل . وكان ذلك التحويل مجرى بالنظر ومن غير مقياس . ليوم أو يومين ، مقابل ثلاثين سو يومياً . بواسطة بذلة تشبه إلى أقصى حدود الامكان بذلات الافاضل من الناس على العموم . وكان مؤجر البذلات هذا يدعى « المغير » . كان لصوص باريس قد خلعوا عليه هذا الاسم ، فهم لا يعرفونه إلا به . كانت عنده خزانة ملابس كاملة إلى حد ما . وكانت الاسال التى يلبسها زبائنه محترمة تقريباً . كانت ملعه تنقسم إلى صنوف وانواع . وفوق كل مسار فى دكانه ، كانت حالة اجتماعية تتدلى بالية رثة . فهنا ثوب الحاكم ، وهناك ثوب الكاهن ، وهناك ثوب المصرفى . وفي هذه الزاوية ثوب الجندي المتقاعد ، وفي تلك الزاوية ثوب الاديب ، وفي مكان أبعد ثوب رجل الدولة . وكان هذا الرجل هو الذى يقدم الملابس للدرامة الهائلة التى يمثلها المكر فى باريس . كان كوخه هو المقصورة التى تنطلق منها اللصوصية ، وينقلب اليها الاختلاس . ووفد على هذه الخزانة نذل رث الثياب ، ودفع ثلاثين سو ، واختار - وفقاً للدور الذى اراد ان يمثله ذلك اليوم - الثوب الذى يلائمه ، وحين رجع

إلى الشارع كان النذل قد أمسى شخصاً ما . وفي اليوم التالي ، أعيدت الثياب في أمانة ؛ إن « المغير » الذي استودع اللصوص كل شيء لم يُسرق قط . وكانت لهذه الملابس علة واحدة ، وهي أنها « لا تلائم » . كانت بوصفها غير مخططة خصيصاً لمن يلبسونها ضيقة على هذا الرجل ، فضفاضة على ذاك ، غير مناسبة لأحد . وكان كل لص متجاوز للمتوسط البشري في الضالة أو الضخامة لا يستشعر الراحة في ثياب « المغير » . ان عليه ان لا يكون بديناً أكثر مما ينبغي ، أو هزيلاً أكثر مما ينبغي . لقد أعد العدة للرجال العاديين فحسب . وكان قد أخذ مقاييس النوع فسي شخص أول وغد صادفه ، ولم يكن هذا الوغد لا بديناً ولا هزيلاً ، ولم يكن لا طويلاً ولا قصيراً . ومن هنا بعض التعديلات ، العسيرة أحياناً ، التي كان زبائن « المغير » يستعينون بها لتحقيق اغراضهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . أما الشواذ فلأهمهم الهبل ! فتوب رجل الدولة ، مثلاً ، الأسود من أعلى إلى أدنى ، والموافق بالتالي ، قد يكون كبيراً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « بيت » ، وصغيراً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « كاستلسيكالا » . وكان ثوب « رجل الدولة » موصوفاً على النحو الآتي في بيان « المغير » - ونحن ننسخ ذلك نسخاً : « ستره من جوخ أسود ، وبنتلون جلدي من صوف أسود مقصّر ، وصدره حريرية ، وحذاء عالي الساق ، وبياضات . » وكان في الهامش : « سفير قديم » وملاحظة ننسخها هنا أيضاً : « في صندوق خاص لمة مستعارة مجمعة على نحو دقيق ، ونظارتان خضراوان ، وجواهر زهيدة القيمة ، وقلمان صغيران من ريش الطير طول كل منهما بوصة ملفوفان بالقطن . » كان هذا كله خاصاً برجل الدولة ، السفير القديم . وكان هذا الثوب كله ، إذا جاز لنا ان نصلطع الكلمة ، مضئاً . كانت الدرزات قد اخذت في الابيضاض ، وكانت عروة غير محددة تبرز في احد المرفقين ، وفوق هذا كان احد الازرار يعوز الثوب فوق صدر السترة . ولكن هذه لم

تكن غير مسألة ثانوية . ولما كان من الواجب ان تصل يد رجس حوت
داخل الثوب دائماً ، وفوق القلب ، فقد كانت وظيفتها إخفاء الحز
القائب .

ولو ان ماريوس كان على معرفة بمؤسسات باريس الخفية اذن لتبين
في الحال ، على ظهر الزائر الذي ادخله باسك اللحظة عليه ، سرة رجل
للدولة المستعارة من خزانة « المغير » .

وانقلبت خيبة أمل ماريوس ـ لدن رؤيته شخصاً آخر يدخل عليه غير الذي توقعه ـ
إلى كراهية للوافد الجديد . وأجال بصره فيه من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ،
فيما انحنت الشخصية في افراط ، وسأله في نبرة حادة :
— « ماذا تريد ؟ »

واجاب الرجل في تكشيرة أنيسة نستطيع ابتسامة التمساح الملائمة
ان تعطي فكرة عنها :

— « يبدو لي من المستحيل ان لا اكون قد حظيت حتى الآن بشرف
رؤية سيدي البارون في المجتمع . انا أعتقد في الواقع اني لقبته على نحو
خصوصي منذ بضع سنوات في قصر السيدة الأميرة باغراسيون ، وصالونات
صاحب السمو الفيكونت دامبري ، عضو المجلس الاعلى . »
إنها لوسيلة ناجحة دائماً ، في عالم اللصوصية والندالة ، أن تعرف
شخصاً لست تعرفه .

وأصغى ماريوس ، في انتباه ، إلى صوت هذا الرجل . وترصد
نبرته وإشارات في لهفة ، ولكن خيبة أمله تعاظمت . كان لفظاً أخن ،
مختلفاً كل الاختلاف عن الصوت الحاد الجاف الذي توقعه . واخذ
انشداه كامل .

وقال :

— « لست اعرف لا مدام باغراسيون ، ولا مسيو دامبري . أنا لم
أطأ طوال عمري بيت هذه أو ذاك . »

كان الجواب فظاً . ولكن الشخص اصر ، رغم ذلك ، في لطف :
— « إذن فينبغي ان اكون قد رأيت سيدي في بيت شاتوبريان !
أنا أعرف شاتوبريان جيداً . إنه لطيف جداً . وهو يقول لي أحياناً :
تينار ، يا صديقي ، اتحب ان تشرب معي كأساً ؟ »
وغدا جيبين ماريوس كالحماً أكثر فأكثر :
— « أنا لم اتشرف في يوم من الايام بزيارة مسيو دو شاتوبريان .
اختصر ! ماذا تريد ؟ »

وتجاه الصوت الاشد قسوة ، انحنى الرجل انحناءة اكبر .
— « سيدي البارون ، تنازل وأصغر الي . إن في اميركة . في منطقة
باناما ، قرية تدعى لا جويبا . وهذه القرية مؤلفة من بيت واحد . بيت
ضخم ، مربع ، ذي ثلاثة ادوار بنيت من لبن ، وطول كل ضلع
من أضلاع المربع خمسمئة قدم ، وكل دور يرتد اثني عشر قدماً وراء
الدور القائم تحته ، بحيث يترك امامه مسطحة تحيط بالبناء ، وفي الوسط
فناء داخلي فيه مؤن وفخائر . لا نوافذ ولكن كوى . لا ابواب ، ولكن
مراق ، مراق للصعود من الارض إلى السطحة الأولى ، ومن الأولى إلى
الثانية ، ومن الثانية إلى الثالثة ، مراق للهبوط إلى الفناء الداخلي . لا
أبواب للغرف ، ولكن مداخل أفقية . لا سلام إلى الغرف ، ولكن
مراق . وفي الليل تغلق المداخل الافقية ، وتسحب المراق إلى الورا ،
وتُسد البنادق القصيرة والبنادق الخفيفة من الكوى . لا وسيلة إلى
الداخل . بيت في النهار ، قلعة في الليل . ثمانية نسمة ، تلك هي
القرية . لم هذا الحذر كله ؟ لأن تلك المنطقة خطيرة ، إنها ملأى
بأكلة لحوم البشر . واذن فلماذا يذهب الناس إلى هناك ؟ لان تلك المنطقة
رائعة ، الذهب موجود هناك . »

فقاطعه ماريوس ، وكان قد شرع ينتقل من خيبة الأمل إلى فراغ
الصبر :

- « ما الذي جاء بك ؟ »
- « من أجل هذا ، يا سيدي البارون . أنا ديبلوماسي عتيق مرهق . لقد استنفدتني الحضارة القديمة . أنا احب ان أجرب المتوحشين . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « سيدي البارون ، الأنانية قانون العالم . ان المرأة الريفية الكادحة التي تشتغل في النهار تستدير حين تمر العربة العامة ، اما المرأة الريفية المالكة التي تشتغل في حقلها هي فلا تستدير . وكاب الفقير ينسح على الغني ، وكلب الغني ينسح على الفقير . كل يفكر في مصالحه . المصلحة هي هدف الناس . الذهب هو حجر المغناطيس . »
- « وبعد ؟ إختتم . »
- « انا ارغب في الذهاب إلى « لا جويا » والاستقرار فيها . نحن ثلاثة . إن عندي زوجتي ، وابنتي الصغيرة ، وهي فتاة جميلة جداً . الرحلة طويلة وغالية . انا في حاجة إلى شيء من المال . »
- فسأله ماريوس :
- « وما علاقتي انا بذلك ؟ »
- وأطلع الرجل المجهول رقبته من خلال رباط عنقه ، وهي حركة من حركات العقاب ، واجاب في ابتسامة مزدوجة :
- « واذن ، فسيدي البارون لم يقرأ رسالتي ؟ »
- ولم يكن ذلك بعيداً عن الصواب . فالواقع ان محتوى الرسالة فات ماريوس . لقد رأى الخط اكثر مما قرأ الكتاب . وكان لا يذكر شيئاً من ذلك ، أو يكاد . ومنذ لحظة كان مفتاح جديد قد قدم اليه . لقد لاحظ هذه الواقعة : « زوجتي ، وابنتي الصغيرة » . وسدد عيناً فاحصة إلى الرجل المجهول . وما كان في ميسور قاض من قضاة التحقيق أن يفعل خيراً من ذلك . لقد بدا وكأنه يكمن له . وأجاب :
- « إشرح . »

وأقحم الرجل المجهول يديه في جيبي سترته ، ورفع رأسه من غير أن يقوم عموده الفقري ، مدققاً النظر بدوره في ماريوس من خلال نظارتيه الخضراوين .

— « ليكن ، يا سيدي البارون . سوف اشرح . إن عندي سرّاً أريد أن أبيعك إياه . »

— « سر ؟ »

— « أجل ، سر . »

— « سر يتصل بي ؟ »

— « بعض الشيء . »

— « ما هذا السر ؟ »

وتأمل ماريوس الرجل ، أكثر فأكثر ، فيما كان يصغي إليه .
فقال الرجل المجهول :

— « سوف أبدأ بالمجان . سوف ترى أن حديثي ممتع . »

— « تكلم . »

— « سيدي البارون ، إن في بيتك لصاً وسفاحاً . »

وارتعد ماريوس .

وقال :

— « في بيتي ؟ لا . »

ومسح الرجل الغريب قبعته بردنه ، وتابع كلامه رابط الجأش :

— « سفاح ولص . إنته ، يا سيدي ، إلى أنني لا أتحدث هنا عن

وقائع قديمة ، بالية ، هرمة ، يمكن أن تسقط بمرور الزمن في نظر

القانون ، أو بالتوبة في نظر الله . أنا أتحدث عن وقائع حديثة ، عن

وقائع فعلية ، وقائع تجهلها العدالة حتى هذه الساعة . سوف أتابع . إن

هذا الرجل قد تسلل إلى ثقتك ، بل إلى أسرتك تقريباً ، تحت اسم

زائف . سوف أقول لك اسمه الحقيقي . وسوف أقوله لك لقاء

لا شيء . »

— « أنا مصنع إليك . »

— « ان اسمه جان فالجان . »

— « أعرف ذلك . »

— « وسوف أقول لك ، لقاء لا شيء أيضاً ، من هو . »

— « قل . »

— « إنه أشغالي قديم . »

— « اعرف ذلك . »

— « انت تعرف ذلك منذ كان في شرف إعلامك . »

— « لا : أنا اعرف ذلك من قبل . »

وكان في نبرة ماريوس الباردة . وهذا الجواب المزدوج . و « اعرف ذلك » . وإيجازه المربك للحوار ما أثار بعض الغضب المكبوت في نفس الرجل المجهول . ورشق ماريوس بنظرة ضارية مختلصة ما لبثت ان خبت . وعلى الرغم من سرعتها البالغة ، فإن هذه النظرة كانت واحدة من تلك النظرات التي تدرك بعد أن ترى مرة واحدة ؛ إنها لم تفت ماريوس . إن بعض الالتفاتات لا يمكن ان تنطلق إلا من نفوس بعينها . ان العين ، نافذة الفكر تلك ، لتوهج بها . وليس في استطاعة النظارتين ان تخفيا شيئاً . ضع زجاجة على الجحيم ، اذن .

واستأنف الرجل المجهول كلامه ، وهو يتسهم :

— « لست اسمح لنفسي ان أناقض سيدي البارون . وعلى اية حال ،

يفبغي ان ترى اني حسن الاطلاع . والآن . ان ما اريد ان اخبرك اياه لا يعرفه احد غيري . إنه يتصل بثروة السيدة البارونة . إنه سر استثنائي . سر للبيع . أنا أقدمه اليك أولاً . ثمن رخيص . عشرون ألف فرنك . »

وقال ماريوس :

- « أنا اعرف هذا السر كما اعرف بقية الاسرار . »
 واستشعر الشخص الحاجة إلى أن يخفض سعره قليلاً .
 — « سيدي البارون ، قل عشرة آلاف فرنك ، وعندئذ اتكلم . »
 — « اكرر القول انه ليس عندك شيء تحبطني به علماً . انا اعرف
 ما تريد اخباري اياه . »
 واومض في عين الرجل بريق جديد . وهتف :
 — « ومع ذلك ، فينبغي ان اتعشى اليوم . إنه سر استثنائي ، اقول
 لك . سيدي البارون ، سوف اتكلم . أنا اتكلم . أعطني عشرين
 فرنكاً . »
 وثبت ماريوس نظراته عليه وقال :
 — « أنا أعرف سر استثنائي ، تماماً كما عرفت اسم جان فاليجان ،
 وكما عرفت اسمك . »
 — « اسمي ؟ »
 — « نعم . »
 — « هذا ليس عسيراً ، يا سيدي البارون . لقد تشرفت بكتابته
 اليك وإعلامك به . تينار . »
 — « ... ديه . »
 — « ايه ؟ »
 — « تينارديه . »
 — « من هذا ؟ »
 أمام الخطر ، يطلع الدليل . أشواكه ، ويتظاهر الجعل بالموت ،
 ويشكل الحرس الوطني القديم مربعاً . أما هذا الرجل فقد بدأ
 يضحك .
 ثم إنه نفخ ، بضربة من سبابته ، ذرة من غبار عن ردن ثوبه .

• pore — épice وهو حيران هائل .

وتابع ماريوس :
 - « وأنت أيضاً العامل جوندرت ، والكوميدي فابانتو ، والشاعر
 جانفلو ، والاسباني دون الفاريز ، والمرأة باليزار . »
 - « أية امرأة ؟ »
 - « وكان عندك مطعم حقير في مونفيرماي . »
 - « مطعم ؟ ابدأ . »
 - « وأنا اقول لك انك تينارديه . »
 - « انا انكر ذلك . »
 - « وانك نذل . خذ . »
 واخرج ماريوس من جيبه ورقة مالية ، وقذف بها في وجهه .
 - « شكراً ! عفواً ! خمسمئة فرنك ! سيدي البارون ! »
 وأمسك الرجل بالورقة المالية ، ذاهلاً ، منحنياً في احترام ، وانشأ
 يتأملها .

وكرر في دهش :
 - « خمسمئة فرنك ! »
 وتلجلج في همس :
 - « خمسمئة فرنك جديدة . »
 ثم هتف :
 - « حسن ، فليكن . فلنأخذ راحتنا . »
 وفي رشاقة قرد خلج محياه كما يخلع المرء قبعته ، راداً شعره إلى وراء
 مقتلاً نظارتيه ، مخرجاً من انفه ومنتشلاً قلمي ريش الطير اللذين تحدثنا
 عنهما منذ لحظة ، واللذين سبق ان رأيناها في صفحة اخرى من
 هذا الكتاب .

والتفت عينه . وبرز جبينه مثلاً ، غير مستوٍ ، محدباً في مواطن ،
 مغضناً من فوق على نحو بشع . وغدا انفه حاداً مثل منقار . وتبدت

من جديد الصورة الجانبية الضارية الذكية الخاصة بالجوارح من الناس .

وفي صوت صاف لم تبق فيه أما خنّة ، قال :
— « ان سيدي البارون معصوم عن الخطأ . أنا تيناردييه . »
وقرّم ظهره المنحني .

كان تيناردييه — فقد كان هذا الرجل هو تيناردييه حقاً — مندهشاً على نحو غريب ، ولقد كان خليقاً به أن يضطرب ويقلق لو ان ذلك ممكن بالنسبة اليه . كان قد وفد ليوقع الدهش ، فاذا به يتلقاه . وهذه الاهانة عادت عليه بخمسة فرك ، ولقد قبلها بعد ان قلب الأمر على مختلف وجوهه . ولكنه ظل مع ذلك مندهلاً .

لقد رأى البارون بونميرسي هذا للمرة الأولى . وعلى الرغم من تنكّره عرفه البارون بونميرسي ، وعرفه معرفة كاملة . ولم يكن هذا البارون تام الاطلاع على كل ما يتصل بتيناردييه فحسب ولكنه بدا كامل الاطلاع على كل ما يتصل بجان فالجان أيضاً . من كان هذا الشاب . الأمرد أو يكاد ، المثلوج إلى أبعد الحدود والسخي إلى أبعد الحدود ، الذي يعرف اسماء الناس ، الذي يعرف جميع اسماهم ، والذي يفتح حافظة نقوده لهم ، والذي يهين الأوغاد مثل قاضي ويدفع اليهم المال مثل أحق ؟

والقاريء يذكر ان تيناردييه ، على الرغم من انه كان جاراً لماريوس . لم يقدر له قط أن يراه ، وهو امر مألوف في باريس . لقد سمع ذات مرة بناته يتحدثن عن شاب فقير جداً يدعى ماريوس كان يسكن في المنزل نفسه . وكان قد كتب اليه ، من غير ان يعرفه ، الرسالة التي نعرفها . لم يكن ممكناً ان تقوم في ذهنه أيما صلة بين ماريوس والسيد بارون بونميرسي .

أما فيما يتصل باسم بونميرسي فالقاريء يذكر ان تيناردييه لم يسمع

منه ، في ساحة القتال بواترلو ، غير المقطعين الاخيرين اللذين كان ينظر اليهما دائماً نظرة الازدراء الشرعي التي نوجهها عادة لما هو مجرد شكر ليس غير .

وإلى هذا ، فمن خلال ابنته آزيلما التي كان كلفها بتعقب اثر العروسين يوم السادس عشر من شباط ، ومن خلال مباحثه الخاصة ، كان قد وفق إلى اكتشاف اشياء كثيرة . ومن اعماق ظلمته كان قد وفق إلى الامساك باكثر من خيط خفي . كان قد اكتشف ، بفضل الصناعة ، أو على الاقل حزرًا ، بفضل الاستقراء ، ذلك الرجل الذي لقيه ذات يوم في البالوعة العظمى . ومن الرجل ، انتهى في سهولة إلى الاسم . لقد عرف ان السيدة البارونة بونيميرسي كانت كوزيت . ولكنه اعترى ان يكون ، من هذه الناحية ، حكيمًا . من كانت كوزيت ؟ إنه هو نفسه ما كان يدري على وجه الضبط . لقد لمح ثمة لا شرعية ما . وكانت قصة فانتين قد بدت له غامضة دائماً ، ولكن ما الفائدة من الخوض في ذلك الموضوع ؟ لكي يتقاضى ثمن سكوته ؟ كان عنده ، أو كان يحسب ان عنده ، شيء يبيعه خير من ذلك . وجميع المظاهر تدل على ان الذهاب إلى البارون بونيميرسي وكشف النقاب امامه ، من غير ما دليل ، عن هذا الأمر : زوجتك ابنة زفا لن يجذب غير حذاء الزوج إلى ظهر الكاشف .

كانت المحادثة مع ماريوس لما تبدأ بعد في نظر تينارديه . لقد اضطر إلى التراجع ، إلى تعديل استراتيجيته ، إلى اخلاء موقع ، أو تغيير جبهة ، ولكنه لم يخسر شيئاً اساسياً ما ، ولقد كانت في جيبه خمسمئة فرنك . وإلى هذا ، فقد كان لديه شيء حاسم يقوله . وحتى أمام هذا البارون بونيميرسي المطلع إلى أبعد الحدود المسلح إلى أبعد الحدود ، استشعر أنه قوي . إن كل حوار هو معركة في عرف من كانت له طبيعة كطيعة تينارديه . وفي ذلك الصراع الذي يوشك ان

ينشب ، ما كان وضعه ؟ إنه ما كان يعرف من مخاطب ، ولكنه كان يعرف عمن كان مخاطبه . واجرى على نحو خاطف هذا الاستعراض الباطني لقواه ، وبعد ان قال : انا تيناردييه ، تمهل .

وظل ماريوس مستغرقاً في التفكير . لقد أمسك ، آخر الأمر ، اذن ، بتيناردييه . هذا الرجل الذي طالما ود لو يعثر عليه من جديد كان الآن أمامه . ان في ميسوره اذن ان ينفذ وصية الكولونيل بونيمرسي . وأخزاه ان يكون هذا البطل مديناً بشيء ما لهذا اللص ، وان يظل سند الدفع الذي حوَّله اليه ابوه من اعماق قبره غير مدفوع حتى ذلك اليوم . لقد بدا له أيضاً ، في الحالة المعقدة التي ألمت بذهنه في ما يتصل بتيناردييه ، ان ههنا فرصة مناسبة للانتقام للكولونيل من نكد الطالع ذاك الذي جعله مديناً بحياته لمثل هذا الوغد . واياً ما كان ، فقد كان يشعر بالارتياح . كان على وشك ان ينفذ طيف الكولونيل ، آخر الأمر ، من هذا الدائن غير الجدير به ، وتراءى له انه يوشك ان يحرق ذكرى أبيه من السجن بسبب الدين .

وإلى جانب هذا الواجب كان عليه واجب آخر : ان يلقي الضوء - إذا استطاع - على مصدر ثروة كوزيت . لقد بدا وكأن الفرصة قد سنحت لذلك . ومن يدري ، فلعل تيناردييه يعرف شيئاً ما . وقد يكون من المفيد سبر هذا الرجل حتى الأعماق ، وبدأ من هنا . كان تيناردييه قد أزل « الخمسمئة فرنك الجديدة » في جيب صدرته ، وكان ينظر إلى ماريوس في وداعة تكاد تكون حنوناً .

وقطع ماريوس جبل الصمت :

- « تيناردييه ، لقد قلت لك اسمك . والآن هل تريد مني ان أعلمك بسرّك ، بذلك الذي جئت تخبرني به ؟ ان لي انا أيضاً استعلاماتي » وسوف ترى اني اعرف عن ذلك أكثر مما تعرف انت . إن جان فالجان كما قلت ، سفاح ولص . لص ، لأنه سرق صناعات غنياً ، مسيو

مادلين ، كان هو سبب افلاسه . وسفاح ، لأنه سفح دم ضابط الشرطة ،
جافير . »

فقال تيناردييه :

« لست افهم ، يا سيدي البارون . »

« سوف اوضح كلامي . اسمع . كان في مقاطعة الـ « بادوكاليه »
حوالى ١٨٢٢ ، رجل كانت له مشكلة قديمة مع العدالة ، وكان قد
تاب وأصلح متخذاً اسم مسيو مادلين . كان قد امسى رجلاً مستقيماً ،
بكل ما في الكلمة من معنى . وبواسطة احدى الصناعات . صناعة الخرز
الأسود ، كان قد انشأ ثروة مدينة بكاملها . اما ثروته الخاصة . فكثرت
قد انشأها أيضاً ، ولكن على نحو ثانوي . ويوجه ما . يتصادف . كان
أبا الفقراء الحانسي . لقد اسس مستشفيات . وفتح مطرسم . وعاد
المرضى ، ومنح البائنة للفتيات ، وأعان الارامل على العيش . وتبشّر
الايتم . كان اشبه ما يكون بوصي على المنطقة . وكان قد رقص الوسم .
وكان قد اختير عمدة . وعرف أشغالي مطلق السراح سر عقوبة أنزلت
ذات يوم بهذا الرجل . وسعى به عند السلطة ، فاعتقل . وافاد من
اعتقاله فوفد على باريس وسحب من لافيت المصرفي - لقد عرفت هذه
الواقعة من امين الصندوق نفسه - بتوقيع زائف مبلغاً يزيد على نصف
مليون كان ملكاً لمسيو مادلين . وهذا الاشغالي الذي سرق مسيو مادلين
هو جان فالجان . أما في ما يتصل بالواقعة الاخرى فليس عندك ما تخبرني
به أيضاً . لقد قتل جان فالجان جافير . قتله بغدارة . وانا ، انا الذي
اخاطبك ، كنت حاضراً . »

والقى تيناردييه على ماريوس تلك النظرة الراشحة بالسلطان ، التي
يلقيها رجل مهزوم أمسك بتلايب النصر ككرة اخرى ، واسترجع منذ
لحظة ، وفي دقيقة واحدة ، كامل الأرض التي خسرها . ولكن الابتسامة
ما لبثت أن عادت في الحال . ان الادنى لا يستطيع ان يتترع من

الارفع غير انتصار رقيق ، واجتزأ تيناردييه بأن قال لماريوس :

« سيدي البارون ، نحن نضل الطريق . »

واكد هذه العبارة بأن راح يدير حزمة جواهره الرخيصة على نحو معبر .

واجاب ماريوس :

« ماذا ! هل تنكر ذلك ؟ هذه حقائق . »

« إنها أوهام . ان الثقة التي بشرفني بها سيدي البارون تجعل من واجبي ان اقول له ذلك . الحقيقة والعدالة قبل كل شيء . أنا لا احب ان ارى الناس يُتهمون اتهاماً ظالماً . سيدي البارون ، إن جان فالجان لم يسرق مسيو مادلين قط ، وجان فالجان لم يقتل جافير قط . »

« انت تتحدث في قوة ! كيف ذلك ؟ »

« لسببين اثنين . »

« ما هما ؟ تكلم . »

« هوذا الأول : إنه لم يسرق مسيو مادلين ، لأن مسيو مادلين

لم يكن غير جان فالجان نفسه . »

« ما هذا الذي تقوله لي ؟ »

« وهوذا الثاني : إنه لم يقتل جافير ، لأن الذي قتل جافير

هو جافير . »

« ماذا تعني ؟ »

« إن جافير انتحر . »

فصاح ماريوس وقد استبد به القلق والاضطراب :

« برهن ذلك ! برهن ذلك ! »

فاستأنف تيناردييه الكلام مقطّعاً جملته كما يُقَطَّع وزن الشعر الالكسندري

القديم :

« ان - رجل - الشر - طة - جا - فير - قد - وجد - غري - قأ -

تحت - قارب - قرب - جسر - الشا - نج . »

— « برهن ذلك اذن ! »

واخرج تيناردييه من جيبه ظرفاً ضخماً رمادي الورق بدا وكأنه ينطوي على اوراق مطوية ذات احجام متفاوتة .
وقال في هدوء :

— « ان عندي وثائقي . »

واضاف :

— « سيدي البارون . من اجل مصلحتك اردت ان اعرف جان فالجان حتى القمر . انا اقول ان جان فالجان ومادلين شخص واحد ، وانا اقول ان جافير لم يقتله احد غير جافير . وحين اتكلم اقدم البراهين على كلامي . لا براهين مخطوطة ، فالكتابة موضع ارتباب . للكتابة ملاطفة ، ولكن براهين مطبوعة . »

وفيما كان تيناردييه يتكلم اخرج من الظرف صحيفتين . صفراوين . ذابلتين ، مشبعتين بالتبغ إشباعاً قوياً . وكانت احدى هاتين الصحيفتين ، المنكسرة عند طياتها جميعاً ، المتساقطة قطعاً مربعة ، تبدو اشد عتقاً من الاخرى .

وقال تيناردييه :

— « حقيقتان ، وبرهانان . »

ونشر الصحيفتين ، وقدمهما الى ماريوس .

والقاريء يعرف هاتين الصحيفتين . إن احدهما وهي الاقدم — نسخة من عدد « الراية البيضاء » الصادر في ٢٥ تموز ١٨٢٣ والمنطوي على نص يستطيع القاريء ان يجده على الصفحة ١٠٢ من المجلد الثاني من هذا الكتاب — تقيم الدليل على ان مسيو مادلين وجان فالجان شخص واحد . والثانية ، عدد صحيفة « المونيتور » الصادر في ١٥ حزيران ١٨٣٢ ، تثبت انتحار جافير ، وتضيف قائلة إنه يستفاد من تقرير شفهي

قدمه جافير إلى مدير الشرطة ان جافير ، وقد أسير في متراس شارع الشانفريري ، كان مدينًا بحياته لشهامة متمرد عمد ، على الرغم من انه — جافير — كان تحت رحمة غدارته ، إلى اطلاق النار في الهواء بدلا من اطلاقها على رأسه .

وقرأ ماريوس . كان ثمة دليل ، وتاريخ ثابت ، وبرهان لا سبيل إلى الشك فيه . إن هاتين الصحيفتين لم تطبعوا خصيصاً لتأييد أقوال تيناردييه . وكانت الكلمة المنشورة في ال « مونيور » بلاغاً رسمياً صادراً من مديرية الشرطة . ولم يكن في ميسور ماريوس ان يشك . كانت المعلومات التي استمدها من امين الصندوق الموظف في المصرف خاطئة ، وكان هو نفسه مخدوعاً . وانبتق جان فالجان — وقد تعاضم فجأة — من وسط السحب . ولم يستطع ماريوس ان يكتف صيحة فرح : — « حسن ، اذن ، فهذا الرجل التعس رجل رائع . لقد كانت تلك الثروة كلها ثروته حقاً ! انه مادلين ، النعمة المقيضة لمنطقة برمتها ! إنه جان فالجان ، منقذ جافير ! إنه بطل ! إنه قديس ! »

فقال تيناردييه :

— « إنه ليس قديساً ، وإنه ليس بطلا . إنه سفاح ولص . »
واضاف في نبرة رجل شرع يستشعر بعض السلطان :
— « فلنكن هادئين . »

لص ، سفاح ، كانت هاتان الكلمتان اللتان افترض ماريوس انها اختفتا ، واللذان رجعتا كرة اخرى ، قد سقطتا عليه كسقوط وابل مشلوج .

وقال :

— « أيضاً . »

فأجاب تيناردييه :

— « اجل ! إن جان فالجان لم يسرق مادلين ، ولكنه لص . إتهم
بقتل جافير ولكنه سفاح . »
فعاد ماريوس إلى القول :

— « اتريد ان تتكلم عن تلك السرقة التافهة التي قام بها منذ اربعين
سنة ، والتي كَفَّرَتْ عنها ، كما يستفاد من صحيفتيك نفسيهما ، حياة
كاملة من التوبة ، وانكار الذات ، والفضيلة ؟ »

— « لقد قُلْتُ سرقة وقتلا . وانا اكرر اني اتكلم عن وقائع
حقيقية . إن ما اريد ان اكشف لك النقاب عنه مجهول تماماً . إنه مما لم
ينشر من قبل . ولعلك ان تجد فيه مصدر الثروة التي قدمها جان فالجان ،
في حذق ، إلى السيدة البارونة . أقول في حذق ، لأن انسلاله بهيئة
من هذا النوع إلى بيت شريف سوف يشارك هو في مناعمه ، واخفائه
في الوقت نفسه جريمته ، واستمناعه بسرقة ، ودفنه اسمه ، واختلاق
اسرة لنفسه ... كل ذلك ليس شيئاً تعوزه البراعة كثيراً . »
فلاحظ ماريوس قائلاً :

— « في ميسوري ان اقاطعك هنا . ولكن اكمل . »
— « سيدي البارون ، سوف اخبرك بكل شيء . تَرَكْتُ كومة
إلى كرمك . إن هذا السر يساوي كومة من الذهب . سوف تحول جـ :
لماذا لم تذهب إلى جان فالجان ؟ لسبب بسيط جداً : أنا أعرف انه تخفى
عن كل شيء ، وتخفى عن كل شيء لصالحك ، وأنا أرى ان ذلك
التدبير بارع ، ولكنه لم يبق معه درهم واحد ؛ إنه سوف يريني يديه
الفارغتين ، ولما كنت في حاجة إلى شيء من المال من أجل رحلتي إلى
« لا جوبا » فأنا افضلك ، انت الذي تملك كل شيء ، عليه ، هو
الذي لا يملك شيئاً . أنا متعب بعض الشيء ، اسمح لي بأن اجلس . »
وجلس ماريوس ، واوما إليه أن يجلس .
لقد استقر تينارديه في كرسي مزود بحشية ، واستعاد صحيفتيه ،

وأقحمهما في الظرف ، وغمغم ناقرأ « الراية البيضاء » بظفروه : « لقد اقتضاني الحصول على هذه جهداً شاقاً . » قال ذلك ، ووضع رجلاً على رجل ، واستلقى على ظهر كرسيه ، وهو وضع مميز للناس الواثقين مما يقولون ، ثم دخل في الموضوع في نبذة من الجسد ، مؤكداً الكلمات :

— « سيدي البارون ، في اليوم السادس من حزيران ، ١٨٣٧ ، منذ سنة تقريباً ، وفي يوم الفتنة ، كان رجل في البالوعة باريس العظمى ، قرب مصب البالوعة في الـ « سين » ، بين جسر الانفاليد وجسر ايننا . » وفجأة قرّب ماريوس كرسيه إلى كرسي تينارديه . ولاحظ تينارديه هذه الحركة ، وتابع كلامه في تودة متحدثٍ مسيطر على من يخاطبه ، مستشعر خفقان قلب خصمه تحت كلماته :

— « كان هذا الرجل ، المضطر إلى إخفاء نفسه ، لأسباب لا صلة لها بالسياسة ، قد اتخذ من البالوعة مأوى له ، وكان يملك مفتاحاً لها . وكان ذلك — وأنا أكرر هذا — في السادس من حزيران . ولعل الساعة كانت الثامنة مساء . وسمع الرجل صوتاً في البالوعة . واذ اخذه الدهش الشديد ، فقد اختبأ ، وترصد . كان وقع خطي : ان شخصاً كان يمشي في الظلام ، ان شخصاً كان يتقدم نحوه . شيء غريب ، لقد كان ثمة في البالوعة شخص آخر غيره . ولم تكن شبكة منفذ البالوعة بعيدة . ومكث الضوء الضئيل النافذ من خلالها من ان يتبين الوافد الجديد ، وان يرى انه كان يحمل على ظهره شيئاً . لقد مشى محدودباً . وكان الرجل الماشي محدودباً رجلاً حُكِمَ عليه سابقاً بالاشغال الشاقة ، وكان ما عمله على كتفيه جثة . قتل بالجرم المشهود ، إذا كان ثمة شيء مثل ذلك . أما السرقة فتتبع طبعاً . فالمرء لا يقتل رجلاً من أجل لا شيء . وكان ذلك الاشغالي يعترم ان يلقي الجثة في النهر . ولأنها لحقيقة جديدة بالذكر أن هذا الاشغالي الذي اقبل من مكان بعيد في البالوعة كان قد اضطر ،

قبل ان يصل إلى متعلقه . إلى أن يجترّ موحلاً رهيباً
يعترم ترك الجثة فيه . ولكن في هلهة الخلل . كذلك حيث يرجح ويرجع
العاملين في الموحل . أن يجدوا في اليوم التالي جثة الرجل لقتيل . ويبت
هذه بغية القاتل . من أجل ذلك أثر ان يمضي بحمله عبر الموحل . ولا
ريب في ان جهوده التي بذلها كانت رهيبة . ومن المستحيل تعريض
حياة امرئ لخطر أعظم من ذلك . أنا لا أفهم كيف خرج من هناك
حيّاً . »

واقترب كرسي ماريوس اقتراباً اضافياً . واغتمت تيناردييه هذه الفرصة
لكي يأخذ نفساً طويلاً . ثم أكمل :

« سيدي البارون ، البالوعة ليست الشان دو مارس . . إن المرء
يعوزه كل شيء هناك . حتى المجال . وحين يكون رجلان في البالوعة
فلا بد لهما من ان يلتقيا . وهذا ما حدث . واضطر المقيم وعساكر
السبيل إلى ان يتبادلا التحية . على كره منهما لذلك . وقال عابر السبيل
للمقيم : « انت ترى ما أحمله على ظهري . إن عليّ ان اخرج . ان
معك المفتاح . أعطني اياه . » وكان ذلك الاشغالي رجلاً ذا قوة فظيعة .
ولم يكن الرفض ممكناً . ومع ذلك ، فقد عمد صاحب المفتاح إلى التفاوض
ابتغاء كسب الوقت ليس غير . لقد فحص الرجل الميت . ولكنّه لم
يستطع ان يرى شيئاً . ما خلا انه كان شاباً . حسن البزة ، غنياً في
ما يظهر . مشوهاً بالدم تشوهاً كاملاً . وفيما هو يتحدث وجد
وسيلة إلى ان يقطع وينتزع من وراء . دون ان يلحظ القاتل ذلك ،
جزءاً من سترة القاتل . وثيقة مؤيدة للتهمة ، كما تعلم . وسيلة لتعقب
آثار المسألة . ولأقامة الدليل على جريمة المجرم . ووضع تلك الوثيقة
في جيبه . وبعد ذلك فتح الشبابة الحديدية ، ومكن الرجل من الخروج
وحمله على ظهره . واقفل الشبابة من جديد وفرّ ، حريصاً اقل
الحرص على ان يتورط في بقية المغامرة ، وغير راغب على الخصوص

في أن يكون حاضراً حين يلقي القسائل القليل في النهر . انت تفهم الآن . ان ذلك الذي كان يحمل الجثة ، هو جان فالجان . وذلك الذي كان يحمل المفتاح يخاطبك الآن ، والقطعة المنتزعة من السترة ... »

وانهى تيناردييه العبارة بأن سحب من جيبه ، ورفع إلى مستوى عينيه بين إبهاميه وسبابتيه ، قطعة من جوخ اسود بال ، مغطاة كلها ببقع داكنة .

كان ماريوس قد نهض ، شاحباً ، مبهوراً ، مسدد العين إلى قطعة الجوخ الأسود . ومن غير ان ينطق بكلمة ، ومن غير ان يرفع عينه عن هذه المزرقة ، تراجع إلى الجدار ، وييده اليمنى الممدودة خلفه راح يتلمس الجدار باحثاً عن مفتاح كان في قفل خزانة قائمة قرب الموقد . ووجد ذلك المفتاح ، وفتح الخزانة ، واقحم ذراعه فيها من غير ان ينظر ، ومن غير ان يرفع عينيه المدعورتين عن المزرقة التي كان تيناردييه يعرضها عرضاً .

وفي غضون ذلك تابع تيناردييه كلامه :

« سيدي البارون ، ان عندي اقوى الاسباب للاعتقاد بأن القتل الشاب كان غريباً مثرياً استدرجه جان فالجان إلى فخ ، وحاملاً لمبلغ مالي ضخم . »

وهنا صاح ماريوس ، طارحاً على السجادة سترة عتيقة سوداء ملطخة كلها بالدم :

« هذا الشاب هو أنا . وهذه هي السترة ! »

ثم انتزع المزرقة من بين يدي تيناردييه ، وانحنى فوق السترة . ووضع تلك الخرقه في المكان الممزق منها . وتلاصمت أطرافها تلاوئماً كاملاً . ان المزرقة قد أكملت السترة .

وتحجّر تيناردييه . وقال في ذات نفسه : « لقد هزمت . »

ونهض ماريوس ، مرتعداً ، يائساً ، متألقاً .
وبحث في جيبه ، ومشى ، هائجاً ، نحو تيناردييه ، مقدماً اليه ،
بل دافعاً نحو وجهه تقريباً ، قبضته الملائى بالاوراق المالية ذات الخمسة
فرنك والالف فرنك .

— « أنت نذل ! أنت كذاب ، مفتر ، مجرم . لقد جئت تتهم
هذا الرجل ، فبرأته . اردت ان تحطمه فلم توفق إلا إلى تمجيده .
وانما أنت ، أنت اللص ! وانما انت ، أنت السفاح ! لقد رأيتك ،
يا تيناردييه ، يا جوندريت ، في ذلك الوكر الذي في « جادة المستشفى » .
أنا اعرف عنك ما يكفي لارسالك إلى سجن الاشغال الشاقة . بل إلى
أبعد من ذلك ، إذا شئت . خذ ، هذه الف فرنك ، ايها المتحذلق
الشفقي ! »

وقذف بورقة الف فرنك إلى تيناردييه .

— « آه ! جوندريت تيناردييه ، ايها النذل الخسيس ! ليكن ذلك
درساً لك ، ايها المتعيش بالاسرار ، المتاجر بالخفايا ، الباحث في الظلام !
وغد ! خذ هذه الخمسة فرنك ، واترك هذا المكان . ولنصنك
واترلو . »

وغمغم تيناردييه واضعاً الخمسة فرنك في جيبه مع الالف فرنك :
— « واترلو ! »

— « اجل ، ايها السفاح ! لقد انقذت هناك حياة كولونيل ... »
فقال تيناردييه رافعاً رأسه :

— « حياة جنرال . »

فأجاب ماريوس في هياج :

— « حياة كولونيل . أنا لا ادفع فلساً واحداً من اجل جنرال .

وجئت إلى هنا لكي ترتكب مخازيك ! اقول لك انك اقررت الجرائم
جميعاً . اذهب ! اغرب عن وجهي ! كن سعيداً بمفردك ، هذا كل

ما ارغب فيه . آه ! ايها الهولة ! لا يزال هناك ثلاثة آلاف فرنك .
خذها . سوف تسافر غداً إلى اميركة ، مع ابنتك ، لأن امرأتك قد
ماتت ، ايها الكذاب المقيت ! سوف اتدبر أمر سفرك ، ايها اللص ،
ولسوف ادفع لك ، عندئذ ، عشرين الف فرنك . اذهب وعرض نفسك
للشنق في مكان آخر . »

فقال ماريوس ، وهو ينحني حتى الارض :

— « سيدي البارون ، أنا اعترف بجميلك إلى الأبد . »

وخرج تيناردييه ، غير فاهم شيئاً ، ذاهلاً ومنتشياً بهذا الانسحاق
العذب تحت اكياس الذهب وبهذه الصاعقة المنفجرة فوق رأسه اوراقاً
نقدية .

كان مصعوقاً ، ولكنه كان سعيداً أيضاً . ولقد كان خليقاً به أن
يغضب غضباً شديداً لو أعطي مائة صواعق بدلا من تلك الصاعقة .
فلنتنه من هذا الرجل في الحال . فبعد يومين انقضيا على الاحداث
التي نرويها في هذه اللحظة ، سافر ، باشراف ماريوس وعنايته ، إلى
اميركة ، تحت اسم زائف ، تصحبه ابنته آزيلما ، وفي جيبه حوالة على
نيويورك بعشرين الف فرنك . ولكن تيناردييه ، شقاء تيناردييه الأخلاقي ،
هذا البورجوازي المنهار ، كان ممتنعاً على العلاج . كان في اميركة ما
كانه في اوروبا . إن لمسة من رجل شرير كثيراً ما تكفي لأفساد عمل
صالح واستخراج شيء رديء منه . فبأموال ماريوس ، أمسى تيناردييه
نحاساً .

وما ان خرج تيناردييه ، حتى هرع ماريوس إلى الحديقة حيث كانت
كوزيت لا تزال تتمشى .

وصاح :

— « كوزيت ! كوزيت ! تعالي ، تعالي بسرعة . فلنذهب .

باسك ، إيتنا بعربة كراء ! كوزيت ، تعالي . اوه ، يا الهي ! إنه

هو الذي انقذ حياتي ! ينبغي ان لا نضيع دقيقة واحدة ! ضعي شالك عليك . »

وحسبته كوزيت مخبولا ، وأطاعت .
ولم يأخذ نفساً ، ووضع يده على قلبه لكي يكتب خفقاته . وأنشأ يذرع المكان جيئة وذهوباً في خطى واسعة ، وعسانتي كوزيت قائلًا :

— « أوه ! كوزيت ! أنا رجل تعس ! »
كان ماريوس ذاهلاً . لقد بدأ يرى في جان فالجان هذا صورة محزونة شاحخة على نحو غريب . وبرزت امامه فضيلة لا تضاهى ، فضيلة سنية ووديدة ، متواضعة في عظمتها . لقد تحول الاشغالي إلى يسوع المسيح . وشده ماريوس بهذه المعجزة . إنه لم يدر على وجه الضبط ما قد رأى ، ولكن ما رآه كان جليلاً .

وفي لحظة ، كانت إحدى عربات الكراء بالبواب .
وساعد ماريوس كوزيت في امتطاء متن العربة ، ثم وثب هو إليها .
وقال :

— « إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ ، أيها السائق . »
وانطلقت العربة .
وقالت كوزيت :

— « أوه ! يا للسعادة ! شارع الرجل المسلح ! أنا لم أجروا على ان احثك عنه كرة أخرى . انا سوف نرى مسيو جان . »
— « أبوك ! كوزيت ، أبوك أكثر منه في امّا وقت مضى . كوزيت ، لقد حزرت . لقد اخبرني انك لم تتسلمي قط الرسالة التي وجهتها اليك مع غافروش . لا بد أنها قد وقعت في يديه . كوزيت ، لقد مضى إلى المتراس لكي ينقذني . واذا كان شيئاً ضرورياً عنده أن يكون ملاكاً ، فقد أنقذ — خلال ذلك — الآخرين أيضاً . لقد انقذ

جافير . لقد اختطفني من تلك الهوة لكي يمنحك اياي . لقد حملني على ظهره في تلك البسالة الرهيبة . اوه ! أنا كافر بالنعمة على نحو رهيب . كوزيت ، لقد كان هو العناية الالهية بالنسبة الي ، بعد ان كان العناية الالهية بالنسبة اليك . حسبك ان تفكري انه كان ثمة موحد مخيف كاف لاغراقه مئة مرة ، لاغراقه في الوحد ، يا كوزيت ، وانه حملني عبر ذلك الموحد . كنت غائبا عن الوعي ، انا لم ار شيئا ، أنا لم اسمع شيئا ، ولم يكن في ميسوري ان اعرف شيئا عن مصيري نفسه . سوف نرجع به الى بيتنا ، سوف نصطحبه ، سواء أرضي أم لا ، ولن يتركنا بعد اليوم ابداً . شرط أن يكون في المنزل فقط ! شرط ان نجسده فقط ! أنا على استعداد لأن أنفق بقية عمري في توقيره واجلاله . أجل ، لا شك ان هذا ما وقع ، ألا تسريبن يا كوزيت ؟ لا ريب في ان غافروش قد أسلمه رسالي . لقد فسر كل شيء . أنت تفهمين . »

ولم تفهم كوزيت كلمة .

وقالت له :

« لقد أصبت . »

وفي غضون ذلك ، جرت العربة .

٥

ليل يعقبه فجر

وأدار جان فالجان رأسه لدن سماعه قرعاً على باب غرفته .

وقال في وهن :

« أدخل . »

وفتح الباب . وبرزت كوزيت وماريوس .

واندفعت كوزيت إلى الغرفة .

وظل ماريوس على العتبة ، متكئاً على قائمة الباب .

— « كوزيت ! »

قال جان فالجان ذلك ، ونهض في كرسيه ، باسط الذراعين ،

مرتعداً ، ذاهلاً ، شديد الشحوب ، كالع الوجع ، مغمم العينين بابتهاج عظيم .

وارتمت كوزيت ، وقد خنقها الانفعال ، على صدر جان فالجان .

وقالت :

— « أبي ! »

وتتمتم جان فالجان ، وقد استبد به اضطراب عاصف :

— « كوزيت ! هي ؟ انت ، ايها السيدة ! هذا أنت ! آه ،

يا الهي ! »

وهتف ، وهو مهصور بين ذراعي كوزيت :

— « هذا أنت ! انت هنا ! انت تغفرين لي اذن ! »

وخفض ماريوس جفنيه لكي يمنع دموعه من التحدر ، وتقدم خطوة ،

وغمغم بين شفثيه اللتين كانتا متقلصتين في تشنج لكي تكبتا الزفرات :

— « أبي ! »

فقال جان فالجان :

— « وأنت أيضاً تغفر لي ! »

ولم يستطع ماريوس أن يقول كلمة . واضاف جان فالجان :

— « شكراً ! »

ونزعت كوزيت شالها ، وطرحت قبعتها على السرير .

وقالت :

— « انها يضايقاني ؟ »

وجلس على ركبتي العجوز . وبحركة فائنة ازاحت شعره الاشيب ،
وطبعت على جبينه قبلة .

ولم يبدِ جان فالحجان ، في انشداهه ، اما معارضة .
وضاعفت كوزيت — التي لم تفهم ذلك إلا فهماً مشوشاً — ملاطفاتها ،
وكأنما كانت تريد ان تفني دين ماريوس ؟
وتلجج جان فالحجان :

— « ما احمق الانسان ! لقد ظننت أنني لن أراها ثانية البتة . حسبك
ان تفكر ، يا مسيو بونميرسي ، انني كنت اقول لنفسي ، لحظة دخلتما:
قضي الأمر . هوذا ثوبها الصغير ، أنا رجل بائس ، أنا لن ارى كوزيت
بعد اليوم . كنت اقول هذا وأنتما ترتقيان السلم . هل كنت أبلسه ؟
اجل ، ما أكثر ما يصيبنا البله ! ولكننا لا ندخل الله في الحساب .
يقول الله : انت تظن انك سوف تهجر وتدخل عني ، ايها الاحمق ؟
لا . لا ، ان الامور لن تجري على هذه الشاكلة . هيا ، إن ثمة رجلاً
بائساً في حاجة إلى ملاك . ويجيء الملاك ، وأرى كوزيت من جديد !
وارى حبيتي كوزيت من جديد ! أوه ! لقد كنت بائساً جداً ! »

وظل لحظة عاجزاً عن الكلام ، ثم تابع :

— « كنت حقاً في حاجة إلى أن أرى كوزيت ، فترة قصيرة ، بين
الفينة والفينة . ان القلب ليجتاح إلى عظم يقرضه . ومع ذلك ، فقد
شعرت جيداً أنني عقبة في الطريق . وقدمت إلى نفسي اعداراً : لأنهم
في غير حاجة اليك ؛ إبقى في زاويتك ؛ ليس لك الحق في البقاء إلى
الابد . آه ! تبارك الله ، إنني اراها من جديد ! هل تعرفين ، يا
كوزيت ، ان زوجك وسيم جداً ؟ آه ! ان طوق ثوبك الموشى لجميل ؟
نعم ، نعم ، أنا أحب هذا الرسم . إن زوجك هو الذي اختاره ،
ليس كذلك ؟ وإلى هذا ، فينبغي ان يكون عندك ثياب مخيطة مسن

نسيح كشمير . أيها السيد يونيميرسي ، دعني اخاطبها بضمير المفرد . ان ذلك لن يدوم طويلا . »

وتابعت كوزيت من جديد :

— « كيف اجزت لنفسك ان تفارقنا على هذه الصورة ؟ إلى أين ذهبت ؟ لماذا طالت غيبتك إلى هذا الحد ؟ ان رحلاتك في الايام السابقة ما كانت تستغرق أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة أيام . لقد ارسلت نيقوليت ، فكان الجواب دائماً : انه غير موجود . ومتى كانت عودتك ؟ لماذا لم تحطنا علماً ؟ هل تعلم انك تغيرت كثيراً ؟ آه ، يا للآب الحبيب ! لقد كان مريضاً ، ونحن لا نعرف ذلك ! ماريوس ، إلمس يده ، ما اشد برودتها ! »

وكرر جان فالجان :

— « واذن فأنت هنا ! أيها السيد يونيميرسي ، إنك تغفر لي ! »
وعند هذه الكلمات ، التي كان جان فالجان قد أعادها للمرة الثانية ، وجد كلُّ ما فاض في قلب ماريوس منفذاً . فانتفجر قائلاً :

— « كوزيت ، هل تسمعين ؟ ذلك شأنه دائماً ! إنه يتمس عتوي . وهل تعلمين أي خدمة اسداها الي ، يا كوزيت ؟ لقد تقمّ حياتي . لقد فعل أكثر من ذلك . لقد اعطاني اياك . وبعد أن اتقنتي . وبعد أن اعطاني اياك ، يا كوزيت ، ما الذي فعله بنفسه ؟ لقد ضحى بنفسه . هوذا الرجل ! وهو يقول لي ، أنا الكافر بالجميل ، أنا الكثير النسيان ، أنا العديم الرحمة ، أنا المجرم — يقول لي : شكراً ! كوزيت ، لو انفقت حياتي كلها على قدمي هذا الرجل لكان ذلك أقل مما ينبغي . لقد اجتاز ذلك المتراس ، تلك البالوعة ، ذلك الاتون ، ذلك المستنقع ، بل لقد اجتاز كل شيء من اجلي ، من اجلك يا كوزيت ! لقد حملني عبر ضروب الموت كلها ، التي ازاحها عني وارفضها لنفسه . إنه يتحلى بالشجاعات كلها ، بالفضائل كلها ، بالبطولات كلها ، بالقداصات كلها .

كوزيت ، إن هذا الرجل ملاك ! »

— « صه ! صه ! لماذا تقول هذا كله ؟ »

فهتف ماريوس في غضب مشوب بالاجلال :

— « ولكن أنت ! لم لم تبع بذلك ؟ انها غلطتك أيضاً . انت تنقذ

حيوات الناس وتخفي ذلك عنهم ! بل انت تذهب إلى أبعد من ذلك ، بحجة رفع القناع عن وجهك ؛ انت تفترى على نفسك . هذا شيء رابع . »

فأجاب جان فالجان :

— « لقد قلت الحق . »

فقال ماريوس :

— « لا . الحق هو الحق كاملاً . وانت لم تقل الحق كاملاً . لقد

كنت مسيو مادلين ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ لقد انقذت جافير . فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ أنا مسدين لك بحياتي ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ »

— « لأنني فكرت مثلك . لقد وجدت انك على صواب . كان من الضروري أن أمضي لسبيلي . ولو انك عرفت مسألة البالوعة تلك اذن لأبقيتني معك . وهكذا كان علي ان ألترم الصمت . ولو اني تكلمت لأربكتكم جميعاً . »

— « اربكت ماذا ! اربكت من ! هل تظن انك سوف تبقى

هنا ؟ سوف نصحبك معنا . آه ، يا الهي ! حين افكر اني لم اعرف هذا كله إلا مصادفة ! سوف نصحبك معنا . انت جزء منا : انت أبوها وأبي . انك لن تقضي يوماً آخر في هذا المنزل الرابع . لا تتخيل انك سوف تكون هنا غداً . »

فقال جان فالجان :

— « غداً لن اكون هنا ، ولكني لن اكون في بيتكم . »

فأجاب ماريوس :

— « ماذا تعني ؟ آه ، فهمت ، اننا لن نسمع لك بالقيام بأي رحلة بعد اليوم . انك لن تفارقنا كرة اخرى . أنت ملك لنا . انسا لن ندعك تذهب . »

واضافت كوزيت :

— « سوف يكون ذلك إلى الأبد ، هذه المرة . ان معنا حربسة تحت . سوف ارفعك . وسوف الجأ إلى القوة . إذا كان ذلك ضرورياً . »

وضحكت ، وقامت بحركة توحى بأنها سوف ترفع الرجل العجوز بين فراعنها حقاً .
وتابعت :

— « إن غرفتك لا تزال في بيتنا . ليتك تعرف ما أهدى الحديقة في هذه اللحظة . ان الغار الشيعي لينمو نمواً حسناً . والمجازات مفروشة برمل النهر . إن ثمة بعض الاصداف البنفسجية الصغيرة . وسوف تأكل شيئاً من توتي الافرنجي . إني اسقيه بنفسني . وليس هناك بعد اليوم « سيدتي » وليس هناك « مسيو جان » أيضاً . نحن جمهورية ، وكل الناس يستعملون ضمير المخاطب المفرد ، أليس كذلك يا ماريوس ؟ لقد تغير البرنامج . ليتك تعرف يا أبي ، لقد كنت محزونة ، كان ثمة عصفورة من عصافير « أبي الحناء » أقامت عشها في فجوة بالجدار ، فجاء هرّ رهيب وأكلها لي ! مسكينة عصفورتي تلك الصغيرة الجميلة ! لقد وضعت رأسها على نافذتها ونظرت الي ! وبكيت عليها ! ولقد كنت مستعدة لأن اقتل الهرة . أما الآن ، فأنا احداً لا يبكي . القوم كلهم يضحكون ، القوم كلهم سعداء . انت سوف تذهب معنا . ما أعظم السعادة التي ستعمر جدي ! سوف تكون لك مسكبتك في الحديقة ، وسوف تعني بزراعتها بنفسك : وسوف ترى هل سيكون

توتك الافرنجبي جميلا مثل توتي ؟ ثم اني سأعمل اي شيء تريده ،
ثم انك تستطيعني . »

وأصغى جان فالجان لها من غير ان يسمعها . لقد سمع موسيقى
صوتها اكثر مما سمع معاني كلامها . ونبتت في عينه ، يبطء ، احدى
تلك العبرات الكبار ، التي هي لآلىء النفس القائمة . وغمغم :
« إن وجودها هنا هو الدليل على رحمة الله . »

وصاحت كوزيت :

« أبي ! »

فتابع جان فالجان :

« صحيح جداً ان حياتنا معاً سوف تكون فائتة . إن اشجارهما
حافلة بالطيور . وسوف أتمشى مع كوزيت . إن من الجميل ان يكون
المرء مع أناس يحبون ، ويتبادلون التحية ، ويتنادون إلى الحديقة .
ولسوف يرى كل منا الآخر منذ الصباح . ولنسوف يعنى كل منا بزراعة
زاويته الصغيرة . سوف تدعني آكل توتها الافرنجبي ، ولنسوف ادعها
تقطف ورودي . سوف يكون ذلك فائتاً . لولا ... »
وتهمل ، ثم قال في وهن :

« يا للخسارة ! »

ولم تتحدر الدمعة ؛ لقد ارتدت على عقيبها ، واستعاض جان فالجان
عنها بابتسامة .

وأمسكت كوزيت بيدي العجوز كليهما بيديها .

وقالت :

« يا الهاتي ! لقد أمست يدك أبرد مما كانتا . هل انت مريض ؟
هل تحسن بألم ؟ »

فأجاب جان فالجان :

« لا . أنا في حال جيدة جداً . لولا ... »

وكف عن الكلام .
- « لولا ماذا ؟ »
- « سوف أموت في الحال . »
وارتعدت كوزيت وماريوس .
وصاح ماريوس :
- « تموت ! »
فقال جان فالفجان :
- « اجل . ولكن هذا ليس شيئاً ذا بال . »
وتنفس . وابتسم . وتابع :
- « كوزيت ، انت تتحدثين الي . تابعي ، تحدثني من جديد ،
لقد ماتت عصفورتك الصغيرة اذن ؟ تكلمي ، دعيني اسمع
صوتك ! »
وحقق ماريوس . وقد تحجر : إلى الرجل العجوز .
وأطلقت كوزيت صيحة ثاقبة :
- « أبي ! أبي ! سوف تحيا . لا بد ان تحيا . سأجعلك تحيا ،
أسمع انت ! »
ورفع جان فالفجان رأسه ، نحوها ، في تقديس .
- « آه ، اجل ، حظري عليّ الموت . من يدري ؟ لعلي اطيع .
لقد كنت على عتبة الموت حين جئت . ولقد حال ذلك بيني وبين
الموت . لقد بدا لي اني ولدت من جديد . »
فنهتف ماريوس :
- « انت مفعم بالقوة والحياة . أتحسب ان الناس يموتون على هذه
الصورة ؟ لقد ألمّ بك حزن ، ولكنك لن تعرف الحزن بعد اليوم . أنا
واسألك العفو الآن ، واسألك اياه راکعاً على ركبتي ! انك سوف تحيا ،
تحيا معنا . وتحيا طويلا . سوف نرجس بك إلى بيتنا . ولن يسكون

لأحد منا كلينا غير هم واحد ، منذ اليوم ، هو إسعادك .
واضافت كوزيت والدمع يتحدر من عينيها :

— « انت ترى ان ماريوس يقول انك لن تموت .
وظل جان فالجان يبتسم .

— « إذا ارجعتني معك ، ايها السيد بونميرسي ، فهل يجعلني ذلك
غير ما أنا ؟ لا . لقد فكر الله كما فكرت انت وفكرت أنا ، وهو لم
يغير رأيه ، من الخير ان امضي لسيلتي . الموت تسوية جيدة . الله
يعرف حاجتنا اكثر مما نعرفها نحن . لا ريب في ان سعادتكما ،
وفوز مسيو بونميرسي بكوزيت ، واقتران الشباب بالصبح ،
وكونكما محاطين ، يا ولدي ، بالزنايق والعنادل ، وكون حياتكما
واحة خضراء تحت أشعة الشمس ، وامتلاء نفسيكما برُقى السماء جميعاً ،
واحتضاري الآن ، أنا الذي لا أصلح لشيء ، لا ريب في ان هذا
كله حسن . إسمع ، يجب ان نكون عاقلين ، ليس ثمة شيء آخر
ممكن الآن ؛ أنا واثق من ان كل شيء قد انتهى . منذ ساعة ،
أغمي علي . ثم اني ، في الليلة الماضية ، شربت ذلك الاناء الملئ
ماء . ما اطيب زوجك ، يا كوزيت ! إنك معه اسعد منك معي . »
وسمع صوت لدى الباب . كان الطبيب قد أقبل .
وقال جان فالجان :

— « مرحباً ، ايها الطبيب ، ووداعاً . ها هما ولدائي المسكينان .
واقترب ماريوس من الطبيب . ووجه اليه هذه الكلمة المفردة :
« سيدي ؟ ... » ولكن كان في طريقة تلفظه بها سؤال كامل .
واجاب الطبيب عن السؤال بنظرة معبرة .
وقال جان فالجان :

— « إن كون الاشياء غير سارة ليس سبباً يبرر ظلمنا لله .
وساد صمت . كانت الصدور كلها منقبضة .

والتفت جان فالجان نحو كوزيت . وشرع يحرق اليها وكأنه يأخذ
نظرة ينبغي أن تدوم عبر الأبدية . وفي اعماق الظلمة التي كان قد
انحدر اليها ، كان لا يزال في ميسوره ان ينعم ، من طريق النظر إلى
كوزيت ، بالنشوة الروحية . لقد اضاء انعكاس ذلك المحيا العذب وجهه
الشاحب . إن القبر قد يكون له سحره أيضاً .
وجس الطبيب نبضه .

وغمغم ، ناظراً إلى كوزيت وماريوس :
— « آه ، انكما انتما اللذان كان في أمس الحاجة اليهما . »
ثم انحنى فوق اذن ماريوس ، واضاف في صوت خفيض جداً :
— « لقد فات الأوان . »

والقى جان فالجان على الطبيب وماريوس ، من غير ان يكف عن
التطلع إلى كوزيت تقريباً ، نظرة تنضح بالصفاء . وسعها هذه الكلمات ،
التي ما تكاد تبين ، تخرج من بين شفثيه :

— « الموت ليس شيئاً . الشيء الرهيب هو ان لا تعيش . »
وفجأة نهض . إن رجعات القوة هذه تكون أحياناً أماراً من
أمارات الاحتضار . ومضى في خطى ثابتة إلى الجدار ، مزيجاً من طريقه
ماريوس والطبيب اللذين حاولا مساعدته ، ونزع عن الجدار الصليب
النحاسي الصغير — وعليه جسد المسيح — المعلق هناك ، وعاد ، وجلس
في حرية التحرك المميزة للعافية الموفورة ، وقال في صوت مرتفع ،
واضعاً المصلوب على الطاولة :

— « هوذا الشهيد العظيم . »
ثم غار صدره ، وترنح رأسه ، وكأنه استبد به دوار القبر ،
وشرع يُنشب ظفره — ويداه على ركبتيه — في قماش بنطلونه .
وأسندت كوزيت كتفيه ، وانحبت ، وحاولت ان تخاطبه ، ولكنها لم
تستطع . كان في ميسور المرء ان يتبين ، بين الكاحات المزوجة بذلك الرضاب

الفاجع الذي يصاحب الدموع ، جملاً مثل هذه : « ابي ! لا تركنا .
اممكن ان نكون قد وجدناك ثانية لكي نفقدك نهائياً ؟ »
في استطاعتنا القول ان حشرة الموت تتلوى . إنها تروح ، وتجيء ،
تتقدم نحو القبر ، وترجع نحو الحياة . ان في فعل الموت تلمساً في
الظلام .

واستجمع جان فالجان قواه ، بعد شبه الاغواء هذا . وهزّ جبينه
وكأنه كان يبغى ان يطرح الظلمات ، واستعاد صفاءه . أو كاد ،
استعادة كاملة . وأمسك بطرف ردفها ، وفبله .

وصاح ماريوس :

— « إنه يعود إلى الحياة ! ايها الطبيب ، إنه يعود إلى الحياة ! »
— « إن كلا منكما لكريم . سوف أقول لكما ما الذي آلمني .
الذي آلمني ايها السيد بونميرسي . انك كنت راغباً عن مسّ ذلك المال .
إن ذلك المال ، هو ملكٌ لزوجتك حقاً . سوف اشرح الأمر لكما ،
يا ولديّ ، ومن اجل ذلك أنا سعيد بأن أراكما . إن الكهرمان الأسود
يجيء من انكلترا . وإن الكهرمان الابيض يجيء من نرويج .
وكل ذلك تجدانه في الورقة التي تريانها هناك ، والتي سوف تقرأنها .
أما في ما يتصل بالأساور ، فقد اخترعت الاستعاضة بالمشابك المصنوعة
من صفيح ملويّ ، عن المشابك المصنوعة من صفيح مُلْتَحَمٍ . ذلك
أجمل ، وأفضل ، وأرخص . وانتما تفهما ان اي ثروة ممكن ان تجني
من وراء ذلك . وهكذا فأن ثروة كوزيت هي ملكها حقاً . انا اعطيكما
هذه التفاصيل حتى تطمئن نفسيكما . »

كانت البوابة قد ارتقت السلم . وراحت تنظر من خلال البساط
نصف المفتوح . وأمرها الطبيب بالابتعاد ، ولكنه لم يستطع ان يمنع تلك
المرأة الطيبة الغيور من ان تخاطب الرجل المحتضر بصوت عال ، قبل
مغادرتها المكان :

— « هل تريد كاهناً . »

فأجاب جان فالبجان :

— « عندي كاهن . »

وبدا وكأنه يوميء باصبعه إلى نقطة فوق رأسه حيث كان في إمكانك ان تقول إنه رأى شخصاً ما .

لعل الاسقف كان يشهد احتضاره حقاً .

وفي لطف ، أزلت كوزيت وسادة تحت ظهره .

واستأنف جان فالبجان حديثه :

— « ايها السيد بونميرسي ، لا تخف . أنا أقسم لك . إن الفرنكات

الستمئة الف هي ملك كوزيت حقاً . واني اكون قد خسرت حياتي

إذا لم تستمتع بها ! لقد نجحنا نجاحاً كبيراً في صناعة الخرز هذه . لقد

نافسنا ما يدعى حلي برلين . والواقع ، ان الزجاج الألماني الأسود لا

يمكن ان يقارن ببضاعتنا . فالغروضة الواحدة ، التي تحتوي على الف

ومئتي حبة حسنة القطع ، لا تكلف غير ثلاثة فرنكات . »

حين يكون امروء أثير لدينسا على وشك ان يموت ننظر اليه

نظرة تشبث به ، نظرة تود ان تحتفظ به . وهكذا وقفنا كلاهما أمامه ،

وقد اخرسهما الالم النفسي المرير ، غير عارفين ما يقولانه للموت ،

ياثسين مرتعدين ، ويد كوزيت في يد ماريوس .

ومن لحظة إلى اخرى ، كان جان فالبجان بزداد وهناً على وهن .

كان يتلاشى ؛ كان يقترب من الافق المظلم . كان تنفسه قد امسى

منقطعاً ؛ ان حشجة ضئيلة اعترضته . ووجد صعوبة في تحريك معصمه ،

وكانت قدماه ، قد فقدتا القدرة على القيام بأيما حركة . ولحظة تضاعف

عجز اوصاله وخور جسده ارتفع جلال الروح كله وتجلي على جبينه .

كان ضياء العالم المجهول قد اضحى منظوراً في عينيه .

وشحب وجهه . وابتسم في آن معاً . لم تعد ثمة حياة ؛ كان ثمة

شيء آخر . وتلاشي نفسه ، وتعاضمت نظرته . كانت جثة تسنشر ان لها جناحين .

واوماً إلى كوزيت بأن تقترب ، ثم إلى ماريوس . كان واضحاً انها الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة ، وشرع يخاطبهما في صوت واهن إلى درجة جعلته يبدو وكأنه ينبعث من مكان بعيد ، حتى لقد ينحيل إلى المرء ان جداراً كان قد انتصب منذ اللحظة بينه وبينها .

— « اقتربا اكثر ، اقتربا اكثر ، كلاكما . أنا احبكما حباً جماً . اوه ! جميل ان يموت المرء هكذا ! أنت أيضاً ، انت تحبيني يا كوزيت . لقد عرفت جيداً انه كان لا يزال عندك بعض الحب لصاحبك العجوز . كم كان لطيفاً منك ان تضعي هذه الوسادة تحت ظهري ! انتما سوف تبيكان عليّ قليلاً ، أليس كذلك ؟ ولكن ليس أكثر مما ينبغي . أنا لا اريد ان يلم بكما أيما أسى عميق . يجب ان تستمتعا بالحياة استمتاعاً كثيراً ، يا ولدي . لقد نسيت ان اخبركما ان في امكان المرء ان يربح من الالبازيم التي لا ألسنة لها اكثر مما يربح من سائر الاصناف . ان الغروصة ، أو الاثني عشرة دزينة ، تكلف عشرة فرنكات ، وتباع بستين . هذه في الواقع تجارة رابحة ، واذن ، فينبغي ان لا تدهش للفرنكات الستمئة الف ، ايها السيد بونغيرسي . انه مال حلال . في استطاعتكما ان تكونا موسرين في اطمئنان . ينبغي ان تكون لكما عربة خاصة ، ومقصورة في المسارح بين الفينة والفينة ، وثياب رقص جميلة يا كوزيت . ثم يحسن بكما ان تقيما مآدب عامرة لاصدقائكما ، وان تكونا سعيدين جداً . لقد كنت اكتب ، منذ لحظات ، إلى كوزيت . سوف تجدان رسالتي . اني اوصي لها بالشعدانين اللذين على الموقد . لهما من فضة ، ولكنهما عندي من ذهب ، بل من ألماس . لهما يحولان الشموع التي توضع فيهما إلى شموع مقدسة . انا لا ادري ما اذا كان ذلك الذي منحني اياها راضياً عني في الاعالي . لقد

عملتُ على قدر طاقتي . يا ولدي . انتما لن تفسداً اني رجل صغير .
ولسوف تدفنانني في اقرب زاوية من الارض تحت حجر يعين موضع .
تلك هي وصيتي . ولا تنقشا اي اسم على الحجر . وإذا ما وارتسي
كوزيت قليلا في بعض الأحيان كان ذلك مبعث سروري . وأنت أيضاً .
ايها السيد بونميرسي . يجب أن أعترف بأنني لم احبك دائماً . انا اسألك
العفو . والآن ، هي وانت لا تعدوان ان تكونا شخصاً واحداً فسي
نظري . انا عظيم الاعتراف بجميلك . أنا أشعر انك مُسعد كوزيت .
لو كنت تعرف ، ايها السيد بونميرسي ، لقد كانت وجنتاها الوردستان
الجميلتان هما بهجتي . كنت احزن إذا رأيتهما شاحبة بعض الشيء . ان
في الخزانة ورقة مالية ذات خمسمئة فرنك . أنا لم امسها . انها للفقراء .
كوزيت ، هل ترين ثوبك الصغير ، هناك ، على السرير ؟ هل تعرفينه ؟
ومع ذلك ، فقد كان هذا من عشرة أعوام ليس غير . ما أسرع ما تمر
الأيام ! كنا سعيدين جداً . لقد قضي الأمر . يا ولدي ، لا تبكيا ،
أنا لست ذاهباً إلى مكان بعيد جداً . سوف أراكما من هناك . وليس
عليكما إلا أن تنظرا حين يهبط الليل ، وعندئذ تجدانني أبتم . كوزيت ،
هل تذكرين مونفيرماي ؟ كنت في الغابة ، كنت خائفة جداً . هل
تذكرين يوم أخذتُ مقبض الدلو المليء ماء ؟ كانت تلك أول مرة لمست
فيها يدك الصغيرة البائسة . كانت باردة جداً ! آه ، كانت لك يدان
حمراوان في تلك الأيام ، ايها الأنسة ، أما اليوم فيداك شديدتا البياض .
والدمية الكبيرة ! هل تذكرينها ؟ لقد دعوتها كاترين . لقد ندمت
لأنك لم تحمليها إلى الدير . وكم أضحككتني في بعض الأحيان ، يا ملاكي
العذب ! وحين أمطرت السماء ، ألقيت بعض القذى في القنوات ،
ورحت تراقبينها . وذات يوم ، اعطيتك مضرب كرة من خيزران ،
وكرة ذات ريش اصفر وازرق واخضر . لقد نسيت ، انت ، ذلك .
لقد كنت كثيرة الشيطنة في طفولتك ! كنت تلعبين . كنت تضعين حبات

كرز في اذنيك . هذه الاشياء هي جزء من الماضي . الغابات السي
اجترتها مع طفلي ، والاشجار التي تنزهنا في ظلها ، والأديار التي اختبأنا
فيها ، والألعاب ، وضحك الطفولة الطلق ، كل ذلك طواه الظلام •
لقد تخيلت ان هذا كله ملك لي . وههنا كانت تكمن حماقتي . لقد
كان تيناردييه وزوجته شريرين . يجب ان نغفر لهما . كوزيت ، لقد
آن الأوان لاختبارك باسم امك . كان اسمها فانتين . تذكرني هذا
الاسم : فانتين . اركمي على ركبتيك كلما لفظته شفثاك . لقد تأملت
كثيراً . وأحببتك كثيراً . لقد تجرعت كأس التعاسة مترعة كما تجرعت
كأس السعادة مترعة . هكذا يقسم الله الاشياء بين الناس . إنه في الأعلى ؛
إنه يرانا جميعاً ، وهو يعرف ما يعمل وسط كواكبه العظمى . واذن ،
فسوف أرحل ، يا ولدي . تحاباً دائماً أعظم الحب . فليس في العالم
شيء ، تقريباً ، غير التحاب ، ولسوف تفكران احياناً في الرجل العجوز
البائس الذي مات هنا . آه ، يا حبيبتى كوزيت ! إنها ليست غاظتي ،
حقاً ، إذا لم ارك طوال هذا الوقت ؛ لقد تفتقر قلبي بسبب من ذلك ؛
لقد مضيت حتى زاوية الشارع ، ولقد كنت خليقاً بأن أبدو مضحكاً
في نظر الناس الذين يرونني أمشي هناك ؛ لقد بدوت أشبه بالمخبول ،
وذات يوم خرجت من غير قبعة . يا ولدي ، أنا لم اعد أرى ، الآن ،
في وضوح كثير ؛ كانت عندي اشياء اخرى احب ان اقولها ، ولكن
لا بأس . فكراً في قليلا . أنتما مخلوقان مباركان . لست ادري ماذا
ألمّ بي ؛ إنني ارى ضياء . اقرباً اكثر . انا اموت سعيداً . قرباً رأسيكما
العريزين المحبوبين لكي اضع يدي فوقهما . »

وخر ماريوس وكوزيت على الأرض راكعين ، مصعوقين ، تخفقهما
العبرات ، وأمسك كل منهما بأحدى يدي جان فالجان . كانت هاتان
اليدان الجليلتان قد فقدتا الحركة بالكلية .
كان قد انكفأ إلى وراء ، وكان نور الشمعدانين يضيء وجهه ،

وكان وجهه الابيض ذاك ينظر إلى السماء . وترك تكوزيت وماريوس
يغمران يديه بالقبلات ، لقد مات .
كان الليل عاطلاً من النجوم ، وكان دامساً . وليس من ريب في ان
ملاكاً عظيماً ما ، كان واقفاً في الظلمة ، باسطاً الجناحين ، ينتظر
تلك النفس .

٦

العشب يحجب والمطر يحو

في جبانة « بير لاشيز » ، في جوار مقبرة الفقراء والمجهولين ،
بعيداً عن الحي الاثني من مدينة القبور تلك ، بعيداً عن جميع تلك
الاضرحة الغريبة التي تعرض في حضرة الابدية ازياء الموت الرهية ،
وفي زاوية مهجورة ، في محاذة جدار عتيق ، تحت زَرْبَةِ * ضخمة
يتسلق عليها اللبلاب ، بين النَّجِيل * والطحالب — في تلك الجبانة
كان حجر . وهذا الحجر لم يعد بريئاً — اكثر من غيره — من جذام
الدهر ، والعفن ، والأشنة ، وذرق الطيور . ان الماء يخضّره ، والهواء
يسوّده . وهو غير قريب من أيما مجاز أو ممر ، والناس لا يحجون ان
يذهبوا إلى تلك البقعة ، لأن العشب مرتفع ، ولان اقدام المرء تُبلل
هناك في الحال . وحين تلقى الشمس بعض أشعتها ، تنطلق الحراذين .
إن ثمة ، حول البقعة كلها ، حفيف شوفانٍ بري . وفي الربيع ،
تغرد الدُّخُلَات في الشجرة .

وهذا الحجر عارٍ عن اي زخرف . فلم يفكّر ، عند إعدادة ، إلا

* الزرنب نبات طيب الرائحة ، ويدعى أيضاً رجل الجراد .

** النجيل : نبات من نوع الحمض .

في حاجات القبر الضرورية ، ولم يُعَنَ بغير جعل هذا الحجر كافياً ،
من حيث الطول والعرض ، لتغطية رجل .
ولم يكن ثمة اسم ما .

بيد ان يبدأ خُطت على ذلك الحجر بقلم الرصاص - منذ عدة
سنوات - هذه الايات الاربعة التي انتهت تدريجياً إلى ان تصبح
غير مقروءة ، تحت المطر والغبار ، والتي اُحِث اليوم في اغلب
الظن :

انه يرقد . وعلى الرغم من أن القدر كان بالنسبة
إليه غريباً جداً ،
فقد عاش . لقد مات عندما فقد ملاكه .
ان الأمر يحدث ، ببساطة ، من تلقاء نفسه ،
كما يهبط الليل حين يولي النهار .

تمت الترجمة الكاملة
لرواية البؤساء

فهرست القسم الخامس : « جان فالجان »



ص

الكتاب الاول : الحوب بين اربعة جدوان

- ١ . « كارييد » ضاحية سان انطوان و « سيل » ضاحية التامبل ٧
- ٢ . ما الذي يمكن ان يصنع في الهوة غير الكلام ؟ ١٨
- ٣ . ثورة وظلام ٢٤
- ٤ . نقص خمسة وزيادة واحد ٢٧
- ٥ . اي افق يرى من أعلى المتراس ٣٧
- ٦ . ماريوس تائها ، جافير موجزاً ٤٢
- ٧ . الوضع يصبح خطراً ٤٥
- ٨ . المدفيون يتركون انطباعة جديدة ٥١
- ٩ . فائدة تلك للبراعة القديمة في الصيد المحظور، وتلك المطلقة النارية المعصومة التي اثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦ ٥٦
- ١٠ . الفجر ٥٨
- ١١ . المطلقة التي لا تغطي احداً ولا تقتل احداً ٦٣
- ١٢ . الفوضى نصير للنظام ٦٥
- ١٣ . ومضات تحبو ٧٠

٧٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٤ . حيث تقرأ اسم خلية آنجلولراس
٧٦	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٥ . غافروش في الخارج
٨٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٦ . كيف يصبح الاخ اباً
٩٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٧ . « الأب الميت يرثه ابنه حسب الشريعة »
٩٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٨ . العقاب يصبح فريسة
١٠١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٩ . جان فالجان يثار لنفسه
١٠٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢٠ . الموتى مصيبيون والاحياء غير مخطفين
١١٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢١ . الابطال
١٢٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢٢ . قدماً لقدم
١٢٩	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢٣ . اوربست صائماً وبيلاذ سكران
١٣٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢٤ . في الاسر

الكتاب الثاني : مصران لويثان

١٤٦	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١ . الارض وقد افقرها البحر
١٤٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢ . تاريخ البالوعة القديم
١٥٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٣ . برونيسو
١٥٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٤ . تفاصيل مجهولة
١٦٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٥ . التقدم الحالي
١٦٤	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٦ . التقدم المقبل

الكتاب الثالث : وحل ، ولكن روح

١٧٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١ . البالوعة ومفاجأتها
١٨٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢ . تفسير
١٨٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٣ . المطاردة المتريضة
١٨٩	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٤ . وهو أيضاً يحمل صليب
١٩٤	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٥ . ان للرجل ، كما للمرأة ، رقة خادعة
٢٠٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٦ . الخف

- ٧ . قد ننجح إلى الشاطئ أحياناً حيث نطن
 ٢٠٣ اننا نهبط إلى اليابسة
 ٢٠٦ ذيل المترة الممزق
 ٢١٤ ماريوس يبدو ميتاً في عيني خير
 ٢٢٠ عودة الابن الباذل حياته
 ٢٢٣ ارتجاج في المطلق
 ٢٢٥ الجسد

الكتاب الرابع : جافير يتكئ الطريق ٢٢٣

الكتاب الخامس : الحفيد والجد

- ١ . حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك كرة أخرى ٢٥١
 ٢ . ماريوس وقد نجا من الحرب الاهلية يستعد للحرب المنزلية ٢٥٦
 ٣ . ماريوس يهاجم ٢٦٢
 ٤ . الآنسة جيئورمان تنتهي بأن لا تجد غضاضة في دخول
 ٢٦٧ . مسيو فوشلوفان إلى البيت متأبطاً شيئاً ما
 ٥ . لأن تستودع مالك غابة ما ، خير لك من ان تستودعه
 ٢٧٥ . كاتباً عدلاً ما
 ٦ . العجوزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ، لكي
 ٢٧٦ . تكون كوزيت سعيدة
 ٢٨٩ . آثار حلم مزوج بالسعادة
 ٢٩٣ . رجلان من المتعذر الاهتداء اليها

الكتاب السادس : اليلة البيضاء

- ١ . ١٦ شباط ، عام ١٨٣٣ ٣٠١
 ٢ . جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه إلى صدره ٣١٦
 ٣ . مبتعة الانفصال ٣٢٩

٤ . جيکور الخالد ٣٣٣

الكتاب السابع : آخر قطرة في الكأس

- ١ . الدائرة السابعة والسياء الثامنة ٣٤٠
٢ . الظلمات التي قد ينطوي عليها افشاء السر ٣٦٦

الكتاب الثامن : شحوب الفسق

- ١ . الحجرة السفلية ٣٧٧
٢ . خطوات اخرى إلى الوراء ٣٨٤
٣ . يتذكران حديقة شارع بلوميه ٣٨٨
٤ . انجذاب وانطفاء ٣٩٥

الكتاب التاسع : ظلمة عظمى وفجر اعظم

- ١ . شفقة لاتيس ولكن رفق بالسميد ٣٩٨
٢ . آخر خفقات المصباح الذي نفذ زيته ٤٠١
٣ . ريشة ترهق ذلك الذي رفع كارة فوشلوفان ٤٠٤
٤ . زجاجة حبر لا توفق إلى أكثر من التبييض ٤٠٨
٥ . ليل يعقبه فجر ٤٣٤
٦ . العشب يحجب والمطر يحجب ٤٤٩

مطبعة العالم

حارة حريك - لبنان

ABDEEN